

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

الأعمال التاريخية
للدكتور يحيى بوعزيز

فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة
واستيلائهم على أوطانها

أو

تاريخ قسنطينة

محمد الصالح بن العنتري

ويليه:

روضة النسرين

في التعريف

بالأشياخ الأربعة المتأخرين

تأليف

الشيخ محمد بن محمد الأنصاري التلمساني

متوفى سنة ٩٠١ هـ

مراجعة وتقديم

الدكتور يحيى بوعزيز



الأعمال التاريخية
للدكتور يحيى بوعزيز

فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة
واستيلائهم على أوطانها

أو

تاريخ قسنطينة

محمد الصالح بن العنتري

ويليه:

روضة النسرين
في التعريف
بالأشياخ الأربعة المتأخرين

تأليف

الشيخ محمد بن صعد الأنصاري التلمساني

المتوفى سنة 901 هـ

مراجعة وتحقيق

الدكتور يحيى بوعزيز

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين

بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين لاندلاع الثورة التحريرية المباركة



طبعة خاصة
2009

ردمك: 978-9947-912-02-7
رقم الإيداع: 2009-5318

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع
الجزائر

فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها

أو

تاريخ قسنطينة

محمد الصالح بن العنتري

مراجعة وتقديم وتعليق

د. يحيى بوعزيز

جامعة وهران

ردمك: 978-9947-912-02-7
رقم الإيداع: 2005-5318

الجزائر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

مقــدمة وتمهيــد

حظيت مدينة قسنطينة وبايليكها ، باهتمام عدد لا بأس به من الكتاب والمثقفين الذين حاولوا أن يؤرخوا لأحداثها السياسية والعسكرية ، ويدونوا أخبارها القديمة والحديثة ، خاصة العهد التركي . ومن بين هؤلاء أربعة ألفوا كلهم باللغة العربية ، وفي وقت واحد تقريبا ، وهو منتصف القرن التاسع عشر الميلادى وهم :

ــ الشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار الميلي القسنطيني الذى ألف : « كتاب تاريخ قسنطينة » وتحدث فيه بإيجاز عن ماضي المدينة قبل الإسلام ، وأحداث الكاهنة مع الفاتحين المسلمين ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض الهجومات التي تعرضت لها قسنطينة وبايليكها مثل :

هجوم السلطان أبي عنان المريني عليها وعلى عنابة في منتصف القرنين 8 هـ و14 م .

وهجوم مراد باي التونسي على قسنطينة عام 1112 هـ (1700 م)

وهجوم حمودة باشا بعده كذلك في القرن 18 م .

وهجوم الشريف باللاحرش الدرقاوى عام 1219 هـ (1805 م)

كما تحدث عن أسباب إنشاء حصن المنصورة ولخص بعد ذلك أحداث البايات : حسين قليان ، وحسين بوحنك ، وحسين باي زرق عينو ، وأحمد باي جد الحاج أحمد باي ، وصالح باي . وأورد ترجمة للشيخ فتح الله ، وذكر بعض أخبار ثورة الباي أحمد القبايلي . وقد قام السيد دورنو بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشره في المجلة الإفريقية عام 1913[1] كما قام نور الدين عبد القادر بتحقيقه ونشره بالعربية عام 1952 .

ــ والشيخ صالح بن العنترى الذى ألف كتابا عن بايات قسنطينة سنتعرض له فيما بعد بشيء من التفصيل لأنه موضوع هذه الدراسة .

1) Durnon : kitab tarikh qosantina. par el-hadj el-mobark. revue africaine (R.AF) (1913) pp. 256-305

ـ والشيخ محمد البابوري الذى ألّف كتابا عن تاريخ قسنطينة بطلب من شربونو ، عام 1848 حسب رواية فايسيت[2] ولم نطلع عليه .

ـ والمترجم المستشرق ليمبرى : limbry الذى ألّف كتابا بالعربية كذلك . عن تاريخ قسنطينة وذكرذُورنو عام 1929 أنه مايزال محفوظاً بأرشيف البلدية[3] .

من هو صالح بن العنترى ؟ .

صالح بن العنترى هو ابن محمد بن العنترى الذى كان يعمل خوجة لدى الحاج أحمد باي ، وأمر بقتله عام 1837 ، أثناء زحف القوات الفرنسية على مدينة قسنطينة خلال الحملة الثانية ، وذلك بوشاية وتحريض من الباش حامبه علي بن عيسى كما سيأتى توضيح ذلك فيما بعد .

ولم يتحدث أحد عن تاريخ ميلاده ، ولا عن تاريخ وفاته . ويبدو أنه ولد بين عامى 1790 و 1800 م ، وتوفى بعد عام 1870 لأنه في هذا العام أنجز كتابه الثانى : سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة وذلك بطلب من الضابط أدلير رئيس المكتب العربي بالمدينة[4].

كيف تم تأليف كتابه ومتى ؟

فى شهر أوت 1843 تم تعيين الضابط بواسوني : le capitaione boissennet على رأس المكتب العربى بمصلحة الشؤون العربية في مدينة قسنطينة ، من طرف الجنرال بارقي ديليى : Le general baraguay d'hillier فاختار للعمل معه في مكتبه صالح بن العنترى ككاتب ، ولا ندري بالضبط سبب اختياره ، ولكن يبدو أن سعة ثقافته واطلاعه من جهة ، وحقده على الحاج أحمد باي قاتل أبيه من جهة أخرى ، من ضمن أسباب ترشيحه واختياره لذلك المنصب ، وتلك الوظيفة .

---

2) E. Vayssette : Histoire deconstantine sous la dimination Turgue de 1517 à 1837. R.N.M.S.A.C. (constantine — 1867) pp. 241-255.

3) C. Saint—calbre : Constantine et quelques Auteurs Arahe. R.AF. (1913) pp. 70 - 95.

4) حققه ونشره رابح بونار تحت عنوان مجاعات قسنطينة (الجزائر 1974) ص 76 .

ولما كان الضابط بواسونى مستشرقا يحسن العربية ، ويهتم على ما يبدو بالتراث ، وله رغبة في الاطلاع الواسع على ماضى قسنطينة ، وبايليكها في عهد الأتراك ، فقد كلف كاتبه صالح بن العنترى بأن يؤلف له كتابا عن ذلك ، ووضع له منهجا وخطة ، فشرع في العمل دون أن يذكر متى ، ولكن يبدو أنه أواخر عام 1843 ، وانتهى منه أواخر عام 1846 ، على ما يبدو لأنه توقف عند أحداث زيارة ورحيل الدوك دومال للمدينة فى شهري جوان وجويلية 1846 ، وقد سمّاه في المقدمة : « فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها » وفى الخاتمة : « تاريخ قسنطينة » . وطبعه له عام 1846 . حسب رواية فايسيت[5] وعام 1852 حسب رواية دورنو ، الذى قام بترجمته إلى الفرنسية عام 1929 ونشره في مجلة مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية القسنطينية[6].

أسلوب الكتاب ومحتواه :

كتب العنترى كتابه بأسلوب بسيط ، ولغة متواضعة يفهمها الجميع ولكنه أكثر من الأخطاء اللغوية ، وقواعد الرسم ، والنحو ، إذ يرفع المفعول ويجره ، وينصب الفاعل ، ويجمع بين الاسم الظاهر والضمير ، في الفاعل ، على لغة « أكلوه البراغيث » ويأتي بالضاء المشالة بدونها ، وهكذا .

أما محتوى الكتاب فهو عبارة عن سرد مختصر لتاريخ بايات قسنطينة بأسلوب الحوليات ، استعرض فيه الأحداث السياسية والعسكرية والتنظيمات الإدارية لبعض البايات ، واهتم بصورة خاصة بالحروب التي نشبت بين البايليك وتونس ، خلال القرنين 17 و 18 م .

وهناك مجموعة من الملاحظات ممكن إيجازها فيما يلي :

5) Premiere essai d'une histoire de constantine (constantine Felix guende imprineur et Lithographe. Place du palais 1846)

6) Dournon: constantine sous les Turcs d'apres salah el antri. R.N.M.S.A.C. constantine 1928—1929) pp 61-178.

أولا : بدأ العنترى التأريخ لبايليك قسنطينة بعام 1050 هـ الموافق لعامي 1640 - 1641 م ، الذى اعتبره التاريخ الحقيقى لدخول الأتراك إلى مدينة قسنطينة . وأول باي أرّخ له هو الباي فرحات ابتداء من عام 1052 .هـ (1642 - 1643م) وأهمل فترة قرن وسبعة وعشرين عاما كاملة من تاريخ البايليك ، وقد يكون معذورا بالنسبة للفترة الغامضة الممتدة بين 1514 و 1567 م ، والتى لا يعرف حكامها وولاتها من الأتراك ، ولكن الفترة التالية لها من 1567 إلى 1647م ، غير معذور فى إهمالها لأن البايليك تكون بصفة رسمية عام 1565م من طرف البايلرباي حسن باشا بن خير الدين ، وحكمه البايات الخمسة : رمضان تشولاق باي (1567-1574م) وجعفر باي (1574-1588 م) ومحمد بن فرحات باي (1588-1608 م) وحسن باي (1608-1622 م) ومراد باي (1622-1647 م) ومن غير شك أن عدم معرفته لأحداثها هو الذى دفعه لإهمالها تمامًا .

ومعلوم أن هناك خلافا بين الباحثين والمؤرخين حول التاريخ الحقيقى لبداية دخول الأتراك إلى مدينة قسنطينة واستقرارهم بها وكل البايليك ، ففايسيت جعله عام1517[7] وميرسي جعله بين عام 1519 و 1522 م[8] ودافيتي جعله عام 1522 م [9] وليمبرى جعله عام 1526م [10] والعنترى جعله عام 1050 هـ (1640 م) كما سبق . ونحن نرجح . عام 1514 م الذى تمكن فيه عروج وخير الدين من افتكاك مدينة جيجل من الجنويين والاستقرار بها قبل انتقالهما إلى مدينة الجزائر .

وقد بذل فايسيت جهودا مشكورة في استقراء الكتب ، والمخطوطات ، والرسائل والأختام وغيرها ، من أجل تحديد هذا التاريخ ، وملء الفجوة التي أحدثها العنتري في كتابه ، وتمكن من جمع روايات كثيرة وقارنها ببعضها البعض ، ووضع دراسة لا بأس بها لهذه الفترة ، ولأحداث البايات الذين حكموا خلالها ، وذلك في الجزء الأول من دراسته بمجلد عام 1867 ، في مجلة مجموعة الملاحظات والمذكرات للجمعية الأثرية القسنطينية[11] .

---

7) Vaysettes : IBID (1867) pp; 276-284.

8) Ernest mercier: histoire de constantine (constantine - marle et biron 1903) p. 191

9) Davity: description general de l'Afrique (ED. 1660) p. 205.

10) CH. Feraud: R.AF (1866) p. 191

11) Vaysettes: IBID (1867) pp.241 - 352.

وعليه اعتمدنا نحن في وضع موجز تاريخي عن هذه الفترة كذلك ، صدرنا بها كتاب العنترى ، وأزلنا ذلك البتر ، وتلك الفجوة في انتظار دراسات أخرى جادة ، وعميقة وشاملة .

ثانياً : ليس هناك توازن في تاريخ العنترى ، فكثير من البايات اكتفى فقط بذكر سنة توليتهم ، وسنة انتهائها . ولا يقل عددهم عن سبعة عشر بايا ، والأغلبية أوجز لهم بصفحة ونصف الصفحة والصفحتين ، مثل : علي خوجة ، وحسين بوكمية ، وبوحنك ، وزرق عينو ، وأحمد باي ، وإبراهيم بوصبع ، وعثمان باي ، وحسين باي ، وصالح باي ، ولكنه توسع بصورة خاصة في الحديث عن الحاج أحمد باي آخر البايات ، وعن أحداث الفرنسيين خلال ذلك . واستغرق منه ذلك ما يقرب من ثلثي الكتاب ، وبالضبط 36ورقة من جملة 59 ورقة والتي هي كل الكتاب وصلبه . وقد اتسم تأريخه لأحداث الحاج أحمد باي بالاضطراب والتناقض ، ولم يلتزم التسلسل التاريخي ، فقدم واخر ، وأكثر من هذا اشتد تحامله عليه وعلى الأتراك بصفة عامة ، بكيفية مفرطة ، لا مبرر لها إلا الرغبة في التقرب أكثر من الفرنسيين ، أو ضغط الضابط بواسوني عليه ، كما سنوضح فيما بعد .

ثالثاً : لم يذكر العنترى المصادر التي اعتمدها إطلاقا ، ماعدا بعض الروايات الشفوية التى أشار إليها في المقدمة . وهنا يتساءل المرء من أين له كل تلك الأخبار ، وذلك الحشد من المعلومات التي أوردها ؟ . فإذا كانت حوادث الحاج أحمد باي والفرنسيين معاصرة له وعاشها بنفسه ، فإن أحداث القرنين السابع عشر والثامن عشر بعيدة عنه ، ولابد أنه طالع عدة مصادر ومخطوطات ، وقرأ عدة كتب ورسائل ، لم يتفطن للإشارة إليها ، ولا شك أن دار الفقون زاخرة بعدة مصادر ، نرجح أنه اطلع عليها أو بعضها خاصة وأن حمودة بن الشيخ الفقون كان موظفا مثله ، وعين شيخ البلد منذ احتلال المدينة عام 1837 . هذا إلى جانب عائلات أخرى علمية يحتمل أن يكون قد استفاد من تراثها ويحتمل كذلك أن يكون هو نفسه يملك عدة مصادر .

رابعاً : أورد العنترى في آخر كتابه نص الاتفاق الذي أبرم بين الحاج أحمد باي ، وأعيان مدينة قسنطينة ، عام 1830 ، بعد عودته من الجزائر العاصمة ، وقصيدة شعرية في مدح

قسنطينة ، وأخرى من الشعر الملحون في وصف الحرب التى اندلعت بين البايليك ، وتونس ، ففصلناها عن الكتاب ، وجعلناها ملاحق ، وأضفنا إليها ملحقاً رابعاً أورده الناسخ للكتاب ، المكى بن على بن الففون ، فى صدر الكتاب ، هو عبارة عن قائمة لبايات قسنطينة بالترتيب ، والحكام الفرنسيين بعدهم حتى عام 1846 م . وفضلنا نحن تأخيره ، كما فعل دورنو . وكذلك أضفنا ملحقا آخر لخصنا فيه أحداث الحاج أحمد باي فى جبال أولاد سلطان ، ونهاية حياته ومطافه حتى وفاته إتماما للفائدة .

خامساً : كل العناوين التي بالكتاب من وضعنا نحن تسهيلاً للقارىء . أما المؤلف والناسخ للكتاب فقد اكتفيا فقط بكتابة البايات أو مفتتح الفقرات بالخط الغليظ إشارة إلى ذلك على ما يبدو . وكذا فهرس الموضوعات ، وقائمة المراجع ذات الصلة بالموضوع وفقرة المدخل ، إلى عام 1643 فمن وضعنا نحن .

سادساً : النسخة الخطية التي قمنا بمراجعتها ، والتعليق عليها ، من نسخ المكي بن علي بن الففون ، وليس لها أي تاريخ ، وعدد أوراقها إحدى وستون (61) ورقة من حجم 21 x 14 ، مسطرة أفقيا وعرضيا ، عدد أسطر كل منها 32 سطراً وطول السطر المكتوب سبعة صانتيمات في الثلثين الأولين ، وتسعة صانتيمات في الثلث الباقي . غير مرقمة ولكنها مخيطة ومجلدة بسفر غليظ من الورق المقوى ، والمغلف باللون الأحمر . الصفحتان الأولى والثانية كتبت عليهما قائمة أسماء البايات ، والحكام الفرنسيين بعدهم . والصفحة الثالثة سُجّل عليها الناسخ ملحوظة عدم تسجيله كلام جده في ذم أهل قسنطينة لعدم وجود الورق . والصفحات السبع الأخيرة ، سُجّل عليها اتفاق الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة ، والقصيدتان الشعريتان .

سابعاً : في هذه النسخة نقص بسيط يتمثل في نسيان الناسخ للجزء الأخير من حياة أحمد باي جد الحاج أحمد باي ، والجزء الأول من حياة صالح باي ، وعندما عدنا إلى نص الترجمة الفرنسية للسيد دورنو ، وجدنا ذلك النقص ، واعتمدنا على ما كتبه السيد فايسيت لاستدراك ذلك النقص في الهامش ، لأنه أوسع وأشمل وأوفى مما في النص الأصلي المترجم .

ثامناً : تحامل العنترى كثيرا على الحاج أحمد باي بصفة خاصة ، والأتراك بصفة عامة ، وذلك لثلاثة اعتبارات على ما يبدو :

1) لأن الحاج أحمد باى قتل أباه ، أو تسبب في قتله لمجرد وشاية ، غالب الظن أنها كاذبة من طرف الباش حامية على بن عيسى ، مفادها وملخصها : أن محمد ابن العنترى ، لما ذهب رسولاً من قبل الحاج أحمد باى ، إلى الدوك دونمور ، والماريشال دامريمون ، قائدى القوات الفرنسية في الدرعان قرب قالمة ، في أكتوبر 1837 م ، تلقى رشوة منهما ليشيع بين الناس ، أن القوات الفرنسية كثيرة العدة والعدد ، ولا قبل لقوات الحاج أحمد بمواجهتها ، وبذلك يحطم معنوياتهم ، ويدفعهم إلى الاستسلام دون قتال . واقتنع الحاج أحمد بهذه الوشاية ، واعتقل كاتبه ورسوله محمد ابن العنترى ، وبعد ثمانية أيام مات مسموما ، كما ذكر ابنه بعده ، صالح ابن العنترى .

2) لربما يكون رئيسه الضابط بواسوني هو الذى أملى عليه هذا الموقف وحرضه على تبنيه مادام هو الذى اقترح عليه تأليف الكتاب نفسه ، ووضع له خطة ومنهجاً ، لم يكن باستطاعته أنْ يعصي له أمرا أو يخالفه ، لأنه ولي نعمته ، والهدف هو إبراز مساوىء هذا الرجل المقاوم والمعاند ، ومساوىء الأتراك وحكمهم بصفة عامة ، وإبراز محاسن الإدارة الفرنسية الجديدة حتى يتقبلها الناس ويرضوا بها دون مشاكل وصعوبات .

3) وهناك احتمال ثالث جدّ وجيه ، هو أن صالح بن العنترى تطوع بإرادته ليتخذ هذا الموقف ويتبناه حتى يتقرب أكثر من سيده وولي نعمته بواسوني وينال رضاه ، ورضى كل الإداريين الفرنسيين فيبقونه في وظيفته ، ويشملونه بعطفهم ورعايتهم ، وفي كتابه ما يبرر هذا من خلال الأمثلة والشواهد التي نستعرضها فيما يلي :

فعن الحاج أحمد باي قال العنتري إنه في البداية لما تعين حكم بالعدل : « ومن بعد ذلك تبقى حاج أحمد باي في البلاد هذا الوقت أحكامه بالعدل والسداد وعلى نمط الشريعة والرشاد . وقد زال الظلم والجور ، وذهب أصحاب البغي والفجور » . وذكر أنه ذهب إلى الجزائر العاصمة حاملاً الدنوش قبل الأوان ، حتى يحصل على صيت وسمعة ومكانة أكثر من غيره ، وليستأذن من الداى حسين في التخلص من خصومه ، فحصل على موافقته وقام بقتل كل من الأخوين : أولاد بن زكرى ، وأولاد بن نعمون ، وأولاد بن الأبيض ، والشيخ الزواوى ، واستمر على هذه الوضعية المرضية أربع سنوات كاملة .

وبعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر عام 1830 ، وعودة الحاج أحمد من هناك ، ثار ضده أتراك البايليك بزعامة محمود بن شاكر ، وعسكروا بالحامة ، ولكن أعيان قسنطينة والشيخ بن الففون ، وقفوا إلى جانبه ، وساعدوه على الدخول إلى المدينة والقضاء على زعماء الفتنة والتخلص منهم بالقتل .

وتفرغ بعد ذلك لتحصين أسوار المدينة ، وأبوابها استعدادا للأخطار الفرنسية المتوقعة ، وجند عدة فرق من قبائل زواوة ، وواجه تمرد الباي السابق إبراهيم الكريتلي اللاجيء في المدية ، وذلك في أحواز سطيف ، ولاحقه إلى الهضاب العليا والصحراء عندما انسحب إليها ، وقضى هناك ما يقرب من أربعة شهور .

وعندما عاد إلى قسنطينة « ضرب سكة الدراهم ونقش عليهم سكة قسنطينة وتمهد له الوطن ، وصارت أحواله مستقيمة ، وباق في سيرة طيبة ، وأحوال مرضية جيدة ، ينصف المظلوم ، ويقهر الظالم الغيشوم . ومهما يشكل عليه أمر (كذا) ويعزم على قضائه إلا ويشاور أهل العقول فيرشدونه ، ولا زال على هذا المنوال برهة من الزمن . ولما توغل وتمهل له الوطن ، وانقادت له الرعية صارت أحواله غير مرضية ، انعكست حقيقته وتبدلت سيرته » .

وبعد أن استعرض العنترى قضية الحاج عمار بن زفوطة ، وأحداث عنابة مع إبراهيم الكريتلي ، ويوسف المملوك ، عاد مرة أخرى للتعريض ، والنيل من الحاج أحمد باي بأمثلة وشواهد فقال : « وأما حاج أحمد باي ما يحصل بيده إلا ذنوب العباد ، ولا اتصلت بيده تلك البلاد ، وكان من سابق زمانه أنه ما يعمل شيئا إلا بمشورة الناس الكبار ، وأصحاب العقول الفضلاء الأخيار ، فيسهل عليه كل شيء صعيب ، ويدنوا إليه البعيد والقريب ... وصار حاج أحمد باي من بعد قضية عنابة أموره ناقصة غير معتادة . ففي عام 1247 هـ (1830 م) قصد الحضنة فلما وصل إليها استولى على أرزاق ناسها بالظلم والجور ، وشتت شملهم بالبغي والفجور ، ثم رحل وقصد بلد لمدية ... تراه استظهر إليهم بالنصيحة وعاملهم بظاهر المدد ، وحسن السريرة ... فحينئذ استأنسوا لقدومه وتقدموا إليه بالهدايات من الأموال والخيول المسومات ، وطلبوا منه أن يرجع بايا عليهم ... ورجع ولد بومزراق في بلد المدية باي ... وكان حاج أحمد باي بالحيلة مع ناس ذلك الوطن والخديعة . حتى قضى حوائجه ومن بعد ذلك خدعهم وربط

مائة رجل من كبارهم فرفعهم مربوطين وفرّ هاربا من وطنهم فلما وصل إلى قسنطينة قتل ذلك الناس كلهم وفناهم عن آخرهم ، وقد اشتهر ظلمه ، وكثر جوره وبغيه ، وصار يقتل الناس ظلما وعدوانا ، ويخدع بالأمان فقتل ستين فارسا من أولاد مثله فى يوم واحد ، ومائة رجل من أولاد أعمر بالحضنة في يوم واحد » .

وفي عام 1251 هـ (1835 م) غزا إحدى مناطق الأوراس واعتقل ستين رجلا من أولاد سعيد ، وقطع لهم أيديهم اليمنى ، وأرسلها إلى قسنطينة ، وفى عام 1836 م كتب أعيان مدينة قسنطينة رسالة إلى يوسف المملوك ، حسب رواية العنترى طبعا ، بعنابة التى كان يحكمها تحت سيطرة الفرنسين ، وطلبوا منه أن يشن هجوما على قسنطينة ، ووعده بأن يساعدوه على اقتحامها واحتلالها . ومن هؤلاء حسب رواية العنترى دائما : أحمد الشريف شيخ ريغه ، وفرحات بن سعيد ، والأخضر بن سليمان من دائرة واد بوصلاح ، وأولاد بن يللس ، وأولاد فايت ، ومحمد بن سحنون من الزمول ، وأولاد مقورة بن عاشور ، وفرحات بن عولمي من أولاد عبد النور ، ومحمود بن الطيب العساسي من أولاد عبد النور كذلك ، والبعض من مشائخ أمية . وعندما فشلت الخطة وانهزمت الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة كتب هؤلاء الأعيان رسالة اعتذار إلى يوسف المملوك وهم : الشيخ بن الففون ، ومحمد البجاوى قائد الدار ، والحاج المكى بن زفوطة ، وعمر القشي ، وعلي بن حجوج ، والحسين بن سليمان التاجر ، والمرابط العربي ، ومحمد بن العنترى الذى تولى بنفسه كتابة الرسالة كما ذكر ذلك في كتابه .

وعندما عاد الحاج أحمد إلى قسنطينة بعد انسحاب الفرنسيين ، واكتشف خيوط المؤمراة ، اعتقل المرابط العربي ، والحسين بن سليمان التاجر ، « وتجرىء على قتلهم ظلماً وعناداً ، وزعم أنهم من أصحاب الفساد وأنهم كانوا اتفقوا وأرادوا أن يدخل الفرنسيين إلى البلاد » وقد تدخل الشيخ بن الففون لديه ، وحذره من مغبة استمراره في قتل الناس ، فتوقف عن ذلك مدة من الزمن . وهذا لربما هو السبب الذى جعل باقي أفراد خطة التآمر ينجون من القتل ، ومنهم محمد بن العنترى كاتب الرسالة . ويحتمل أن تكون آثار هذه المؤامرة هي التي شجعت الحاج أحمد باي على قتله في العام الموالي .

ففي خلال استعدادات الفرنسيين لإنجاز الحملة العسكرية الثانية على مدينة قسنطينة خلال خريف 1837 ، أخذ الحاج أحمد باي يستعد هو الآخر وجهز عدة كتائب وأرسلها إلى جهات قالمة لتعترض القوات الفرنسية وتناوشها بقيادة الآغا بلحملاوى وبوزيان العلمي ، وأرسل إليه الفرنسيون اليهودى ولد بوجناح ، ليختبروه ويعرضوا عليه شروطهم . وجرت بينه وبينهم عدة مراجعات انتهت كلها بالفشل . وذكر العنترى هنا : « أن ولد فرانصة والماريشال المذكور يتكلمون معه بطريق الريفلة الفرانصوية وهو يتكلم معهم العادة العربية فلم ينتج شيء » .

وهذه إحدى أساليب العنترى في التعريض بالحاج أحمد باي ، والنيل منه ، كلما وجد الفرصة لذلك . وتجاوزه حتى إلى الحط من الجنس العربي المسلم ككل وهو منه . كل ذلك من أجل إبراز حقده ، والتقرب أكثر من أسياده الفرنسيين .

وحتى يتأكد الحاج أحمد من مدى قوة وضخامة الحملة الفرنسية ، والتعرف على إمكانياتها المادية والبشرية ، أرسل كاتبه الخوجة محمد بن العنترى رسولاً من قبله إلى قائدى الحملة الفرنسية : الدوك دونمور ، والماريشال دانريمون ، ليتفاوض معهما ويبلغ شروطه إليهما ، ويتعرف عن قرب ، ودون وساطة اليهود ، على شروطهما وعروضهما للصلح ، إن كانت هناك شروط للصلح وليس للاستسلام .

وعندما وصل محمد بن العنترى إليهما استقبلاه وسمعا منه ، وسمع هو منهما . وكانت عروض الحاج أحمد باي للصلح تتلخص في انسحاب الفرنسيين من قالمة ، والدرعان ، وعنابة . ولكن الفرنسيين رفضوا ذلك وصمموا على استعمال القوة لاحتلال قسنطينة ، فعاد العنترى بتلك الأخبار إلى الحاج أحمد باي ، وأبلغه بأن القوات الفرنسية كثيرة العدة والعدد ، فاقتنع بما جاء به من الأخبار ، وكلفه بأن يذهب إلى قسنطينة ليبلغ القادة هناك هذه الأخبار ، حتى يقتنعوا كذلك ، ويشتركوا معه في اتخاذ قرار مناسب للموقف .

أما من جهة ابن البجاوى قائد الدار فإنه صدق كلام العنترى ، واقتنع بخطورة الموقف . وأما الباش حامبه علي بن عيسى ، فإنه استنكر رواياته واتهمه بأخذ رشوة من الفرنسيين ليشيع تلك الأخبار حتى يهزم الناس فيتكاسلوا عن المقاومة ، ويستسلموا

دون قتال للفرنسيين . وقام بإرسال رسالة إلى الحاج أحمد باي في الموضوع ، فداخله الشك وقام باعتقال محمد بن العنترى في الحين بعد أن عاد إليه . وبعد ثمانية أيام مات مسموما . وهنا قال ابنه صالح بن العنترى : « ولما مات رحمه الله تعالى ترك أولاداً منهم العبد الفقير إلى ربّ الأرباب ، محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب ، وإني الآن كاتب بالبيرو بالدّرب . وكان الذى ولأني القبطان بوسنة المتولي أمور العرب . وأنا أقول إن أبي تكلم الحق ونصح حاج أحمد باي كما ظهر له قبل سماع كلام الشياطين . ولما بلغه كلامهم مكر به وقتله وهذا ظلم عظيم وأنا لا أنساه أبدا ، وأخدم الدولة بنية صالحة لما علمت من حب أبي لها لأنه لو عاش لكان أول من سارع إلى خدمتها بنصح وجد ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة » .

وعندما ضاقت الأمور بالحاج أحمد باي واشتدت ملاحقة القوات الفرنسية وأعوانها ، له وأخذ يتنقل من مكانٍ إلى آخر في جبال الأوراس والحضنة ، شبهه العنترى بناس غرناطة في آخر أيامهم . وقال معرضا به : « لكن صار له مثل ما صار إلى ناس غرناطة حين جاء إليهم الإسبانيول . وكانوا ناسها دائما مشتغلون باللهو ، والطرب ، فحين نزل عليهم جاءهم النذير وقال لهم تيقضوا وأوقفوا على أنفسكم ، فإن الإسبانيول استولى عليهم ، فقالوا حتى نكملوا هذا الشغل ، ثم جاء إليهم مرة ثانية وقال لهم وصل إلى أبواب مدينتكم ، فقالوا له أيضا حتى نكملوا الشغل الآخر ، فما زالوا يفرغوا من شغل ويدخلوا في شغل آخر حتى دخل عليهم الاسبانيول واستولى على وطنهم . كذلك حاج أحمد باي صار يتنقل من وطن إلى آخر حتى وصل إلى جبل أولاد سلطان ، وصار له ما صار من التشتيت والهوان ، حتى نزل ولد سلطان فرانسة على ذلك الجبل كما سنذكره آتيا » .

تباهى العنترى بقدوم الدوك دومال إلى قسنطينة كحاكم جديد عليها ، وعلى الإقليم بكامله أواخر عام 1843 ، وأشاد بخصاله ، وخصال مترجمه جورج طوماس إسماعيل أوربان ، ووصف رحلته إلى باتنه وبسكرة في مطلع عام 1844 م وملاحقته للحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان . ومما قاله عن جبال أولاد سلطان وسكانها : « وهو جبل حصين لكثرة شعابه ، وتصعب طرقاته ، وشجاعة ناسه . وكانوا في زمن الترك لا تنالهم الأحكام ، ولا يعطون مطالب البايليك بالتمام » . واستدرك بعد ذلك ليعود إلى الحديث

والتعريض بالحاج أحمد باي قائلا : « وكان حاج أحمد في هذا الوقت نازل عندهم بخيامه وحريمه فلما نزل عليهم ولد السلطان المذكور تراه صعد إلى جبلهم بالعساكر والسرسور ، وجعل جيوش العرب من وراء الجبل ، ودوروا له الفتن من كل جهة ، فانهزموا أولاد سلطان هزيمة كبيرة ، وانهزم حاج أحمد باي معهم وضاع له رزق كبير ، ومال كثير ، وما نجا إلاّ بنفسه ومات البعض من حريمه في ذلك الهزيمة ، وما حل به ذلك . الا من قلة عقله لما أن جعل رأيه في يد غير العقلاء ، صار به هكذا أو أكثر من ذلك ولو اتبع كلام الناس العقلاء أول الزمان لم تجر عليه هذا الامتحان ، ولكن الأمر مقدر ، ولا ينفع الحذر من القدر » .

وعندما غادر الدوك دومال قسنطينة في زورته الثانية عام 1846 م استأذن منه كل من : علي بن باحمد والأخضر بن وان ، والبوروبى ، وبواخراص بن فانة ، وأحمد ولد مقران ، وأحمد ولد أحمد بن محمد خليفة مجانة ، ومحمد الشاذلي قاضي قسنطينة ، والشيخ الحاج محمد بن الخروبي ، في أن يصاحبوه لزيارة باريس ، فقبل ، ولحقوه فيما بعد وعادوا يحمدون ويسبحون بفضائل فرنسا ، وساستها .

وقد أنهى العنترى كتابه بخاتمة لخص فيها النتيجة التي أراد هو ، أو طُلب منه ، أن يصل إليها ، وهي عقد مفاضلة بين الحكمين : التركي ، والفرنسي ، وإبراز مساوىء الأتراك ومحاسن الفرنسيين ، وتشخيص غدْر الحاج أحمد باي ، فقال وهو يخاطب قارىء كتابه : « إنك إذا تأملت ذلك حق التأمل ، وجدت بين الدولتين في الأحكام والسياسة فرق كبيرا وذلك لأن الأتراك في بدء أمرهم حتى لم يتمكنوا من الوطن كل التمكين عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحداً ، وحيث تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق ويعدون ولايوفون ، ويؤّمنون ويغدرون ، كما يعلم ذلك مما تقدم . ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد ، في ولاية الحاج أحمد باي بن محمد الشريف الذى أخذت قسنطينة زمان ولايته ، فإنه بلغ في الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل الغاية وأما غدره وعدم الوفاء بوعده ، فأمر معلوم عند كل الناس حتى صار لا يأمنه أحد ولو حلف الأيمان المغلظة كما يعلم فعله مما تقدم . ومن جملة غدره والرجوع عن الوفا بوعده أنه لما أخذ الفرنسيون الجزائر ورجع هو إلى قسنطينة وخاف من قيام الناس عليه وعزله جمع العلماء وأرباب دولته ، وكبراء البلد ، وأعيانهم ،

وقال لهم ما تقولون في أمري ؟ فقالوا له إذا أردت تبقى حاكما ونبايعك أن تقبل شروطنا وهي : أن تزيل الظلم على الرعية والمغارم السابقة ، ولا تأخذ منهم الزكاة ، والعشور ، لأن الظلم السابق كان سببه الجزائر وهي الآن أخذت فأجابهم إلى ذلك ، وقبل شروطهم وكتبوا في ذلك كتابا ووضعوا فيه خواتمهم شاهدة عليهم وهم : الحاج أحمد نفسه ، ومصطفى بن باش تارزى قاضي الحنفية وأحمد العباسى قاضي المالكية ، ومحمد العربي بن عيسى ناظر الأوقاف ، والشيخ العربى بن الحاج ومصطفى الخليفة وبن البجاوى قائد الدار ، ومحمد بن العربى قائد الزمالة . » وبقي على ذلك مدة قليلة ثم شرع في نقض الشروط حتى أبطلها كلها ، وتمرد في الأحكام حتى إنه لما تكلم معه في ذلك بعض العلماء القاعدين معه للشروط المتقدمة ونهاه عن فعله هم بقتله وبقي على ظلمه وضاق الأمر بالناس ، حتى تمنوا الناس ولاية الفرانسيس وكان الأمر كذلك » .

وبعد أن استعرض العنترى محاسن الفرنسيين ختم كتابه بالفقرة التالية التي تكشف عن مبالغته في التحيز والتجني وقال : « وهذا فرق كبير بين الدولتين ، فإن ظلم الترك ليس مخصوصا بمحل بل هو عام في أرضهم الأصلية ، وفي غيرها ، مما تحت أيديهم كما يعلم ذلك من سافر إليهم ، وشاهد أحكامهم بخلاف الفرانسيس ، فإن أرضه الأصلية أهلها في غاية العافية ، بسبب العدل بينهم وعدم الظلم ، فسار هذا في كل محل تحت أيديهم ، ومن لم يعلم ذلك يسأل العارفين » [12] .

تاسعاً : ورغم كل ما سبق فإن كتاب صالح بن العنترى ، سيبقى وسيظل وثيقة مهمة ، وأساسية بالنسبة لتاريخ قسنطينة وباياتها ، وبايليكها وبالنسبة لبعض الأحداث العامة التي تتصل بالجزائر ، وعلاقتها بتونس .

وبما أنه مفقود تماما حتى في المكتبات العامة ، فقد رأينا إعادة طبعه من جديد في إطار إحياء التراث ، وإثراء المكتبة التاريخية الجزائرية الحديثة ، وسارعنا إلى مراجعته ، ووضع التعليقات ، والتوضيحات المطلوبة على ما غمض منه أو كان غاية في الاختصار

12) أخذنا هذه الفقرات من كتاب العنترى وسيجدها القارىء عندما يطالعه ويراجعه فيما بعد .

ووضعنا له عناوين داخلية ، وقدمنا له بتمهيد عن الفترة التي أهملها المؤلف ، وفهرسناه ، وزودناه بقائمة من المراجع ذات الصلة بموضوعه تعميما للفائدة ، وذلك في فترة لا تزيد على ثلاثة أشهر من 1/15 إلى 1985/4/10 م(13)

وإذا كان لابد من الشكر فإن أول من يستحق ذلك هو الأخ الزميل الأستاذ مبارك نجاح الذى وضع تحت تصرفنا مخطوط صالح بن العنترى مما أثار فينا رغبة قراءته ومراجعته ، وتهميشه ، ثم الأخ الفاضل عبد المجيد أمير مدير القسم الثقافي بإذاعة وهران الجهوية ، وكاتبه قاسمي الهاشمي ، اللذان أنجزا ضربه على الآلة الكاتبة بدون تأخير مما سمح بتقديمه إلى الطبع دون تأخير كذلك ليصل إلى القارىء والباحث في أقرب فرصة ممكنة ، بعد غياب دام حوالي 140 عاما تقريبا .

والله الموفق .

د . يحيى بوعـزيز
جامعـة وهـران

وهران — حي الصادقية
الأربعاء 19 رجب 1405 هـ
10 أبريل 1985 م

13) بعد أن انتهينا من إعداد هذه الدراسة للطبع ، وخلال زيارتنا لقسنطينة يوم 21 و 22 و 23 أبريل 1985 لإلقاء محاضرة على طلبة قسم التاريخ وأساتذته علمنا أن الباحث الناشىء سيساوى أحمد قد حقق كتاب العنترى وناقشه كدبلوم للدراسات المعمقة منذ ثلاث سنوات ولكنه لم ينشره بعد ، ولا شك أن عمله سيزيد الفترة وضوحا . وقد اتصل بنا الباحث نفسه وحدثنا عن جهوده في ذلك .

مـدخــــل

بايليك قسنطينة على عهد الأتراك

1514 - 1837

الموقع الجغرافي والشكل التضاريسي والمظهر البشري :

يشمل الشرق القسنطيني ، الرقعة الجغرافية الواسعة التي كانت تمثل بايليك الشرق ، أو بايليك قسنطينة ، والتي تمتد من البحر شمالا إلى ما وراء بسكرة وواد سوف ، في حوض ريغ ، وايغرغر جنوبا ، ومن الحدود التونسية شرقا إلى ما وراء إقليم ونوغة وبرج حمزة (البويرة) ، وسفوح جبال جرجرة غربا . ويحتوى هذا الإقليم على جبال البيبان . وحوض وادى الصومام ، وجبال البابور ، وقسنطينة ، وعنابة ، وسوق أهراس ، وعلى السهول العليا القسنطينيّة وكتلة جبال الأوراس ، والنمامشة ، وتبسة ، وجبال الحضنة ، وحوضها ، وجبال الزاب والزيبان ، وواحات سوف في حوض واد ريغ ، وواحات الصحراء الشمالية الشرقية وعلى رأسها : بسكرة ، وتقرت ، وورقلة ، بل وحتى واحات ميزاب بواد الشبكة .

والشرق القسنطيني بصفة عامة جبلي في معظمه ، من حيث المظهر التضاريسي ، تلتقي في وسطه سلسلتا جبال الأطلس : الشمالية التلية ، والجنوبية الصحراوية عند كتلة جبال الأوراس ، وليس فيه من الأحواض والسهول سوى حوض وادى الصومام ، والسهول العليا القسنطينية ، التي تمثل الجزء الشرقي من إقليم الهضاب العليا الجزائرية إلى جانب منبسطات تبسة ، وحوض واد سوف ، ووادى ريغ ، وسهول عنابة وسكيكدة .

تناله نسبة لا بأس بها من الرطوبة في الشتاء لارتفاعه ، وقربه من جبهة البحر الشمالية المتوسطية ، وذلك في القسم الشمالي ، أما الجنوبي الصحراوى فالجفاف أهم ظاهرة فيه ، ويعتمد على المياه الجوفية أكثر من غيرها . ونسبة كثافة السكان فيه عالية عبر التاريخ إذا ماقورن بوسط البلاد وغربها ، وذلك لظروف تاريخية ، وطبيعية كذلك .

والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشي أساساً ثم النشاط التجاري ، والصناعات التقليدية ، التى كانت تدر على أصحابها مردودوا لا بأس به في القرى

العمرانية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة[1] .

وفي عهد الأتراك كانت حدود البايليك على الشكل التالي :

من الشمال البحر ابتداء من طبرقة شرق القالة إلى حدود مدينة بجاية التي لم تكن هي وحوض وادى الساحل الغربي يدخلان ضمنه .

ومن الشرق الحدود التونسية التي تبدأ من طبرقة على البحر وتمتد إلى الجنوب عبر تبسة حتى واحات وادى سوف .

ومن الغرب جبال البيبان ، وقرى : بني منصور ، وسفوح جبال جرجرة الشرقية والجنوبية ، إلى برج حمزة ، وقريتي : سيدى هجرس وسيدى عيسى ، اللتين تفصلانه على بايليك التيطري في الجنوب الغربي .

ومن الجنوب الصحراء الكبرى غير المأهولة جنوب واحات وادى سوف ، وتقرت ، ورقلة ، ومزاب .

ويحكمه نائب عن الباشا بالجزائر العاصمة يحمل لقب الباي ، وقسم إداريا إلى أربعة أقسام على كل منها حاكم مستقل عن الآخر يخضع مباشرة للباي بقسنطينة وهي : القسم الشرقي ويشمل مواطن الحنانشة ، ووادي زناتي ، وعامر الشراقة ، ومن أبرز زعمائه الأحرار كبار الحنانشة .

والقسم الشمالي الذى يمتد من عنابة إلى بجاية ، ومن أبرز زعمائه أولاد بن عاشور في فرجيوة ، وأولاد بن عز الدين في الزواغة .

والقسم الغربي ويمتد من سطيف إلى جبال البيبان وقرى بني منصور وونوغة ، ومن أبرز زعمائه أولاد مقران بقلعة بني عباس ومجانة .

والقسم الجنوبي وأهم زعمائه الدواودة ، وأولاد بن فانة .

---

1) عن هذا الموضوع انظر مقالنا : الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائرى خلال القرن التاسع عشر . مجلة الثقافة . عدد 80 (الجزائر — مارس أبريل 1984) ص 159- 186 . وقد ألقيناه في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ المغرب وحضارته الذى انعقد في مركب الأندلس غرب مدينة وهران أيام 26 و 27 و 28 نوفمبر 1983 تحت إشراف ورعاية جامعة وهران .

وسكان البايليك من العرب ، والقبائل ، والشاوية ، تربط بينهم العقيدة الدينية واللغة ، والعادات والتقاليد ، والمصير المشترك كذلك . ويحكمهم قواد وشيوخ يخضعون للباي مباشرة أو بعض خلفائه ، الذين يساعدهم الكتاب والمكحالجية في زمالاتهم . ويبلغ عددهم حوالي 35 شيخا ، وقائدا وحاكما منهم :

1 ــ شيخ الحنانشة وتحته 12 قبيلة .

2 ــ شيخ العرب بالزاب (بسكرة) وتحته ١١ قبيلة من البدو الرحل

3 ــ قائد الحراكته أو القائد العواسي الذى يقيم بمدينة قسنطينة لأهميته ، وتحته 32قبيلة صغيرة تشمل معظم سكان الشاوية .

4 ــ قائد الحنانشة .

5 ــ قائد الزمول ، وهي قبائل عسكرية ، وتحته حوالي 20 قبيلة .

6 ــ قائد الأوراس وتحته 12 قبيلة .

7 ــ قائد عامر الشراقة وتحته 6 قبائل .

8 ــ شيخ الدير أو أولاد يحي بن طالب في جهات تبسة .

9 ــ شيخ بللزمة وتحته 13 قبيلة .

10 ــ قائد أولاد إبراهيم وتحته 11 قبيلة .

11 ــ قائد سكيكدة وتحته 9 قبائل .

12 ــ قائد زارديزا وتحته عدد كبير من سكان القبائل

13 ــ شيخ فرجيوه وتحته 6 قبائل .

14 ــ شيخ الزواغة وتحته 4 قبائل .

15 ــ قائد أولاد عبد النور وتحته 31 قبيلة .

16 ــ قائد أولاد التلاغمة .

17 ــ قائد عامر الغرابة وتحته 5 قبائل .

18 ــ شيخ قصرالطير بريغة .

19 ــ شيخ أولاد مقران بمجانة وتحته 13 قبيلة .

20 ــ قائد أولاد دراج في الحضنة .

21 ــ قائد تبسة .

22 — قائد ميلة .

23 — قائد مسيلة .

24 — قائد زمورة[2] .

ويمكن أن نلخص فيما يلي أجهزة البايليك الإدارية في مدينة قسنطينة وإقليمها التي تطورت بمرور الزمن طبعا . وذلك حسبما جاء في دراسة فايسيت التي اعتمدت بدورها على عدة مصادر ومخطوطات محلية أخرى .

الجهاز الإدارى للبايليك :

تتألف إدارات بايليك قسنطينة من أجهزة إدارية متعددة في المدينة والأطراف يمكن أن نميز منها الأجهزة التالية :

أولاً : ديوان الأوجاق :

ويتألف من رجال المخزن أو أعضاء الحكومة الذين يحيطون بالباي ، ويشاركونه في إدارة البايليك ، ويحتفظون بالسلطات العليا إلى جانبه ، ويتصلون به بصفة مباشرة ، ويشتركون معه في اتخاذ القرارات ، وهم :

1) الخليفة : وهو مسئول عن شؤون الأوطان أو أقاليم البايليك ، ويخضع له القواد ، ورجال الميليشيا المنظمين وينظم عملية استخلاص الضرائب ويتولي إخضاع السكان لحكومة البايليك ، ويذهب مرتين في العام إلى الجزائر العاصمة في الربيع والخريف ، لحمل الدنوش إلى الباشا ، وذلك عند عدم ذهاب الباي بنفسه .

2) قائد الدار : وهو بمثابة شيخ البلدية حالياً ، أغا متقاعد ، مكلف بالإدارة وشرطة المدينة ، وبتموين رجال الميليشيا برواتبهم الشهرية . وتمتد مسئوليته إلى القسم الأكبر من أملاك البايليك وعقاراته ، ومخازن الحبوب ، وأئمة المساجد ، ووعاظها ، والقضاة ، والمفاتي ، الذين عليه أن يدفع لهم أجورهم ، وأرزاقهم المستحقة . وإليه يعود أمر حفظ الأمن بالمدينة .

---

2) E.Vayssettes : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 a 1837. Recueil des notices et mèmoires de la sociètè archèologique de La provincede constantine (constantine 1867) pp. 264-267.

3 ـ النفاد أو المقتصد : وهو صاحب السلطة على كل المصالح المالية ، والإنفاق ، وجمع الضرائب ، وإعداد أموال الدنوش التي ترسل إلى العاصمة .

4 ـ قائد الدايرة أو آغا الدايرة : وهو أحد رؤساء فرسان المخزن . يدير فرق القوم غير المنظمة في الأرياف . ويتولى توفير ماتحتاج إليه ، ويخرج مع الباي لمعاقبة القبائل العاصية .

5 ـ الباش كاتب ، أو الكاتب العام : يحرر ويصحح البرقيات ورسائل الباي وكل ما يتصل بشوؤن السياسة للبايليك ، ويتخذ لنفسه دفترا يسجل فيه كل أموال البايليك كالنقود ، والأحصنة ، والبغال ، وقطعان الأغنام ، ويخرج مرة على مرة للمراقبة ، ويختم رسائل الداى ، ويستقبل رسائل الآخرين الواردة على البايليك ويحرر رسائل الموظفين في البايليك ، ويخضع له كتاب يتولون تحرير محاضر الجلسات المتصلة بالعدالة . والمراسلات العامة بين الباي ، والخلفاء ، والقواد .

6 ـ الباش سيار : وهو مسئول عن قافلة البريد ، ويحمل بنفسه رسائل الباي ، إلى الباشا بالجزائر العاصمة ، ويعود برسائل الباشا إليه . ويصحب الخليفة إلى العاصمة عندما يحمل الدنوش إلى الباشا .

7 ـ باش سايس ، أو قائد الزمالة : مسئول عن حيوانات البايليك ، وحمايتها ورعايتها والاعتناء بها .

8 ـ باش شاوش : مكلف بتنفيذ الأوامر الموجهة إلى الأتراك ، وتوضع تحت سيطرته كتيبة من الجنود الإنكشاريين وفرقة من فرسان الصبايحية الكراغلة ، وقوات أخرى من المخزن لتدعيمها .

9 ـ شاوشا الكرسي : وهما من الأتراك ، ويتوليان وظيفة الجلد ، ويسيران أمام الباي عندما يخرج ، ويتوسطان بينه وبين بعض المسئولين الأجانب في مسائل السلم ، وتمتين الروابط ، ويعلنان للناس في الاجتماعات العامة سلامهُ وتحياته . ويقومان بجلد من يأمر الباي بجلدهم .

ثانياً الموظفون الذين لا يتصل بهم الباي مباشرة :

1 - آغا الصبايحية : وهو مسؤول عن الصبايحية ، والشواش الذين يقومون بدور المساعدين .

2 - شاوش محلة الشتاء : مكلف بتوزيع ما يحتاج إليه جنود المحلة من المؤن والأغذية ، والخيام ، والأخشاب التي يتوصل بها من قائد الدار مباشرة .

3 - باشا العلم : وهو الذى يحمل العلم أمام الباي عندما يخرج في مهمة سواء في السلم أم الحرب .

4 - باش الطبل : وهو رئيس الطبول التي تضرب وتدق في حالات الحرب والسلم كذلك ، للنفير وغيره .

5 - باش المكاحل : وهو رئيس حرس الباي الخاص ، ويحمل أسلحة الباي في الحفلات العامة ، ويحكم فرسان الحرس الدائم للباي .

6 - باش خزناجي : يسخر لحراسة قوافل المحلة التي تستخلص الضرائب من الناس . ويتكلف بإعداد الأحصنة والخيول لحمل هذه الضرائب في كل مرحلة من مراحل هذه العملية . ويحمل أمتعة الباي عند سفره .

7 - باش مانفا : وهو مسئول عن إعداد وتقديم البغال ، والأحصنة ، للقافلة التي يقودها الباي للقيام بغارة مفاجئة .

8 - قائد موهر باشا ، أو خوجة الخيل : وهو مسئول عن تنشيط سير البغال والأحصنة ويصحب الخليفة إلى مدينة الجزائر عندما يحمل الدنوش في الربيع . ويتكلف بإرسال أمتعة القافلة من عاصمة الجزائر إلى عاصمة البايليك في عودتها .

9 - باش سراج : وهو مسئول عن اصطبلات الباي في عاصمة البايليك .

ثالثاً موظفو قصر الباي :

1 - قائد المقصورة . ويمثل وظيفة مقتصد قصر الباي الخاص .

2 - باش الفراش : ويتكلف بفراش قاعات القصر .

3 - قائد الجبيرة : ويتكلف بجبيرة الباي وتزويدها بالأموال اللازمة وتعهدها .

4 - قائد السيوانة : ويحمل مظلة الباي في الأمطار ، والحرارة .

5 - قائد السبسي : ويتكلف بغليونة الباي ، ويعدّ له حشيشة الدخان .

6 - قائد الطاسة : ويتكلف بحمل أدوات شرب القهوة من الفضة خلال سفر الباي .

7 - باش قهواجي : ويقوم بإعداد القهوة وتقديمها للباي وضيوفه بالقصر .

8 - قائد الدريبة : وهو البواب الأول لمنزل الباي ، ويكون خصيا أسود ، ويدعى آغا الطواشي .

رابعاً : موظفو المدينة الذين يخضعون لقائد الدار :

1 ــ أمين الخبازين .

2 ــ أمين الفضة .

3 ــ قائد الباب : ويكون مسئولاً عن السلع التي تدخل إلى أسواق المدينة للتجارة ويستخلص من أصحابها الضرائب والمكوس المطلوبة . وفي العادة يكون له كاتب خاص ، وعدد من المعاونين ، والمساعدين .

4 ــ قائد السوق أو مفتش الأسواق :

5 ــ قائد الزبل : وهو مسئول عن تنظيف الشوارع والأسواق والحارات .

6 ــ قائد القصبة : ويسمى في الجزائر العاصمة بالمزوار ، وهو مسئول عن شرطه المدينة في الليل ، ويخرج مع خليفة العيال للمراقبة والتفتيش والتفقد .

7 ــ البراح في الأسواق والساحات العامة لتبليغ الناس أوامر قائد الدار ، والباي ، والخليفة ، خاصة قضايا الإعدام ، ويصاحبه شاوش الباي .

8 ــ باش الحمار : وهو مسئول عن البغال ، ويتولى تجهيزها عند القيام بحملة ما .

9 ــ وكيل بيت المال : ومن مسئولياته إعانة الفقراء والمساكين والتصرف في المواريث التي لا صاحب لها ، وحفر القبور ، وحماية المقابر ، ويضع الباي دائما تحت تصرفه مبلغا من المال من الخزينة العامة لمواجهة هذه المشاكل [3] .

---

3) E. Vayssettes: histoire de constantine sous la domination turque de 1517 à 1837. recueil des notices et mémoires de la sociètè de la province de constantine (constantine 1867) pp.241 — 256.

الجهاز الشرعي والديني بقسنطينة :

يوجد بمدينة قسنطينة مفتٍ ، وقاضٍ ، مالكي لعموم الناس ، وقاضٍ حنفي للأتراك والكراغلة ، وعدلان ، وناظر للأوقاف الإسلامية ، يؤلفون جميعاً المجلس الشرعي الإسلامي الذي يجتمع كل يوم جمعة للنظر في القضايا والفتاوى المختلفة ، ويرأسه الباي ، أو قائد الدار .

وبمدينة قسنطينة أكثر من مائة جامع ، ومسجد ، وزاوية ، وكتاب يعمل بها أئمة ، ووعاظ ، ومرشدون ، ومؤذنون ، وقيّمون ، وحزاب ، ومعلمون للقرآن الكريم ، ومدرسون للعلوم الدينية ، والأدبية ، ويوجد بها أمير الركب الذى يقود قافلة الحج إلى بيت الله الحرام كل عام . وكانت هذه الوظيفة في أيدي عائلة أولاد عبد المؤمن ثم انتقلت إلى عائلة أولاد بن الففون[4] .

مداخيل البايليك ، وموظفوها

تعتمد خزينة البايليك على الموارد الثلاثة التالية :

أولاً : الضرائب : كالحكر على الأراضي ، والعشور على الحبوب ، وضرائب التبن ، والغرامات النقدية على القبائل البعيدة ، دراهم وغيرها .

ثانياً : عوائد أرضى البايليك ، وممتلكاته المختلفة ، كالمزارع ، والأحواش ، والأراضى المؤجرة للخماسة . والعزل ، وأراضي الأوقاف .

ثالثاً : عوائد التولية والغرامات ، والحجر ، وضرائب أخرى غير عادية .

ومن ضمن موظفي الإدارة المالية في البايليك

1 ــ قائد العشور : ويتكلف بتحديد ضرائب حبوب الحرث .

2 ــ قائد الجابرى : ويتكلف بتحديد ضرائب أراضي البايليك .

3 ــ قائد عزب الجمال : ويتكلف بحراسة جمال البايليك .

4 ــ قائد عزب البقر ويتكلف بحراسة أبقار البايليك .

5 ــ قائد عزب الجلب : ويتكلف بحراسة قطعان الغنم التابعة للبايليك .

---

4) Vayssettes : IBID.PP.256 — 258.

6 - باش خزناجي ، أو قائد المهور باشا أو خوجة الخيل كذلك .(5)

قوات البايليك العسكرية :

تتألف قوات البايليك من حوالي 45 ألف رجل موزعين هكذا :

22000 من المشاة .

23000 من الفرسان الخيالة

وينتمون إلى فئات ثلاث : الميليشيا : والزمول ، ودائرة المخزن .

ــ جنود الميليشيا يجندون من الأتراك ، وبعض الكراغلة ، ومهمتهم الخدمة في النوبة (المعسكر) والمشي مع محلة الدنوش ، ومع قوافل الغزو في الحروب .

ومن أشهر النوبات في البايليك :

ــ نوبة قسنطينة وعدد أفرادها 73 عسكرياً .

ــ نوبة عنابة وعدد أفرادها 71 عسكريا .

ــ نوبة بسكرة وعدد أفرادها 72 عسكرياً .

ــ نوبة بجاية وعدد أفرادها 44 عسكرياً .

ــ نوبة تبسة ، وعدد أفرادها 29 عسكرياً .

ــ نوبة جيجل ، وعدد أفرادها 29 عسكرياً .

ــ نوبة برج حمزة (بويرة) وعدد أفرادها 15 عسكرياً .

ــ جنود الزمول أو رجال الزمالة : ويجندون من قبائل المخزن ويعسكرون عادة في عين مليلة بين قسنطينة وباتنة ويرأسها قائد يعرف بقائد الزمالة .

ــ جنود الدايرة : وهم رجال حرب وفرسان ، ينتقون من كل القبائل ويرأس الدايرة رجل يحمل لقب : أغا الدايرة ، ويقيم بمدينة قسنطينة ويبلغ عدد أفرادها حوالي ألف فارس يعسكرون في عدة أماكن منها :

---

5) IBID. pp. 258 — 260.

— دايرة الوادى في وادى بوسلا بين عين الخشبة وجميلة .

— دايرة السراوية في السرا جنوب ميلة .

— دايرة وادي زناتي في قرفة .

— دايرة قسنطينة .

وعندما تذهب المحلة إلى الجزائر العاصمة لحمل ضرائب الدنوش تمر على المراكز التالية التي تأخذ في كل منها قسطاً من الراحة ، وتعرف بالقناق ، وهي : بئر البقيرات ، وذراع الطبول ، وركاب ، ومجاز الحمار ، وسطيف ، وعين تاغروط ، وسيدى مبارك ، وذراع لحمر ، ومجانة ، وبني منصور ، والدهوس ، وحمزة ، وبني هيني ، وذراع البرال ، والحوش ، ومتيجة ، والجزائر العاصمة .[6]

بداية حكم الأتراك في قسنطينة وإقليمها :

في ربيع عام 1514 تعاون خير الدين ، وعروج ، التركيان ، ورفاقهما ، وانتزعوا مدينة جيجل من الجنويين الإيطاليين الذين اتخذوها مركزا لهم لصيد المرجان في الشرق الجزائرى ، وحاولوا أن يستخلصوا بجاية فلم ينجحوا ، وفي الوقت نفسه ضايقهم الأمير الحفصي بتونس فنقلوا قاعدتهم البحرية من حلق الوادي إلى جيجل ، وهناك استنجد بهم سكان مدينة الجزائر عام 1516 فلبوا الرغبة ، واتجهوا إليها بقواتهم البرية والبحرية ، وتمركزوا بها ، وقضوا على المعارضين لهم ، وذهب عروج إلى تنس لمعاقبة أميرها الزياني الذي تعاون مع الإسبان ومن هناك أخذ طريقه إلى تلمسان لنجدة سكانها عام 1517 ، ولكن الإسبان تمكنوا من قتل أخيه إسحاق في قلعة بني راشد ، وقتلوه هو غدرا في المالح بعد أن فرّ من تلمسان نتيجة لغدر سكانها به وذلك عام 1518 م .

وبقي مركز أخيه خير الدين بالعاصمة معرضاً للخطر فاتفق مع كبار سكانها على إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية في العام نفسه وأرسلوا وفدا إلى السلطان سليم الأول

---

6) Vayssettes : IBIP .pp.268 - 273

فى مصر ليخبره بذلك فقبل ، وأرسل قفطان التولية لخير الدين بايلرباي عليها ، وألفي جندى انكشارى ، وكمية من الأسلحة ، فقام خير الدين بتنظيم الإدارة واستقر هو بالعاصمة ، وعين نائباً عنه في الناحية الغربية يدعي محمد بن علي اتخذ شرشال مركزا له ، وعين أحمد بن القاضى نائباً عنه فى الناحية الشرقية اتخذ دللس مركزاً له .

وفي عام 1521 م نشبت مشاكل بينه وبين أحمد ولد القاضي أمير كوكو ، فاضطر أن ينسحب من الجزائر ويعود إلى جيجل مركزه الأول ، ليستأنف نشاطه البحري ويرقب الأمور من هناك عن كثب . فجدد صلاته بالسكان وزعماء العائلات الكبرى واهتم بأمر المراكز العمرانية المهمة بالمنطقة الشرقية كمواطن استراتيجية ليركز سلطته ويوسعها .

وعلى أساس هذه السياسة غزا مدينة القل في العام نفسه 1521 وسيطر عليها وركز بها حامية عسكرية من 200 جندى انكشارى ، وغزا مدينتي : عنابة وقسنطينة في العام الموالي 1522 م ، وركز بالأولى حامية من 1500 جندى ، وفي الثانية 600 جندى انكشارى يرأسها ضباط يحملون لقب قائد العسكر . وكان اسم قائد حامية قسنطينة يوسف . وأعطى الحرية لكل قائد في سلوك السياسة التي يراها تجاه السكان ، وحثهم على تحسين علاقاتهم وتمتينها معهم لضمان تموين حامياتهم العسكرية بتلك المدن ، خاصة قسنطينة التي يصعب تموينها من البحر ، ولا بد من تموينها براً من الأسواق المحلية . ولذلك ربط القائد يوسف صلات حسنة مع الشيخ الففون شيخ البلد الذى مكنه من الاتصال والتعاون مع أولاد يعقوب بن علي الهلاليين الذين يتحكمون في منطقة واسعة بقسنطينة من عنابة شرقاً إلى سطيف غرباً ، وإلى تفرت جنوباً ، وتعهدوا فعلاً بتزويدهم بالمؤن مقابل الحصول منه على البارود بكميات كافية .

وبعد أن عاد خير الدين إلى الجزائر العاصمة عام 1525 م وحرر قلعة البنيون عام 1529 ، وهزم حملة اندرى دوريا الجنوي في شرشال عام 1531 م ، غزا تونس وفتحها عام 1533 م ، ولكن شارلكان الإسبانى استجاب لطلب الملك الحفصي الضعيف وشنّ حملة على تونس في العام الموالي 1534 م ، واضطر خير الدين أن ينسحب منها برا إلى عنابة ، ومن هناك ركب البحر إلى الجزائر العاصمة ، ثم إلى ماهون بالبليار ، وخلف وراءه بعنابة حسن أغا ساردو على رأس قوات أخرى وطلب منه أن يقودها إلى الجزائر برّا عبر قسنطينة .

وعندما وصل إليها وأراد الدخول للراحة منعه السكان من ذلك ، وتدخل الشيخ الففون ، والقائد يوسف ، وأقنعوه بالتمركز خارجها ، وتعهدوا بتزويده بكل ما يحتاج من المؤن ، وبعض التعويضات نقداً ، فأخذ طريقه إلى جيجل حيث أخذ المراكب بحراً إلى العاصمة .

وقد عانت الحامية التركية بقسنطينة مشاكل كثيرة بسبب الصراع الذى كان قائماً بين الحنانشة وأولاد يعقوب على السلطة والنفوذ ، والحظوة ، واضطر القائد يوسف أن يستنجد بأولاد يعقوب في الجنوب ليضع حدا لمحاولات الحنانشة . ورغم المشاغبات التي حصلت في سهل سطيف ، فقد توصل كبار القوم من الطرفين إلى الاتفاق على أن يتمركز الحنانشة في شرق المدينة ، والذواودة في غربها ، والبعض داخلها وكان لهذا الاتفاق أثره الحسن في وضع قاعدة وأساس لتزويد الحاميات التركية بالمؤن المطلوبة بسهولة ويسر .

وعندما عيّن حسن أغا ساردو قبطاناً للبحرية العثمانية ، خلفه حسن قورصو في منصب البايلرباي على الجزائر ، وقرر تركيز عدة حاميات تركية في أماكن استراتيجية بإقليم قسنطينة ما بين عامي 1540 - 1541 ، ومنها : زمورة ، وبرج بوعريريج ، والمسيلة ، والبويرة ، وتم تعيين بوعكاز بن عاشور شيخ العرب على رُحّل الدواودة ، شرق قسنطينة ، وعبد العزيز من قلعة بني عباس خليفة على مجانة عام 1542 ، فقام بتوسيع سلطته إلى الزاب ، وبسكرة وأخضعها لسلطته .

وعندما تولى حسن بن خير الدين منصب البايلرباي لأول مرة عام 1544 إلى 1552 ، كلف خليفة مجانة عبد العزيز بمحاربة أحمد ولد القاضي الذى كان مايزال عدوا للأتراك ، فنهض بالأمر ووسع نفوذه وسيطرته حتى إلى البيبان غرباً وبسكرة جنوباً ، وربوات جرجرة الشرقية غرباً ، ومضايق خراطة شمالاً بالبابور ، وقد وافق حسن بن خير الدين على أن يفرض أولاد يعقوب بن علي سيطرتهم على المنطقة الممتدة بين قسنطينة والعلمة ، والأحرار شيوخ الحنانشة سيطرتهم على شرق قسنطينة ، وعبد العزيز سيطرته على المنطقة الغربية من سطيف إلى البويرة .

ولما تولى صاح رايس منصب البالرباي في أعوام 1552 - 1556 ، غزا الجنوب

القسنطيني ، وسيطر على ورفلة وتفرت وقضى على إمارة بني جلاب في تفرت ، وكان من ضمن ما ساعده في ذلك شيخ العرب بوعكاز ، وعبد العزيز خليفة مجانة الذى طلب منه أن يخضع له المنطقة الممتدة من بسكرة إلى المسيلة فرفض صالح رايس ذلك ، فأظهر عبد العزيز تذمره ومعارضته التي انتهت بإعلان عصيانه فيما بعد ، ومحاولته التحالف مع أحمد ولد القاضي الذي كان خصما وعدوا له ، ولم يكتف بهذا فقام بمهاجمة ومحاصرة الحاميات التركية في زمورة ، والبرج ، والمسيلة ، والبويرة ، ونشبت الحرب بينه وبين صالح رايس ، وابنه محمد بن صالح رايس ، وشنوا عليه حربا شعواء طوال ثلاث سنوات ، من 1552 — 1554 ، وحصلت معارك طاحنة راح ضحيتها عدد كبير من الطرفين وتم تدعيم الحاميات التركية المشار إليها بعد أن كانت قد انسحبت من أماكنها بسبب قساوة الحروب ، والمعارك [7] وتمكن صالح رايس عام 1555 من افتكاك مدينة بجاية من الأسبان وتحريرها ، ووضع بها حامية عسكرية من 600 رجل بقيادة ضابط تركي .

وبعد عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر على رأس البايليك في أعوام 1557 — 1561 تفاوض مع ولد القاضي ، أمير كوكو ، وتزوج ابنته ليقربه منه ، وحاول أن يتفاوض مع عبد العزيز خليفة مجانة والقلعة فرفض ، ونشبت الحرب بينهما وقتل عبد العزيز كما قتل أخوه الفضل قبله على عهد صالح رايس ، وخلفه أخوه أحمد أمقران الذى ستحمل العائلة بعده اسمه : أولاد مقران . أو المقرانيون .

تفاوض أحمد أمقران مع حسن بن خير الدين وقبل شروطه للصلح عام 1559 فتقلصت سلطته على الزيبان والضفة الغربية لوادى الساحل .

وفي الولاية الثالثة لحسن بن خير الدين التي بدأها عام 1562 ، طلب منه السلطان العثمانى أن يستعد لمجابهة الإسبان في وهران ، وفرسان مالطة في جربة ومالطة ، فكتب إلى

---

7) Marmol . T.2. PP.425 — 427 — berbrugger epoques militaires en grande kabylie p. 100.

زعماء قسنطينة وإقليمها رسائل يحثهم فيها على الاستعداد وتجنيد الناس ، وقاد الحملة الأولى على وهران في أبريل 1563 م بمعية أحمد أمقران الذي قاد 12 ألف رجل من منطقتة بالبيبان ، وكذلك قائد حامية قسنطينة الذى قتل أمام أسوار وهران خلال المعارك والمشادات ، ولولا استدعاء السلطان العثماني له على عجل ، لتم فتح البايليك[8] .

تكوين بايليك قسنطينة :

ومن أجل ضبط السلطة وإقامة إدارة محكمة قرر حسن بن خير الدين تقسيم الجزائر إلى ثلاثة أقسام كل منها يحمل اسم بايليك ، هي : بايليك الغرب وبايليك التيطري وبايليك الشرق أو بايليك قسنطينة ، هذا إلى جانب بايليك الجزائر العاصمة ، في الوسط الذي يحمل اسم دار السلطان كذلك ، ويحكم كل بايليك نائب عن الباشا بالجزائر يحمل لقب الباي ، بمساعدة مجلس ديوان صغير ، وعدد من الأعوان . وفي السنة نفسها عين حسن بن خير الدين علىٰ بايليك الغرب ، المدعو بوخديجة ، ونصبه في مدينة مازونة ، أما بايليك قسنطينة فلم يتم تعيين باي عليه إلا بعد عامين من هذا التاريخ أى عام 1567 ، وهو المدعو رمضان تشولاق باي ، الذى بقي في منصبه حتى عام 1574 م كما سيأتى .

رمضان تشولاق باي 1567 - 1574 :

عينه البايلرباي محمد بن صالح رايس في هذا المنصب ، وذلك في ظروف صعبة ، ومشاكل معقدة في الإقليم . وحسب رواية فايسيت فإن تعيين رمضان تشولاق باي في هذا المنصب تم حسب الكيفية التالية :

في عام 975 هـ (1567 م) حصل اتفاق بين سكان مدينة قسنطينة على تكوين وفد وإرساله إلى الباشا بالجزائر العاصمة ليشرح له أوضاع المدينة المتدهورة ، وتألف هذا الوفد من الشيخ عبد الكريم الفقون ، والمفتي عبد اللطيف المصباح ، وعدد من الشخصيات المعتبرة ، وسافروا واستقبلهم الباشا محمد بن صالح رايس الذى خلف حسن

---

8) Marmol . I.II.P.378. vayssettes : IBID.pp,275 — 306.

بن خير الدين ، وسمع شكاواهم وتظلماتهم . وبينما هم بمدينة الجزائر سمعوا بقيام سكان مدينة قسنطينة بثورة ، وهجومهم على الحامية التركية بها ، وقتلهم للحاكم التركي ، فخافوا أن يسلط الباشا عقابه عليهم ، ففروا ليلاً إلى بلاد القبائل وعندما علم الباشا بهروبهم أمر من لاحقهم وأعادهم إلى العاصمة وسجنهم بعض الوقت ثم أطلق سراحهم ، وصحبهم معهم في حملته التأديبية على مدينة قسنطينة وفتح له السكان أبواب المدينة دون قتال فدخلها وقبض على زعماء الفتنة وقتلهم ، وسجن عدداً آخر من المورطين ، وباعهم عبيداً ، وأعاد للمدينة أمنها واستقرارها ، وبعد ذلك قام بتعيين رمضان تشولاق بايا على المدينة والبايليك ، وقفل راجعا إلى العاصمة ليعزل هو الآخر ويعين بدله العلج علي الفرطاس بايلرباي على نيابة الجزائر كلها .

وفي عام 1570 ذهب العلج علي لمهاجمة الإسبان في تونس وصحب معه القائد رمضان تشولاق باي ، وفي نيته أن يعاقب الأمير الحفصي مولاى أحمد الذى أخلص في تعاونه مع الإسبان ، واصطدم بقوات هذا الأمير الحفصي في باجة وهزمه ، واضطر أن يفرّ إلى حلق الوادي ، فعاد العلج علي إلى الجزائر ، وعاد رمضان تشولاق باي إلى قسنطينة .

وخلال هذه الفترة قام بعض العصاة باختطاف الشيخ عبد الكريم الففون ، والمفتي عبد اللطيف المصباح ، وصهره مزور الشرفة ، وقائد جيش المدينة ، بينما كانوا يتفسحون خارج المدينة ، ويبدو أن ذلك كان وفق خطة ومؤامرة محبوكة ، وتدخل أحد الزعماء ذوى الحظوة والمكانة ويدعى الرئيس العباسي ، فأطلق سراحهم بعد أن قدم للمختطفين مجموعة رؤوس أغنام كفدية .

وفي عام 1572 اندلعت بقسنطينة ثورة أخرى واستعمل الباي رمضان تشولاق قسوة وشدة في القضاء عليها ، وفي العام الموالي تجددت الثورة وعمت معظم البايليك واضطر تشولاق باي أن يستنجد بقوات مخزن الدواودة ، والبايلرى عرب أحمد بعد أن ثار الحنانشة في شرق البايليك ، وأولاد مقران في غربه . وتوسط أحمد بن بوعكا الدواودى لدى الحنانشة فأقنعهم بوضع حد للثورة والتمرد ، ولكن المقرانيين رفضوا هذه الوساطة رغم أن بوعكاز صهر لهم . وفي وسط هذه الاضطرابات شارك سكان البايليك فى الهجوم على تونس بقصد تحريرها من الإسبان . وفى عام 1574 غزا النصارى مدينة عنابة

واحتلوها ، ففر منها الشيخ سيدى خليفة بن سيدى عيسى إلى قسنطينة ، وتوفي بها وبني علي قبره مسجد قرب باب القنطرة . وفي العام نفسه دعي رمضان تشولاق باي إلى الجزائر ، وعوض بجعفر باي[9] .

جعفر باي 1574 - 1588 :

سلك سياسة حكيمة فوثق صلاته بالعائلات الكبيرة ذات النفوذ والمكانة في المدينة والبايليك ، وزود العلج علي بعدد من الجنود الانكشاريين وفرسان المخزن خلال حملته ضد سلطان المغرب عام 1576 . وفعل الشيء نفسه مع حسن فنزيانو في حملته ضد الإسبان . وفي عام 1580 ذهب إلى الجزائر العاصمة ليقدم تهانيه إلى الباشا الجديد جعفر باشا الذي يحمل نفس اسمه ، وصحب معه عدداً من زعماء البايليك وعلى رأسهم أمير بنى عباس الذى حمل معه إلى الباشا هدايا كثيرة ومتنوعة منها : ستة آلاف روبل أو ما يعادل 2400 ريال إسباني ، و 400 جملاً ، و 1000 خروف [10] .

وفي عام 1582 حصل طاعون في قسنطينة ، وإقليمها ، ومات خلق كثير ومرت السنوات دون أن نعرف ما جرى خلالها إذ لم تحدثنا المصادر على ذلك وفي عام 1588 استدعى جعفر باي إلى منصب آخر ، وخلفه محمد بن فرحات في منصب الباي علي بايليك قسنطينة الذى دام حكمه عشرين عاماً تقريبا .

محمد بن فرحات باي 1588 - 1608 م :

لم يكن من أصل تركي وإنما هو من نبلاء مدينة قسنطينة خلف جعفر باي الذى استدعى إلى القسطنطينية ، سلك سياسة سلفه نفسها فيما يخص التقرب من القبائل وزعمائها ، ويبدو أن طيبته هذه فسرتها القبائل بالضعف فرفضت أن تدفع له الضرائب المطلوبة منها في الأوقات المناسبة ، وعجز هو عن دفع أجور جنود الميليشيا ، وتوفير نفقات الحروب والغزوات التي كان يقوم بها ضد العصاة والمتمردين ، وكان ذلك من المشاكل والصعوبات التي عاناها خلال حكمه .

9) Berbrugger : IBID.p.101. vayssettes. IBID.p.311.

10) Vayssettes / IBID.p.311.

وعندما تولى خيضر باشا السلطة في أعوام 1589 - 1592 ، طلب من البايات فى البايليكات ، أن يستعملوا نفوذهم لدى القبائل حتى تدفع ما عليها من الضرائب في أقرب مدة . فقام الباي محمد بن فرحات بتذكير الشيوخ والخلفاء ، والزعماء ، بهذه التعليمة فامتثل البعض لها ، ورفضها آخرون ومنهم زعماء أولاد مقران بمجانة ، الذين أجابوا بإعلان الحرب عليه ، فتصدى لمواجهتهم واستنجد بالباشا في العاصمة الذى أنجده وأرغمت قواتهما المقرانيين على دفع خسائر الحرب مع الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة .

وقد تواصلت المفاوضات بين الباي محمد بن فرحات ، والمقرانيين الذين متنوا صلاتهم بابن القاضى أمير كوكو ، وتحالفوا ، وأخذوا يهددون أبواب مدينة الجزائر العاصمة ، مثلما هددوا باي قسنطينة في الناحية الشرقية .

وجند الباشا بالجزائر العاصمة قوات كافية قادها الأغا مصطفى ولاحق المتمردين إلى سفوح جبال جرجرة وأطراف البيبان ، وفي عام 1596 أبرمت هدنة مؤقتة سرعان ما نقضت من طرف الباشا مصطفى (1596 - 1599) وقام الباي محمد بن فرحات بالزحف من الشرق ، والآغا مصطفى من الوسط ، ضد قوات عمر بلقاضي ، ولم تنته هذه الحروب إلّا بعد أن رحل مصطفى باشا وعوضه في منصبه خيضر باشا للمرة الثالثة .

وعندما أبرم السلطان العثمانى محمد الثالث معاهدة الامتيازات مع الملك الفرنسي هنرى الرابع عام 1597 ، تم الاعتراف بامتيازات التجار الفرنسيين في الجزائر . فغضب الديوان ، ورفض قبول ذلك ، وأمر الباشا خيضر باي قسنطينة محمد بن فرحات بتحطيم وتهديم الباستيون الفرنسي في ساحل القالة ، ولما سمع السلطان العثماني غضب على الباشا خيضر وعزله ، وعوضه بالباشا محمد قوصة الذى قام خيضر باعتقاله وقتله ، فثار عليه الجنود الانكشاريون وأرغموه على التخلي عن منصبه لمصطفى قوصة شقيق الضحية .

وبمجرد أن تسلم مصطفى قوصة منصبه ، أمر باي قسنطينة محمد بن فرحات بالتخلي عن تهديم الباستيون الفرنسي ، والتوقف عن ذلك امتثالاً لأوامر السلطان العثماني .

وفى خلال عامي 1602 - 1603 حصل وباء الطاعون في قسنطينة وقتل خلقا كثيراً ثم حصل قحط وجفاف تواصل مدة تسع سنوات كاملة ، أدى إلى حصول مجاعات حادة خلفت ضحايا كثيرة .

وفي عام 1607 م أغار دوق الطوسكان كونتابل بيكوليميني : Connetable Piccolemini على مدينة عنابة بعمارة بحرية من 14 مركباً ، وحاصر الحامية التركية بالقصبة فأنجدها الباي محمد بن فرحات من قسنطينة ، وحارب المغيرين وجرح خلال المعارك ومات ، وتمكن الأعداء من غنم وأسر عدد كبير من الرجال والنساء ثم انسحبوا ، وقام قائد عسكر الباي ، رجب بن حسين بأمر إعادة النظام إلى المدينة ، وإصلاح أوضاعها ، ثم عاد إلى قسنطينة ليستقبل الباي الجديد حسن باي[11] .

حسن باي 1608 - 1622 م :

في عهد هذا الباي تم إبرام معاهدة ضبط الحدود مع نيابة تونس عام 1614 م ، وتوفي قائد الجيش رجب بن حسين ، وفي عام 1617 وقع اتفاق بين الجزائر ومرسيليا لتبادل الأسرى فأخلف الفرنسيون وعدهم وأرسلوا عدداً من الأسرى الأتراك لا يتفق مع عدد الأسرى الفرنسيين فغضب السكان ، ورفضوا السماح للأسرى الفرنسيين بركوب البواخر ، وعزم الرياس على تنظيم حملة عسكرية ضد الباستيون الفرنسي في القالة وعنابة ، ولكن السلطان العثماني عارض هذه السياسة وعزل الباشا بالجزائر وبقي حسن باي في منصبه حتى حدث وباء الطاعون عام 1622 بقسنطينة ، فمات به هو وغيره ، وخلفه مراد باي.

مراد باي 1622 - 1647 م :

اهتم بحفظ الأمن والنظام في البايليك كما اهتم بأمن الرعايا الفرنسيين في مراكز صيد المرجان ، مثلما فعل سلفه استجابة لرغبة السلطان ، وأوامر الباشا بالجزائر . وعندما قام التونسيون بخرق معاهدة ضبط الحدود التي أبرمت عام 1614 وجهت الجزائر حملة عسكرية ضد تونس ، اشترك فيها مراد باي بقوات البايليك وخاضوا معركة ستارة قرب

---

11) Vayssettes : IBID. p.329 - 331.

مدينة الكاف في 17 ماى 1628 ، وأرغموا التونسيين على إبرام اتفاق لضبط الحدود نص على ما يلي :

أولاً : يبقى مجرى وادى صراط هو الحد الفاصل بين البلدين في المناطق الجنوبية .

ثانياً : يقوم التونسيون بتهديم المراكز العسكرية التي أسسوها في المناطق المتنازع عليها .

ثالثاً : يتواصل تحديد الحدود هكذا بين البلدين من وادى ملاف ابتداء من نقطة الأحيرش إلى الكرش فقلوب الثيران ، ورأس جبل الحافة ، ومن هناك إلى البحر .

رابعاً : الذين يعبرون الحدود من أى من البدين ، لا يتم الإعلان عنهم من طرف الدولة ، ويعتبرون متخلين عن بلدهم ، ويعتبرون من اختصاص البلد الذى اختاروا الاستقرار فيه[12] .

وعندما تم إبرام معاهدة سانسون نابوللون في 17 سبتمبر 1628 بين الجزائر وفرنسا ، نصت على مايلي فيما يخص بايليك قسنطينة .

ــ إعادة فتح الباستيون الفرنسى .

ــ إنشاء مركز تجارى فرنسى دائم في عنابة .

ــ إنشاء قلعة صغيرة في كل من رأس روز ، والقالة .

ــ حرية التجارة وضمانها بالنسبة للفرنسيين .

ــ حق البواخر الفرنسية في الرسو في أى ميناء جزائرى متى داهمتها الأخطار .

واستغل سانسون نابوللون هذه المعاهدة ليثير الشغب ، والاضطرابات في البايليك ، ليستغلها لمصالحه التجارية ، وخاصة المشاكل ذات الصلة بمركز طبرقة التونسي الذي يستغله الجنويون ، والذي حاول أن يحتله انطلاقا من مراكز القالة بالجزائر ، وانتهى

---

12) Vayssettes : IBID.p.331 — 372. berbrugger: revus africaine I.TV (   ) pp. 406 et suivante et M. rousseau: annales tunisiennes : (   ) pp.45

الأمر بقتله يوم 11 ماى 1633 م.[13]

وفى عام 1629 سمح لعدد من الكراغلة المنفيين بعنابة ، بالعودة إلى الجزائر العاصمة فقاموا بثورة دموية بالقصبة ، وفجروا جزءاً منها أتى على حوالي 500 منزل و 600 شخص قتيل ، وتمكن هؤلاء اليولداش من عزل حسن باشا ، وتعويضه بيوسف باشا عام 1633 م[14] .

وفي عام 1634 م حدث وباء الطاعون في البايليك ، وأدى إلى كارثة كبيرة . إذ توفي في قسنطينة وحدها ثلاثة علماء كبار ، هم : بركات بن نعمان ، وعبد اللطيف المصباح ، وبركات بن عبد المؤمن . وبعد عامين من هذا التاريخ توفي قائد جيش قسنطينة المشهور محمد بن حسين الذى كان قد خلف في المنصب نفسه رجب بن حسين .

وعندما تولى علي باشا الحكم بالجزائر خلفا ليوسف باشا عام 1637 - 1639 ، أعلن الحرب على فرنسا ، وأمر الرايس والقائد على بتشيني بشن حملة على المؤسسات الفرنسية في القالة وعنابة فنفذ الأمر واحتلها بدون صعوبة عام 1637 م وأسر 317 شخصا قادهم إلى الجزائر العاصمة[15] .

ثورة ابن الصخرى :

لم يكن مراد باي يجهل الدسائس التي يحيكها الأجانب ، والمتعاونون المحليون معهم في بايليكه ، ولذلك تجند لمقاومتهم سواء في منطقة القالة ، وعنابة ، أم في الحناشة بالشرق ، أو الدواودة في الجنوب ، وكان أخطر ما واجهه ثورة ابن الصخري شيخ العرب في جنوب البايليك ، التي امتدت بعد ذلك لتشمل كل البايليك .

ففي يوم 17 جوان 1637 م استدعى مراد باي إلى معسكره قرب مدينة قسنطينة محمد الصخري بوعكاز ، مع كبار عرشه ، وأوقفهم وحاكمهم بواسطة مجلس الديوان

---

13) انظر كتابنا : علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500 - 1830 م (الجزائر — ديوان المطبوعات الجامعية 1985)

14) المصدر نفسه .

15) المصدر نفسه كذلك .

فحكم على محمد بن الصخرى وابنه وستة من كبار قومه بالإعدام ، وأعدمهم في الحال بتهمة تعاونهم مع الأعداء . وكان ذلك سبباً في اندلاع ثورة عارمة عمت كل بايليك الشرق ، تزعمها ابن القتيل أحمد الصخرى ، وفرض حصاراً شديداً على مدينة قسنطينة ، وخرب كل الحقول المجاورة لها والمساكن ، وقتل الكثير من الناس ، ونشبت معارك كثيرة في مختلف أنحاء البايليك وسالت الدماء أنهاراً وانعدم الأمن ، واختل النظام ، وعمت الفوضى كل الأقليم ، وتعرض الباي مراد لهزيمة ساحقة في معركة سهل فيجل قرب سطيف ، واضطر أن يفر بنفسه رغم النجدات الكثيرة التي أرسلها له الباشا بالعاصمة مرتين اثنتين بقيادة كل من القائد يوسف والقائد شعبان .

وفي عام 1638 جاءت نجدات أخرى إلى الباي مراد قادها الأغا يحي ، وهاجم الثوار ، والمتمردين في الثمامشة ، وغيرها ، وحصل الشيء نفسه في العام الموالي ولكن الثورة لم تنته ، فتوسط الأغا يحي بشيخ أولاد عزام ، ليصلح ذات البين وتم الاتفاق على أن يدفع الدواودة والحنانشة ضريبة اللزمة على أن تعاد مراكز صيد المرجان الفرنسية لعملها على أساس أنها مصدر مهم للنشاط التجاري الخارجي في البايليك[16] .

وعندما تولى جمال يوسف باشا السلطة عام 1640 - 1642 م أمضى مع دوكوكيل de coquiel اتفاقاً لتنظيم العلاقات بين فرنسا والجزائر ، ولكن الكاردينال ريشيليو رفضه وألغاه على أساس ألا فائدة من المؤسسات الفرنسية في القالة وعنابة ، والتي تساس وتدار بواسطة المفاوض ليون طوماس بيكي . ولذلك عزم جمال باشا على زيارة البايليك بنفسه لمعالجة المشاكل على الطبيعة وفي عين المكان نفسه ، فراسل الزعماء الدينيين والشخصيات المرموقة ومنهم سي محمد الساسي العنابي ليستطلع رأيهم ، ثم أبحر هو إلى مدينة عنابة على رأس قوات معتبرة عام 1641 ، وأمر قوات أخرى أن تلحق به إلى قسنطينة عن طريق البر . وعندما وصل إلى هناك ، اجتمع بالباي مراد ، وكبار رجاله ، وتدارس معهم الأمور والأوضاع بالبايليك ، وقرب إليه العلماء ورجال الدين ، واستشارهم في كثير من القضايا وعالج أمور الجنود الانكشاريين الذين كانوا يتسببون

16) Vayssettes: IBID. pp,333 — 341.

في الفوضى والاضطرابات خاصة فيما يتصل بمنحهم ورواتبهم الشهرية ، وصلاتهم بجمهور السكان .

وبعد أن انتهى من علاج مشاكل مدينة قسنطينة واحوازها قاد حملة إلى الجنوب وسافر معه في هذه الحملة زعماء أولاد مقران ، وزعماء عائلة الحملاوى الدينيون ، وعندما وصلوا إلى مدينة بسكرة استقبلهم السكان بحفاوة وفرحوا بمقدمهم ، وتفقد مراد باي الأمور عن كثب واتفق مع كل زعماء الأعراش والقبائل هناك على أن يدفعوا الضريبة السنوية باستمرار ويزودوه بالفوم متى طلب ذلك ، وعاد من رحلته مزهوا فرحا عام 1642 م [17] .

ثورة أولاد عبد المومن بقسنطينة :

كان أولاد عبد المومن بمدينة قسنطينة من الصفوف القوية ، أصحاب المكانة والحظوة ، والسلطة ، والنفوذ ، لسنوات طويلة ، وهناك أيضا عائلة ابن الفقون التي كانت تزاحمهم المكانة ، والنفوذ الديني ، والسياسي ، والاجتماعي . وفي يوم 12 أكتوبر 1642 م ثار أولاد عبد المومن ، وحملوا السلاح ضد الجنود الأتراك الانكشاريين الذين أهانوهم واعتدوا عليهم ودامت المعارك يومين كاملين في شوارع المدينة ، وقتل خلق كثير من الجانبين خاصة من أولاد عبد المومن الذين قتل منهم 24 شخصاً ، واضطروا أن يعتصموا بحيهم في الجابية وأغلقوا الأبواب ، ولازموا منازلهم ، وحاصرهم الجنود الأتراك ، فتدخل شيخ البلد وشيخ الإسلام ، والقاضي ، لدى أغا النوبة (قائد الانكشاريين) وتم الاتفاق على أن ينسحب الجنود الأتراك إلى ثكناتهم ، ويعاقب الجناة من الجانبين .

ثورة أولاد مقران بمجانة :

وفي مطلع عام 1643 ثار المقرانيون بدورهم كذلك في البيبان ، ومنطقة سطيف

---

17) Vayssettes: IBID. pp. 342 —349

فاتجهت إليهم الكتائب برئاسة الأغا يحي من الجزائر والقائد يوسف من قسنطينة ، والقائد مراد من التيطرى ، والقائد شعبان من زمورة ، ونشبت المعارك وتعددت ولم تنته إلا بعد أن تعهد الداى بإلغاء بعض أنواع الضرائب المفروضة على الناس ، وحرية التجارة بين الجزائر والمنطقة ، وفي السنوات التالية حدثت اضطرابات كثيرة في جهات عديدة من البايليك ، وانتشرت المجاعة والجفاف ، وأمراض الطاعون فغلت الأسعار وكثرت الأهوال والكوارث فاضطرب البايلك وعمت الفوضى ، والقلاقل ، وعجز الباى مراد عن ضبط الأمور وإعادة الأمن إلى نصابه ، وأثرت فيه الأحداث ، والمشاكل العويصة فسقط مريضا وتوفي عام 1647 م فاقترح القسنطينيون على الباشا بالجزائر أن يخلفه ابنه فرحات فوافق على ذلك [18] وعينه ، وبه ابتدأ صالح بن العنترى كتابه الذى سنورده فيما يلي مع التعاليق التي سنزيدها عليه ، والتوضيحات المختلفة الضرورية ، وما أكثرها لأن ابن العنترى لم يكن مضبوطاً لا فى المعلومات ، ولا في التواريخ ، ولا فى الأحكام .

□ □ □

---

18) Vayssettes : IBID.pp 350 — 352.

[illegible]

ثورة أولاد عبد المؤمن بقسنطينة

كان أولاد عبد المؤمن عائلة قسنطينية من [illegible] وأصحاب الكتابة والخطوط ، والسلطة ، والنفوذ ، لسنوات طويلة ، وهناك أيضا عائلة ابن الفقون التي كانت تزاحمهم المكانة ، والنفوذ الديني ، والسياسي ، والاجتماعي . وفي يوم 22 أكتوبر 1642 م ثار أولاد عبد المؤمن ، وحملوا السلاح ضد الجنود الأتراك الانكشاريين الذين عاقبوهم واعتدوا عليهم ودامت المعركة يومين كاملين في شوارع المدينة ، وقتل خلق كثير من الجانبين خاصة من أولاد عبد المؤمن الذين قتل منهم 80 شخصاً ، واضطروا أن يتحصنوا بعضهم في الحامية وأغلقوا الأبواب ، ولازموا منازلهم ، وحاصرهم الجنود الأتراك ، فتدخل شيخ البلد وشيخ الإسلام ، والقاضي ، لدى آغا النوبة (قائد الانكشاريين) وتم الاتفاق على أن ينسحب الجنود الأتراك إلى ثكناتهم ، ويعاقب الجناة من الجانبين

ثورة أولاد مقران بمجانة :

وفي مطلع عام 1643 ثار المقرانيون بثورتهم كالعادة في البيبان ، ومنطقة سطيف

(7) Vayssettes: Ibid. pp. 307 – 308

محمد الصالح بن العنترى

فريدة منيسة فى حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها

أو

تاريخ قسنطينة

الحمد لله بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله (كذا) سيدنا محمد وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين

الحمد لله الواحد الأحد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولد ، مالك الملك بقدرته ، ومكون الأكوان بإرادته ، ومرسل الرسل لإرشاد عبيده ، سبحانه جل وعلا في ملكوته ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه ، وإليه يرجع الأمر كله .

ولما كانت الأخبار السابقة والآثار السالفة يحتاج كل لبيب الحاذق إليها ويتسلى الذكي الفاهم بمطالعتها ، اقتضى الحال لذلك ترجمة لطيفة ونبذة مستحسنة ظريفة لمن أرادها من ذوى العقول الراجحة ، وجلساء السلاطين والملوك الفاخرة ، فألزمت نفسي لقرع هذا الباب واستعملت فكرى فيما رغبوه مني أولئك الأحباب وسميتها : فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها ، وذكر شيئا مستفاداً (كذا) من سيرة باياتها إلى انقضاء دولتهم ، واحتواء الفرانسيس على مملكتهم .[1]

ونسأل الله سبحانه وتعالى العفو عن زلة اللسان ، والتجاوز عما يخطر من الهفوات بالجنان ، والصفح عما تكنه الصدور ، وإلى الله عاقبة الأمور .

حكي عن الناس المتقدمين (الراسخين في الأعمار المسنين أن الترك لما تملكوا بالجزائر ـــ وتوغلوا فيها توغل البحرالزاخر ، وذلك من بعد الحروب والأفتان مدة طويلة وبرهة من الزمان . ومن بعد تملكهم بها ، وتمهيد أو طانها تراهم قدموا إلى قسنطينة لأجل أن يستولوا عليها ، ويحتوا على أوطانها ، وكانت ذلك الوقت هي في حكم صاحب ولاية تونس ، فحين وصلوها ونزلوا بطرفها ، راموا دخولها من غير حرب ولا قتال ، فلم ينتج لهم شيء ، من ذلك المآل ، إلأ من بعد المقاتلة الكبيرة والمحاصرة

---

1) Salah el- antri: premiere essai d'une histoire de constantine. farida mounissa (la perle agreable) texte arabe (constantine - frlix guende impreneur et lithographe plage de palais 1846) 2ème editilon 1852 ?

الحمد لله بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على
سيدنا محمد وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

الحمد لله الواحد الاحد :: الذي لم يتخذ صاحبة
ولا ولد :: مالك الملك بقدرته :: ومكون الاكوان
بارادته :: ومرسل الرسل لارشاد عبيده
:: ليشهدوا انه جل وعلا في ملكوته :: لا رب غيره
ولا معبود سواه :: واليه يرجع الامر كله ::
وكم ستر ارباب الاخبار :: محاسن الاخبار
السابقة :: والاثار الصالحة :: يحتاج كل
لبيب الحاذق اليها :: ويتسلى بالتذكر البائس
بكما لحقه :: اقتضى الحال الذي الف ترجمة لطيفة
:: ونبذة مستحسنة ظريفة :: لمن ارادها
من ذوي العقول الراجحة :: وجلساء السلاطين
والملوك الباذخة :: جالت نفسي لنوع هذا
الباب :: واستعملت فكري في ميدان غيرة مني
او لا بكر الاحباب :: وسميتها
في برزة منيسير في حال دخول الترك بلد
قسنطينة واستيلائهم على اوطانها :: وذكر بعض
مفسدها ومن سيرة جبابرتها :: الى انفصال
دولتهم واحتواء ابن نعيسر على مملكتهم
ونسال الله سبحانه ونطلب العفو عن زلة
اللسان :: والتجاوز عما يحكي من الهفوات ::

[illegible]

الورقة الأولى من كتاب صالح العنتري
بخط ناسخه المكي بن علي بن الفقون

الطويلة . ولما طالت تلك المحاصرة ، واشتدت من الجانبين المقاتلة ، وقع الخلاف بين أهل البلد ، فبعضهم يقول نسلموها (كذا) ونستريحوا (كذا) من العناد ، وبعضهم يقول لا نسلموها (كذا) بلادنا ، وفي تسليمها أمر قبيح علينا .

فلما كثر الكلام بينهم ، وتفاقم الأمر لديهم قابلهم سيدى الشيخ بن الفكون واحتج عليهم بالدليل القاطع ، وأشار عليهم بالرأى المصيب النافع ، قائلا : هؤلاء الترك قدموا من حضرة السلطان العثماني ، وهم من أبناء جنسه وتحت حكمه ، إذ لا يليق بنا مقاتلتهم ، ولا يسعنا منعهم ، وربما تلحقنا الضرورة من السلطان المذكور من أجل مقاتلتنا لهم ، ومنعنا من دخولهم .

فعند ذلك أذعن له الصف الآخر وانقاد ، واتفقوا (كذا) كل الناس وفتحوا أبواب البلاد ، هذا الوقت دخلوا (كذا) الترك في قسنطينة وتكلموا مع ناسها قائلين نحن كنا قدمنا من حضرة الدولة العثمانية إلى الجزائر ففتحناها ومهدنا أوطانها ، وحكمنا جار فيهم بالعدل والكمال وما ناخذوا من وطنها إلا الشيء الحلال ، الذى هو مثل الزكاة (كذا) الواجب إخراجه من الأموال ، والنعم والمزروعات ، على نمط الشريعة والطريقة المستقيمة القويمة ، ثم قدمنا إلى قسنطينة كذلك يكون حكمنا بالعدل كما هو هناك ، ونجعلوا حاكم الذى تختارونه منكم ، يكون كبيراً عليكم ، ومتولي أمركم ، فحينئذ تأنسوا أهل البلاد بكلامهم واطمأنوا لجانبهم ، ورجعوا حاكم (كذا) من البلدية ، الذين لهم في ذلك الوظيفة أهلية .

وكان الخبر وصل إلى الباشا بالجزائر ، وتحقق بدخول الترك في قسنطينة على الوجه المذكور الصاير ، فكتب جوابين أحدهما إلى السيد الشيخ بن الفكون خصوصا والآخر إلى ناس قسنطينة عموماً .

صورة الجواب الأول :

الحمد لله ، إلى مقام العالم المشهور الخيّر الصبور معدن الفضل المصون ، سيدى الشيخ بن الفكون ، أما بعد السلام عليكم ، والسؤال الكثير عنكم ، ومن أنتما (كذا)

إليكم ، وانتسب إلى جنابكم ، فقد بلغنا أنك سرت إلى ناس قسنطينة بالتدبير المفيد ، والرأى الصائب الرشيد ، فكان في ذلك حقن دمائهم ، وزوال الخلاف والهرج بينهم فجزاك الله بأحسن الجزاء ، وضاعف لك الخير والثناء ، وما أنت إلا حبيبنا وصديقنا ، من كونك تسعى في الخير والصلاح ، وترشد العباد للفلاح والنجاح ، وثم نلتمس منكم دعاء الخير في كل خطب ، وزمان كل ركب ، وكن ببال من أولادك الترك والسلام كتب بأمر الباشا بالجزائر .

وصورة الجواب إلى ناس البلاد :

الحمد لله مكتوبنا هذا يتصل بيد ناس قسنطينة الخاصة والعامة ، السلام عليكم والسؤال عنكم . وبعد فإنكم عملتم مليح (كذا) وتدبيرا لائقاً صحيح (كذا) من كونكم سلمتم بلد قسنطينة إلى الترك من غير ارتياب ولا شك ، مراعة (كذا) للدولة العثمانية ، وطاعة لتلك الحضرة العلية وآثرتم العافية على الفتنة . وحقن الدماء ، واجتناب المشقة ، فنعم ما صنعتم ، وخير ما عملتم ، إذ نحن وأنتم في حكم الدولة المذكورة ، وفي طاعة تلك الحضرة المبرورة ، وعليكم باتباع سيدى الشيخ ابن الفكون ، والانقياد إلى رأيه المصون ، وما أنتم إلاّ أولادنا وإلينا والسلام . كتب بأمر الباشا بالجزائر .

وأما الترك أسسوا برجا خارج البلاد يسكنون فيه ، وكل الترك الذين يأتوا (كذا) من الجزائر ينتمون إليه .وكان دخول الترك في قسنطينة عام ألف وخمسين[1] بعد أن مضت من ولاية يوسف باشا عامين (كذا) ونصف .

ولما ملكوا (كذا) الترك قسنطينة بقوا أهل البلاد في أشد ما يكون من الجوع والشر ، سبعة أعوام ، وأهل الوطن خارجون عن الطاعة . فلما كان عام سبعة وخمسين وألف[2] اجتمعوا (كذا) أهل البلاد وأرسلوا إلى ناس الوطن فأتوهم (كذا) أكابر

---

1) هجرية الموافق لعام 1640 م .

2) هجرية الموافق لعام 1647 م .

الوطن ، واجتمعوا مع الترك الموجود في قسنطينة ، وقالوا نكتبوا (كذا) إلى الباشا بالجزائر يجعل لنا حاكما ، فاتفقوا الجميع (كذا) وكاتبوا إلى حضرة الباشا ، وخبروه بأن أمرهم لا يستقيم إلاّ بحاكم عادل ، وأن أهل البادية إذا وجدوا حاكما يدخلون كلهم تحت طاعته . فلما وصل كتاب أهل قسنطينة إلى حضرة الباشا رّد لهم الجواب ، وقال لهم اختاروا من يصلح بكم فنرده ــ عليكم فلم يجدوا أهل البلاد رجلاً أحسن من سي فرحات .

فرحات باي 1647 - 1653 :

كان ذا عقل ودار كبيرة ، فاتفقوا عليه ، وخبروا حضرة الباشا به فكتب له الأمر ، وأرسل له القفطان ، وفوض له الأمر ، وأعانه بما يحتاج إليه فدخلوا الناس (كذا) تحت طاعته ، وأذعنوا لحكمه ، وأذهب الله الفتن ، والغلاء وكثر الرّزق ونزلت العافية و لم يبق واحد من الرعية إلا ودخل تحت الطاعة[3] . وجمع أموالاً من الزكات (كذا) والعشور وحملها وتوجه بها إلى الجزائر في عام ثلاثة وستين وألف[4]ومشوا معه ناس من أكابر الوطن ، وأشراف البلاد ، فلما وصلوا إلى الجزائر لاقوه أصحاب الدولة وأكرموه وعظموه وقبلوا هديته ورفعوا منزلته ، وبقى في الجزائر ثمانية أيام فلما أراد الرجوع طلب من الباشا أن يسرحه ويرجع باي آخر في قسنطينة واعتذر له بأنه حصل له مرض و لم يقدر على القيام بأمر المملكة فلم يرض الباشا بعزله ، ولا الأكابر الذين قدموا معه من قسنطينة ، بل قالوا له إذا لم يقدر هو فابنه ، فقال لهم الباشا ، وما اسم ابنه فقالوا اسمه فرحات محمد ، فقال لوزيره اكتب الأمر إليه وابنه باي ، وأبوه يقوم

---

3) بدأ فرحات باي عمله بإعادة الأمور إلى نصابها في البايليك ، ووضع حدا للاضطرابات والقلاقل التي عرفها طيلة عشر سنوات تقريبا ، وذلك بفضل القوات التي وضعها تحت تصرفه باشا الجزائر فقهر كل الخصوم والأعداء . وأرغمهم على الخضوع والاعتراف بسلطته ، وعظم عائلة ابن الفقون التي وقفت إلى جانبه منذ البداية وحثت الناس على طاعته ، انظر : فايسات المصدر نفسه (1868) ص 254 - 261 .

4) الموافق لربيع عام 1653 م .

بأمره وخَرَّجَ القفطان ، فأرسلوا إليه ولاقاهم في حمزة ، ولبس القفطان هناك[5] .

محمد باي بن فرحات 1653 - 1666 م :

وتولى محمد باي رحمه الله بن فرحات المذكور عام ثلاثة وستين وألف[6] فمكث في ولايته زمان (كذا) وعزل[7] .

رجم باي 1666 - 1674 م :

ومن بعده تولى رجم[8] وهو عم محمد باي بن فرحات فكان رجم باي سيرته مليحة واقف في حقوق الناس ، وهو الذى بنا (كذا) في قسنطينة جامع يتسمى بجامع رحبة الصوف ، وعزل[9] .

---

5) بعد أن لبس ابنه محمد قفطان التولية في برج حمزة (البويرة) عاد معه إلى قسنطينة وبقي يسير الحكم إلى جانبه أكثر من عشر سنوات . معززا مكرما ، مسموع الكلمة . وحافظ على الأمن في البايليك حتى توفي يوم 25 ربيع الأول 1075 هـ (16 أكتوبر 1664 م) وخلف من ورائه ابنه محمد باي ، وزوجته عزيزة باي التي أسست في مدينة الجزائر الدار التي تحمل اسمها : دار عزيزة بجوار جامع كتشاوه . واتخذت بعدها مقرا لبايات قسنطينة ، الذين يحملون الدنوش ، فيقيمون بها ثمانية أيام المقررة لضيافتهم ثم يعودون إلى قسنطينة ، انظر : فايسيت . المصدر نفسه .

6) الموافق لعام 1653 م مارس السلطة الفعلية بعد موت أبيه ، وحصل في عهده وباء يحطم في قسنطينة استمر من شهر رمضان إلى ذى القعدة عام 1073 هـ (1663) وقضى على خلق كثير منهم الشيخ عبد الكريم في الفقون الذى مات يوم 27 ذو الحجة وخلفه ابنه محمد في منصب شيخ الإسلام . انظر فايسيت . المصدر نفسه ص 262 - 264 .

7) لم يوضح فايسيت ، ولا العنترى سبب عزله .

8) هكذا سماه العنترى رجم بالميم ، وذكر فايسيت أنه يسمى هكذا ، ويسمى أيضا رجب بالباء وجاراه في ذلك فيرو . ويبدو أن رجب بالباء أصح لكثرة شيوع هذا الاسم بين الأتراك نسبة إلى الشهر العربي رجب .

9) حكم البلاد وأدارها بجد ومهارة وتزوج من زوجة أخيه الراحل فرحات ، المدعوة عزيزة باي صاحبة الدار المشار إليها سابقا بالجزائر العاصمة . وهي بنت القائد أحمد بن رمضان ، شقيق شبلي بن علي بتشيني ، القائد والرايس البحرى المشهور . أخذها معه إلى قسنطينة حيث عاشت معه ثلاث سنوات ثم قتلت في مزرعته بالحامة في جمادى الأولى 1079 هـ (4 نوفمبر 1668 م .) على أيدى خادمه بن شردال لأسباب غير معروفة ، وقيل إنه بتحريض من زوجها الذى واصل إدارة البايليك بعدها ست سنوات أخرى إلى أن عزل وعوض بخير الدين . فعاش بعد ذلك عاما آخر حتى توفي في ذى الحجة عام 1084 هـ (9 - 18 مارس 1674 م) . انظر : فايسيت ، المصدر نفسه ص 264 - 267 .

خير الدين باي 1674 - 1676 م :

ومن بعده خير الدين باي رحمه الله تولى عام أربعة وثمانين وألف[10] . فمكث زمان (كذا) في ولايته ومات[11] . وجميع ما ذكرنا كلهم عرب ، ومن بعدهم تولى الترك .

دالي باي 1676 - 1679 م :

فأول من تولى دالي باي رحمة الله في عام سبعة وثمانين وألف[12] . وكان رجلاً قتالاً يأخذ أموال الناس بالباطل ، فاشتكوا به ناس قسنطينة إلى الباشا بالجزائر فقتله[13] .

باش أغا باي 1679 - 1688 م :

ومن بعده تولى باش آغا باي رحمه الله عام تسعين وألف[14] فمكث في ولايته تسع سنين ، ومات[15] .

---

10) الموافق لعام 1674 . وقد بقي في الحكم حوالي أربع سنوات ، ولم تذكر المصادر معلومات مهمة عنه وعن أعماله ، وهو آخر بايات العرب .

11) هكذا ذكر العنتري ، أما فايسيت فذكر أنه عزل في أبريل 1676 (صفر 1087) وعوض بدالي باي من الأتراك ولم يذكر سبب عزله . انظر المصدر نفسه ، ص 267 — 268 .

12) الموافق لعام 1676 م شهر أبريل . وهو من قوات الميليشية التركية ويتضح من رواية العنتري أنه قتال وسفاك للدماء ، ومخرب ، ولذا اشتكى منه السكان إلى الباشا بالعاصمة فلبّى رغبتهم وعزله وأمر بإعدامه ، فأعدم في الحال ، وعوض بابنه عمر بن عبد الرحمن المدعو باش أغا .
انظر : فايسيت ص 268 - 269 .

13) عزل وأعدم عام 1090 هـ الموافق لعام 1679 م .

14) الموافق لعام 1679 م ، اسمه عمر ، وشهر بباش أغا ، وهو ابن دالي باي السابق الذى اسمه عبد الرحمن ولهذا يقال له عمر بن عبد الرحمن كما وجد ذلك في رسالة أحمد زروق بن سيدى محمد بن يحي بتاريخ آخر رمضان ، 1091 (17 - 26 نوفمبر 1680) نقلاً عن فايسيت ، حكم باش أغا هذا تسع سنوات ومع ذلك لا تذكر المصادر أخبارا كثيرة عنه ماعدا تحديد مستحقات الشيخ عبد الكريم الفقون كإمام للجامع الكبير ، وأمير للركب ، انظر : فايسيت ص 268 - 269 .

15) توفى باش أغا في شوال 1099 هـ (17 — أوت 1688 م) ، وخلفه سيدى شعبان .

شعبان باي 1688 - 1692 م :

ومن بعده تولى شعبان باي رحمه الله عام تسعة وتسعين وألف[16] .

علي خوجة باي 1692 - 1700 م :

ومن بعده تولى علي خوجة باي رحمه الله عام أربعة ومائة وألف[17] ، وكان مليح (كذا) أحكامه بالعدل ، وسيرته مرضية ، وفي عام اثنى عشر ومائة وألف[18] قدم مراد باي صاحب ولاية تونس بعرض كبير ، وقصد إلى قسنطينة فنزل بموضع يتسمى الملعب ، قريبا من البلاد وحاصرها نحو ثلاثة أشهر فلم يتحصل بيده شيء فارتحل وقصد إلى الجزائر وكانوا ناس قسنطينة في مدة حصارهم خبروا الباش بالجزائر وطلبوا نصرته إليهم فلما وصل الخبر تقلق وتحير وصار ينشىء في أمره ويدبر . وأما مراد باي المذكور لما وصل إلى الحجاز الأحمر قريبا من سطيف وكان بينه وبين سطيف مرحلة تلقاه هناك عرضي الجزائر فنزل كل عرضي في مكانه وصاروا قبالة بعضهم وكان مع مراد باي نحو سبعمائة خباء والذى مع باشا الجزائر نحو مائة خباء . فاستضعفهم مراد باي وقال اليوم نستريحوا وغدا في الصبح نأخذوهم ونقتلوا الباشا الذى هو أميرهم ثم نسيروا إلى الجزائر ونستولوا على ملكها من غير تعب . وكان باشا الجزائر وعسكره نزل بهم خوف عظيم وتيقنوا أنهم صاروا في الهلاك فبقوا يخمموا ويدبروا وقالوا إن ضربنا وإن هربنا كذلك نموتوا فاتفقوا أنهم يهجموا على عرضي تونس فلما عسعس الليل ونام كل ذى ذيل ،

---

16) الموافق لعام 1688 م وقد اهتم بجمع أموال الدنوش وتكثير أعداد جنود الزمالة المعسكرين في حوض وادى الرمال بين عين سمارة ، وقسنطينة ، والذين يقومون برعي قطعان حيوانات البايليك التابعة ، للباي . وقد استعمل كل الوسائل لتوفير أموال الدنوش ، وجمعها لإرضاء باشا العاصمة . وفي آخر حياته ثار أولاد بو عون في بالزمة ، وهاجموا أحواز مدينة قسنطينة ، فتوجه إليهم القائد رجب ، وأدبهم ، ووضع حدا لثورتهم وتمردهم .

حكم شعبان باي أربع سنوات ثم عزل عام 1692 وعوض بعلي خوجة باي . انظر فايسيت .

المصدر نفسه . ص 270 - 273.

17) الموافق لعام 1692 م .

18) الموافق لعام 1700 - 1701 م .

قام باشا الجزائر هو وعسكره عن آخره وتقدموا إلى محلة مراد باي فهجموا عليه بهجمة واحدة وهم نائمون ودخلوا عليهم بضرب السيوف من كل جيهة (كذا) فوقعت ضجة عظيمة وهزيمة كبيرة في محلة تونس ومات من عسكرها نحو السبعة آلاف رقبة وفرّ الباقي وتفرقوا في الوطن سبيا وهرب مراد باي ولم يثبت خوفا يتمكنوا به وركب على حصان اسمه كحيل فلم يتنفس به من المجاز الأحمر إلى مرج كحيل فسقط من تحته ميتا وهذه المسافة قدر مسيرة أربعة أيام ولذلك صاروا الآن يسموه هذا الموضع بمرج كحيل وفي يوم الفتنة مات علي باي[19] .

أحمد خوجة باي بن فرحات 1700 - 1703 م :

وتولى أحمد خوجة باي رحمه الله وهو ولد أحمد بن فرحات باي عام اثني عشر ومائة وألف[20] وهو أخو محمد باي بن فرحات ، وربطه الباشا في السجن أياما ثم قتله .

---

19) هذه رواية العنترى واعتمدها فايسيت ، أما حسن حسني عبد الوهاب فقد ذكر أن سبب هجوم مراد باي على الجزائر هو ردها له هدية كان قد أرسلها إلى حاكمها ، فاستشاط غضباً وقام بتلك المغامرة . وذكر كذلك أن مراد باي لم يمت وإنما انسحب إلى القيروان مدحورا وخرب معالمها الجليلة ولم يترك بها سوى المساجد وبعض الزوايا . ولبث هذا الجائر يعيث في البلاد فسادا حتى فتك به إبراهيم الشريف بمواطأة كبار الجند ، وقيل بإذن من الباب العالي . ونقل فايسيت عن شربونو ، رواية عبد العزيز التونسي في نهاية القرن الثاني عشر الميلادى (أواخر القرن 18 م) الذى ذكر بأن مراد باي عندما عزم على غزو الجزائر طلب من خليل باي حاكم طرابلس أن يعضده فلبّى الرغبة ولكنه فر من الميدان في قسنطينة بعد أن فشل مراد باي في اقتحامها ، رغم أنه تلقى منه قفطانا وأموالا كثيرة وذكر عبد العزيز كذلك بأن مراد باي أسر ابن الباي علي خوجة وزوجته ، وصادر الكثير من قطعان المواشي وحاول أن يتخذها وسيلة للضغط على السكان حتى يفتحوا له المدينة فلم ينجح ، وانتهى في الأخير إلى تلك الهزيمة المرة وقتل يوم 18 ربيع الثاني 1112 هـ (3 أكتوبر 1700 م) واستولى الجزائريون على كل أمواله وذخائره وأسروا عددا من جنوده وقتل باي قسنطينة في المعركة نفسها . انظر فايسيت . المصدر نفسه . ص 274 - 280 . حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ط (تونس 3 – 1373 هـ) . 145 - 146 . وكذلك . [illegible]nneau : journal asiattque (juillet 1851 , p.36 et suiv. .A. rousseau : annales tunisiennes .pp.82 [illegible]yssonnel: voyage sur les cotes de barbarie en 1724 - 1825. (pureau de la malle 1838) P.332.

20) الموافق لعام 1700 . وهو ابن فرحات باي ، وشقيق محمد باي ، وحفيد رجب باي ، أصله عربي وينتمي إلى أسرة تولى منها ثلاثة رجال منصب الباي في البايليك ، وهو رابعهم ، حكم حوالي عام ونصف ثم أمر الباشا بسجنه ، وإعدامه ، فأعدم وخلفه إبراهيم باي العلج عام 1703 م انظر فايسيت المصدر نفسه ، ص 281 .

إبراهيم باي العلج 1703 - 1707 م :

ومن بعده تولى إبراهيم باي العلج عام 1114 هـ[21] رحمه الله . وكان رجلاً فاطنا (كذا) حسن الوجه لكنه يأخذ أموال الناس بالباطل . وفي سنة تسعة عشر ومائة وألف[22] جاء مصطفى باشا ، ومشى إلى تونس ونزل عليها مدة أربعة أشهر وتكلم مع عسكرها ، ووعدوه بالدخول في طاعته وأمرهم أن يربطوا باي تونس فربطوه ، ولما طلبوه في الكلام الذى تكلم معهم لم يوفهم به فانقلبوا عليه وفتنوه ورحل مكرها ولم يدخل إلى تونس ، فلما وصل إلى الجزائر ، وجد باشا آخر قعد فى موضعه فهرب إلى زاوية سيدى على بن المبارك في عمالة الجزائر ، وبقي هناك حتى مات وكذلك إبراهيم باي العلج هرب[23] .

حمودة باي 1707 م :

ومن بعده تولى حمودة باي رحمه الله عام تسعة عشر ومائة وألف[24] وهو عربى من أهل البلاد .

---

21) الموافق لعام 1703 م .

22) الموافق لعام 1707 و 1708 م .

23) إبراهيم العلج يطلق عليه اسم بن عبد الله كذلك ، أصله مسيحي أسر ، وأسلم ، وحسن إسلامه ، اتصف بالحيوية والنشاط ، ولكنه كان يصادر أموال الناس بدون مبرر ، ولا رحمة ، وفي عام 1705 م اندلعت الحرب بين الجزائر وتونس فقاد الداى مصطفى بنفسه قواته إلى تونس ، وصحب معه إبراهيم باي العلج ، واصطدموا بإبراهيم الشريف في مدينة الكاف وهزموه ، وأسروه هو وأخوه محمد وواصلوا سيرهم إلى تونس ، وفرضوا عليها الحصار في بوعجوس ، وشرعوا في المفاوضات مع الباي الجديد حسين بن علي ، وطالت ، وتجددت يوم 2 سبتمبر 1705 ، ولم تنجح واضطر باشا الجزائر وباي قسنطينة أن يستنجدوا بقواتهم مخافة أن تطبق عليهم القبائل الثائرة ، خاصة بعد أن نجحت في مصادرة قافلة تموين قادمة من عنابة . وعندما وصل إلى الجزائر وجد هناك انقلابا ضده فالتجأ إلى زاوية علي بن المبارك في القليعة ، واعتصم بها حتى توفي وذكر روسو بأنه شنق بعد ثورة عارمة ضده . أما إبراهيم العلج فقد فرّ واختفى وخلفه في منصبه حمودة باي . وترك من ورائه عائلة أولاد بن الأبيض المشهورة في قسنطينة ، وكانت ما تزال موجودة عندما كتب فايسيت كتابه عن بايات قسنطينة . انظر فايسيت المصدر نفسه ص . 281 - 285 .

وكذلك حسن حسني عبد الوهاب . المصدر نفسه ص 146- 150 .

24) الموافق لعام 1707 م ، ولم تذكر المصادر شيئاً عن أعماله هو والبايات الخمسة الذين جاءوا بعده لغاية 1713 م ، ويبدوا أن هناك عدة قلاقل واضطرابات لأن أولئك البايات لم يبق أى واحد منهم في الحكم أكثر من عام ما عدا علي بن صالح باي . وحتى فايسيت لم يذكر لهم شيئا .

علي باي بن حمودة 1708 م :

ومن بعده تولى علي باي بن حمودة رحمه الله عام عشرين ومائة وألف[25] وهو عربي أيضا .

حسين شاوش باي 1708 م :

ومن بعده تولى حسين شاوش رحمه الله عام واحد وعشرين ومائة وألف[26] .

عبد الرحمن باي بن فرحات 1709 م :

ومن بعده تولى الرحمن باي رحمه الله بن فرحات عام اثنين وعشرين ومائة وألف[27] .

حسين دنفزلي باي 1710 م :

ومن بعده تولى عبد دنفزلي باي رحمه الله اسمه حسين وهو تركي في العام 1122 المذكور[28] .

علي بن صالح باي 1710 - 1713 م :

ومن بعد تولى علي باي بن صالح رحمه الله عام 1122[29] .

---

25) الموافق لعام 1708 م .

26) الموافق لعام 1708 م .

27) الموافق لعام 1709 م .

28) الموافق لعام 1710 م .

29) الموافق لعام 1710 م . وقد بقي في حكمه حتى عام 1713 لمدة أربع سنوات . ثم تخلى عن إدارة البايليك بإرادته وذهب إلى الحج ، وعندما عاد قصد إلى أولاد خلوف بجهات مجانة ، واعتكف بزاوية سيدى أحمد بن علي حتى توفي . وخلف وراءه ثلاث بنات زوجها لشخصيات مرموقة من عائلة أولاد مقران بمجانة . انظر فايسيت . المصدر نفسه ص 286 - 288 . وكذلك المجلة الإفريقية . مجلد عام 1865 . ص 124 .

قليان حسين باي المدعو بوكمية 1713 - 1736 م :

وبعده تولى حسين باى بو كمية رحمه الله وهو قليان حسين ، عام خمسة وعشرين ومائة وألف[30] وهو رجل مليح له شجاعة . ومشى إلى تونس فأخذها وقتل صاحب ولايتها ، والسبب فى ذلك أن أصحاب مملكة تونس وقع بينهم التحاسد على الولاية وكل واحد منهم يدعيها لنفسه ففر واحد منهم إلى الباشا بالجزائر واستغاث به فقبل كلامه الباشا المذكور ، وجهز له عساكر وبعث معه الباي بوكمية وأرسل إليه جوابا قائلا له فراه قادم إليك أخو صاحب ولاية تونس وبيده عساكر من عندنا فلازم أنت تنظم ما استطعت من عساكرك واعمل معه كل جهد بالتأويل ، وكن له مصاحبا في الإقامة والرحيل . فلما وصل ذلك الجواب إلى الباى بو كمية قام على ساق الجد ونظم عساكر وجند ، ثم تقدموا جميعا للسفر بالعزم والاجتهاد قاصدين إلى تونس بذلك العساكر والأجناد ، وكان الخبر وصل إلى صاحب ولاية تونس تراه نهض فى الحال ورتب عساكر وأمحال وخرج هو معهم ونزل بناحية القيروان وبقي مقيما هناك لأجل مطاردة العرضى القادم إليه من الجزائر فلما وصل إليه الباي بو كمية وقابله بالعساكر الجزائرية ، ثم نشأت من الجانبين الحروب العظيمة والمقاتلة الشنيعة فانهزم عرضى تونس[31] وهرب صاحب ولايتها إلى مدينة القيروان ولاقاه البين والامتحان ، فحينئذ تقدم بو كمية هو وصاحبه ودخلوا إلى تونس من غير حرب ولا قتال ، ولا معارضة ، ولا نكال فاستولوا على خزائنها واغتنموا ذخائرها ، وتولى

---

30) الموافق العام 1713 م . وكان قليان حسين رجلاً حازما نشيطاً ، وقوياً ، مما ساعده على البقاء في الحكم 23 عاما وضع حدا لكل القلاقل والاضطرابات في البايليك ، وفي جانفي 1725 ذهب إلى الحنانشة والأوراس لجمع الضرائب ، وتهدئة الأحوال ، ومراقبة الأمور عن كثب وتمكن الرحالة الفرنسي بيسونيل peyssonnel من الاجتماع به في معسكره بالنقش بفضل تدخل دوسلاف :de slave الموظف الفرنسي في الشركة الإفريقية بعنابة . ورافقه إلى عين تارقا ، ومدغاسن ، وأم الأصناب ووادى سركا ، ثم غادره ، والتحق بعنابة فالجزائر العاصمة عبر قسنطينة انظر peyssonnel et pesfountaine : voyage dans les regences de tunis : et d'alger (dureau de la malle - 1838) p.289. vayssettes : IBID.pp 288 - 295.

31) المقصود بالعرضي . هو الحملة العسكرية ، والجيش العسكري .

مريد إلى المملكة ونال مرغوبه وبغيته[32] .

وأما ناس تونس فتلاشوا خوفاً ، وتفرقوا غرباً وشرقاً ، فعند ذاك نادى منادى الأمان ألا فارجعوا لا حرج عليكم ولا امتحان ثم إن صاحب ولاية تونس الجديد عقد شروطاً مع بوكمية والتزم بأدائها إلى الجزائر في أوقات معلومة وأزمنة مفهومة[33] .

وأما الباي فقد أخذ من عند صاحب ولاية تونس معاملته وعبأ من ذلك الذخائر ما حب خاطره ، ورحل من تونس بجنده وعساكره فلما وصل إلى قسنطينة كانت له المرتبة الشهيرة وصار يرتب الأمحال ويخرج إلى الوطن يستخلص الخراج من الأموال ، وانقادت له الرعية والعمال . وكان حكمه بالعدل والكمال ، وسيرته على أحسن حال ، ومن هذا الوارد من كلام الحكماء أصحاب الموارد : العدل مادام عمر ، والظلم مهما كان مر . ومن ذلك أيضا الملك بستان ، وثمرة نتيجته العدل والإحسان .

ويرجع الكلام إلى الباي بوكمية لما طالت ولايته وبدت قوته تراه طلب الإذن من

---

32) نشبت هذه الحرب عام 1735 . ومن أسبابها اختلاف باي تونس حسين بن علي مع حفيده علي باشا واندلاع الحرب بينهما ، ولجوء الأخير إلى الجزائر واحتماؤه بالداي الذى قبل لجوءه ورفض أن يقتله ، واكتفى بأن قبل أن يدفع له حسين بن علي جزية سنوية مبلغها عشرة آلاف سكين ، ولكن الباي التونسي رفض عام 1735 دفع هذا المبلغ ، فقرر الداي نجدة علي باشا وتجهيزه بقوات للسيطرة على عرش تونس . انظر . فايسيت . المصدر نفسه . ص 290 - 302 .

33) بعد أن قرر إبراهيم باشا دعم علي باشا ضد عمه حسين بن علي ألف جيشاً كبيراً من المشاة والفرسان ، ووضع 3000 عسكرى من المشاة تحت قيادة الخزناجي ، وألف فارس تحت قيادة علي باشا التونسي ، وكلف باي قسنطينة بوكمية بمرافقتها إلى تونس بقواته ، وعندما علم باي تونس حسين بن علي بهذه الاستعدادات استعد هو الآخر عسكرياً ، وعرض على الداى بواسطة بوكمية دفع مبلغ 50 ألف قرش ضريبة سنوية . مقابل الكف عن الزحف على بلاده ، فلم يفلح العرض ، وتواجهت القوتان في نهاية ربيع الأول 1148 هـ (19 أوت 1735 م) في واد مليان بسمنجة ، وجرت بينهما عدة مناوشات لمدة 16 يوما . وفي يوم 16 ربيع الثاني 1148 (4 سبتمبر 1735) جرت بينهما المعركة الفاصلة وهزم حسين بن علي ، وهرب ووقعت كل مؤنه وذخائره وعساكره في أيدى الباي بوكمية ، وعلي باشا التونسي ، وقام بوكمية بتنصيب علي باشا على عرش تونس يوم 7 سبتمبر 1735 ، وبقي بوكمية وجيشه عشرة أيام ثم عاد إلى الجزائر ومعه 35 حصاناً محملة بالنقود والأموال التي تعهد بدفعها علي باشا . وكان بوكمية الشخصية المرموقة في هذه الحرب كرجل عسكرى قدير . وذكر فايسيت بأنه لولاه لما تم انتصار الجزائريين . انظر فايسيت المصدر نفسه . ص 290 - 302 . وكذلك حسن حسنى عبد الوهاب . المصدر نفسه ص 150 - 151 .

الباشا بالجزائر لأجل أن يمشى إليه بقصد زيارته ، والوقوف إلى حضرته ، فأعطاه الإذن في مطلوبه ، ووفى له بمرغوبه ، فحينئذ نهض وعبّأ من ذلك الأموال بالزيادة لتكون له الحرمة والرياسة ثم تقدم إلى الجزائر في موكب عظيم ومهرجان عميم[34] فلما وصل إلى الباشا وحلّ في حضرته تأدب وأعطاه حق سلطته ، ثم سلم له ذلك الأموال (كذا) الذى بيده ففرح به واستكثر من خيره ، وأقام في ضيافته ثمانية أيام في استراحة وعزم وإكرام ومن بعد ذلك خرج الإذن من عند الباشا المذكور تسريح الباى بوكمية ورجوعه إلى قسنطينة فارحا مسروراً وهذا هو المسمى عندهم بالدنوش ، وهي كلمة عجمية ، ومن بعد وصوله في قسنطينة عاش زماناً عيشة هنية إلى أن اخترمته المنية واحتوت عليه الدهية فمات رحمة الله عليه ، وكانت مدة ولايته خمسة عشر عام (كذا)[35] .

حسين باى المدعو بوحنك 1736 - 1754 م :

ومن بعده ترجع باي آخر واسمه بوحنك باي رحمه الله تركي كان سيرته بسيرة الباي الذى قبله ، ومهد الله تعالى زمانه الوطن والبلاد وأصلح الله به الرعية والبلاد لكن وقع في زمانه أمر يستراب ، حتى صار مثل (كذا) فيقولون عام الدوشمان الكذاب وذلك أن الباشا بالجزائر وقع الضر بينه وبين باش أغا المُتولّى أمور العرب وتصعب عليه ولم يقدر على قتله جهار (كذا) فجعل له حيل وأفكار (كذا) وأظهر له وجه المصادقة والإسرار قائلاً له إن صاحب ولاية تونس تصعب علينا ولم يوفينا (كذا) بشروطنا ، ولكن تمشى إلى باي قسنطينة تجمعوا جنودا وتنظموا عساكر من هناك وتغزون على عمالة تونس ترهبون بذلك صاحب ولايتها . أما أن ينقاد فذلك هو المراد ، وإلا انزلوا بقربه حتى يلحق إليكم مدد العسكر ، وآلة الحرب فامتثل لكلامه باش أغا المذكور، وانفصل

---

34) كان ذلك في ربيع عام 1735 م .

35) حسب رواية العنترى هذه التي انفرد بها ، يكون الباى قليان حسين بوكمية قد حكم أربعة عشر عاما فقط ، وتوفي عام 1727 م . وهذا غير صحيح على ما يبدو لأن بوكمية حكم 23 عاما كاملة ، وتوفي عام 1149 هـ الموافق لعام 1736 م ، عن عمر يناهز 70 عاماً .

من الجزائر بالعزم والفور فكان في ذلك حتفه وأنفه وحلوله في رمسه . وأما الباشا بالجزائر فإنه كتب جوابا وأرسله إلى الباي بوحنك خفية قائلاً في ذلك الجواب يكون في علم الباي بوحنك ولازم عليه يقضى الشيء الذى تأمر به (كذا) . وهو أن باشا أغا ظهر عنه الفساد وخرج عن الماهية وتبين منه العناد . ولم يمكنا قتله على رؤوس الأشهاد ، وترانا كلفناه وألزمناه بالمشي والغزو على عمالة تونس . فبوصوله إليك أصغى (كذا) لقوله ، واقضى (كذا) ما يأمرك به وأسرعوا بخروجكم ، وحين تصيروا في أثناء طريقكم اقتله خفية ودسه تحت التراب دسة ، وحين تقضى فيه حاجتك ارجع على أعقابك ، وارفض الشيء الذى كان به أمرك والسلام بأمر الباشا بالجزائر .

ثم يرجع الكلام إلى باش أغا أنه لما وصل إلى الباي بوحنك وأخبره بالأمر الذى جاء بقضائه ، فامتثل ، وبادر ، ورتب له فرسان وعساكر ، وبعد تنظيم أشغالهم وقضاء حوائجهم ، انفصلوا من قسنطينة لغزوهم ، ولما صاروا في أثناء الطريق مكربه الباي وحنك وسقاه كأس الحريق مزق به جوفه تمزيق . فأصبح تحت التراب لابثا بعد أن كان هسورا فاتكا ، فحينئذ رجع الباي المذكور إلى قسنطينة وعاش زمانا حتى أدركته المنية رحمة الله عليه[36] .

حسين باي زرق عينو 1754 - 1756 م :

ومن بعده تولى زرق عينو عام 1149 هـ [37] واسمه حسن وهو تركي له شجاعة

---

36) حافظ الباي بوحنك على السلم سنوات طويلة : وأسس مسجد سيدى لخضر الجميل بقسنطينة ، وانتهى من بنائه في نهاية شعبان 1156 هـ (أكتوبر 1743 م) وحاول أن يعطى للمدينة مظهرا عمرانيا جميلا فيما يخص بناء الفلات ، والأحواش ، وتنظيم الأنهج والأزقة . ونقل معسكر الزمالة من حوض وادى الرمال إلى أراضى تيخمرت . وحاول حسين بن علي التونسي اللاجيء بالقيروان أن يستنجد به ليساعده على استعادة عرشه فرفض . وقام بإبرام معاهدة دفاع وهجوم مع علي باشا التونسي الجالس على العرش . وفي عهد بوحنك ثار أولاد ساولة فعاقبهم . توفي بوحنك عام 1167 هـ (1753 - 1754 م) بعد أن حكم 17 عاما . ودفن في مسجد سيدى لخضر . انظر : فايسيت ص 302 - 310 وكذلك : شربونو :

Cherbounneau : les inscriptions arabes de la province de constantin. annuaire de la societe archeologique. annee 1856 - 1857 .pp105 et 119 .

37) الموافق لعام 1736 م وهو خطأ كما ذكرنا انفرد به العنترى لأن الباي زرق عينو تولى الحكم عام 1167 هـ الموافق لعام 1754 م . وكان زرق عينو هذا خليفة للباي بوحنك ، واشترك في غزو تونس مع بوكمية ولعب دورا بارزا فيها وحكم البايليك بحزم وجد ، واهتم بمدينة قسنطينة وجدد أجهزتها على نسق ملائم وشجع الصنائع .

وهيبة ، وكان حضر مع الباي بوكمية في قضية تونس ، وفي مدة ولايته زاد في ترتيب وظائف المخازنية ، وأسس منازلهم بالسوية ، فمن ذلك أنه :

ــ رتب كتابا يكتبون أسراره ، وبعضهم يكتبون شكايات الناس ومدخول البايليك .

ــ وخليفة تركي وهو المتكلف بالمال الذى يمشي من عند باي قسنطينة إلى الجزائر . يوضع في الخزينة . ويتسمى بالبياشي ، وهو لفظة عجمية ، يمشى في كل عام مرتين مرة في فصل الربيع ، ومرة في فصل الخريف ، ولكن في الزمان المتأخر صاروا يسمونه بدنوش الخليفة غير الدنوش المتقدم ذكره .

ــ وأغوات ترك وهم المتوليين (كذا) أمور الصبايحية الترك .

ــ وشواش ترك وهم المتوليين أمور العساكر .

ــ وأغا العرب وهو الذى يسمع كلام العرب ، وشكاياتهم ، ويوصله (كذا) إلى الباي المذكور في الوقت الذى يكون الباي متصدى للحكم . فإنه يتلقى الشكايات بنفسه ويرد بلسانه .

ــ وقائد الدار هو الذى يكون على يده ما يلزم العساكر من الأرزاق والجِنْيَة وغير ذلك من لوازم الأمحال . وحين يخرج الباي إلى الوطن يبقى هو المصرف (كذا) في البلاد .

ــ والسراج وهو الذى يكون على يده خيل البايليك في المدخول والمخروج .

ــ والمحتسب وهو المتولي أسعار البلاد من الأمور الموزونة والملكية .

ــ وصاحب الشرطة هو المتولى عسة البلاد في الليل ويحرسها من اللصوص ، وهو الذى يقابل الباي فى كل صباح قبل كل أحد ويخبره بجميع ما يقع في الليل . فهؤلاء أصحاب الوظائف في المدينة . وأما المخازنية ناس من البادية فمنهم :

ــ قائد الزمالة وهو المتولى القوم متاع العرب ، وحين يخرج الباي إلى الوطن يمشي معه هو وقومه .

ــ وثم قائد الغنم وهو الذى يكون بيده كل مدخول البقر التي هو للبايليك .

ــ وقائد الإبل وهو الذى يكون بيده مدخول كل الإبل متاع البايليك .

فهذا ترتيب الباي زرق عينُ ، وكل من يأتى من البايات يزيد في الوظائف وخرق عادات (كذا) .

وبعد ترتيبه للوظائف المذكورين ، تصدى لأمور البلاد وشرع فيما يصلح بأحوال العباد . فجعل ضوابط في صنعه ، وقوانين في كل ضيعة ثم صار يخرج إلى الوطن لأجل استخلاص حقوق البايليك ، ولا زال بهذه السيرة موصوف ، وبكمال العدل والخير مألوف . ومن هذا الحين ظهرت قوة الترك في قسنطينة.

وأما صاحب ولاية تونس الذى كان هرب إلى القيروان ، فإنه مكث هناك زمان ولما اشتدّ به الحال وضاق به الرحب والمآل . فك قدميه من ذلك المكان والتجأ إلى الباشا بالجزائر ، مستغيثا به وطالبا للأمان ، فلما وصل إلى باي قسنطينة أكرمه وأحسن إليه كل الإحسان ، وحين وصل الخبر إلى الباشا بقدومه تحمم في شأنه وتفكر في أموره ، وأمره باستقراره عند باي قسنطينة في الأمان مع زيادة الإكرام والإحسان . فتراه لأمر الباشا امتثل ، ولما يجود به الدهر محتفل وباقي في خموله مرتجيا طالع سعوده ومنتظرا للأخبار وتداول الأيام فيأخذ بالثأر.

وكان صاحب مملكته تونس حين سمع بفرار ابن عمه من القيروان ، واستقر عند باي قسنطينة في الإكرام والإحسان ، تحير وتغير من أجله وأيقن أنه سيكون له شأن ويقف في ضره وكان من بعد زمان دارت الأفلاك ، وتكونت الأكوان ، فوقع بين الجزائر وتونس الدوشمان.

هذا الوقت جاء الأمر من عند الباشا بالجزائر إلى الباي زرق عينُ قائلاً له إن صاحب ولاية تونس نكل وظهر في شروطه الخلل . فواجب أن تعملوا معه الدوشمان ، ولازم تمشي أنت وابن عمه المستقر عندك وتقابلوه بالافتتان . إما يوفي بملزوماته وإلاّ يحل به ما حلّ بأوائله من قبله . فلما وصل هذا الأمر إلى الباي المذكور قام على ساق الجد ، بالعزم والفور ، ورتب عساكر وجنود ، ونظم آلة الحرب من مدافع ، وكور ، وبارود ، فلما قضي وطره كان مدد العساكر من الجزائر وصله ، فحينئذ تقدم هو وصاحبه واستفتحوا سفرهم بالعزم والاجتهاد قاصدين إلى تونس بالجند والأجناد[38] ولما وصلوا

---

38) الذى قرر إعلان الحرب على تونس هو الداي بابا علي عام 1755 م بعد أن رفض باي تونس دفع الجزية السنويةالمطلوبة منه ، وكلف باي قسنطينة زرق عينو بذلك ، وجند للأمير التونسي اللاجيء عنده . بقسنطينة علي باي بن حسين باي بن علي قوات اقتحموا بها مدينة تونس يوم 5 ذو الحجة 1169 هـ (31 أوت 1756 م) وقتلوا علي باشا وابنه محمد باي أكبر أبناء حسين بن علي على العرش.

مدينة الكاف الذى عمدة مدينة تونس وأساسها ، فكانوا ستين يوما وهم مقيمون عليها بالحرب العظيم ، والقتال العميم فلما طالت إقامتهم وبدأ الضعف في قوتهم ، كان الباشا بالجزائر مدهم بزيادة العساكر ، فحين وصل ذلك المدد إليهم فتح الله بالنصر عليهم ، ودخلوا مدينة الكاف من بعد الحروب المديدة ، والمقاتلة الشديدة ، فوقع الخلل في مدينة تونس ، وتلاشوا ناسها ، وهربوا ، البعض من أقارب صاحب ولايتها ، فلما وصلوا إلى الباي زرق عينو طلبوا منه الأمان ليكونوا له أدلة وأعوان فأمنهم وقابلهم بالإحسان ، فعند ذلك تقدموا بين يديه ، وفتحوا له الطريق ، وسّهلوا عليه كل صعب وضيق ، وجلبوا إليه شيوخ ذلك الأوطان ، وصاروا معه أصدقاء وأعوان ، فلما وصلوا إلى مدينة تونس تصعب عليه الحال ، وضاق بهم الرحب والمآل فتراهم دبروا في الحيلة وتحمموا في تحصيل النتيجة ، فجعلوا مراقي وسلم ، وداروا بمدينة تونس كدوار السوار بالمعصم ، وصعدوا مع ذلك المراقي فوق الأصوار (كذا) وكان ذلك آخر الليل قرب النهار ، فمات في ذلك الهجمة من العساكر بطالها ، واندخلت مدينة تونس في حينها . ومات صاحب ولايتها وصار النهب والسلب في أرزاقها ، واستولى الباي زرق عينُ ورفيقه على خزائنها وذخائرها وركضوا الخيول بالبشائر إلى الباشا بالجزائر ففرح بذلك البشائر الذى زفت إليه واغتنم بتلك الغنيمة التى حفّت لديه .

وأما الباي زرق عين فإنه رّجع رفيقه الذى جاء معه في قسنطينة وولاه مملكة تونس ونزلت العافية العميمة ، ورتبوا العمال وأسسوا الأحوال وجردوا عقيدة الشروط ، وأثبتوها إثباتا منوط[39] ثم إن الباي المذكور من بعد قضاء أوطاره عبّى (كذا) من ذلك الأموال والذخائر وما حب خاطره ، ورحل من مدينة تونس راجعاً إلى قسنطينة ،

---

39) كان حسين باي بن علي قد نجا بأولاده إلى القيروان بعد أن تغلب عليه ابن علي باشا بدعم من الجزائر كما مر ، وبقى هناك يقاوم عدة سنوات حتى استشهد جنوب القيروان عام 1153 هـ (1740 م) ففر أبناؤه الثلاثة إلى الجزائر ، واستقر اثنان منهم بمدينة الجزائر وهما محمود ومحمد واستقر الثالث ويسمى علي باي في قسنطينة ، وأكرمه الباي بوحنك ومن بعده زرق عينو ، وعندما تقرر غزو تونس جند هؤلاء الأبناء في تلك القوات الجزائرية ، وساروا معها إلى تونس حيث تم قتل علي باشا وابنه ، وتنصيب محمد باي في مكانه ووقف إلى جانبه أخوه علي باي . انظر فايسيت . المصدر نفسه ص 310 - 322 . حسن حسني عبد الوهاب . المصدر نفسه ص 151 - 154 . وكذلك A.devoulx : les archives du consul de france : à alger (alger - 1865) p.71. annales tunisiennes p.157 et suivante.

فى سطوة وشهرة عظيمة فلما صار في أثناء طريقة أصابته في جسده أكلة أذهبت روحه بالعجلة . فحين وصل إلى قسنطينة أدركته الموت بسبب ذلك المصيبة رحمة الله عليه ومات عام ألف ومائة وسبعين[40] .

أحمد باي القلي 1756 - 1771 م :

ومن بعده تولى أحمد باي رحمه الله . هو جدّ حاج أحمد باي ، وكانت ولايته في العام المذكور[41] وهو تركى صاحب ديانة . وله في الحروب شجاعة . وهو الذى كان لحّق مدد العساكر إلى باي زرق عين حين كان في الحرب مع مدينة الكاف . فوافق وصوله بذلك المدد دخول مدينة الكاف ولذلك رجعه الباشا من بعد الباي زرق عينُ وكانت[42] .

---

40) بعد أن عاد زرق عينو من غزوة تونس ، مرض في الطريق وعندما وصل إلى قسنطينة توفي فى الشهور الأولى لعام 1170 هـ الموافق لنهاية عام ، 1756 م .

41) المقصود بتلك السنة عام 1170 هـ الموافق لعام 1756 م .

42) يبدوا أن الناسخ لكتاب العنترى أخطأ وترك جانبا من سيرة أحمد القلي ، وانتقل هكذا إلى الحديث عن سيرة صالح باي . ولهذا سنوجز هنا المعلومات التي أوردها فايسيت في دراسته . فذكر أن أحمد القلي كان أغا على مدينة القل عدة سنوات قبل أن يصاحب زرق عينو في حملته على الكاف وتونس ، ولذلك لقب بالقلي ، حارب عدة قبائل عاصية حتى خارج حدود البايليك داخل باشليك الجزائر إلى فليسة بجبال جرجرة . وغزا أهل الشاقية ، وأولاد سلطان بالأوراس ، وكان من ضمن من قتل له خلال هذه المعارك : الأغا الوغليس ، وشيخ العرب الحاج بن قانة ، وشيخ بلزمة فرحات بن علي من عائلة القائد الشريف بن منصور ، وبلقاسم بن مراح زعيم الزمالة ، وكرتيش بن سلامة قائد الزمالة .

تمكن أحمد القلي من قهر العصاة ، ووطد الأمن في البايليك وفرض هيبة الدولة على الجميع ، وشجع الفلاحين على غراسة الخضر والأشجار والمثمرة ، وغيوها وشجر منطقة الحامة بكيفية مكثفة ، وغير مكان الزمالة ونقل معسكرها إلى عقبت الجمالة على يمين طريق باتنة ، وشرع في بناء برج القسقية ، وأحبه السكان واستحسنوا حكمه وعهده الذى دام خمسة عشر عاما . وتوفي عام 1185 هـ الموافق لعام 1771 ، وخلفه صالح باي انظر فايسات . المصدر نفسه ص 323 - 329 . وقد رجعنا إلى الترجمة الفرنسية ووجدنا أن ما سها الناسخ عن كتابته شيء قليل ، ولا يختلف عن المعلومات التى أوردها فايسيت ولخصناها هنا ولا تزيد على نصف صفحة . انظر :

Dournon : constomtnu soas les turcs d'apres salah el-antri R.N.M.S.A.C. (constantine - 1930) pp.80.81.

صالح باي 1771 - 1792 م :

وأتقن بنيانها[43] فكان فيها منفعة للعباد ومصلحة ، وحصنا للبلاد وأسس المساجد للديانات ، وأجرى للضعفاء والقليلين الصدقات فبذلك كانت أحواله في غاية الاستقامة والرعية طائعة إليه ومنقادة . وقد أعطاه الله من صلبه كثيرا من الأولاد ، وملك الأملاك في كل البلاد ، وعمّ الخير كل العباد . وكان صالح باي المذكور يخرج إلى الوطن يخلص مطالبه بالتمام في مدة قليلة من الأيام . وهوالذى أسس مرسى سكيكدة وشهرها ، وصاروا كل الأجناس يأخذون الوسق منها . وقد انجرت له من تلك المرسى فوائد عديدة وذخائر نفيسة . وتمهدت كل الأوطان في عصره ، ونال من الخيرات مالم يناله (كذا) واحد من البايات قبله ومن بعده . وداس كل الأوطان العامرة والفقراء ، وكان وصل إلى تقرت اقصاء (كذا) وطن الصحراء لم يصلوا إليها البايات السابقين (كذا) ولا أدركوها المتأخرين (كذا) إلاّ صالح باي وصلها وأقام عليها سبعين يوما حتى طوعها . وتحصل بيده الفوائد الكثيرة منها ورجع إلى قسنطينة من بعد اغتنامه بذلك الغنيمة ، وعاش في زمانه عيشة محضية وأحواله سديدة مرضية . ولما قرب أجله وحانت وفاته تبدلت سيرته وانعكست حقيقته ، وصار يظلم ناس الزاوية حتى أفضى به ذلك إلى الهلاك والهاوية . هذا الوقت جاء الخبر من الجزائر بموت الباشا الذى كان رَجَّعَ صالح باي ، ورَجَّعَ البايات الذى قبله ، وتولى باشا آخر فما كان من أيام قلائل إلاّ وقد أمر بعزل صالح باي وانتقاله إلى الجزائر بأولاده وأهله ، ورجّع باي آخر وبعثه من الجزائر .

---

43) إن الناسخ أخطأ فترك القسم الأخير من سيرة الباي أحمد القلي والقسم الأول من سيرة صالح باي ، ولذلك فإننا أعددنا دراسة موجزة له اعتمادا على فايسيت ، وسعيدوني ، وتوفيق المدني ، ودورنون ، وأثبتناها في الهامش كلها تمييزا لها على نص العنتري :

ولد صالح باي في مدينة أزمير بتركيا في شبه جزيرة آسيا الصغرى من أب تركي اسمه مصطفى وذلك عام 1739 م تقريبا . وعاش سنواته الأولى بصفة عادية . وفي عام 1755 تسبب في مقتل أحد أقربائه خطأ ، فهَجَر إلى الجزائر حتى يتفادى العقاب ، واشتغل في إحدى مقاهي مدينة الجزائر ، وتعرف على الكثير من الأتراك في مجلس الأوجاق . ومكنه ذلك من الالتحاق بفرقة الميليشيا العسكرية للعمل بها قبل أن يرسل إلى مدينة قسنطينة لدعم الفرقة التركية المعسكرة بها كذلك . فبرزت شخصيته وشجاعته واشترك في حملة الباي زرق عينو ضد تونس وأبدى مقدرة وشجاعة في الحرب أثارت انتباه أحمد القلي فقربه إليه وزوجه ابنته =

... ...

... ...

= ثم لما أصبح بايا على رأس البايليك ، عينه قائدا على عرش الحراكتة بالأوراس عام 1762 م لمدة ثلاث سنوات ، وعندما توفي خليفة الباي في قسنطينة استدعاه صهره أحمد القلي ، وعينه خليفة عام 1765 لمدة ست سنوات . وفي عام 1771 توفي أحمد القلي ، فعيّن صالح باي في مكانه على رأس البايليك واستمر في منصبه قرابة ربع قرن لغاية صيف عام 1792 م .

أنجز صالح باي أعمالا كثيرة عسكرية ، اقتصادية ، وعمرانية وثقافية واجتماعية ، كان لها آثار بارزة في حياة السكان ، والبايليك بصفة عامة .

ففي بداية عهده تمرد أولاد نايل وشقوا عصا الطاعة في وجه الداي بالعاصمة فقاد ، حملة عسكرية ضدهم ، واقتحم الجلفة ، وبوسعادة وفتك بالكثير منهم وأدبهم ، وعاقبهم حتى أذعنوا ، وفي خلال عودته مر على المنشور لَمْسُوفَعْ ، بأراضي زمول جنوب قسنطينة وعسكر به وعاقب بعض العصاة من أولاد زايد ، الذين حاولوا اقتحام معسْكره للسرقة والنهب . وكان ذلك حوالي عام 1772 م .

وحصلت وحشة بينة وبين حسن باشا ابن الباي بوحنك ، فحاول أن يحتقله وفر إلى تلمسان والتحق بالباي محمد بن عثمان الكبير حاكم بايليك وهران في معسكر ، واحتمى به وطلب منه أن يسعى لاستقدام أسرته ، فتدخل لدى الداي محمد عثمان باشا واستقدم له أسرته ، ووطنه بمليانة لمدة عشرين عاما تقريبا ، حتى تمكن من العودة إلى قسنطينة على رأس البايليك وقام بقتل غريمة صالح باي الذى قتل صهره إبراهيم بوصبع المتزوج مثله إحدى بنات بن قانة .

وفى عام 1773 غزا صالح باي أولاد عمور واقتحم قرى : زخينة ، وأفلو ، والأغواط ، والنهيلة ، وعاقب العصاة ضد داى الجزائر ، وقتل مائة رجل ، وأرسل رؤوسهم إلى قسنطينة لتعلق على الجدران والأبواب .

وفي عام 1775 حمل صالح باي الدنوش إلى العاصمة ، واشترك هناك في مقاومة حملة الضابط الإسباني أوريلي ، وعسكر بين الحميز والحراش ، وطبق استراتيجية مهمة كان لها دور فعال في إلحاق الهزيمة المنكرة بالحملة الإسبانية رغم ضخامة عددها وأعداد جنودها ومراكبها البحرية ، وعندما عاد إلى قسنطينة أسس في السنة نفسها مسجد ومدرسة سيدى الكتاني .

وفى عام 1776 م هاجم صالح باي أولاد بن عاشور فرجيوة ، وكرر هجوماته ضدهم لغاية عام 1781 بسبب عصيانهم وامتناعهم عن الاعتراف بسلطة البايليك ودفع الضرائب .

وكان لجهودة العسكرية هذه آثار حميدة فركن الجميع إلى الهدوء لسنوات طويلة . وفى عام 1783 اقتحمت بعض القبائل التونسية حدود الجزائر في منطقة تبسة ، ودخلت إلى الجزائر فارة أمام قوات علي باي ، واختارت الجزائر موطنا لها ، وقبل صالح باي رغبتها ، وكاتب حمودة باشا وطالبه بدفع تعويضات مالية لتلك القبائل التي اختارت الجزائر وطنا لها وحدد مبلغ 40 ألف سكين لذلك ، وعندما وصل رسوله إليه في نهاية نوفمبر 1783 م رفض الاقتراح ، وكاتب الداي محمد عثمان باشا واحتج لديه على صالح باي ، وقاد قواته إلى الجريد ليفاجىء ، تلك القبائل ويعاقبها ، ولكن صالح باي كان بالمرصاد له فخاف مغبة المغامرة وعدل عن الحرب وكاتب صالح باي وأرسل إليه الهدايا ، واتفق معه على دفع تعويض بمبلغ 25 ألف سكين وذلك في جوان 1784 م . وبقي الأمر هادئا بين البلدين لغاية مطلع عام 1787 ثم هاجر عدد من سكان قسنطينة فجأة إلى تونس ، واتهم

صالح باي حمودة باشا بتحريضهم على ذلك وألف جيشا من ستة الآف رجل لغزو تونس ، وفعل مثله حمودة باشا وجند خمسة آلاف تركي وكرغلي ، وعددا من الأعراب ، غير أنه تخوف من مغبة الأمر ، وفضل الدخول في مفاوضات مع أوجاق الجزائر . ووافق على دفع تعويضات عن خسائر الحرب . مرغما لأن البنادقة كانوا يهددونه كذلك بالهجوم على بلاده .

وفي عام 1788 م قاد صالح باي حملة كبيرة إلى الجنوب الصحراوي القسنطيني لمعاقبة شيخ الذواودة محمد الذباح ، وشيخ تقرت فرحات بن جلاب ، لرفضهما دفع الضرائب للبايليك . وفي طريقه إلى تقرت مر على واحات : طولقة ، وبوشقرون ، وليشانه ، والزعاطشة وسيدي خليل (سيدي خالد) بوادي جدي ، ودفع له سكانها الضرائب المطلوبة ومن هناك واصل طريقه إلى الزيبان ووادي ريغ ، وفرض الحصار على تقرت حوالي سبعين يوما حتى أرغم شيخها على الاستسلام وفتح أبواب المدينة له وقبل دفع الضرائب المطلوبة منه ، وغرامة الحملة وخسائرها وأتعابها .

وقد تعددت حملات صالح باي على الجنوب أربع مرات ، واستعمل خلالها القوة والديبلوماسية ليستميل إليه رجال الصفين : بن قانة ، وأولاد بوعكاز وشرع للناس نظام تقسيم المياه لسقي أشجار النخيل ، والخضراوات .

وفي عام 1789 م بنى مدرسة بجوار جامع سيدي لخضر بقسنطينة ، ومسجداً بعنابة واهتم بالتعليم وقرب إليه العلماء ، ورجال الدين ، والفقهاء أمثال : المفتي الحنفي الشيخ عبد القادر الراشدي ، والقاضي الحنفي الشيخ شعبان بن جلول ، والقاضي المالكي الشيخ العباسي . وتوفرت قسنطينة في عهده على خمسة مساجد كبرى ، وسبعين مسجداً صغيرا ، وثلاث عشرة زاوية ، إلى جانب الكتاتيب القرآنية الكثيرة . وأولى اهتمامه بالتعليم الديني ، وغيره ، وخصص للمعلمين والفقهاء والوعاظ ، والأئمة أجورا سنوية قارة من أموال الأوقاف الإسلامية التي اهتم برعايتها وصيانتها . وعين وكلاء وقيمين لذلك . واستحدث في كل مدرسة قاعة للصلاة وبيتا للوضوء ، وأخرى للتدريس ، وأربع غرف لسكنى الطلبة القادرين وحدد عشر سنوات للتخرج وإنهاء التعلم ، ووضع عقوبات زجرية للذين يخلون بالآداب العامة ومنها الطرد .

ونظم اقتصاد البايليك الزراعي ، والصناعي ، والتجاري ، واهتم بالعمران والإدارة فشجع غراسة الزيتون ، وفلاحة الرز ، وباقي أشجار الفواكه ، واستحدث شبكة من قنوات الري لإيصال المياه إلى المزروعات المسقية خاصة بالحامة وسيبوس ، واتخذ لنفسه مزرعة نموذجية لمنزله الريفي المعروف باسم سيدي محمد الغراب ، وأمر باستصلاح مستنقعات ضفاف وادي سيبوس لاستغلالها في الزراعة .

ونقل جنود الزمالة إلى سهل عين مليلة على طريق باتنة ، وأسكنهم هناك ، وملكهم أراضي خصبة في عين كرشة وبرج القسقيا ، وأمرهم باستصلاحها ، وزراعتها ، وممارسة تربية الخيول بها لصالح إدارة البايليك . وهذا من ضمن الأغراض التي دفعته إلى إتمام بناء برج القسقية الذي شرع أحمد القلي قبله في تشييده . ومن ضمن مهام جنود الزمالة في سهل عين مليلة ، مراقبة أعمال الحرث ، والحصاد ، وجمع المحصول ، واستغلال الشعير لعلف الحيوانات والقمح للاتجار في الأسواق ، وتزويد جنود الزمالة بحاجتهم الغذائية .

اهتم صالح باي بالصناعة ، وشجع أصحابها على اختلاف مهنهم وحرفهم وأصبحت قسنطينة في عهده تعج بالورش المختلفة والأسواق المزدهرة العامرة ، فهناك 28 سوقا وسويقة و 21 سباطاً (ممر تجاري) و 7 تربيعات لصناعة النسيج ، و 3 رحبات لعرض السلع ، و 3 أفران لصنع الخبز ، و 27 مطحنة للحبوب منها 5 داخل المدينة والباقي خارجها ، تطحن 484 كيسا من

... ...

الدقيق ، ومن ضمن المصنوعات المزدهرة بقسنطينة في هذه الفترة : الجلود ، والنحاس ، والحدادة ، والحلى ، والنسيج ، والخشب ، وأدوات الطين ، والخياطة والأدوات الحديدية ، والطينية ، والخشبية ، وغيرها .

شجع صالح باى التجارة الداخلية والخارجية وتحولت قسنطينة إلى ملتقى للقوافل التجارية الكبرى القادمة من طرابلس ، وغدامس ، وتونس ، وبسكرة ، والجزائر والمغرب الأقصى . وكان البعض منها يضم 200 جمل وزيادة تشحن بضائع البايليك المختلفة الزراعية والحيوانية ، والصناعية ، إلى مختلف الجهات الإفريقية والمشرق العربي ، واهتم كذلك بالتجارة الخارجية فأصلح موانى : عنابة ، والقالة ، وسكيكدة وسطورة ، والقل ، التي تفد إليها السفن والمراكب التجارية الأوربية ، من إيطاليا ، وفرنسا ، وغيرهما . للغرض التجارى فتبيع بضائعها الأجنبية وتشترى بضائع البايليك . وقد وضع لها صالح باى وكلاء لمراقبة هذه التجارة الخارجية واستخلاص ضريبة الجمارك على البضائع التجارية الصادرة والواردة .

وأصلح نظام جباية الضرائب ، وقسم البايليك إلى قسمين : شرق ، وغربى ، يفصل بينهما وادى الحمام ، ويشرف على كل منهما قايد جبرى الذى يخضع بدوره لقائد الدار بقسنطينة ، ويتقاضى مقابل قيامه بهذا العمل ، ضريبة الزمام مقابل قيامه بخرجتين في العام إحداهما في الخريف لمراقبة أعمال الحرث ، والأخرى بعد الحصاد لاستخلاص ضريبة الجبرى التى قدرت ب 5 و 12 صاعا قمحا ، ومثلها شعيرا ، مع عشر شبكات من التبن كعلف للحيوانات .

كذلك اهتم صالح باى بإصلاح جسر القنطرة ، واستقدم مهندسا إسبانيا من ماهون بالبليار يدعى دون بارتولوميو : don bartholomeo وكلفه بمعاينته وتقرير ما يمكن عمله لإصلاحه ودعمه ، وتم الاتفاق على استعمال المواد المحلية بدلا من المستجلبة التي تكلف نفقات باهظة ، وشرع هذا المهندس في الإجراءات المطلوبة لذلك ، غير أن صالح باى عزل ثم قتل ، وتوقف العمل في الجسر إلى ما بعد .

لم يهمل صالح باى عمران مدينة قسنطينة ، وتجميلها ، فجمل حي سيدى الكتاني وبنى إلى جواره منازله الخاصة قرب الجامع والمدرسة وأنشأ دكاكين عديدة في سوق الجمعة الذى أصبح يعرف بعد ذلك بسوق العصر . وألحق بها مجموعة من الفنادق والدكاكين خارج باب الجديد قبالة كدية عتى .

خصص لليهود ، المنطقة المحصورة بين باب القنطرة وحافة الهاوية التي كانت مهجورة ليبنوا فيها منازلهم ودكاكينهم ، فاجتمعوا بها ، وتقلص وجودهم بحومة باب الجابية ، وسيدى الكتاني ، وظهرت إلى الوجود حومة رحبة الصوف ، والشارع الرئيسى الممتد بين باب القنطرة وباب الوادى .

في أواخر أيامه تغيرت سيرة صالح باى ، وسلوكه ، تجاه الناس فأخذ يظلمهم دون مبرر ، ويفرض عليهم الضرائب المرهقة ، ولا يراعى أوضاعهم وظروفهم المعاشية والاقتصادية والاجتماعية ، بل وحتى السياسية . فظهر ضده معارضون وخصوم كثيرون ناصبوه العداء ومنهم : الشيخ محمد الغراب ، والشيخ أحمد الزواوى ، وبورنان بن زكرى ، والشيخ سيدى عبد من الحنانشة ، وعدد آخر من الحمامشة . واشتكوا إلى الداي حسن باشا بالعاصمة فقام بعزله في ذى الحجة عام 1206 هـ الموافق لشهر أوت 1792 م وعوضه بإبراهيم باى بوصبع كما سيأتى ، وعن صالح رايس يمكن العودة إلى المصادر التالية :

أ) ناصر الدين سعيدونى : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الجزائر 1984) ص 59 - 80 ، 347 - 355 .

ب) أحمد توفيق المدني : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (الجزائر 1974) ص 25 - 65 .

جـ) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ـــ (تونس 1373 هـ) ص (156 - 160) .

د) فايسيت . المصدر نفسه (1868) ص 329 - 375 . و 379- 392 .

- annsles tunisiennes pp.116 -222.

- annuaire archeologique . annee 1856 - 1857. p.118.

إبراهيم باي بوصبع 17 أوت 1792 م :

واسمه إبراهيم باي بوصبع رحمه الله ، وكان صالح باي حين وصله الخبر بعزله وانتقاله إلى الجزائر بأولاده وأهله ، تغيرت له الأحوال وما حبّ العزل ولا الانتقال ، فاستغاث وطلب الانتصار من ناس البلاد ، فانقادوا إليه يظنون أن ذلك وقع له من بعض الأضداد ، فلما تبين لهم الخبر الصحيح ، وتحققوا أن الأمر جاء من عند الباشا صريح ، تراهم سلوا أيديهم منه ، وفكوا أقدامهم عنه ، وباق هو وحده حيران ، ومهموماً كثير الأحزان ، فلما وصل بوصبع المذكور إلى قسنطينة واستولى على مملكتها ، تراه اجتمع مع صالح باي وتعاهدوا على أن لا تكون بينهما خدعة وانفصلوا على أن صالح باي ينتقل إلى الجزائر بأهله وأولاده ، ويرفع جميع أرزاقه من غير معارض له في ذلك . وكان صالح باي أضمر في نفسه الخدعة فلما كان في الليلة الرابعة هجم صالح باي فى الليل ودخل على الباي بوصبع وقتله في فراشه وقتل جميع خدامه الذين أتوا معه من الجزائر وهم مائة أنفس بالعدد ، وما نجا منهم أحد . وصارت فتنة عظيمة بين صالح باي وناس قسنطينة آل الأمر إلى أن وقع الفتن بالبارود من الجانبين ، فعند ذلك اتفقوا كبار البلاد وعلمائهم وكتبوا إلى الباشا بالجزائر وأخبروه بكل شيء فلما وصل الخبر إلى الباشا المذكور غضب واستغاض وبعث باي آخر بالفور ، قرغلي اسمه حسين وحرضه على قتل صالح باي ولا يمهله طرفة عين فلما وصل إلى قسنطينة اجتهدوا وسعى في الحيلة حتى تمكن بصالح باي وقتله وبسبيب هذه الجريمة صارت عادة جارية بموت البايات المتأخرين . وكانت مدة ولاية صالح باي اثنين وعشرين عاماً . وأما بوصبع المذكور فإنه مكث ثلاثة أيام لاغير[44] .

---

44) نصب إبراهيم بوصبع بايا يوم 28 من ذى الحجة 1206 هـ الموافق ليوم 21 أوت 1792 ، وفي ليلة في محرم 1207 هـ الموافق ليوم 21 أوت 1792 هجم عليه صالح باي ورفاقه وقتلوه هو والرجال الذين جاء بهم من الجزائر ، وعاد صالح باي إلى السلطة مرة ثانية ولكن لمدة عشرة أيام فقط .

فقد حضر من العاصمة غريمة السابق حسين بن حسن بوحنك الذى كان منفيا بمليانه منذ عشرين عاما وقام بقتل صالح باي في محرم 1207 هـ ، الموافق لأول يوم من سبتمر 1792 .

وقد سلمت جثه إلى أسرته ، فدفنته في مدرسة سيدى الكتاني ، وخلف وراءه أولاداً كثيرين تمكن واحد منهم أن يتولى منصب أبيه داياً على قسنطينة وهو حسين بن صالح باي عام 1806 م لمدة عامين . انظر فايسيت : المصدر نفسه (1868) ص 375 - 379 .

حسين باي بن حسن بوحنك 1792 - 1795 م :

ومن بعده ولاية حسين باي رحمه الله في سنة اثنى عشر ومائة[45] . هو المقدم ذكره وهو ابن الباي بوحنك المذكور في السابق ، وكان حسين باي المذكور ولد في قسنطينة ونشأ فيها ، وكانت بينه وبين صالح باي مودة ومصادقة فدخلوا بينهم الوشات (كذا) حتى وقع بينهم الضد والشتات ففر حسين المذكور إلى الجزائر وبقي هناك مستوطنا إلى أن وقعت تلك الفارطة من صالح باي ، كان الباشا خمم في عقله أنه ما يأخذ بثأره إلا ضده فبعثه وقتل صالح باي كما ذكرنا أولا ، ثم شرع في قتل خدامه وكل من تبعه في ذلك الفتنة ومن بعد ذلك ماصنع شيئاً قط من كون الوطن متهنيء والرعية طائعة من قبله . ومن بعد زمان قليل أصابه مرض حتى تعطلت أحكامه فأمر الباشا بقتله فمات من حينه سنة اثنتى عشرة مائة وتسع[46] .

مصطفى باي الوزناجي 1795 - 1798 م :

ومن بعده تولى وزناجى باي رحمه الله في السنة المذكورة[47] واسمه مصطفى وهو

---

45) هذا التاريخ الذى أورده الناسخ غير صحيح وغير واضح كذلك ومبتور . والصحيح هو سنة 1207 هـ الموافق لعام 1792 . استمال إليه خصوم صالح باي وقربهم منه وعين محمد الشريف والد أحمد باي خليفة ، ورضوان قائد الدار ، وكان يشغل المنصب نفسه في عهد صالح باي ، وبن جلول وبن سالم ، كل منهما باش كاتب ، وبن زكرى باش سيار ، وعين في منصب باش سايس أعوانا آخرين من العائلة نفسها . وفي أواخر أيامه أصيب بمرض في رجله عاقة عن ركوب الحصان ، وقيل إنه أصيب في عقله كذلك ، فأمر الداى بابا حسن بعزله وإعدامه ، ودفن في مسجد سيدى لخضر بجانب أبيه . وسيدفن ولده حسونة إلى جانبهما كذلك عام 1799 م انظر فايسيت . المصدر نفسه ص 453 — 458 . وكذلك شربونو . المصدر نفسه ص 125 .

46) الموافق لعام 1795 أهم عمل قام به هذا الباي هو تجديده لجسر القنطرة الذى بدأ صالح باي المحاولة قبله كما ذكرنا .

47) عام 1209 . الموافق لعام 1795 م وكان يحترف صناعة البارود ، وتولى منصب الباي في المدية ببايليك التيطرى لمدة عشرين عاما وعندما عينه الداى بابا على قسنطينة صحب معه حاج حميدة وعينه باش كاتب . وعين انقليز خليفة ، وبن فريكي ، أغا الدايرة ، ورضوان قائد الدار ، وآخرين في مناصب أخرى عديدة . ورغم كبر سنه فإنه قام بعدة غزوات ضدّ العصاة في المناطق الجبلية الوعرة ، وهاجم النهادة أو الخميريين في الحدود . وصادر منهم قطعانهم ، وهدد عددا من منازلهم ووصل حتى إلى مدينة القالة على الحدود ، وهاجم أهل زارد بساس ، وفعل لهم مثل ما فعل بالخميريين ، واعتقل زعيمهم الشيخ الأكحل ، وعاد إلى قسنطينة ومن هناك اتجه إلى الجنوب وهاجم أولاد بوعون في سهل زانة وحاصر العصاة والثائرين في جبل مستاوة قرابة نصف شهر ، وقتل الكثير منهم ، وشرد الباقي وبعد ذلك غزا أولاد سعيد في الأوراس ، وأعدم عددا من رجال أولاد عزرارة المؤيدين للثوار . وغزا أولاد موسى من قبيلة عشاش قرب باتنة ، وصادر قطعانهم وأهلك كثيرا من رجالهم . وفرض على الجميع احترام السلطة ، وحكم بيد من حديد ، وفرض سلطة الأتراك على كل البايليك .

تركى في الجزائر له شجاعة ورهبة وكان متولعا بالخروج إلى الوطن ، ويغزى ، (كذا) على الجبال الشمخ ولا يبالي بمن هو قريب أونائى . ومن هذا الوقت صاروا الترك يأخذون الجور ، ونبذوا الحقوق المشروطة وبدى (كذا) منهم الفجور . وبالجملة أنه من حين موت الباشا الذى اسمه باب محمد[48] ومات صالح باي ، تبدلت أحكام الترك وانقلبت حقائقهم وصار صغيرهم لا يواقر (كذا) كبيرهم . وبد (كذا) النقص في ملكهم ، ومن ذلك كلام الحكماء ، وإشارة العقلاء : الدولة بستان ، وثمرته العدل والإحسان ، فملكها مسدد ، وسلطانها قدير . ويرجع الكلام إلى وزناجى باي أنه عاش زمانا ، وأمر الباشا بقتله من غير سبب فمات من حينه سنة ألف ومائتين واثنتى[49] عشرة رحمه الله .

حاج مصطفى انفليز باي 1798- 1803 م :

ومن بعده تولى انفليز باي رحمه الله في السنة المذكورة[50] اسمه حاج مصطفى وهو

---

48) يقصد به الداى محمد عثمان باشا الذى حكم ربع قرن من 1766 إلى 1791 م .

49) الموافق لعام 1798 م . والسبب في عزله وقتله عكس ما زعم العنترى هو تآمر التجار الفرنسيين ضده فقد كان يرفض بيع الحبوب إلى الشركة الإفريقية بالقالة امتثالا لتعليمات الداى محمد عثمان باشا . وعندما توفي هذا الداى تحايل التجار الفرنسيون واغتنموا عدة ظروف دولية معقدة ، وتمكن القنصل الفرنسي جان بون سانت اندرى : jean bon saint andre من إقناع الداى الجديد حسن باشا بعزل الباي الوزناجي . وإعدامه شنقاً وتعويضه بخليفته حاج مصطفى انفليز عام 1798 . انظر فايسيت . المصدر نفسه (1869) ص 459 - 463 .

50) عام 1212 هـ ـــ الموافق لعام 1798 م . وبعد أن تم تعيينه ألف مخزنه على الشكل التالي :

محمد بن صالح رايس خليفة ، رضوان قائد الدار محمد بن جلول ، وكوتشوك على باش كاتب ، محمد بن مريض أغا الدايرة ، ثم بلقاسم اليوكى ، ثم دحمان بن زكرى ، وعين كلا من أحمد طبال ، ومحمد شاكر ، وقارة مصطفى ، شواشا . ترقوا كلهم فيما بعد إلى منصب الباي . وسبب تسمية بانفليز وقوعه في أسر الإنجليز ، وبقاؤه في بلادهم 10 إلى 12 عاما ، وقيل لكون طباعه تشبه طباع الإنجليز في برودة الدم ، والمكر ، والخداع ، والقلق . أدار البايليك بحزم وجد ، وامتثل لأمر الداى بالعاصمة فقطع العلاقات مع فرنسا بعد أن غزا نابليون الأول مصر ، فأرسل إبراهيم شاوش إلى عنابة اعتقل الممثل الفرنسى العامل في المركز التجارى الفرنسي هناك . واقتاده إلى قسنطينة حيث وضع في السجن بدار التونسي بجوار تكنه الصبايحية ، وأمر بتخريب مركز الشرطة الإفريقية الفرنسية بالقالة . واستمر الوضع هكذا إلى أن تم إبرام معاهدة السلم بين الداى مصطفى باشا ودبوا تانفيل dubois thainville عام 1802 ورغم أن الباي مصطفى انفليز لم يشترك في غزوات خارج قسنطينة لضعف صحته إلا أنه =

تركي قديم في قسنطينة وهو رجل عاقل متوصف بأوصاف العرب ، وكان يخدم مع صالح باي ، وفي زمن انفليز المذكور رخاء كبير في كل الأشياء إلى أن صار الصاع من القمح في زمانه يسوى (كذا) فرنك . وهو الصاع الذى يسوى في هذا الزمن[51] عشرون فرنك . وكانت ولايته تشبه زمان ولاية صالح باي في الرخاء والعافية ، وتمهيد الوطن ، وكان سبب انقضاء ولايته هو أن واحدا من أولاده اشتهر بالفسق والفساد ، وانجرت اذايته إلى ناس البلاد فلما شاع أمر فساده وتبين قبح صنيعه أمرالباشا بعزله . وانتقاله إلى الجزائر بأولاده وأهله وكان السبب في حياته وعدم قتله كانت مصادقة ومودة بينه وبين وزراء الباشا فتشفعوا فيه وعزل في سنة ألف ومائتين وثمانية عشر[52] .

عصمان باي 1803 - 1804 م :

ومن بعده ولاية عصمان باي رحمه الله في السنة المذكورة[53] وهو قرغلي من أولاد قار محمد كانوا أوائله بايات في وهران ، وكان عصمان باي المذكور رجل حزم في أموره

= وجه حملات ضد أولاد على بن يحيى العواسي في الحنانشة ، الثائرين والمتمردين ، فقاد الحملة الأولى بلقاسم البوقي أغا الدايرة وقتل هو وابنه ، وقاد الحملة الثانية سي عمار بن شريف وتعرض هو الآخر لهزيمة ثقيلة وفقد عددا من رجاله ، وعندئذ سلط الباي أولاد سي يحي بن طالب بزعامة شيخهم يونس الشجاع والمحارب على الثوار والعصاة ، وهم مجاورون لهم في السكن فأغاروا على الحنانشة وقتلوا لهم شيخهم أحمد بن بو عزيز ، وأخاه ، وأرسلوا رؤوسهم إلى قسنطينة . فهدأت الأحوال انظر فاييسيت : المصدر نفسه (1869) ص 463 - 470 . وكذلك :

A. devoulx : les archives du consulat general de france a alger .pp.132 et 142

51) يعني عام 1846 وهو التاريخ الذى تم فيه طبع كتابه .

52) الموافق لعام 1803 م وقد وضع في إقامة جبر مدة ثم فر إلى تونس ، والتحق بحمودة باشا وكان سببا في اندلاع الحرب بين الجزائر وتونس في عهد الباي عبد الله .

53) عام 1218 لعام 1803 م هو ابن محمد بن عثمان الكبير باي وهران ، خلف أباه على بايلك وهران خمس سنوات . وفي عام 1799 عزل ، ونفي إلى البليدة لمدة عامين ثم أعفي عنه وعين على بايلك الشرق قسنطينة ولكن المليانى خليفة ، وبن كوجوك على ، باش كاتب ، وحاج أحمد الأبيض قائد الدار ، وبن شاندرلي إبراهيم أغا الدايرة ، وأبناء بن زكرى باش سيار وباش شاوش .

وطبعه يكره الترك من أجل ظلمهم . ويحب العرب لنصحهم ، وكانت سيرته مليحة مع أهل الوطن ، والبلاد وحكمه بالعدل والسداد . لكن في زمان ولايته ظهر الشريف بواد زهور ، وبعد زمان جاء الشريف المذكور ، وجاء معه كل القبائل كالجراد المنتشر من كون الشريف طمعهم بكلامه . وغرّهم بخنقطرته وافترائه قائلا لهم امشو معي إلى قسنطينة كي ندخلوها فنغنموا أرزاقها ، ونسكنوا ديارها ، فما وصلوا إلى قسنطينة تكلموا مع ناسها ، قائلين يا أهل البلد هذا الشريف قدم إليكم ونحن قدمنا معه في جنود كبيرة ، وجيوش عريضة لا تقدروا على مقاتلتنا ولا تنجوا إن فررتم منا . فإن أسلمتم لنا البلاد فلا حرج عليكم وإن امتنعتم نقاتلكم وندخلوا بلادكم بقوتنا . فأجابوهم ناس البلاد قائلين : يا معشر القبائل المغترين نحن لا نسلموا في بلادنا ونقاتلوكم حتى نهزموكم (كذا) أو نموتوا بأجمعنا فعند ذلك هجموا القبائل هجمة شديدة وانتشروا من كل جانب وجيهة (كذا) حتى وصلوا إلى أبواب البلاد وهم يصيحون الجهاد ، الجهاد ، فانضرمت نار الحرب وصارْ النهار كالليل وتراكمت الأحزان والويل .

وكان سيدى الشيخ بن الفكون هو الواقف في البلاد عند هذه المصيبة وتمادى القتال من الجانبين يوم وليلة ، ثم فتح الله بالنصر القوى وانهزموا ذلك القبائل أصحاب الفتنة والبغي ، وولوا هاربين على أعقابهم لم (يدر) أولهم ما حلّ بآخرهم وانقرضت آلاف من موتى وأضعاف ذلك جرحى .

وأما عصمان باي كان ذلك الوقت في المحلة بناحية سطيف يستخلص مطالب المصيف فلما وصلوا إليه ذلك الأخبار جاء مسرعا غوار ، فوجد الأمر قد وقع ، ومضى وانقطع ، يلزمه أنه يخبر الباشا بشأن قدوم الشريف إلى قسنطينة ، وبما حل به وبجيوشه من القتل والهزيمة ، فلما وصل الخبر إلى الباشا وتحقق بكل ما كان رد الجواب إلى عصمان باي قائلا له أنت باي ذلك الأوطان وهذا الشريف ظهر في حكم عمالتك فواجب عليك تمشى إليه بنفسك وتأخذ منه ثارك ، واقصده أينما كان فاقتله أو اطرده من ذلك الأوطان فلما اتصل بيد عصمان باي ذلك الجواب وعلم ما تضمنه ذلك الخطاب نهض وبادر في الحال وشرع في ترتيب العساكر وتنظيم الأمحال ، ثم تقدم بذلك النظام قاصدا إلى الشريف المذكور . وكان في ذلك الوقت هو مستقر في وادى زهور من كونه موضع

حصين لكثرة أشجاره وعظم جباله وتشعب طرقاته لما وصل قريبا منه خمم ودبّر في عقله بأن بقّي المحلة والأثقال في مكانها ، وجرد الجيوش والعساكر بأسرها ورفع آلة الحرب من مدافع وغيره ، وقصده إلى الشريف بنفسه ، فلما انفصل من محلته وصار في أثناء طريقه وقع عليه الفتن من أمامه ومن خلفه . وكانوا القبائل ناس ذلك الوطن جعلوا من ورائه أمكار وخديعة وقطعوا الطرق بينه وبين المحلة . فلما أراد عصمان باي الرجوع على أعقابه لم يجد سبيلا ولا مسلكا لرجوعه وانقطع بعساكره وجنوده . وصار في الهلاك والهوان ، وتحقق بعدم الحياة ، ووقوعه في الخسران فلما شاهدوهم القبائل في حالة الغرق ، وحلت بهم الندامة والقلق ، بادروا إليهم في الحال وقتلوا الباي المذكور من غير إمهال ، وقتلوا من ذلك العساكر والجيوش رغم أنفهم وما نجى (كذا) إلا القليل منهم ، واستولوا القبائل على ذلك الأمحال واحتوا على تلك الخزائن وما فيهم من السلاح والأموال .

فلما وصل الخبر إلى قسطينة بوقوع ذلك المصيبة العظيمة والداهية الشنيعة ارتفعت الأصوات بالبكا والصراخ وضجت العباد بالنحيب والصياح ، وقد اجتمعوا مصيبتان : موت الأمير ، وفناء العباد ، وخوفا من رجوع الشريف إلى البلاد ، فعند ذلك اجتمعوا أهل الرأى والمشورة وهم سيدى الشيخ ، والعلماء ، وديوان النوبة ، وكتبوا إلى الباشا بالجزائر وخبروه بموت الباي وفناء العساكر وتشتيت الخزائن والأمحال ، وخوفهم من رجوع الشريف إلى البلاد فى الحال ، فلما وصل ذلك الجواب إلى الباشا بالجزائر ، وتحقق بموت الباي ، وفناء العساكر ، تقلق وتحير وخمم في عقله أنه يمشي إلى الشريف بنفسه ، فأشاروا عليه بعض وزرائه ببطلان ذلك ، فتبع رأيهم وأصغى لكلامهم ثم أنه رّجع باي آخر تركي وألزمه يمشى إلى الشريف بالعجل من غير مهلة ولا وجل . وكتب الباشا المذكور جوابين : أحدهما إلى سيدى الشيخ بن الفكون ، والآخر إلى ناس البلد كافة خاصة وعامة ، وأرسل ذلك الجوابين مع الباي الجديد ، واسمه عبد الله باي رحمه الله . مات عصمان باي في سنة ألف ومائتين وتسعة عشر[54] وكانت مدة ولايته عامين ونصفا .

---

54) الموافق لعام 1804 م . ولم يقم عثمان باي إلا بغزوة واحدة ضد الحنانشة ، والبراغة على الحدود التونسية ، وصادر منهم قطعان حيوانات ضخمة لم يسبق لأى باي أن صادر مثلها ، من جمال وأغنام وأبقار وأحصنة ، انظر فايسيت . المصدر نفسه (1869) ص 470 - 479 ، وعن ثورة بلحرش هذه انظر المصادر التالية : محمد بن يوسف الزياني : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم وتعليق المهدى البوعبدلي (الجزائر 1978) 293 ص . وكذلك :

عبد الله باي 1804 - 1806 م :

وأما عبد الله باي المذكور فإنه حين وصل إلى قسنطينة تلقوه ناس البلاد ففرحوا به وكان في وصوله استراحة وهناء العباد ، فاستكثروا هو من خيرهم وناولهم الجوابين الذى أرسل الباشا إليهم .

مضمّن جواب سيدى الشيخ الفكون :

الحمد لله ، إلى العالم الأشهر ، الخير الأنور ، مأوى القليلين وملجأ الضعفاء والمساكين ، العارف بجميع العلوم والفنون ، سيدى الشيخ بن الفكون السلام على مقامكم الرفيع وشخصكم الرائق البديع ، ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته . أما بعد فرانا نستكثروا (كذا) خيرك من شأن وقوفك وصيانتك للبلاد ، ونصحك وحمايتك للعباد ، فإن ذلك منك معروف ، وأنت بكمال الإحسان موصوف ، إذ خيرك معنا سابق ، فبالأحرى أن يكون بالزيادة لاحق . ثم نلتمس منكم الدعاء الصالح الجالب لنا ولكم كل المنافع والمصالح . وما أنت إلا حبيبنا وصديقنا ، وإلينا والسلام .

كتب بأمر الباشا بالجزائر

ومضمّن جواب ناس البلاد :

إلى العلماء الأبرار وأكابر ناس قسنطينة الأخيار ، من الخاصة والعامة ، أما بعد السلام عليكم والسؤال الكثير عنكم وعن أحوالكم فقد كنتم خبرتمونا بموت عصمان باي وفناء العساكر وتشتيت الخزائن والأمحال ، وخوفا من رجوع الشريف إليكم فاعلموا يا أولادنا وأحبابنا ، أن كل ذلك تقرر في علمنا ، والآن نعلمكم ويكون متحقق عندكم إن كان مات الباي فرانا رجعنا باي آخر أحسن منه ، وإن كان ضاع العسكر فإن البحر ما زال

= Le capitatne sander rang : tableau des etablissements francais annee 1840 p.560 et suivant. Berbrogger: les epoques militaires de la grande kabylie R.AF.T.3.P.17 ET 209. walsinesierhazy: la domination :turque p.204 charles feraud: un cherif en 1804. akhbar (mai 1853) l'oued etkebir et collo R.AF.T.3p.202. l'univers pittorisque T.7.PP.254 et suevant.

يولد عساكر ، وإذا تشتتوا الخزائن فإنه عندنا من تعميرهم نظائر ولا تخمموا من رجوع الشريف إليكم فرانا ببال منكم ، وكونوا هانئين مطمئنين ثم نستكثروا من خيركم ونقر بإحسانكم من كونكم وقفتم وفوق الجد والاجتهاد حتى دفعتم العدو عن البلاد فنعم الصنيع المستفاد . وثم نوصيكم أن تكونوا حالا واحدة مع السيدى الشيخ بن الفكون فإنه عصبتكم في مهامكم ومرشدكم في نوائبك وهذا ما منا إليكم وأنتم أحبابنا وأولادنا والسلام . كتب الباشا بالجزائر .

ــ هذه الورقة استبشروا كل الناس ، وتنحي عليهم الخوف والوسواس وأما الشريف فإنه أخذ من ذلك الخزائن الحظ الجزيل ومضى في حاله عابر سبيل فلم يبق له في ذلك الوطن أثر ولم يظهر له خبر .

وأما عبد الله باى فإنه مكث في قسنطينة زمان قليل ، وخرج بالمحلة لأجل أن يهنيء الأوطان من كونهم تحيروا من أجل موت الباى عصمان . وكان الباشا أرسل إلى عبد الله مدد العساكر والمال لتكون له القوة ، ويستقيم الحال ، وباقي في الوطن يدور منذ عشرة من الشهور وعمل بكل الاجتهاد حتى نزلت العافية في الوطن والبلاد . لكن بعد ذلك أنزل الله القحط على الخاص والعام ، حتى صاروا العباد يأكلون لحوم بعضهم من شدة الجوع وانقطاع الطعام وابستمر ذلك مدة سنة كاملة . ثم عفى (كذا) الله تعالى وزالت تلك المجاعة الواجعة ، وفي زمانه وقعت الفيرة[55] بين الجزائر وتونس ، وكان عبد الله باى صاحب حرب وإقدام ، إلا أن امرأته تشاركه في الأحكام وذلك أمر قبيح

---

55) يقصد بالفيرة ، الحرب من الكلمة الفرنسية : La guerre وسبب هذه الحرب هو أن الحاج مصطفى باى انقليز ، الباى السابق هرب إلى تونس فاحتضنه حمودة باشا ، وقبل لجوئه السياسي ورفض دفع الضرائب المطلوبة منه إلى الجزائر وهي الزيوت ، والأصواف ، والشواشي ، وعندما طلب داى الجزائر منه دفع ذلك بالنقود إن تعذر عليه دفع البضائع امتنع ، وأخذ يتهيأ للحرب ، مستغلا التجاء انقليز باى إليه الذى أعطاه بستانا بمنوبة ووعده أن يعيده إلى منصبه بايا على قسنطينة وعندما علم الداى أحمد باشا بالأمر استعد هو الآخر وأمر بحارته بالتعرض للمراكب التونسية في البحر فاستولوا على حوالي ثلاثة مراكب كضغط على حمودة باشا حتى يقبل بدفع ما عليه من الإتاوات عن هذه الحرب . انظر حسن حسني عبد الوهاب : المصدر نفسه ص 158- 159 . توفيق المدني : مذكرات نقيب الأشراف . ص 95 - 101 . ابن أبي الضياف : اتحاف الزمان (تونس ـــ 1963) ص 40 .

عند العرب والأعجام ، فبهذا السبب عزله الباشا وأمر بقتله فمات عام اثنى عشرمائة وإحدى وعشرين[56] .

حسين باي ولد صالح باي 1806 - 1807 م

من بعده تولى حسين باي رحمه الله في العام المذكور[57] قرغلي وهو ولد صالح باي الذى تقدم ذكره وكان في أول ولايته خرجت عمارة الفيرة من تونس ، فلما وصلت قريبا من قسنطينة خرج إليها الباي المذكور بعمارة قليلة فتقابلوا الضدين (كذا) ونشأ الحرب بين الفئتين فوقعت الهزيمة على باش قسنطينة وهرب إلى ناحية جميلة ، فحينئذ تقدمت عمارة تونس ونزلت مقابلة للبلاد ، فوقفوا ناسها على ساق الجد والاجتهاد ، وكانت عمارة تونس ثلاثين يوما وهي مقيمة بالحروب والقتال مع ناس قسنطينة ، وتمادى القتال في الليل والنهار يرمى المدفع من الجانبين وطال الحصار .

وأما الباي المذكور حين كان هرب تراه خبر الباشا بشأن عمارة تونس النازلة بطرف قسنطينة وبمحاصرتها بالقوة والجنود الغزيرة . فلما وصله الخبر وتقرر عنده ذلك الأثر ، أنشأ عمارتين من فرسان وعسكر فبعث عمارة العسكر في البحر وبعث عمارة الفرسان في البر ، وأميرهما باش أغا المتولى أمور العرب من كونه هو المتعين دائما للحرب . وكان الباشا المذكور كتب جوابا إلى باش قسنطينة وأخبره بخروج العمارتين ليجمع هو أمره .

---

56) في هذه الظروف التي تعكرت فيها العلاقات مع تونس ، قطعت العلاقات بين الجزائر وفرنسا وقام الداى أحمد باشا بإعطاء مراكز القالة للإنجليز ليصطادوا به المرجان بدلا من الفرنسيين ، فتأثر سكان البايليك من ذلك لأن النشاط التجارى كان حيويا مع الفرنسيين أكثر من الإنجليز على ما يبدو . فأحسّ الباي عبد الله بذلك وتخوف من عدم استجابتهم للتجنيد في حملة تونس . وكاتب الداى في الجزائر بذلك ويقال بأن زوجته الدايكرا بنت حسن باي أثرت عليه في موقفه وتخوفه ، وشاع بين الناس أنها تتدخل في إدارة البايليك وتتحكم في سياسة زوجها وسلوكه . وعندما وصلت رسالته وأخباره إلى الداى بالجزائر غضب عليه وأمر بعزله وجلده بالعصا ألف جلدة ، وإعدامه شنقا هو وزوجته ، ونفذ ذلك عام 1806 وكان عبد الله باي قبل نشوب الحرب مع تونس اشتغل بأمر الثائر باللاحرش وخاض معه معركة الرابطة بأحواز سطيف عام 1806 وقاوم أيضا ثائرا آخر هو محمد بن عبد الله له صلة باللاحرش . انظر : فايسيت . ص 479 - 482 .

57) عام 1221 هـ (الموافق لعام 1806 م) .

فما كان أيام قلائل إلا وقد وصلوا (كذا) تلك العمارتين وقابلوا عمارة تونس بطرف قسنطينة فركبوا آلة حربهم وصارت بينهم مقتلة عظيمة ثم بعد ثلاثة أيام كانت الهزيمة على عمارة تونس ما أعظمها هزيمة من موت عساكرهم واغتنام الناس أرزاقهم من كل نوع شيء متكاثر وباتت قسنطينة في حكم الجزائر . ثم إن باش أغة وباي قسنطينة خبروا الباشا بشأن هزيمة عرضي تونس وتشتيت شملهم واغتنام الناس من أرزاقهم فاستبشروا بذلك الخبر وفرح ، وزال عناءه واستراح (كذا) وبعث إلى باش أغا وباي قسنطينة بعتاق الخيول وهدايا نفيسة إحساناً لهم ومكافأتا (كذا) لنصحهم وحسن صنيعهم وأمرهم ينشئون عمارة قوية من عسكر وجيوش عروسية ، ويمشون إلى تونس بالعجلة ويبادرنهم بانتهاز الفرصة فما كان منهم إلا الامتثال ، فتراهم نهضوا في الحال واجتهدوا اجتهاد الكمال ورتبوا من الفرسان والعساكر عمارتين ، وقدموا بهما إلى تونس دون مين وصاروا يطوون الأرض ويمشون مسافتين إلى أن وصلوا عرضي التوانسة وتقابلوا مع بعضهم فأوقدوا نار حربهم وانتشر القتال بينهم مدة أيام وليالي متواليين فكانت الهزيمة على عرضي الجزائريين ولوا هاربين وعلى أعقابهم منهزمين ، ولما حلت بهم ذلك الفضيحة كان باش أغه صاحب حيلة فتراه مكر بباي قسنطينة وكتب جوابا إلى الباش بالجزائر خفية وخبره بأن باي قسنطينة هو الذى هرب بجيوشه حتى صارت تلك الهزيمة ، ولولا هروبه لكان النصر معنا ، واستشهد ببعض أصدقائه ووافقوه على مكره وافترائه فلما وصل إلى الباش ذلك الجواب ، وتحقق بما فيه من الخطاب تقلق وتحير ، واستغاض وأمر بقتل حسين باي فقتل مخنوقا رحمة الله عليه وكانت موته عام ألف ومائتين وثلاثة عشر[58].

---

58) قاد الجيش التونسي سليمان كاهية وتأخر الداى في إرسال النجدة على وجه السرعة لكونه كان منشغلا بالقضاء على تمرد سكان قليسة بجبال جرجرة ، وعندما بلغه خبر حصار التونسيين لقسنطينة أسرع في إرسال النجدة التي تمكنت من الإحداق بالجيش التونسي وإلحاق هزيمة ماحقة به ، واستولت على كل ما لديه من المؤن والذخائر وقتلت الكثير ، والتحق 600 جندى تونسي بالجيش الجزائرى بأسلحتهم وكان عدد الجيش التونسي خمسين ألف رجل . ويقال بأن هذا أعظم انتصار حققه بايليك الشرق على أرض الجزائر ضد التونسيين . وبعد هذا الانتصار جاءت الأوامر من الجزائر بالزحف على تونس فقاد الباي حسين باي والباش أغه 18 ألف رجل إلى تونس في شهر جويلية 1807 واصطدموا بالجيش التونسي الذى كان يقوده يوسف صاحب الطابع في وادى سراط قرب مدينة الكاف ، وجرت معارك كبيرة طوال ثلاثة أيام ، وهزم فيها الجزائريون وتشتتوا ولم ينج منهم إلا عدد قليل من الأتراك وقيل إن سبب هذا الانكسار هو تعاون بعض الجزائريين مع التونسيين وتزويدهم بالأخبار النافعة لهم في الحرب ،

علي باي بن يوسف 1807 - 1808 م :

ومن بعده تولى علي باي رحمه الله في تلك السنة[59] وهو تركي من عسكر الجزائر له شجاعة ومهابة دائما حكمه يكون مستويا بين الترك والعرب خلافاً لغيرة من البايات وكان علي باي المذكور حين رجعه الباشا شرط عليه أن لا بد يمشي إلى تونس ويأخذ الثأر ، فالتزم بذلك وشرع في ترتيب ما يخصه . وتوجيه ما يحتاج إليه ويلزمه ، فلما كان في الوقت الذى يلزم فيه المشى خرج باش أغا من الجزائر وبيده عمارة منتظمة من كل شيء . فلما وصل إلى باي قسنطينة تلقاه بعسكر وجنود كثيرة ، وكانوا قد اتفقوا على الرحيل والإقدام إلى ذلك السبيل ، وإذا بذلك العساكر دخلهم الوجل ومازجتهم الحيلة والملل فتكلموا بينهم واتفقوا على قتل أمرائهم ، وزعموا أنهم يرجعون

= ومن هؤلاء، قائد فرجيوة مصطفى بن عاشور الذى أخذ رشوة عن ذلك . واستعمل الباش أغة تلك الحيلة التي أشار إليها العنترى ، والتي كانت السبب في النهاية المؤلمة لحسين باي كما حصل لأبيه صالح باي قبله ، وذلك عام 1223 هـ وليس 1213 كما ذكر العنترى ويبدو أن الناسخ هو الذى أخطأ في ذلك . ويوافق ذلك عام 1807 م . انظر فايسيت المصدر نفسه (1869) ص 482 — 488 وكذلك :

Dureau de la malle : l'algerie p.42. et suivante. a rousseau : allales tunisiennes p.252 et suevante.

59) اسم قائد القوات التي قدمت من مدينة الجزائر ، حسين أغه ، وكان هناك شاوش قديم يدعى بوترتوش ويسمى أحمد الشاوش ، يعيش في قسنطينة خلال هذه الفترة . وكان يعمل بدار الداى في الجزائر العاصمة . ويلقب بالقبايلي لكونه عاش بجبال القبائل عدة سنوات . وفي عام 1802 اتهم بالمشاركة في مؤامرة لقتل الداى مصطفى ، فنفى من الجزائر . وزار خفية بجاية ، وجيجل ، والقل ، وأخيراً استقر في قسنطينة بجوار ثكنة الانكشاريين في رحبة الجمال ، وتقرب من الجنود الأتراك ، وأخذ يدبر مؤامرة لقتل الباي والاستيلاء على منصبه ، وراقب خروجه إلى معسكر الفسقيا بجبل قريون لملاقاة حسين أغه القادم من الجزائر بقواته . ولاحظ استقرار الجيوش هناك خارج المدينة ، وقدوم الباي وحسين أغه إلى داخل المدينة للاستعداد للرحيل إلى تونس ، فذهب هو إلى معسكر الجيشين بوادى الرمال بين السقنية وزمول ، وتكلم مع البعض منهم ، وزعم لهم أنهم ذاهبون إلى موتهم وحتفهم ، وذكرهم بالهزيمة السابقة التي حصلت للباي حسين وجنوده ، فنال من معنوياتهم واتفقوا على العصيان والتمرد . وأخذت مجموعات منهم تهاجم الدكاكين في المدينة وتنهب وتسرق ، وفي يوم الجمعة ذهب الباي والأغا للصلاة ، وسماع الخطبة ، والدعوة بتحقيق النصر ، قبل انطلاق القوات نحو تونس ، فأعد أحمد الشاوش القبائل والمتآمرون معه مؤامرة ، وحاصروا المسجد ، وهاجموا المصلين داخله ، وقتلوا حسين أغا هناك بينما فر الباي إلى منزل سي العبدى المجاور للمسجد في حي غدير بلغرارة ، واستجار بالنساء ليخفوه ، ولكن المتمردين اكتشفوه ، وفي رواية أخرى : هرب إلى منزل باب القروج واختبأ عند تمون صهر مصطفى خوجة ، واكتشفه أحمد الشاوش وتعاون مع صهره مصطفى خوجة ، فأخرجوه بتعهد ، وغدروا به وأعموه وعاش بقية أيامه في قسنطينة معدما يعيش على صدقات المحسنين . انظر فايسيت ص 488 - 496 وكذلك :

Cherbonneau : revue orientale (octobre - 1852) p.398.

أميرا من تلقاء أنفسهم ، فتراهم نصبوا خدائع وأمكار (كذا) وقتلوا باش أغا وعلي باي ومن بعد موتهم قدموا واحد تركي من كبائرهم واتفقوا بأن يكون هو أميرهم ، وكان التركي الذى اتفقوا عليه اسمه أحمد شاوش .

أحمد شاوش القبايلي 1808 م :

فلما رجعوه واستولى على تلك الخزائن احتوى ، تراه فرق الأموال على ذلك العسكر من سكة المحبوب ، والدنانير ، ولا زال في كل يوم يبذل الأموال بالفرط مدة ولايته وهي خمسة عشر يوماً (47) فقط ، وكان تحدث في ذلك الأيام مع العساكر وطلبهم يمشون معه إلى الجزائر لأجل أن يقتل الباشا ويسكنه في رمسه فيستولى هو على مملكته . وكانوا ناس قسنطينة كتبوا جواباً إلى الباش بالجزائر وخبروه بموت باش أغه وعلي باي ، وبكل ذلك الوقائع (كذا) فلما وصل إليه ذلك الخبر استغاض وتحير ، وأرسل جوابا مختصرا .

مضمن ذلك الجواب :

الحمد لله جوابنا هذا يتصل بيد أحبائنا وأولادنا أولهم سيدي الشيخ بن الفكون ثم العلماء ثم كبار الديوان ثم ناس البلاد ، السلام عليكم والرحمة والبركة في حالتي السكون والحركة . أما بعد فقد اتصل بطرفنا جوابكم ، وخبرتمونا فيه بموت باش أغا وعلي باي وقتلوهم أصحاب الفساد والبغي . ولكن نعلمكم ويكون متحقق عندهم (كذا) أن ذلك العساكر حين ظهر فسادهم وانعدمت نتيجتهم فلا خير فيهم ولا حاجة لي بهم . وإني قد أهدرت دمهم فبادروهم واقتلوهم واقطعوا أثرهم والسلام وكتب بأمر الباشا بالجزائر .

فلما وصل ذلك الجواب إلى ناس البلاد وعلموا بما فيه من الخطاب تكلموا أجمعين بلسان واحد قائلين نحن ما نرضوا ببقاء هذا العسكر لأن عقوبة الله شديدة ، ومن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً ، فاستصعبوا الأمر في هذه الكلفة وعجزوا عن تحصيلهم من تلك الورطة فتراهم التجأوا إلى سيدى الشيخ بن الفكون وطلبوا منه التدبير والرأى المصون فأشار عليهم بالقول الواضح والرأى المصيب الناجح قائلا لهم تعملوا كل الجهد في قتل ذلك التركي الذى هو شق العصا وجاوز الحد ، ورجع باي من تلقاء

نفسه وباشر تضييع الخزائن بيده ، فلازم من قتله لأنه صاحب فساد وفتنة ، وهو المضرم لنار هذه الحيرة ومن بعد أن تقتلوه تكتبوا جوابا إلى الباشا بالجزائر تستعطفوه وتطلبوه بأن يعفوا على هذا العساكر ويسامحهم ، ويكون قتل ذلك التركي وهو أحمد شاوش فداء لهم ، فعند ذلك بعثوا إلى كبار العساكر وأخبروهم بالجواب الذى جاء بقتلهم وإهدار دمهم ، فتلاشت عقولهم ، ونزل الرعب فيهم من شدة الخوف كادت تزهق أرواحهم . فأجابهم سيدى الشيخ الفكون بكلام هين لا تحزنوا فإنا لا نسلموا فيكم ولكن نطلبوا عليكم تقتلوا أحمد شاوش ويكون في قتله حياتكم . وإن أبيتم فلا تلوموا علينا إذ لا نقدروا على مخالفة سلطاننا . فنهضوا ذلك التركي في الحين وقتلوا أحمد شاوش في لحظة عين ، فحينئذ اجتمعوا أكابر البلاد وسيدى الشيخ بن الفقون وعمال الوطن وكتبوا جوابا إلى الباشا قائلين له نحن أولادك وفي طاعتك فنطلبوا فضلك ونلتمسوا إحسانك بأن تعفوا عن هذا العساكر وتسامحهم فإنهم ندموا على صنعهم واستدركوا زلتهم بقتل كبيرهم فذلك هو عقوبتهم ويمكن أن ذلك الفتنة وقعت من أفراد لا من الكل . ونحن طلبنا إحسانك ورجونا عفوك ، والسلام من المذكورين أعلاه . ولما وصل ذلك الجواب إلى الباشا بالجزائر استحسنه وعفا على (كذا) ذلك العساكر ورجع باي آخر في سنة ثلاثة وعشرين مائتين وألف[60] .

---

60) بعد أن تم إعدام علي باي تولى أحمد الشاوش السلطة ، وحدثت في المدينة فوضى كبيرة وتعرض السكان للمصادرات والنهب والسرقة وفر من سجن القصبة بعض الخازنة مثل مصطفى بن عاشور قائد فرجيوه ، ومحمد بن القربة قائد عزب البقر . وذهب أحمد الشاوش إلى معسكر الجيوش بوادى الرمال وتسلم منهم أموال الأغا ووزعها على الناس . وكون مخزنه على الشكل التالي : أحمد طوبال خليفة ، عباس بن جلول باش كاتب ، الشيخ الطاهر الوريسي مفتى المالكية ، مصطفى بن باش تارزى مفتى الحنفية . سي أحمد بن العلمي قاضي المالكية ، الشيخ فتح الله قاضي الحنفية . وهذا الأخير نفى إلى عنابة وقتل في الطريق قبل وصوله إليها . وبعد هذا عزم أحمد الشاوش على الذهاب بنفسه إلى الجزائر العاصمة لاسترضاء الداى والحصول منه على تعيين رسمى وعين المجلس الذى سينوبه في غيابه واختار أعضاء من الأتراك المطيعين له وهم الباش آغا والخزناجي والباش شاوش ، ووكيل الحرج ، وطلب من الرماة أن يصاحبوه إلى العاصمة ، وفي يوم السفر أعدم آغا الدايرة ، والباش حمار بن القندوز ، وعندما وصل إلى بير البقيرات عسكر هناك حتى توافيه دواير : أولاد بوصلاح ، والصراوية ، والزناتي ، والتلاغمة ، وبني عبد النور ، والزمول ، ليصاحبوه إلى العاصمة . وكان خليفته قد فر إلى الجزائر وأخبر الداى باستعداده ومقتل علي باي ، فحصن باب عزون ، وأمر

أحمد طبال باي 1808 - 1811 م :

واسمه أحمد طبال باي رحمه الله ، وهو تركي قديم في قسنطينة وكان أحمد باي طبال المذكور رجل عاقل سيرته مليحة ، مع أهل الوطن وله شفاعة على الرعية وفي زمانه وقع الصلح بين الجزائر وتونس . عاش زمانا وأمر الباشا بقتله من غير سبب ، فمات سنة ستة وعشرين ومائة وألف[61] وكانت مدة ولايته عامين ونصف .

= باي البيطري أن يتجه بقواته إلى البيان لاعتراضه إذا ما قدم وكتب رسائل إلى أعيان قسنطينة مثل أغه النوبة ، وشيخ البلد ، والعلماء ، وجنود الميليشيا المتعاونين مع أحمد الشاوش ، وطلب منهم محاربة الثائر العاصي ، وأعلن لهم تعيينه لأحمد طوبال بايا على البايليك ، ووصلت هذه الرسائل إلى معسكر بير البغيرات مساء اليوم الذى وصل فيه إليه أحمد الشاوش . وفي صباح اليوم الموالي شرع أحمد الشاوش في التحرك ، وأخذ العرب حول المعسكر يرمون نيرانهم ويتحرشون بجنود الميليشيا ، فاتصلوا بهم وأكدوا لهم بأنهم مثلهم لا يشاطرون الثائر عمله وصنيعه ، وتلقوا رسائل الداى بالعاصمة وأنهم في طاعته . وعند ذلك اشتم أحمد شاوش رائحة المؤامرة واتفق مع أصحابه على العودة إلى قسنطينة فعادوا وعسكروا في وادى الرمال بمعسكر الشتاء ، والعرب يلاحقونه من بعيد ، وعندما اقترب من المدينة وجد ابوابها مغلقة في وجهه ، فعسكر في خيمة اللاجئين . بينا ذهب الأغا خفية إلى المدينة مع جماعة من القوم وأخبروا أحمد طوبال بالحالة الصعبة التي عليها أحمد الشاوش ، وفي الحين أرسلوا شواشا اعتقلوه وأعدموه وعلقوا رأسه على باب المدينة . ولم تزد أيام حكمه على 15 يوما ودفن في مقبرة الوزناجي غرب كدية عتى . ولقبه الناس بباي راسو ، وباي ذراعو ، وباي رُوحُو . انظر : فايسيت ص 497 - 509 .

61) تولى أمر البايليك في ظروف صعبة جدا لأن الخزينة خاوية ، ورجال المخزن مضطربون متفرقون والحالة العسكرية مهزوزة ، والسكان مشوشون . ومع ذلك عالج أحمد طبال الأمور بحكمة وحزم ، وقضى على زعماء الفتنة بأمر من الداى أحمد باشا ، ونظم المخزن ، وضم إليه رجالاً ذوى خبرة وعقل واهتم بالخزينة ، وجمع الأموال الضرورية واللازمة ، ووجه خليفته إلى الجزائر العاصمة لحمل الدنوش عام 1225 (17 ماى 1810) .

وفي عهده فتحت مفاوضات مع باي تونس ، وتم التوصل إلى إبرام صلح بين البلدين وقبل باي تونس أن يدفع المبالغ المالية المطلوبة منه كالعادة .

وحكم أحمد طبال البايليك بحكمة وعقل ورزانة مدة عامين ونصف ، ثم تسلط عليه اليهودى دافيد باكرى . وأقنعه بأن يبيع له كميات من القمح خلافا لأوامر الداى ، حاج علي فأمر بعزله وقطع رأسه ، فنفذ فيه في الحال ، وعين بدله محمد نعمان باي عام 1226 هـ (فيفرى 1811 م) . انظر فايسيت : ص 509 - 511 .

محمد نعمان باي 1811 - 1814 م :

ومن بعده تولى نعمان باي رحمه الله في تلك السنة[62] واسمه محمد ، وهو تركي قديم في قسنطينة وهو رجل عاقل ، وفي زمانه العافية موجودة في الوطن ، والبلاد ، وكان باش أغا المتولى . أحكام العرب بالجزائر هو بالضد معه فما زال يسعى في هلاكه حتى قطع نحبه وجاء الأمر من عند الباشا بقتله . مات رحمة الله عليه في عام تسعة وعشرين ومائتين وألف .

---

62)) عام 1226 هـ الموافق لعام 1811 م . وقد كان نعمان باي هذا خليفة لعبد الله باي ، وصهر الباي زرق عينو ، سلك سياسة سلفه في البايليك ، ووطد الأمن وطلب من الأوجاق الإذن له بأن يضغط على تونس حتى ترضخ لدفع الضرائب المفروضة عليها . وجاءت الفرصة عندما تمكن الرايس حميدو من أسْر فرقاطة تونسية عليها 38 مدفعاً ، وقادها إلى ميناء الجزائر فعجل الداى في إعلان الحرب ضد تونس ، غير أن رسولاً عثمانيا حضر إلى الجزائر لإصلاح ذات البين بين البلدين ، وهدد الجزائر باعتبارها عاصية إذا رفضت قبول الصلح . فأرسل الداى حاج علي رسولاً إلى تونس ليطلب من حمودة باشا قبول دفع الضرائب كالعادة وربط صلات حسنة ، وتخريب قصر الكاف ، وجعل ارتفاع قسطاط تونس لايزيد على النصف كما اتفق على ذلك سابقا . رفض حمودة باشا ذلك ، وأعلنت الحرب بين البلدين في شهر جويلية 1813 . وقاد الرايس حميدو القوات البحرية ، وأغا الجزائر ونعمان باي القوات البرية إلى هناك . واغتنم حمودة باشا ثورة باي وهران المسلوخ واستعان بالفرنسيين في تدعيم قواته بالأسلحة والذخائر والرجال . وتعرضت القوات الجزائرية لصعوبات عدة ، وكاتب الباي نعمان الباشا بالجزائر وأبلغه ذلك وجرت محاولات للصلح لم تنجح ، وعندئذ هاجم الجزائريون مدينة الكاف وانهزموا ، ومات لهم رجال كثيرون وانسحبوا ، وعاقب الآغا عدداً من الشيوخ العرب بتهمة تواطئهم مع حمودة باشا ، وقتل حوالي 260 شخصاً ، وفي 15 شوال 1227 هـ (16 ماى 1812) أرسل نعمان باي إلى الداي عمر هدايا ثمينة تتمثل في 200 محبوب ذهبي ، و 125 بوجو ، وبرنوسين ، وحالكين بسكريين ، وحمولتين تمرا ، وحمولتين كسكسي ، وقفتين زيتونا ، و 15 خروفا ، وبغلاً ، وطزينة من الشواشي وقارورة غاز سائل (نفط) فرحب بها الداى وأجابه برسالة شكر . وكانت هناك حزازات بين نعمان باي وباش أغة الجزائر ، عمر آغه ، عضو الديوان الذى شاركه في الحملة العسكرية على تونس ، وأثر الباش أغة على الداي فقرر عزل نعمان باي وتعويضه بمحمد شاكر . واستعمل الحيلة حتى لا يقوم بتمرد ضده ، واستدعاه للمشاركة بقواته في مقاومة ثورة سكان بوسعادة وأولاد ماضي عام 1229 هـ (جانفي 1814) الذين هاجموا أولاد سلامة ، والعذاورة ، وأصبحوا يهددون بايليك التيطري . وعندما وصل نعمان باي إلى مكان الحوادث تم الاتفاق على مهاجمة العصاة في ثلاثة محاور : أولاد ماضي ، وأولاد سيدى إبراهيم في الديس شمال بوسعادة ، ونظرا لكثرة الرياح والثلوج اضطرت القوات أن تتجمع في المسيلة شمالاً ، وهناك وجد نعمان باي نفسه في إحدى الصبحيات محاصرا في خيمته ، وقبض عليه الشواش وأعدموه خنقا في الحال بأمر من عمر أغة . ولم يسمحوا له حتى بالاستغفار . وذلك عام 1814 ، ودفن في قبة سيدى بوجملين بالمسيلة ، وقبض على خليفته مصطفى خوجة ولكنه لم يعدم . انظر فايسيت ص 512 - 518 وكذلك :

Al phonse rousseau : les annales tunesiennes pp.

محمد شاكر باي 1814 - 1818 م

ومن بعده تولى جاقر باي رحمه الله في تلك السنة(63) واسمه محمد وهو تركي قديم في قسنطينة وسبب توليته باي أنه كانت محبة ومصادقة بينه باش أغا المتولى أمور العرب بوطن الجزائر فتسبب في ترجيعه ، وكانوا الترك في سابق زمانهم مايرجعون واحد لوظيفة الباي إلا الذى يكون معروفا بالشجاعة وله خصال كثيرة في الحرب والبراعة ، لكن من زمان صالح باي وما بعده وقع الصف . فالذى يكون له صاحب متوصل عند الباشا يسعى لصاحبه حتى يرجعه لأجل المعاملة والمودة .

ويرجع الكلام إلى جاقر باي فهو رجل صاحب بطش غالب عليه صلابة العجم فيسفك الدماء في الحق والباطل ، يأخذ أرزاق الناس بالغزو ، ولا يبالى بمن هو طائع أو عاصي .

وفي زمانه اشتهروا الترك بالظلم وجاروا إلا أن يده مطلوقة في الصدقات ويكرم الناس بالمعاملات والأصل في ذلك من أرزاق المخلوقات . وفي هذا المعنى قول الناس الفضلاء ، رجل سرق وتصدق ياليته لم يسرق ولم يتصدق .

وفى هذا الوقت كان الباشا بالجزائر اتفق هو ووزرائه (كذا) على سكتهم عشروها ونقصوا ربع من كل ريال لتكون لهم الزيادة في المال . وفي ذلك تكلموا الأولياء وأهل الفضل الأتقياء قائلين في الزمان السابق لا بد من الترك . يتملكون بوطن العرب ويتوغلون فيه ، وحين ينقُصوا من سكتهم ينعدم نتيجتهم وينخرب ملكهم ، فكان الأمر كما تكلموا إلهاما من الله تعالى لأوليائه وكرامة لهم منه سبحانه وتعالى ، وإلا فالغيب لا

---

63) 1229 هـ الموافق لمارس 1814 . أصله من أزمير وأبوه اسمه عبد الله . اشترك في الحملة مع نعمان باي إلى بوسعادة وأولاد ماضى ، ألبس قفطان التولية في المسيلة ، وتولى عدة مناصب قبل ذلك واحتفل به هناك ثلاثة أيام ثم التحق بقسنطينة بعد أن سبقته إليها رسائل تعيينه بايا . وكتب إلى يوسف قائد الدار ليعتقل أعوان نعمان باي وهم : الكاتب أحمد السايح ، وأخوه الطيب قائد عزب البقر ، وأخوهما الثالث عيسى ، وكل أفراد عائلتهم ومصادرة أملاكهم العقارية ووضع حراسة على قصر الباي ، ومنزل مصطفى خوجة ، وقد مر في طريقه إلى قسنطينة على بير سويت ، وحامة قصر الطير ، واستقبل ببرودة من السكان لأن له سوابق غير مرضية ، وحال وصوله أمر بقتل بن هني رئيس اصطبلات الباي ، وذلك برمية من أعلى البرج إلى الساحة . وفعل الشيء نفسه بنائب أغا الزواوة بن عروز ورمى من أعلى باب الواد إلى الهاوية بعد16 يوما من الحادث الأول ، وبعد أن استقر في دار الباي كون مخزنه على الشكل التالي : عثمان خوجة خليفة ، يوسف قائد الدار ، الطاهر بن عون أغه الدايرة ، معمر بن الأحرش

... ...

= باش سراج ، محمد بن السامي باش كاتب ، سليمان بن دالي قائد الزمالة ، أحمد بن زكرى باش سيار ، وبعد ذلك شرع في ممارسة الغزو ضد العصاة والمتمردين حتى بلغت غزواته وخرجاته أكثر من 100 غزوة خلال حكمه الذى دام أربع سنوات .

وكان عمره عندما تولى البايليك ستين عاما ، واشتهر بسفكة للدماء كما ذكر العنترى لدرجة أنه لا يرتاح قبل أن يقتل ما بين 15 إلى 20 شخصا في اليوم . وهذا بسبب عمله في فرقة الميليشيا سنوات طويلة ، أول من غزاهم أولاد بورنان وأولاد مقران بمجانة خلال فصل الشتاء فمر ببير البقوات على طريق سطيف ، ثم ذراع الطوبال ، وكارب ، والمجاز ، وسطيف ، وعين تاغروط وفي الطريق أعدم عددا لا بأس به من الرجال ، وحاول أن يغدر بأولاد مقران فراسلهم وأكد لهم بأنه خرج في عمل تفتيشي عادى ، واغترّ الدواودة بكلامه فحضر إليه 12 رجلا منهم وقبض عليهم وأعدمهم في الحين ماعدا واحد ينتمي للموقرانيين تمكن من الإفلات على فرسه ، وأرسل رؤوس القتلى إلى قسنطينة لتعلّق للإرهاب و لم يحصل على طائل في غزوته هذه وعاد صفر اليدين ماعدا البغضاء وعداء السكان له .

وكان له ابن اسمه محمد عينه قائد العواسي وهو أهم منصب في الحراكتة ، وجند حوله عددا من الأتراك الرعاع ليدعموه ، وتعاون معه المدعو العقون من أهالي السقنية الذى سيصبح فيما بعد باش خزناجي .

في ماى 1816 طلب الداى عمر من الباي شاكر أن يعتقل كل الإنجليز المقيمين في مركزهم التجارى بعنابة بعد أن تأكد بأن اللورد ايكسموث سيهاجم الجزائر فنفذ الباي شاكر الأمر وقتل وجرح البعض منهم ، واعتقل حوالي 800 شخص وخرب مركزهم التجارى ، وكان ذلك سببا وحافزا لا يكسموث في أن يقذف مدينة الجزائر ويهدم جزءا من منازلها في السنة نفسها . وبعد ذلك قام شاكر باي بقتل أحمد بن الحملاوى قائد الجابرى الغربية ، وعدد آخر من الخدمة والأعوان ، والقائد عمار ، والباش كاتب محمد المكي بن السامي ، والقاضي ، الحنفي الشيخ محمد العشي ، ومصطفى بن عاشور قائد فرجيوة ، وهذا مما يؤكد تعطشه لسفك الدماء .

وفي آخر سنواته غزا شاكر باي الحمامشة ، وهاجم جموعهم في فج طراد ، ولم يحصل على طائل وانقلب على أولاد سيدى عبيد ، واستولى على قطعانهم الحيوانية ، وساقها أمامه ولكن الرياح والثلوج ضيعتها عليه ، وتفرقت عنه ، ولاحقه أصحابها وضايقوه فاضطر إلى إعادة ما تبقى لديه إليهم كما اضطر إلى إعادة بناء قبة جدهم وشيخهم قبل أن يعود إلى قسنطينة ، لأنه شعر على مايبدو بالذنب والحرج ووخز الضمير .

وفي شهر فيفرى 1817 غزا شاكر باي أولاد دراج ، وعسكر بقواته في ذراع القبور بين تافة والزانة ، وبلغه الخبر بأن أولاد دراج نقلوا خيامهم وقطعانهم إلى المتكوك فلاحقهم ليلاً ، وفاجأهم ، ولكن الحمامشة كانو أكثر استعدادا منه ، فهاجموه هجمة قوية ، وقتلوا كثيرا من قواته ، وأسروا الباقي ، ومن بينهم : محمد بن الزموري وحماد بن عون شقيق الأغا ، والحفصي بن عون ، ولم يكتفوا بهذا فاتجهوا إلى معسكر شاكر باي ، وأخذوا يقذفونه بالأحجار ويرمونه حتى بالبارود ، حتى اضطر إلى التفاهم معهم على أساس مغادرته للبلاد دون شرط أوقيد ، وإطلاق سراح الأسرى من الطرفين هو وهم ، وبذلك عاد شاكر باي إلى قسنطينة دون نتيجة ماعدا عداء السكان له كذلك .

وفي يوم 8 أكتوبر 1817 قام رجال الميلشيا في الجزائر بقتل الداى عمر باشا الذى أوصل شاكر باي إلى حكم البايليك ، وعوضوه بعلي خوجة الذى اتبع سياسة مخالفة له ، ولذلك طلب من شاكر باي أن يقتل خليفته ويعوضه بباكير خوجة .

انظر فايسيت : المصدر نفسه (1869) ص 518 - 546 .

يعلمه إلا الله تعالى ثم يرجع الكلام الا جاقر باي أنه تبقى زمانا على سيرته الأولى جاء الوقت فمات الباشا بالجزائر هجم عليه العسكر فقتلوه ورجعوا باشا آخر اسمه حسن باشا[64] وكان من طبعه يكره الترك من أجل قبيح صنعهم ، ومن بعد أيام قلائل شرع في قتلهم ولا يبالي بالكبار والصغار ، ولوطال لفناهم وخلى منهم الديار . وكان حسن باشا المذكور وهو الذى شهّر القصبة بالجزائر وجدد بنيانها ، ورفع كل الخزائن إليها . وصارت أحكامه تخرج منها . هذا الوقت كتب حسن باشا المذكور جوابا إلى جاقر باي قائلا له يلزمك تقتل كبار الترك الذى في بلاد قسنطينة عن آخرهم ولا تبقيهم واقطع آثارهم ، والسلام ، فلما وصل إلى جاقر باي هذا الجواب تحير وتقلق وضعف عليه الخروج من هذا الباب ، وخاف على نفسه أن يكون الختام به اش يعمل ، من بعد ما خمّم تراه بعث إلى كبار الترك كلهم وأخبرهم بالأمر الذى جاء في قتلهم فاقشعرت جلودهم وطاشت عقولهم ، ثم تكلم معهم جاقر باي قائلا لهم اسمعوا كلامي فإني منصح إليكم ولنفسي هذا الباشا يريد فناء الترك عن آخرهم وأنا وأنتم محسوبون منهم . فانظروا في الحيلة التي تخلصنا من هذه الورطة ودبروا في الدواء الذى نعالجوا به هاته الغصة فأجابوه ذلك الترك بلسان طليق وقول من قلب صديق نحن بين يديك طائعين ولأمرك متبعين .

فحينئذ جمع العلماء وسيدى الجد الشيخ بن الفكون ، وأكابر البلاد ، فلما استقر المجلس بهم تكلم جاقر باي معهم قائلا لهم : يا علماء الفضل والإرشاد ، ويا أهل البلاد ، إن هذا الباشا عازم على فناء الترك وفطام آثارهم ، ويريد العرب من بعدهم ، وإنا ما نرضى بهذا الحكم يجرين علينا ولا عليكم لأنى نشأت بينكم وصرت كواحد منكم فأجابوا كل الحاضرين (كذا) نحن لطاعتك منقادون ولكلامك موافقون ففرح جاقر باي بكلامهم واطمأنت نفسه لجانبهم قائلا حيث وقع بيننا الاتفاق فلا حرج علينا ولا شقاق ، ولكن نحصنوا بلادنا وإن جاءنا ظلم من قبل ذلك الباشا ندفعوه على أنفسنا ،

64) الباشا المقتول هو الداى عمر باشا (1814 — 1818) والداى المبايع هو حسين آخر دايات الجزائر الذى ضيع الجزائر في أيدى الفرنسيين .

إلا سيدى الشيخ المذكور لن يوافقهم ولم يرض بصنعهم قائلاً : لا تغترّوا بهذا الكلام ولا تأمنوا لما تظهره الأيام . لو أن الجزائر انعدمت ودولة انقطعت لكان في ذلك كلام وتدبير . واليوم الجزائر لا زالت موجودة وأحكام الباشا المذكور جارية منفردة في كل البلدان ، وتدبير . واليوم الجزائر لازالت موجودة وأحكام الباشا المذكور بيده زوج جوابات إحداهما إلى دوان النوبة بمسكون جاقر باي ، ويقتلونه ، والجواب الآخر إلى ناس قسنطينة ومضمنه باختصار :

الحمد لله جوابنا يصل بيد ناس قسنطينة من العرب خاصة أما بعد فقد سمعنا بذلك الأمر الذى هو جاقر باي يصنع فتة وتحقق عندنا الكلام الذى غركم به ، فاعلموا ياأولادنا أنا ما عندى بغض في جانبكم ، ولا قصدى بالشر إليكم ، وإنما قصدى في الترك نقتل منهم أولاد الحرام ، ونقطع الزنادقة اللئام ، وحتى يستقيم حالهم ، وإلا نفنيهم عن آخرهم . وأما أنتم يأولادنا العرب إن كنتم في طاعتنا فما عليكم إلا الأمان والإحسان منا ، وإن كنتم في طاعة جاقر باي خمّموا في عقولكم ، وانظروا فيما يليق بكم والسلام . كتب بأمر الدولة باي الباشا بالجزائر .

وجواب آخر إلى سيد الشيخ بن الفقون يستكثر من خيره ويتعجب من سياسته وحسن صنيعه ونصحه ، فترى الناس من بعد قراءة الجوابين انفكوا عنه وسلموا أيديهم منه وما بقي جاقر إلا وحده فحينئذ تقدم الديوان إليه ومسكه وفي الحين مات مخنوقا في سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف[65] .

---

(65) في أواخر أيامه أصبح شاكر باي يشعر بالذنب ، وبالألم مما ارتكبه من الجرائم وذات يوم حضر إليه أحد الأتراك وقال له بأن قارة مصطفى أغا المسيلة قد عين باياً على قسنطينة ، وبعد ذلك ذهب إلى قارة مصطفى الذى كان موجودا بقسنطينة آنذاك وأخبره بأن شاكر باي يستعد لقتله . ففر في الحين وغادر قسنطينة إلى زاوية مولاى الشقفة بأحواز جيجل . ومن هناك أخذ مركبا واتجه إلى مدينة الجزائر بحراً منه أن يلتحق في الحال بقسنطينة ويقضي على شاكر باي ويتولى مكانه . وعندما علم شاكر بالخبر جمع إلى دار الإمارة كل رجال المخزن ، وأغلق الباب عليهم جميعا لربط مصيرهم بمصيره . وكلف ابنه محمد بن شاكر بأن يقود قواته إلى بير البقيرات ليعترض قارة مصطفى ويقتله أو يعتقله ويحضره إليه حيا . ولكن هذا الإجراء لم ينفع لأن قارة مصطفى تمكن من الدخول إلى قسنطينة دون صعوبة فاستجار شاكر باي بالشيخ الفقون فأجاره ، غير أن قارة مصطفى انتزعه منه انتزاعا وقتله ، ودفن في قبة سيدى عبد القادر قرب مقبرة سيدى مسعود السائح . انظر فايسيت ، نفس المصدر ص 540 - 546 وكذلك مذكرات نقيب الأشراف ، ص 117 - 140 .

قارة مصطفى باي (جانفى 1818 م) :

ومن بعده تولى قارة مصطفى باي رحمه الله وهو تركي قديم في قسنطينة مكث ثلاثين يوما في ولايته فقط ثم جاء الأمر من عند الباشا المذكور بقتله فمات[66] .

أحمد باي المملوك (فيفرى 1818 م)

ومن بعده تولى المملوك باي رحمه الله اسمه أحمد باي ، ولم يكن واحدا (كذا) من المماليك تولى باي في زمن الترك إلا هذا المذكور لأن حسن باشا قصد بولايته نقمة في الترك لكونه من غير جنسهم . ومن بعد ذلك حكم الله على حسن باشا المذكور مات بالطاعون ، وتولى حسين باشا رحمه الله الذي هو موجود حين دخول الفرانصيص في الجزائر . ومن بعد أيام قلائل جاء الأمر من عند الباشا الجديد بعزل المملوك وأمره ينتقل إلى الجزائر وعفى (كذا) عنه من الموت ، وكانت مدة ولايته ستة أشهر[67] .

---

66) لم يقم هذا الباي بأي عمل ، ولم يدم في الحكم سوى شهر واحد أوائل عام 1818 م ، قرب إليه اليهود والنساء ، وجمعهم في قصره وأخذ يتعاطى معهم شرب الخمور ، والدعارة تاركا أوضاع البايليك للإهمال ، اقتص من رجل من بني عامر استقدمه إليه وقتله ، واعتقل أبناء ابن العطار وقتلهم كذلك ، وهم أعضاء ديوان الأوجاق أو المخزن .

ونظرا لهذه الحالة المتدهورة أرسل الباشا بالعاصمة صهره محمد بن مالك والباش أغا وحققا في الحالة المالية بعد موت شاكر باي ، ووجدا الخزينة فارغة ، واكتشف أن ابن شاكر باي محمد سرق أكياس المالية بالخزينة وعددها اثنا عشر كيسا ، وأخفاها ففتشا عليها حتى اكتشفاها ، واستعاداها ، واعتقلا محمد بن شاكر وأعدماه وتأكدا أن قارة مصطفى ليس أهلا لتسيير البايليك ، فأرسلا رسولاً إلى الداى علي خوجة أحاطه علما بالأمر ، فأمر بعزله وإعدامه ، وعين مكانه مملوكا من أصل إيطالي أسلم وحسن إسلامه يدعى أحمد . انظر : فايسيت . ص 547 - 549 .

67) نصبه مبعوثا الباشا السابقان ، وبقيا معه شهرا كاملاً حتى نظم أموره ، ثم قفلا راجعين إلى الجزائر ، ومعهما أكياس من النقود ، وسبع نساء ، يهوديات كهدية للداى علي خوجة ، وكان أحمد المملوك مثقفا ، حيويا ، عادلا ، ألف مخزنه على الشكل التالي : الحاج أحمد بن محمد الشريف خليفة ، بوزيان بن العلمي أغا الدايرة ، عبد الله بن زكرى باش سيار ، مصطفى بن الأبيض قائد الدار ، الحاج عبد الرحمن بن نعمون باش كاتب ، وطلب من الجميع أن يقوموا بواجباتهم لصالح البايليك العام .

وفي بداية عهده مات الداى علي خوجة بالطاعون يوم 1 ماى 1818 م ، وخلفه الداى حسين آخر دايات الجزائر . فكتب إلى الحاج أحمد الخليفة ، وطلب منه أن يتخلى عن منصبه لصالح بن زكرى ، ويذهب هو إلى البلاد المقدسة لحمل أموال الحرمين الشريفين فسافر من عنابة بصحبة عبد الرحمن بن نعمون ، والشيخ محمد بن بوديرهم . اتبع أحمد المملوك سياسة سلفه قارة مصطفى فقتل محمد بن بورقعة ، وإبراهيم بن التواتي ، وسي حمد بو القربة وآخرين ، وأحدث تغييرات في مخزنه فعين عمار بن عون أغا الدايرة ، والعربي بن العلمي سراج ، وعلي المملوك قائد عزب الجمال ، والحيولى قائد التلاغمة ، وسليمان قايد عبد النور ، ومصطفى بن كوتشوك على باش كاتب ، والحاج عبد الكريم المملوك قائد الدار :

وفي فصل الصيف خرج لغزو بني عامر ، غير أنه فوجيء برسل من الباشا بالعاصمة يحملون رسالة إلى الأغا قائد الحملة يطلب منه فيها أن يعتقله ، فأوقفه وسلمه لأولئك الرسل فادوه إلى الجزائر العاصمة ، ومن هناك نفاه الداى إلى مازونة ولم يدم حكمه سوى ستة أشهر ، ولكنه سيعود إلى حكم البايليك مرة أخرى . انظر فايسيت . ص 549 - 551 .

محمد باي الميلي 1818 - 1819 م :

ومن بعده تولى الميلي باي رحمه الله في أواخر سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف[68] واسمه محمد باي ، تركي قديم في قسنطينة ، وهو رجل قليل العقل يظلم الناس ويأخذ أرزاقهم بالباطل ، وكان مشى إلى وطن الصحراء فصدر منه الظلم والجور على ناس ذلك الوطن ، فرفعوا شكاياتهم إلى الباشا بالجزائر فحينئذ عزله بهذا السبب ولم يقتله وأمر ينتقل إلى شرشار[69] قرية بغرب الجزائر ، وكان وقت عزله سنة أربعة وثلاثين ومائتين وألف[70] .

إبراهيم باي الغربي 1819 - 1820 م :

ومن بعده تولى إبراهيم باي رحمه الله في السنة المذكورة[71] وهو تركى من وهران

---

68) هجرية الموافق لنهاية عام 1818 م وكان محمد باي الميلي هذا قد عين قائد العواسى في الحراكتة ولكنه قبل أن يلتحق بمنصبه هذا عين باي على قسنطينة وهو خشن جاهل ، سيء الإدارة والتنظيم لا يفهم إلا منطق القوة ، وبالغ في ابتزاز أموال التجار خاصة اليهود ، الذين قيدهم بأسعار خاصة محددة ، وأرغمهم على تغيير قيمة العملة أكثر من مرة ولا يقنع أبدا بما يقدمونه له من الأموال . وألف مخزنه على الشكل التالي : الحاج أحمد بن الشريف خليفة ويوسف قائد الدار ، ومعمر بن الأحرش أغه الدايرة ، ونعمة الله شقيق الداى قائد العواسي ، وسي بلقاسم بن المزحول باش سراج ، وسي محمد بن الزواوى بن جلول باش كاتب . وسي علي بن مريخي باش سيار . وفي نهاية فصل الصيف قام بغزوة ضد سكان أو غلال إحدى قرى منطقة الزاب ، بسبب تمردهم تحت زعامة ذباح بن بوعكاز . ولكنه فشل في هجومه الأول عليهم وقتل له أغا الدايرة معمر بن الأحرش . وجدد هجومه عليهم مرة ثانية وصادر أموالهم ، واتجه بعد ذلك إلى طولقة وقطع الكثير من أشجار النخيل عقابا للسكان . وبعد ذلك عاد إلى قسنطينة وقام بإعدام عدد من الناس ومنهم : مرجان قائد الزربية وهو عبد أسود كان يقوم بوظيفة حماية نساء قصر الداى ، وسي الطاهر الزمورى نائب قائد الدار ، والباش سيار ، وسليمان بن دالي ، وأغا الدايرة ، وقائد الزمالة وعدد آخر من العرب ، وفي ربيع عام 1819 ذهب إلى الجزائر العاصمة حاملا الدنوش وبعد ثمانية أيام من إقامته غادر العاصمة عائدا إلى قسنطينة ، فأرسل الداي حسين شواشا من ورائه اعتقلوه واقتادوه إلى مليانة ، وقيل شرشال ، وبقى بها حتى تولي الحاج أحمد باي منصب البايليك ثم عاد إلى قسنطينة وبقي بها حتى سقطت في أيدى الفرنسيين عام 1837 . فالتحق بزاوية أو ضريح سيدى عبد القادر الجيلالي وأصبح وكيلا لها ومقدما . انظر فايسيت . المصدر نفسه (1869) ص 551 - 554 .

(69) اسمها شرشال باللام في الأخير ليس بالراء . وقد يكون الناسخ هو الذى أخطأ .

(70) هجرية الموافق لعام 1819 .

(71) عام 1234 هـ الموافق لعام 1919 وكان في الأصل بايا على بايليك التيطرى في مدينة المدية وصادف وجوده بمدينة الجزائر =

رجل عاقل لا يبدي شيئا ولا ينهيه ولا يبرم حكما ولا يمضيه ، وكان حاج أحمد خليفة عنده وكل التصريفات بيده أعني حاج أحمد . فبعد أيام من ذلك دخلوا الشياطين بينهم وانعكس أمرهم وصار في ضد بعضهم . فلما بلغ إلى الباشا بالجزائر استقبح صنيعهم وأمر بعزل الخليفة ، فانعزل من وظيفته والحال أنه خاف على نفسه فهرب إلى الجزائر طالب الأمان من الباشا وباقي (كذا) هناك إلى الوقت الذى تولي فيه باي . وأما إبراهيم باي المذكور فإنه زاد من بعد عزل الخليفة زمانا ثم جاء الأمر من عند الباشا بقتله فمات رحمة الله عليه في سنة خمس وثلاثين ومائتين ألف[72] .

أحمد باي المملوك مرة ثانية 1820 - 1822 م :

ومن بعده تولى المملوك باي رحمه الله فى السنة المذكورة[73] وهو أحمد باي المتقدم

= عندما حضر اليا ، الباي محمد الميلي بوشطابية ، بالدنوش . فعينه الداى حسين بايا على قسنطينة خفية حتى لا يطلع الباي الميلي على ذلك . وبعد أن تم اعتقال الباي الميلي ظهر والتحق بالقافلة التي كان يقودها الميلي ، وذهب على رأسها إلى قسنطينة وصحب معه حوالي 60 خيمة من الرجال ، وجمع في الطريق ضرائب الصيف مما سبب تأخره في الوصول حوالي شهرين ، وعندما وصل استقبله الناس بفرح وحماس . وعين أحد أقربائه قائد العواسي على البابور ، وسليمان بيع المملوك قائد الدار ، وأبقى الباقي في مناصبهم وكان عادلا حازما حليما في موطن الحلم ، شديدا في غيره ، اهتم بالإدارة وسيرها . وعندما اختلف مع خليفته الحاج أحمد باي طلب من الداي أن يعزله فعزله ، وعوضه بمحمود بن شاكر باي .

وكانت أوضاع إبراهيم باي الغربي في البداية حسنة ، ثم تعرض لمشاكل ، وعجز عن توفير الأموال اللازمة للدنوش ، بسبب تلاعب خليفته محمود بن شاكر باي ، الذى قاد قافلة الدنوش وزعم للداى عند وصوله بأن الخزينة فارغة ، وكاتبه الداى وطلب منه إكمال المبلغ المطلوب منه فعجز ، وظهر ضده خصوم بمجلس ديوان الأوجاق وأثروا على الداي حسين فقام بعزله وعوضه بأحمد باي المملوك للمرة الثانية الذى كان منفيا بمدينة مازونة ، وقد تم عزله عام 1820 م واقتيد إلى سجن القصبة في قسنطينة في انتظار مصيره . انظر فايسيت ص 554 - 557 .

72) هجرية الموافق لعام 1820 م .

73) 1235 هـ الموافق لعام 1820 ، عندما وصل إلى قسنطينة نصب خيمة للصلاة قرب كدية عتى واتجه إليه هناك كبار البلد وهنئوه على تعيينه من جديد بايا على قسنطينة وقرأ عليهم فرمان التولية ، ثم دخل إلى دار الإمارة وأمر بإعدام الباي السابق إبراهيم الغربي ، وسجن كل من لم يعجبه من رجال المخزن مثل : باربار علي قائد العواسي ، وصهره أحمد بن نوة وآخرين ثم نفاهم إلى المدية ، وعزل محمود بن شاكر ، وعوضه بأمين خوجة ، وألف مخزنه الجديد على الشكل التالي : أحمد بن الحملاوى أغا الدايرة ، وأمين خوجة خليفة ، وعبد الله بن زكرى باش سيار ، وعلي بن الحاج رابح سراج ، والحاج عبد الرحمن بن نعمون باش كاتب ، ومصطفى الأبيض قائد الدار ، وإبراهيم الفريجي قائد العواسي ، وفرحات بن سحنون قائد الزمالة ، وقام بعدة غزوات إلى الأوراس ، وواد سوف ، وتقرت ، وأدب العصاة ، وأعدم الكثير من الأعوان . وبعد عامين حمل الدنوش واتجه إلى الجزائر فعزله الداى ونفاه إلى مازونة حسب فايسيت وإلى مليانه حسب العنترى . أنظر فايسيت ص 557 - 569 .

ذكره ولم يكن واحدا من الترك تولى مرتين باي في قسنطينة إلا المملوك المذكور ، والسبب في ذلك أن باش أغا المتولى أمور العرب بالجزائر وهو صاحبه وحبيبه باقي (كذا) يسعى له عند الباشا حتى رجعه مرة ثانية ، وكان أحمد باي المملوك سيرته مليحة وسياسته حميدة مع أهل الوطن وناس البلاد وأحكامه بالعدل والسداد . ومتولع بركوب الخيل ، والاصطياد وأما السبب في انقضاء ولايته أنه عزم على المشي إلى وطن الصحراء لاكتساب منفعته فاستأذن من الباشا بالجزائر في ذلك فلم يأذنه بل نهاه عن المشي هنالك ، وكان من عادة البايات لا يمشون إلى الصحراء إلا بمشورة وإذن من عند الباشوات . فتراه خالف الأمر ومشى إلى الصحراء داس أرضها واكتسب المال الكثير من وطنها . فلما رجع من سفره وافاه زمان دنوشة فحين وصل إلى الجزائر ، عاقبه الباشا وعزله ، وعفى عن قتله ، وأمره ينتقل إلى مليانه قرية في وطن الجزائر ، وكان عزله سنة ألف ومائتين وسبعة وثلاثين[74] .

إبراهيم باي الكريتلي 1811 - 1824 م :

ومن بعده تولى إبراهيم باي رحمه الله في السنة المذكورة [75] ويسمى نسيب بن قارة علي وهو تركي قديم في قسنطينة رجل عاقل ما فعل الشر في زمان ولايته قط ، له

(74) هجرية الموافق لعام 1822 م .

(75) عندما عين بايا على قسنطينة كان موجودا في بلاد القبائل ، وهو قائد سابق للحراكتة فالتحق بالعاصمة وتسلم من الداى قفطان التولية ، والتحق بالقافلة المتجهة إلى قسنطينة وزار في الطريق كل جهات البايليك لإبلاغ الناس نبأ تعيينه بايا ، وتفقد الأحوال . وعندما وصل إلى قسنطينة ألف مخزنه على الشكل التالي :

الحاج حسين خليفة ، وبن زيان بن العلمي أغا الدايرة ، وسي محمد الزواوى بن جلول باش كاتب ، وسي إبراهيم بن قارة علي صهر الباي قائد الدار . وأحمد بن الحملاوى قائد الزمالة ، وحمو بن معطى سراج ، وإسماعيل ابنه قائد العواسي تحت رعاية الشيخ أحمد المعايلي . غزا الحمامشة والمعامرة وبني وجانة ، وعاقبهم على التمرد ورفض دفع الضرائب ، بقي على حكم البايليك عامين ونصفا ، ثم عزل ونفي إلى المدية حتى تولي الحاج أحمد باي منصب البايليك فعاد إلى قسنطينة وتولي منصب الخليفة له مدة من الزمن ، وقد خلفه في منصبه محمد مناماني انظر فايسيت . ص 569 - 578 .

حنانة وشفاقة على الرعية أحكامه بين الناس بالعدل مستوية . وكانت مدة ولايته عامين ونصف ثم جاء الأمر من عند الباشا بعزله وعدم قتله ، وأمره ينتقل إلى المدية قرية بقرب الجزائر وكان زمان عزله سنة ألف ومائتين وأربعين[76] .

محمد باي مناماني 1824- 1826 م :

ومن بعده تولى منماني باي رحمه الله في السنة المذكورة[77] اسمه محمد باي وهو تركى قديم في قسنطينة وتولى كثير الوظائف في قسنطينة لكن حين ترجّع باي صار لا يفهم ولا يعقل كالجماد ، واشتهر ظلم الترك ، وصاروا يقتلون الناس في داخل البلاد ، وانحلت الأحكام وتصعب الوطن وضعفت الرعية ووقع الصف بين المخازنية وعظمت بينهم الفتنة فعجز أن يفصل بينهم بشىء ، وآل أمرهم إلى أن فروا إلى الجزائر شاكيين (كذا) إلى الباشا هذا الوقت عزله الباشا المذكور وأمره ينتقل إلى القليعة دشرة قرب الجزائر ، وكان زمان عزله سنة ألف ومائتين وواحد وأربعين[78] ومن بعده تولى حاج أحمد .

---

76) هجرية الموافق لعام 1824 م .

77) عام 1240 هـ الموافق لعام 1824 تولى أمر البايليك وهو عجوز هرم قليل القوة ، ضعيف الذكاء وكان قد تولى قبل ذلك وظائف : قائد جلب الغنم ، وقائد الشعير ، والخليفة ، لا يحسن العربية ولا يتحدثها إلا بصعوبة رغم كونه عاش بقسنطينة سنوات طويلة ولم يظهر أية حيوية أو جدارة في إدارة البايليك ، ألف مجزنه على الشكل التالي : بكير خوجة خليفة ، ومصطفى بن الأبيض قائد الدار ، وعبد الله بن زكرى باش سراج ، والسمارى باش مكحالجي ، وبوزيان بن العلمى أغا الدايرة ، وحاج عبد الرحمن بن نعمون باش كاتب ، ومحمد صدراق شاوش ، ومحمود بن شاكر قائد العواسي . قام بخرجة واحدة إلى صدراته الشراقة بين قالمة ، وسوق أهراس وأوقف أحمد بن الحملاوى ، وأعدم بن عمر أحد قادة الحملة . ثم عاد إلى قسنطينة ، وأرسل عدة حملات إلى أولاد نايل في واد اللحم صادرت أربعين ألف رأس غنم .

وفي أيامه الأخيرة سادت الفوضى وعمت الاضطرابات في قسنطينة وانعدم الأمن وكثر اللصوص وعجز عن توفير أموال الدنوش المطلوبة منه ، وحصل خلاف بينه وبين خليفته فاستدعى إلى العاصمة وحمل معه أموالا زهيدة ، والتزم بدفع الباقي حال عودته . وخلال رجوعه إلى قسنطينة أرسل الداي حسين شواشا اعتقلوه في حمزة (برج البويرة) واقتاده إلى القليعة في أحواز العاصمة بمتيجة ، ووضع في إقامة جبرية حتى احتل الفرنسيون الجزائر العاصمة . وعاش بعد ذلك سنوات أخرى حتى توفي . بقي عاما وثمانية أشهر من ديسمبر 1824 إلى جويلية 1826 م . انظر فايسيت . المصدر نفسه (1869) ص 578 - 586 .

78) هجرية الموافق لعام 1826 .

الحاج أحمد باي بن محمد الشريف 1826 - 1837 م :

في سنة ألف ومائتين وواحد وأربعين[79] ولما توقع الفساد في الوطن وانحلت الأحكام في زمان منماني باي واشتهر ظلم الترك كان حسن باشا في هذا الوقت خمّم في عقله وظهر له في تدبيره أنه رَجَّعَ حاج أحمد باي في قسنطينة ومن بعد ترجيعه عين له باش أغا المتولي أمور العرب بالجزائر وخرجوا معا يجوسون الوطن وينظرون في شأنه وأش هو السبب في تخليطه وفساده فتراهم خرجوا من الجزائر بالأمحال ونزلوا في وطن يتسمى عقبة عمّال . ثم رحلوا من هناك ونزلوا في وطن يتسمى ونوغه هو أول ابتداء وطن قسنطينة أقاموا فيه أيام (كذا) عملوا نظرهم فيما يخصه وأخذوا مطالب البايليك . ثم رحلوا من هناك نزلوا في وطن زمورة عملوا بنظرهم فيما يخصه وخلصوا مطالب البايليك . ثم رحلوا ونزلوا قصر الطير ويتسمى بوطن ريغة أقاموا فيه أيام عملوا نظرهم يخصه وخلصوا مطالب البايليك . ثم رحلوا من هناك ونزلوا في وطن اصطيف وهو وطن عامر عملوا نظرهم فيما يخصه وأخذوا مطالب البايليك ، ثم رحلوا إلى جبل أولاد سلطان متوسط بين وطن قسنطينة ووطن الصحراء وهو جبل كثير الشعاب وناسه صعاب ، فنزلوا عليه بالفتن وأخذوا من عند ناسه شيء قليل على وجه الصلح .

وأما سبب تسميتهم بأولاد سلطان قيل بأنه زوج نساء أختين واحدة اسمها فاطمة والأخرى اسمها سلطانة وكانت فاطمة عندها أربعة أولاد ، وسلطانة عندها سبعة أولاد ، فوقع بينهم عداوة وصار بينهم قتال فمات من أولاد سلطانة ثلاثة وتبقى أربعة ثم من بعد ذلك تفرقوا . أولاد فاطمة سكنوا في جبل ، وأما أولاد سلطانة تبقوا في جبلهم . ولا زال إلى الآن جبل أولاد سلطان وجبل أولاد فاطمة ، وهما قريب من وطن باتنة .

ثم رحلوا من هناك وقصدوا عنابة أقاموا فيه أيام عملوا نظرهم فيما يخصه واستخلصوا

---

79) هجرية الموافق لعام 1826 م . والذى رافقه إلى قسنطينة هو الأغا يحى صديقه .

مطالب البايليك و كان باش أغا وحاج أحمد باي مهمي (كذا) ينزلون في وطن يسألون عن شأنه فيجدون سبب فساده من جور البايات ، وظلم الترك فتراهم يجعلون لناسه تأويل وهكذا كل وطن ينزلون فيه إلى آخره . ومن بعد رجوعهم من وطن عنابة دخلوا بلاد قسنطينة فتراهم عملوا نظرهم في شأن البلاد ودبروا فيما يصلح ويليق من أمور العباد ، فقتلوا من الترك أصحاب الظلم ونفذوا عقوبتهم في البعض من العرب الذين هم أصحاب الشيطنة والفجور ثم إنهم رتبوا عشور القمح والشعير على الوطن ومن قبل ذلك أبدا لم يكن ، وكانوا من بعد قضاء حوائجهم وترتيب أشغالهم وتأسيس أحوالهم ، سافر باش أغا إلى الجزائر من كون زمان الشتاء أدركهم ، إذ لا يمكنهم تحويس الوطن كله ، ولم يقدروا يستوعبوه بأسره لأنه لا يحتاج (كذا) إلى زمان طويل ، على حسب ماسبق لهم من الترحيل ، وكان الوطن الذى حوسو في ذلك الأيام العديدة ، انما هو قطعة في الناحية الغربية من وطن قسنطينة .

ومن بعد ذلك تبقى حاج أحمد باي في البلاد هذا الوقت أحكامه بالعدل والسداد وعلى نمط الشريعة والرشاد . وقد زال الظلم والجور ، وذهبوا أصحاب البغي والفجور فيما بينهم قائلين حيث تمكن الفرانسيس ببرج مولاى حسين فلم يبق ينفعنا معه فتن ولا طراد وإن تبعنا كلام أحسن باشا كان الضرر علينا وتضيع تجارتنا الذى في البلدان والذى هي بين أيدينا ، ولكن تعملوا تأويل الذى يليق بنا ويكون به حياتنا هذا الوقت تراهم تكلموا مع الماريشال بورمون الذى هو كبير الرمادة[80] الفرانصوية فسلموا له البلاد بشرط على أن لا تكون ضرورة من الفرانسيس إلى ناس الجزائر ويكونوا محترمين في أنفسهم وحريمهم وأرزاقهم فقبل منهم الماريشال المذكور هذا الشرط واتفقوا على هذا المنوال ، فحينئذ تقدم عسكر الفرنسيس ودخل الجزائر فقاموا العامة وأراد يفتنوه فمنعوهم الناس الذين كانوا تقدم كلامهم مع الماريشال بورمون قائلين لهم كفوا أنفسكم وأمسكوا أيديكم وابقوا في احترامكم وخلفوا الأمر بيد الفرانسيس والباشا . فترى ذلك

---

80) الماريشال دوبورمون : De bourmont هو قائد الحملة الفرنسية ضد مدينة الجزائر عام 1830 م والرمادة هي الأسطول الفرنسي الذى قاده في هذه الحملة .

انكفت ، وكان أمر الله المحتوم الصاير قدره ، وحكم سبحانه بدخول الفرانسيس في الجزائر ، فدخل في الحين إليها وتمكن بسلطانها واحتوى على خزائنها فعند ذلك تفرقوا الجنود ، ورجع كل باي إلى وطنه مكمود وكان ذلك في أول عام ستة وأربعين ومائتين وألف[81] .

وأما حاج أحمد باي لما رجع أنكروه ناس وطنه وخرجوا على طاعته وما وصل إلى قسنطينة إلا بالفتن والقتال من كل الأعراش الذى خرج فيه الفرانسيس على الجزائر فترى حسن باشا بعث إلى كل بايات الأوطان وأمرهم يأتوا بالجنود والقومان[82] لأجل مقاتلة الفرانسيس ومدافعته فلما وصل كل باي بخيره واستقل كل واحد بمحلته كان الفرانسيس نزل في البر بعساكره وآلة حربه فعند ذلك اتسع الميدان واشتد القتال مدة من الأيام والليال (كذا) فكان الفرنسيس أول فرصة نالها حين تمكن بمحلة باش أغا واستولى عليها ، وانفكت يد المسلمين منها فلما وصل الخبر إلى الباش (كذا) تحير ، وتقلق ، وتلاشا (كذا) فتراه خرّج محلة أخرى وجدد في الفتن وانضرمت نار الحروب وعظمت المحن ، فكان من هندسة الفرانسيس وتحيله أنه يحفر المتارزات بالليل ويفتن بالنهار ، ولا زال كذلك إلى أن تمكن ببرج مولاى أحسن وصار له قرار . هذا الوقت تحقق للمسلمين أن الجزائر انعدمت ، ومديد الترك انفكت وانتزعت ، فلما سمع حسين باشا بتمكين الفرانسيس في برج مولاى حسن عظم عليه الأمر وغاب عنه الفكر تراه بعث إلى ناس الجزائر من العلماء فقدموا إليه واجتمعوا كلهم لديه ، فقال لهم خمّموا ودبروا فإن الفرانسيس أخذوا برج مولاى حسن وهذا البرج هو قاعدة الجزائر وحصنها ، فقالوا له نحن نقاتلوا بأنفسنا وأولادنا حتى نموتوا بأجمعنا ولا نسلموا في بلادنا فاستحسن كلامهم وشكر صنيعهم وقاموا على هذا الوفاق . فلما انفصلوا من عنده تكلموا على أحوال الرعية الكائنة في تلك الناحية . فمكث في ذلك الوطن حتى قضى حوائجه ، وخلص مطالبه ومن بعد ذلك جاء في قسنطينة وقد تجمع بيده الأموال والفوائد الكثيرة ،

---

81) هجرية الموافق لعام 1830م .

82) يقصد بالقومان ، جنود القوم أو الصبايحية ، وكلام العنترى هنا فيه اضطراب كثير بحيث يتحدث عن أشياء بعد الحملة الفرنسية ثم يعود إلى ما قبلها من الأحداث ، ويربط قسنطينة بالجزائر في قضايا لم يستطع أن يفصلها ، ويوضحها ، والدنوش التي يتحدث عنها حملها الحاج أحمد إلى العاصمة عام 1827 م .

هذا الوقت طلب الإذن من عند الباشا لأجل يدنش إلى الجزائر ويبذل إليه من ذلك الأموال والذخائر وكان ذلك الوقت ليس هو زمان دنوشة وإنما قصد بذلك تحصيل مرغوبه والمفازة بالمفاخر والمضاهات (كذا) وليكون له الصيت دون البايات ، فلما جاء الإذن بالمشى نهض في الحال وأخذ مايلزمه من الهدايا والأموال وقصد إلي الجزائر ، ومشوا معه عمال الوطن والناس الأكابر ، فحين وصل إلى الباشا وسلم له ذلك الأموال الذى بيده ، ثم أعطى بالزيادة إلى وزرائه ففرح به الفرح التام واستكثر من خيره وشكره شكراً عام (كذا) وفوض له في جميع الأحكام .

وكان حاج أحمد باي له أضداد وأعداء من أكابر أناس قسنطينة وأسماؤهم : أولاد بن زكرى ، ثم أولاد بن نعمون ، ثم أولاد بن الأبيض ، هذا الوقت تكلم مع الباش في شأنهم وطلب منه الإذن في قتلهم . فأطلق يده عليهم وأعطاه الإذن فيهم . فلما رجع من دنوشة وظفر بمقصوده احتوى على تلك الناس وقتلهم بأجمعهم ومانجى (كذا) إلا واحد منهم[83] فكان حاج أحمد باي في هذا الوقت نال مرغوبة ويقتل أضداده تحصل مقصودة فاستقامت له الأيام ، وباق على هذا النمط مدة أربعة أعوام جاء الوقت والعمال وكانوا الترك الموجود من ذلك الوقت في قسنطينة حين تحققوا بدخول الفرانسيس في الجزائر تكلموا مع كبارهم واتفقوا بينهم قائلين نحن ما نحبوا حاج أحمد باي يبقا (كذا) علينا ، وما نرضوا به يكون هو المتولى أمرنا فتراهم عملوا محلة وخرجوا خارج قسنطينة بموضع يتسمى رأس الحامة وأرادوا يقاتلوه ويمنعوه من الدخول فى المدينة [84] فحينئذ اجتمعوا ناس البلاد والتجأوا إلى سيدى الشيخ بن الففون وتكلموا بينهم قائلون (كذا) لما كانت دولة الترك صايلة ، وجب علينا طاعتهم ، وما نقدروا نتعرضوا لأمورهم ، واليوم قد انقرضت دولتهم واستولى الفرانسيس على مملكتهم وإن نحن سلمنا أنفسنا إليهم وبقينا في حكمهم فربما يمكروا بنا ، ويطردونا من بلادنا . فتراهم خمموا في عقولهم واتفقوا في كلامهم بأن حاج أحمد باي يبقى هو باي من كون سيرته حسنة وأحكامه مرضية مستحسنة لكن إذا كان باق على سيرته فذلك المقصود ، وذلك هو

---

83) قتل كلا من محمد بن زكرى ، وأخاه عبد الله بن زكرى ، وبن الأبيض ، والشيخ الزواوى ، وتمكن العربي بن نعمون من الفرار والنجاة فبقي حيا حتى توفي عام 1856 .

84) الذى تزعم هذا التمرد ضده هو محمود بن شاكر .

الرأى المحمود ، وإن تبدلت سيرته وانعكست حقيقته ، لازم نتكلموا معه ونعملوا تأويلا لأنفسنا ، وعلى الله اعتمادنا ، فبعد اتفاقهم على ما ذكروه وانبرم الرأى الذى زبروه ، تراهم تقدموا إلى حاج أحمد باي وسيدى الشيخ بن الففون أمامهم قائلين له بصدق كلامهم : ياحاج أحمد أنت من قبل صاحب ولايتنا ، ونعلموا سيرتك مليحة معنا فنحبوك تبقى أنت باي علينا ، ونحن دائما نكونوا معك ونقفوا في حماك وعونك ، فاستكثر من خيرهم وتحقق النصح منهم ، فحينئذ ذهب حزنه وسكن روعه ودخل في قسنطينة بعد ما كان فى حيرة عظيمة فتراه بعد دخوله للبلاد نهض في الحال ورتب عسكر من زواوة بالاستعجال وبعثهم إلى الترك الذين خرجوا على طاعته ووقفوا في ضده ، فوقع القتال من الجانبين واشتد الحرب بينهم دوم مين فظهر في جانب الترك الخلل ، وطلبوا الأمان ونزل بهم الوجل فشرط عليهم حاج أحمد باي أنه ما يكون لهم الأمان والعصمة حتى يسلموا بيده الترك الذين هم سبب ذلك الحيرة وأوقدوا نار تلك الفتنة ، فتراهم امتثلوا وسلموا له الترك المشروطين وانقادوا فلما تمكّن بهم قتل بعضهم وبقى بعضهم . وباقي الأتراك دخلوا في الأمان إلا أنهم في الذل والهوان ، وكان حاج أحمد باي مجتهد في ترتيب عسكر زواوة وتأسيسه ، وتسوية الحرب وتنظيمه ثم تصدى إلى أصوار البلاد فجدد بنيانهم (كذا) وبالمدافع حصنهم وحكم إتقانهم .

قضية الباي إبراهيم الكريتلي وعنابة وبن رفوطة :

ثم نذكر قضية إبراهيم باي مع حاج أحمد باي رحمه الله وذلك أنه بعد دخول الفرانسيس في الجزائر ، ورجوع حاج أحمد باي إلى قسنطينة وصار ما صار به من ناس الوطن والترك ، كما ذكرناه سابقا . فكانوا البعض من عمال الوطن بعثوا إلى إبراهيم باي نسيب بن قارة على المتقدّم ذكره ، وهو ذلك الوقت في المدية من حين عزله الباشا في السابق ، وطلبوه يقدم إليهم ويكون هوالباي والمتولي أمرهم فحين وصل إليه ذلك الخبر جاء مسرعا ولم يكن في عاقبة الأمر متفكر ، فلما وصل إلى سطيف تلقوه ذلك العمال بالفرح والمضيف ، وتكلموا معه قائلين له نحن بعثنا إليك لما نعلموه من حسن سيرتك وشفاقتك وكامل عقلك فنحبوا نعلموا معك كل جهدنا وتكون أنت هو الباي علينا ومتولى أمورنا . ولكن نمشوا إلى حاج أحمد باي نفاتنوه حتى نقتلوه ونطردوه ، فلما سمع كلامهم استكثر من خيرهم ووافقهم على مرادهم .

وكان حاج أحمد باي وصل إليه ذلك الخبر فتراه خمم في عقله ودبر ورتب محلة من فرسان وعسكر ، ومشى إلى إبراهيم باي بقصد فتنه فلما وصل بقربه تراه بذل المال إلى شيوخ ذلك الوطن والعمال ، وتكلم معهم في شأن إبراهيم باي يمكروا به فيقتلوه ، ويطردوه ، فلما كان وقت المبارزة ونشأ الحرب والمقاتلة ظهرت من ذلك الشيوخ الخديعة فانهزم إبراهيم باي وجيوشه هزيمة كبيرة وولوا على أعقابهم هاربين ، وماتوا منهم ناس كثيرين ، ومن بعد ذلك رجع حاج أحمد باي إلى قسنطينة فارحا بنصرته مغتنما بهزم أعدائه وظفره ، وفي هذا الوقت تسمى باسم حاج أحمد باشا ، وأما الترك الذين كان أعطاهم الأمان لم يطمأن (كذا) بهم ولم يأمن من مكرهم ، فتراه بطش بهم وأخذ أرزاقهم وأباح نهبهم فتفرقوا في كل البلدان وتشتت شملهم في كل الأوطان ، وانقطع رسمهم في مدة قليلة من الزمان ، وأما إبراهيم من حين حلت به ذلك الهزيمة ومابقي معه إلا رفقة قليلة فتراه قصد وطن الصحراء وجمع جيوشا لأجل أن يولى مرة أخرى . وكان الحاج أحمد باي وصله ذلك الخبر فنظم في الحين فرسان وعسكر ، وخرج من قسنطينة بالعجلة فما زال يطوى الطريق قطعة بعد قطعة حتى وصل إبراهيم باي وصار بقربه ، رتب عساكر وخيلة وتقابلوا الصفين ونشأ القتال بين الفئتين من أول النهار إلى آخر وقت الأصفرار فكانت الهزيمة على إبراهيم باي وصفه ودخل حاج أحمد باي إلى الصحراء بقوته ورجعوا ناس ذلك الوطن إلى طاعته ، وقد تحصل بيده من وطن الصحراء فوائد جمة من أنواع الذهب والفضة ومن بعد قضاء مشاربه ونيل مرغوبه وهزم أعدائه ، رحل من وطن الصحراء ، وكانت مدة إقامته بها أربعة من الشهور[85] فلما وصل إلى قسنطينة مغتنما مسرور ، هذا الوقت ضرب سكة الدراهم ونقش عليهم سكة قسنطينة[86] وتمهد له الوطن ، وصارت أحواله مستقيمة وباقي في سيرة طيبة وأحوال مرضية جيدة ، ينصف المظلوم ويقهر الظالم الغيشوم (كذا) ومهمى وكذا يشكل عليه أمرا أو يعزم على قضائه إلاّ ويشار أهل العقول فيرشدونه لصلاحه ولا زال على هذا المنوال برهة من الزمان ، ولما توغل وتمهد له الوطن وانقادت له الرعية ، وصارت أحواله

85) تم هذا في أواخر عام 1830 م .

86) تم هذا عام 1831 م .

غير مرضية انعكست حقيقته وتبدلت سيرته .

وأما إبراهيم باي حين حلت به ذلك الهزيمة في وطن الصحراء صار يمشى من جبل إلى جبل ويقصد الأرض القفراء حتى وصل إلى عنابة ، فدخلها واستقر بها ، فاجتمعوا أهلها لديه واستغاثوا به قائلين له أنت كنت باي في قسنطينة ، وعنابة في حكمك لا محالة ، واليوم دولة الترك من وطننا انقرضت ، ودولة الفرانسيس تحكمت ، ونحن الآن لا عندنا حاكم نعتمد عليه ولا جانب تلتجوّ (كذا) إليه وقد حالوا بيننا وبين قسنطينة الموانع ، وانسد الطريق بالقواطع ولكن نحبوك تبقى أنت معنا وتكون مواليا لأمورنا ، فاستحسن كلامهم ، واختار المقام معهم[87] فلما وصل إلى حاج أحمد بذلك وتحقق باستقرار إبراهيم باي هناك ، تراه في الحين جهز محلة ونظمها بالمدافع والعسكر ، وبعثها إلى عنابة بالعجلة لأجل محاصرتها وتطريد إبراهيم باي منها وكان المتقدم على المحلة المذكورة الحاج عمار بن زفوطة . إنه رجل كبير من قديم الزمان ، وله معرفة بذلك الأوطان ، فلذلك قدمه ، ولهذا الأمر اختاره . فلما وصلوا إليها ونزلوا بطرفها وقع الرعب والخوف في ناسها ، فاجتمعوا وتكلموا بينهم واتفقوا وكتبوا جوابا إلى حاج أحمد باي معربا على لسان مقالهم ، طالبين منه الشرع والإنصاف وراجين منه الصفح والعفاف .

وصورة جوابهم ، بعد التعظيم والتفخيم إلى سيدنا حاج أحمد باشا في قسنطينة نعلمك بالأمر الذى هو سابق ومتحقق في علم سيادتك ، إنه حين كانوا الترك صائلين نحن رعيتهم ولطاعتهم نحن منقادين ، وممتثلين ، واليوم قد انقضت دولتهم واستولى الفرانسيس على مملكتهم ونحن ناس ضعفاء لا قدرة لنا على المقاتلة ولا قوة لنا على المدافعة ، وهذه العمارة التي أرسلت إلينا أفجعت أولادنا وأحرقت أكبادنا . إن كنت أرسلتها إلى إبراهيم باي فإنه جاء إلينا برأسه طالب النجاة (كذا) لنفسه ، لا عنده حرب يقويه ولا عسكر

87) تم هذا عام 1832 م .

يحتمى به وإن وإن كنت أرسلتها إلى الفرانسيس نحن رعية لمن غلب ، وهذه عنابة هي الآن في حكم الفرانسيس ولا محالة نحن لا طاقة لنا على نزعها من يده ولا قدرة لنا على تسليمها إليك . ولكن نطلبوا معك الشرع بأن تعمل لنا تأويل الذى يكون فيه حياتنا . ويثبت به استقرارنا في بلادنا . فلما وصل إلى حاج أحمد باي ذلك الجواب وفهم مضمونه والخطاب ، لم يقبل كلامهم ولا رق لحالهم وتراه زادهم مدد آخر من مدافع وعساكر ، وحث على مقاتلتهم وأكد على محاصرتهم وكان المتقدم على ذلك العمارة والمدد بن عيسى الذى هو باش حانبه ومعه لاغه بن الحملاوى ومشوا في سطوة عظيمة وأعطاهم الباي طبول وصار غزوهم مثل ما يغزون البايات .

وأما حاج عمار بن زفوطة فإنه أصابه مرض شديد وهو مقيم بالمحلة على بلد عنابة وتعطل أمره بذلك المرض فحينئذ بعث إليه حاج أحمد باي وأمره بالرجوع إلى قسنطينة فلما وصل ذلك الأمر إلى ابن زفوطة خلف المحلة هناك بناحية عنابة وقدم بنفسه فلما صار في أثناء الطريق تلاق مع بن عيسى فربطه من غير إذن حاج أحمد باي وكانت بينهما عداوة كبيرة . وسبب ذلك أنه في عام 1245 هـ[88] وكان حسين باشا بعث إلى حاج أحمد باي قائلا له اختار (كذا) لنا رجل كبير عاقل من ناس قسنطينة لأننا أردنا نجعلوا وكيلا علينا وعليك . ولما تعينه ويرضاك ، فأرسله لنا لننظروه ونتكلموا معه فإذا وجدناه يليق إلى ما أردناه فنرجعوه فكان حاج أحمد باي أول مرة عين بن عيسى المذكور لأنه خديمة ومن جانبه ، فأنكروا عليه البعض من المخازنية قائلين له لا يليق بن عيسى إلى هذه الوظيفة لأنه لم تسبق له خدمة في أمور المخزن ، وهذا وضيف كبير لا بد له من رجل يكون صاحب معرفة بخدمة المخزن ، فعند ذلك عين له حاج عمار بن زفوطة وبعثه إلى حسين باشا فلما وصل إليه تكلم معه واستخبره فأعجبه وظهر له من سياسته وعقله ما يليق بوظيفة وكالة تونس . ثم رده إلى حاج أحمد باي وأمره يلبّسه لأن من عاد وكيل تونس يلبس على يد باي قسنطينة .

---

88) هجرية الموافق لعام 1829 م .

فهذا سبب وقوع العداوة بين حاج عمار بن زفوطة وبن عيسى ، وأما حاج أحمد باي لما سمع برباط بن زفوطة تحير واستغاض وأراد أن يسرحه من رباطه لكن خمّم ربّما إن سرحه ينشأ له الضرر والعناد من بن عيسى لأن بيده المحلة والعساكر ، فحينئذ بقاه مربوطا حتى يتعين له أش يكون من أمر بن عيسى . وكان بن زفوطة لما طال به السجن توسل في سي الحاج محمد ابن الحاج بن فالة شيخ العرب ليتكلم عليه عند الباي يسرحه ، فتكلم عليه ووعده الباي بتسريحه ، هذا الوقت جاء الخبر أن بن سعيد الذى كان شيخ العرب في السابق غزى (كذا) على البعض من ناس الصحرى (كذا) الذين هم من جانب سي محمد بن الحاج شيخ العرب فعند ذلك تحير حاج أحمد باي لأنهم صف أخواله فتراه جعل محلة ، ورتب عسكر وركب ذلك العسكر كله على البغال وخرج من قسنطينة قاصدا ابن سعيد المذكور إلى وطن الصحرى فما زال يسير الليل والنهار حتى وصل قريبا من الوطن الذى نزل فيه بن سعيد بجنوده وهو يتسمى بادس قريب من الخنقة فهجم عليه حاج أحمد باي بالعسكر هجمة عظيمة ، وغارت إليه القومان غارة طويلة فانهزم بن سعيد وفر هاربا بنفسه ، وخلف أرزاقه ونسائه (كذا) فاحتوى عليهم حاج أحمد باي وقام في تلك الناحية أيام قلائل إلى أن خدموا ناس ذلك الوطن وأعطاهم الأمان ثم رحل من هناك راجعا إلى قسنطينة . وأما محمد بن الحاج شيخ العرب المذكور فتراه وسوسوه الشياطين من المخازنية قائلين له أنت شيخ العرب وكنت تلبس القفطان ويضربون الطبول عليك مثل البايات ، والآن نقص من حظك وصاروا الطبول يضربون على رأس بن عيسى وليس من شأنه ذلك . فحينئذ استغاض ووقع الغيار في قلبه وصار الضر بينه وبين حاج أحمد باي وتعاظم الأمر بينهما إلى أن رفع قياطنة[89] وزمالته من طرف محلة الباي وفروا معه المخازنية منهم : بن بشير السراج ، وسي أحمد بن الغضبان كبير أولاد سي داود ، المكي بن الأجليلي قائد التمامشة ، وسي الحفصي بن عون ، وبن الأشتر قائد العشور ، وسي أحمد التونسي قائد دريد ، وما تبقى حاج أحمد باي إلاّ وحده ، فتراه تحير وتقلق وصار يبعث إلى سي محمد بن الحاج شيخ العرب مع أخيه سي بوعزيز الذى هو الآن شيخ العرب ، ويقول له أنت

---

89) المقصود بالقياطنة الخيام المصنوعة من الشعر ، أو قماش القلوع ، ومفردها قيطون ، باللهجة العامية طبعا .

ابن خالي كيف تعمل معي الشر الكبير وتفسد علي وتنفّق المخازنية معك ، فما سبب ذلك فأجابه محمد ابن الحاج المذكور قائلا له يغيضني حالي منك لأنك نقصت من حضي وقدمت علي الغير وجعلت له شأن الذى كان لنا ولأبنائنا وأجدادنا ، وأيضا كلمتك على بن زفوطة لأجل أن نسرحه من السجن فلم تقبل كلامي فلذلك وجب الفرار منك . فعند ذلك استغاض حاج أحمد باي وقتل بن زفوطة . فهذا سبب موته ظلما وعناد . ومن بعد ذلك رجعوا المخازنية إلى الباي بالأمان وبقى شيخ العرب المذكور ماسك رجله عن القدوم إلى الباي ومقابلته زمانا نحو نصف عام فعاتبوه أحبابه ، وصار أخوه سي بو عزيز يمشي بالكلام بينه وبين الباي ويسعى بينهما بالخير إلى أن زال الغيض بينهما وقدم شيخ العرب إلى قسنطينة فاجتمع مع الباي ووقع بينهما الملام وتراضيا ثم إن شيخ العرب بعد أيام قلائل مشى إلى الصحرى كعادته ومن بعده هذا الوقت كان حاج أحمد باي قتل المخازنية المذكورين الذين كانوا نافقوا مع شيخ العرب أول مرة إلا سي أحمد التونسى فإنه عفى عليه لأنه رجل برانى ، وكذلك سي الحفصى بن عون الذى هو الآن قايد السقنية ادعى أنه مشى معهم بالسيف ، لما سمع شيخ العرب بموتهم نافق مرة أخرى ومسك رجله عن القدوم إلى حاج أحمد نحو تسعة أشهر ولا زال كذلك إلى أن خرج حاج أحمد باي بالمحلة إلى المسيلة كما سنذكره إتيا . هذا الوقت قدم إليه شيخ العرب وهو محمد بن الحاج وكان قدومه بواسطة أخيه سي بوعزيز الموجود هذا الوقت . فلما وصل وتلاقا مع حاج أحمد باي بطرف المسيلة لبّسه القفطان وضربوا عليه الطبول كعادة مشايخ العرب ، ومكث خمسة عشر يوما وهو صحيح ثم وقع به مرض نحو خمسة أيام ومات ورفعوه ميت إلى قسنطينة ودفن بالكدية قبالة البلاد . قيل إن الباي أعطى الدراهم إلى قايد السبسي خديم شيخ العرب وجعل له السم في الدخان ، وكانت موته في جمادى الأول عام سبعة وأربعين ومائتين وألف[90] . فقد انتهى الكلام على قضية موت بن زفوطة وموت الشيخ العرب . ثم نرجع في الكلام إلى الأصل الأول إنه حين توجه بن عيسى بذلك المدد إلى عنابة هذا الوقت تكلم سيدى الشيخ بن الففون مع حاج أحمد باي والبعض من أكابر قسنطينة منهم قائد الدار بن البجاوي ، والسيد

---

90) الموافق لأواخر عام 1831 م .

مصطفى بن جلول قاضى الحنفية والسيد أحمد العباسى قاضي المالكية ، والسيد محمد بن جلول باش كاتب ، وسي محمد بن الحاج شيخ العرب ، وسي محمد العربي بن عيسى ، الناظر والمفاتة : سيدى عمار الغربي ، وسيدى مصطفى بن الشاوش ، واحتجوا عليه بالدليل الأصح ، والقول المفيد الموضح قائلين له يا حاج أحمد باي الحق مع ناس عنابة من كونهم مواليين البحر ، وما عندهم قدرة يدفعون بها الضر ، وعنابة في يد الفرانسيس فلا يمكنك نزعها من يده ، ولا قوة لك على مدافعته وأيضا قسنطينة لازالت في الحرب فانظر وخمم قبل وقوع الغضب وكان الأحسن عليك ، والمليح إليك ، أنك لو تتكلم مع الفرانسيس وتكاتبه وتطلب مداهنته فبذلك تكون مستريح ويبقى أمرك متضمن صحيح ، وتنظم إليك عنابة من غير قتال ولا حرب ولا معاندة ولا تعب ، فتراه لم يعمل بكلامهم ولم يلتفت إلى مقالهم .

ولما وصل ابن عيسى إلى البلد المذكورة حاصرها حصارا شديدا بمدفعه ونزل عليها بالحرب ليالي وأيام . فلما طال الحصار على ناسها ساء حالهم وضاق منالهم وانقطع مدد الطعام عنهم ، تراهم اختاروا الحياة (كذا) على الممات . وفوضوا أمرهم إلى خالق المخلوقات فسلموا البلاد وفتحوا أبوابها واندخلت بلد عنابة في حينها ، وذلك في أول عام ستة وأربعين ومائتين وألف[91] . وصار ما صار بناسها من تشتيت شملهم ، والنهب في أرزاقهم ، وصارت عنابة قفار وما بقى فيها إلا الناس العاجزين على الفرار .

هذا الوقت جاء يوسف إلى عنابة ودخل في القصبة وتمكن بها من غير حرب ولا قتال ، ولا هرج ، ولا نكال ، وكان من أمره ما كان إلى أن قدم إلى قسنطينة ونزل عليها بالحروب ، والافتتان وأما بن عيسى فإنه لما رأى يوسف دخل في القصبة تحقق عنده أنه لابد من تمكنه ببلد عنابة فحصل له الخوف الكبير فتراه رحل وقدم إلى قسنطينة[92] .

---

91) هجرية الموافق أواخر عام 1830 .

92) يوسف المملوك هذا أصله من جزيرة إلب ، أخذ أسيرا إلى تونس ، وعين خادما في قصر الباي ، وارتكب جريمة خلقية ففر إلى الجزائر عام 1830 وقدم نفسه لضباط الحملة الفرنسية في سيدى فرج ، فاحتضنوه ولعب دورا بارزا مع القوات الفرنسية في محاربة الجزائريين سنوات طويلة ، وألف عليه الضابط تروملي كتابا من جزئين بعد وفاته بعنوان : الجنرال يوسف .

وأما حاج أحمد باي ما تحصل بيده إلاّ ذنوب العباد ، ولا اتصلت بيده تلك البلاد وكان من سابق زمانه أنه ما يعمل شيئا إلاّ بمشورة الناس الكبار ، وأصحاب العقول الفضلاء الأخيار فيسهل عليه كل شيء صعيب (كذا) ويدنو إليه البعيد والقريب ، ومن هذا القبيل كلام الحكماء الأولين : من شاور ساد ونال كل المراد ، ومن اعتمد على نظره لم يصب في تدبيره .

وصار حاج أحمد باي من بعد قضية عنابة أموره ناقصة ، غير معتادة ، وكان في عام 1247 هـ[93] سبع وأربعين ومائتين وألف ، أنه جعل جيوش كثيرة وقصد بهم المسيلة وهي قرية صغيرة في طرف وطن الحضنة ، فلما وصل إليها استولي على أرزاق ناسها بالظلم والجور ، وشتت شملهم بالبغي والفجور ، ثم رحل وقصد بلد المدية بوطن الجزائر فلما وصل بقربها قابلوه ناس وطنها وتكلموا معه اختبار الحالة ، ويعلمون أش هو في مراده ، فتراه استظهر إليهم بالنصيحة وعاملهم بظاهر المودة وحسن السريرة ، قائلا لهم غاضنى من حالكم لما بلغنى من إهمالكم فقدمت إليكم لنجمع شملكم وننظم جمعكم ونجعل لكم تأويلا تقفون به في عين أضدادكم فحينئذ استأنسوا لقدومه وفرحوا بنزوله ، وتقدموا إليه بالهدايات من الأموال والخيول المسومات وطلبوا منه أن يرجع باي عليهم ليكون عمدة إليهم ، وواسطة فيما يخصهم فأجابهم إلى ذلك الرأى ، ورجع ولد بومزراق فى بلد المدية باي .

وكان حاج أحمد باي بالحيلة مع ناس ذلك الوطن ، والخديعة حتى قضى حوائجه منهم ومن بعد ذلك خدعهم ، وربط مائة رجال من كبارهم فرفعهم مربوطين وفر هاربا من وطنهم فلما وصل إلى قسنطينة قتل ذلك الناس كلهم وفناهم عن آخرهم وقد اشتهر ظلمه ، وكثر جوره ، وبغيه ، وصار يقتل الناس ظلما وعدوانا ، ويخدع بالأمان فمن ذلك أنه قتل ستين فارس في يوم يقال لهم أولاد متلة وقتل مائة وعشرة رجلا يقال لهم أولاد عمر من ناس الحضنة في يوم واحد . لكن أولاد عمر لما أراد السياف يقطع رأس واحد منهم طار بين يديه ولا عرفوه أين مشى . فهذا غريبة من الغرائب ، ومن

93) الموافق لعام 1832 م .

هذا الصنيع مجوه كل الناس وصار أمره في الانتكاس ، ثم من بعد رجوعه من وطن المدية جهز عسكر وفرسان وبعثهم سرية يعني غازية يغزون على من يجدونه بطرف عنابة من الرعية ، وذلك في عام ثمانية وأربعين ومائتين وألف[94] . والمتقدم على تلك السيرة (كذا) بن عيسى باش حانبه ، وبن الحملاوى الذى هو أغا في ذلك الوقت .

وكان يوسف ذلك الوقت هو باي في تلك الناحية ، فلما وصلت السيرة المذكورة ونزلت على البعض من تلك العروبة فاحتوى عليهم ، وأخذت أرزاقهم ، وطردوهم عن خيامهم ففروا هاربين ، والتجؤوا إلى يوسف مستغيثين فلما تحقق يوسف بتشتيت أرزاق رعيته تراه في الحين ركب هو وسبائسه[95] ولحق بأصحاب السرية فأدركهم وفك أرزاق رعيته وطردهم وقتل البعض منهم وسلبهم فولوا أصحاب السرية مهزومين وعلى أعقابهم هاربين .

فلما وصل الخبر إلى حاج أحمد باي بهزم سيرته (كذا) تغير وتحير في أمره وكانوا البعض من الناس المنصحين أصحاب العقول الكاملين تعرضوا في ذلك السيرة قبل إرسالها قائلين ياحاج أحمد باي ليس لك فايدة فيها وربما تنشأ لك الضرورة (كذا) منها لأن الفرانسيس مستولى على عنابة ووطنها . وقسنطينة لازالت في الحرب ولم يصفى (كذا) لك مشربها فكان المليح عليك أن تطلب منه مهادنته وأصفح عن الفرانسيس ومناقشة ، وفك قدمك من موضع قدمه ، فتراه لم يعمل بذلك المقالة حتى آل أمره إلى التلف والخسارة .

وفي عام إحدى وخمسين ومائتين وألف[96] خرج حاج أحمد باي بالمحلة إلى ناحية أوراس ونزل على فرقة منهم اسمهم أولاد سعيد ، فغزى عليهم وأخذهم ومسك منهم ستين رجلا قطع لكل رجل يده اليمنى وأطلقهم كلهم مقطوعين اليد ، وأرسل أيديهم إلى قسنطينة فكان يد وزعم بتقطيع يدهم أبطال حركاتهم ، ونقض قوتهم .

---

94) هجرية الموافقة لعام 1832 - 1833 م .

95) المقصود بالسبايس ، الصبايحية ، والمقصود بالسيرة ، السرية ، ولكنه صحفها

96) الموافق لعام 1835 م .

وفي هذا العام المذكور وقع الطاعون في بلد قسنطينة والوطن حتى بلغوا الموتى في اليوم الواحد قريب من الخمسة عشر مائة نفس نحو ثلاثة أيام وهو على هذا النمط ثم نقص وزال .

ومن بعد ذلك أيضا في عام اثنى وخمسين ومائتين وألف[97] جهز عرضي ونظمه من عسكر وجنود وفرسان وقصد بهم محلة الذرعان فكان أول نزوله بذلك العرضي في موضع يسمى عقبة العشارى من كونه موضع عالي ، وهو الحدّ بين وطن قسنطينة ووطن عنابة أقام فيه أيام يخمّم ويدبر ، ثم رحل وتقدم إلى موضع يتسمى بالحمام قريب من فالمة ، فرتب جيوش من العامة وأمرهم يقابلوا محلة الذرعان ليختبروا من أمر يوسف ، إش كان فلما أشرفوا عليها وقابلوها خرج إليهم يوسف بجنده وتبارزوا مبارزة الجد ، فكانت الهزيمة على جيوش حاج أحمد باى وولوا هاربين وماتوا منهم أبطال نحو العشرين فلما وصلوا إلى حاج أحمد باى على هذه الحالة تغير وتحير ، وصار يخمم . إش هي الدبارة تراه رحل وتقدم إلى موضع يتسمى قلعة بوصبع قريب من فالمة ، وهو موضع رتفع ثم جمع من أبطال جيوشه وعسكره ، وتقدم معهم هو بنفسه وداروا بمحلة الذرعان من كل جهة وكل مكان وطلبوا يوسف للبراز فلم يخرج إليهم ، وقد امتنع من الفتن في ذلك اليوم معهم فتحير حاج أحمد باى وخمم في عقله وما عرف إش هو السبب في عدم خروج يوسف إليه .

أعيان فى قسنطينة يراسلون يوسف المملوك

وكان في ذلك الوقت كتبوا البعض من أكابر وطن قسنطينة إلى يوسف منهم أحمد الشريف شيخ ريغة ، وفرحات ابن سعيد ، والبعض من عامر الغرابة فرقة أولاد نابت والأخضر بن سليمان من دائرة واد بوصلاح ، وأولاد بن يلّس ، ومحمد بن سحنون من الزمول وأولاد مقورة ابن عاشور ، وفرحات بن عولمي من أولاد عبد النور ، ومحمود ولد محمد الطيب العساسي من أولاد عبد النور ، والبعض من مشائخ أمية (كذا) . وطلبوا يقدم إلى قسنطينة وينزل عليها بالفتن وهم يكونون في عونه إلى أن يتمكن بها .

وأما حاج أحمد باى فتراه في الحين رحل ، ومن ذلك الموضع تحول ، ورجع إلى عقبة العشارى إلى منزله الأول . أقام فيه أيام قليلة ثم دخل في قسنطينة ،

97) الموافق لعام 1836 م .

وبعد مدة يسيرة خرج يوسف من عنابة ، ومعه عمارة فرانسيس وهى عمارة ظريفة ، فحين تحقق حاج أحمد باي بقدوم ذلك العمارة إليه خرج خارج البلاد بعسكره وزعم أنه يلاقي في ذلك العمارة يفتنها ومن الوصول إلى قسنطينة يمنعها ، وكان يوسف أسرع في قدومه ونزل على قسنطينة بعمارته . فنشر عساكره وقابل ناس قسنطينة بحروبه ، فانتشر الحرب من الجانبين ، وانضرمت النار مدة ثلاثة أيام ليل ونهار ، ثم هجم عسكر الفرانسيس في الليل من جهة باب القنطرة وراموا الدخول بالقوة والفرصة ، وصار في تلك الليلة حرب كبير ، وقتال شهير ، برمي الكور والبونبة حتى تكسر باب البلاد ، وتقوى الحرب والطراد ، وصاحوا ناس قسنطينة الجهاد ، الجهاد ، فانهزم عسكر الفرانسيس وفر هاربا من تلك البقعة ثم هجموا مرة أخرى من جهة الرحبة فانقلبت عليهم الهزيمة كأول مرة[98] فلما انقطع الفتن اجتمعوا من ناس البلاد أنفار ، واتفقوا على أنهم يكتبوا جوابا إلى يوسف بالاعتذار منهم سيدى الشيخ بن الففون ، وسي محمد بن البجاوى قايد الدار وسي الحاج المكي بن زفوطة ، وسي اعمر الفشي ، وسي علي بن حجوج ، وسي الحسين ابن سي سليمان التاجر ، والمرابط العربي ، وسي محمد ابن العنترى ، وهو الذى كتب الجواب بيده طالبين الكلام معه فيما يليق العباد ، قائلين إن وجدنا شرط الوفاق فذاك هو المراد وإلاّ فنقاتلوا على أنفسنا وأولادنا بالجد والاجتهاد . وكان يوسف رحل في تلك الليلة راجعا إلى عنابة ، فما وجد الصبح إلا ولم يبق له أثر ولا علامة ، ومن بعد انفكاك يوسف من قسنطينة ووصوله إلى عنابة فحينئذ دخل حاج أحمد باي قسنطينة تراه قبل كل شيء قتل المرابط العربي وسي الحسين المذكورين وتجرّى (كذا) على قتلهم ظلما وعناد ، وزعم أنهم مع أصحاب الفساد ، وأنهم كانوا اتفقوا وأرادوا يدخلوا الفرانسيس إلى البلاد .

كان سيدى الشيخ بن الففون هذا الوقت تكلم قائلا له ياحاج أحمد أنت أميرنا والواجب على الأمير يحمى بلاده ، ويدفع الضرر على رعيته ، وأنت ما حميتنا ولا نصرتنا ولا دفعت بشيء علينا ، فكيف لا نتحيلوا على أنفسنا ولا نسعوا في العافية لنا ولأولادنا ، وقد جرى في السابق حين ظهرت الشريف في واد زهور ، وقدم إلينا ومعه كل القبائل

---

98) يشير بذلك إلى الحملة الفرنسية الأولى ضد مدينة قسنطينة في نوفمبر 1836 وكان مصيرها الفشل الذريع .

في عرضى عميم فوقفنا ضدهم ، وقاتلنا عظيم (كذا) و لم يحظر معنا خليفة ولا أمير ، فهزمناهم ومات منهم عدد كثير . وأيضا كان عرضى تونس قدم إلينا بالعساكر الكثير ، والجنود الغزيرة ، ونزلوا علينا ثلاثين يوم برمي البومبة والكور ، فما سلمنا بلادنا ولكن عندنا فتور ، ومسكنا على الصبر والصّراير حتى ظهرت النصرة من الجزائر . واليوم ما عندنا نصرة ننتظروها ولا لنا قدرة على الفرانسيس تدفعوه بها . وقد كان الفرانسيس أخذ الجزائر الذي هي عمدتنا ، وقاعدة وطننا وملكنا ، فكيف نحن لا نعتزروا على أنفسنا ولا نطلبوا المهادنة لتكون العافية لنا ولأولادنا ، وكان اتفاقنا معلك ياحاج أحمد باي على العدل وعدم الظلم ، ونحن الآن لا نرضوا بهذا الحكم فتراه كف يده على قتل العباد ، وخشي أن تقوم عليه فتنة من بعض ناس البلاد ، وما فعل شيئا بعد ذلك قط .

ومن بعد زمان قليل خمم في عقله وظهر له في رأيه أن يجعل محلة من عسكر وجيوش عامة ويبعثهم إلى قالمة لأجل أن يفتنوا الفرانسيس الساكنين بها ، ويهدموا بنيانها ، ويحرقون زرع العروبة النازلين بطرفها . وكانوا أشاروا عليه أصحاب العقول بالتأني والنظر في عواقب الأمور وقد تكلموا أيضا بعض الصالحين في ذلك الوقت على أن الفرانسيس لابد من دخوله في بلد قسنطينة وتملكه بوطنها ، منهم سيدى أحمد دوردن يقول :

الأحمر جاني هداد ... سرجو ما فيه الباد
على راسو باد نجالا ... وأين الهروب يارجالا

وكان هذا الكلام قاله المذكور قبل مجيء الفرانسيس إلى قسنطينة بنحو العامين وأما سيدى بلقاسم بوحجر فإنه كتب إلى حاج أحمد باي وبن عيسى ينهاهم عن فعلهم القبيح من أخذ نساء الناس ، والزنى بهم ، وأكل أموالهم بالباطل وقال لهم إذا لم تنتهوا فإن الله يسلط عليكم وعلى هل البلاد بسببكم مصيبة سوداء وكان كما قال . ومن كلام سيدى الزبوشي الساكن رجاحى يقول أيضا في حياته : التل يخلا ويجلا ، وانزل منه الذخاير ، تعود المخلا برخلا ، والشك تخلا (كذا) الجزائر . ومن كلام سيدى فشوال يقول على بلد قسنطينة : حصنت عليها بسبع أقفال ، وتفلقت من جنبها كيف الرمانة . علي وارجعى لأصلك يا المرتدة .

ثم نرجع إلى كلام سيدى أحمد دوردن : الأحمر معناه صاحب اللون الأحمر ، والظاهر أنه عنى بذلك الفرانسيس فإن غالبهم كذلك لأن قوله بعد سرج ما فيه الباد .

وقوله على راسو بادنجالا وهى البرنيطة ، لأن لونها إذا كانت مغلقة كذلك ، يدل على ما قلنا وقول سيدى الزبوشى التل يخلا ويجلا المراد به ما قابل السرة ، وقوله يخلا يعنى : من أهله ، وقوله يجلا أى يحصل لأهله انجلاء وهو طردهم وقوله تزل منه الذخاير معناه يذهب عنه كل مايدخر بسبب الفتن ، وقوله تعود المخلا برخلا ، معناه إن ملأ (كذا) المخلاة من الطعام يصير بقيمة الرخلا ، وهى الصغيرة من أنثى الضان في عرف أهل البادية ، إشارة إلى أنه يقع الغلا في الوطن بسبب الفتن والأهوال . وقوله والشك تخلا الجزائر الشك هنا المراد به القطع والجزم . وإنما عبر به تعمية وكان الأمر كما ذكروا والله أعلم . وقد تكلم المذكور بهذا الكلام قبل دخول الفرانسيس إلى بلاد الجزائر بنحو ثلاثين سنة بل أزيد من ذلك . وقول سيدى فشوال حصنت عليها بسبع أقفال وتفلقت من جنبها معناه أن الأعداء لا يدخلون قسنطينة من بابها بل من جنبها وهو إشارة إلى واقعة الفرانسيس بأنهم دخلوا من غير باب وقوله عيلي وارجعي لأصلك إشارة لك أن أهلها وإن فعلوا من الشر ما فعلوا فإنها ترجع لأصلها وهو الكفر ، وكان كما قال[99] .

الحملة الفرنسية الثانية على مدينة قسنطينة :

ثم نرجع من الكلام على حاج أحمد باي أنه رتب عسكر وجيوش وقدم عليه لاغه بن الحملاوى المذكور ، وبوزيان ابن العلمي الذى كان أغه في السابق وقصدوا إلى فالمة فلما وصلوا نزلوا عليها بالفتن والحريق وأقاموا عليها ثلاثين يوما بالتحقيق وانجرح بوزيان بن العلمي المذكور ، ومات من العسكر والجيوش بالفتن في ذلك المدة . ولما طال بهم الحال وما تحصل بيدهم شيئا (كذا) من أمر فالمة رجعوا بالعسكر إلى قسنطينة وتفرقوا ذلك الجيوش .

هذا الوقت خرجت عمارة الفرانسيس من عنابة وهى عمارة كبيرة ما أعظمها من عمارة ومعها ولد سلطان فرانصة وهو دوك دونمور والماريشال داريمون[100] نزلوا

---

99) ليس من شك في أن العنترى أراد أن يتقرب أكثر من الفرنسيين باستعراضه لمثل هذه الأقاويل التي تبشر حسب زعمه ، بالاحتلال الفرنسي ، وهى أقوال من قبيل المهاترات .

100) Le duc de nemours et damremont;

بوادى يتسمى مجاز عمار وهو واد كثير الأشجار فلما نزلوا بالواد المذكور شرعوا في بنيانه وتقطيع ذلك الشجور (كذا) لأجل توسيع الطريق وتسهيلها .

وكان حاج أحمد باى وصلت إليه تلك الأخبار بنزول عمارة الفرانسيس في مجاز عمار ، فنهض كذا في الحال ، وجهز محلة من عسكر وفومان ، وخرج من قسنطينة فنزل بموضع يتسمى فج سيلة ، وكتب إلى ناس الوطن يأتوا إليه بالجنود وأرسل الرقباء والجواسيس إلى مجاز عمار خفية يسعون إليه بالأخبار ، ويعرفونه بأحوال تلك العمارة هل هي قوية أو ضعيفة ، فبعضهم يقول له قوية من عساكر وآلة الحرب وبعضهم يقول له ضعيف ولك قدرة عليها[101] .

فبينما هو كذلك وإذا بجواب أتى من عند ولد السلطان والماريشال المذكورين وصورة ما فى الجواب : ياحاج أحمد باى نحن قدمنا بعمارتنا وقاصدين بلد قسنطينة من غير شك وريب ، وأنت كنت في السابق طلبت الصلح والآن هذا هو وقت الكلام فخمم وانظر صالحك ، وأما الفرانسيس فإنه دائما يحب يعمل الخير وما يرضى بموت العباد لأننا حين نزلوا على قسنطينة لازم يموتوا الكبار والصغار ويتفجع النساء وتنهدم الديار . فإن كنت صاحب عقل انظر وخمم في مصالح المخلوقات والسلام .

قضية مقتل محمد بن العنترى :

وكان السابر الذى أتى بذلك الجواب هو ولد بو جناح من كبار يهود الجزائر فلما وصل إليه الجواب وفهم مضمنه وتحقق بما فيه من الخطاب ، تراه تحدث مع الرسول المذكور وبعث معه الكلام من غير كتاب ومشى بينهم الكلام بعد ذلك مراراً ، فكان

---

101) يتحدث العنترى هنا عن الحملة الفرنسية الثانية ضد مدينة قسنطينة في أكتوبر 1837 التي تمكنت من احتلالها والسيطرة عليها .

ولد سلطان فرانصة والماريشال يتكلمون بطريق الريقلة[102] الفرانصويه ، وحاج أحمد باى يتكلم معهم بطريق العادة العربية فلم ينتج شيء من ذلك المخاطبة ولا اتصلت بينهم موافقة . فحينئذ خمم حاج أحمد باى أنه يبعث واحدا من أصحاب الوضايف يأتيه بالأخبار الصحيحة وينظر عمارة الفرانسيس هل هي قوية أو ضعيفة فتراه عين سي محمد بن العنترى وهو فى ذلك الوقت كاتبا عنده واختاره من كونه رجل عاقل وثقة وصاحب سياسة بليغة ، وقد أوصاه يتكلم مع الماريشال وولد سلطان فرانصة على أن الصلح لا يكون إلا بارتفاع حكم الفرانسيس من عنابه وقالمة إلى آخر ما أوصاه وما أسره به وأخفاه ، فلما انفصل من عنده ووصل إلى ولد سلطان فرانصة والماريشال المذكورين فأنزلوا منزلة الإحسان وفرحوا به ثم تكلموا معه في شأن قدومه إليهم واختبروه لعلة وروده عليهم ، فأجابهم بلسان مقاله أن سيدى حاج أحمد باى أرسلنى لنبلغكم ما أوصاني به من غير زيادة ولا نقصان وهو أنه يسلم عليكم ويستكثر من خيركم ، وقد أعجبه صنيع الصلح إذ فيه حقن دماء العباد وتمام العافية للوطن والبلاد . وقبل بالشروط الذى كانت وقعت بينكم كما هو مقرر في علمكم . لكن يحبكم (كذا) ويطلب منكم أن ترفعوا حكمكم وتنقلوا عساكركم من قالمة ، ومجاز عمار وتسلموا عنابة بيده . فإن رضيتم بذلك فنعقدوا الصلح ونبرموه ، فلما سمع الماريشال وولد السلطان كلامه ، استغاضوا وقالوا له كنا نظنوا حاج أحمد باى أنه صاحب عقل وسياسة والآن تحقق عندنا بخلاف ذلك لأن قالمة ومجاز عمار استولينا عليها بالذراع[103] وهما الآن في تصرفنا ، وتحت حكمنا وكان كلامنا معه على قسنطينة فقط ، والآن وقع الأمر وانقطع ما بغينا نسمعوا كلاما أبدا ونحن قدمنا بقصد قسنطينة فلا بد لنا من وصولنا إليها ولازم من نزولنا عليها فارجع إلى حاج أحمد باى وقل له بهذا الكلام وما عندنا كلام غيره .

---

102) يقصد بها المسطرة من الكلمة الفرنسية : LA REGLE

103) أي بالقوة .

فحينئذ رجع ابن العنترى المذكور إلى حاج أحمد باي وخبره بالكلام الذى سمعه من الماريشال وولد السلطان ، وخبره أيضا بقوة العمارة من عساكر وآلة الحرب فلما تحقق حاج أحمد باي بذلك تحير في أمره فأجابه بن العنترى قائلاً له ياسيدى إن القوة التي رأيتها بعينى لا ينفع فيها إلا الصلح ، لو أنك تترك أمر فالمة ومجاز عمار ، وتطلب الصلح على قسنطينة فقط وبعد ذلك لمن (كذا) تكون مليح معهم يعمل الله دليلا .
فلما سمع كلامه وتأمل مقاله ظهر له فيه النصح وأمره بالقدوم إلى قسنطينة والاجتماع مع قايد الدار ابن البجاوى وسيدى الشيخ بن الفقون ، وبن عيسى ، ويحدثهم بالكلام الذى سمعه من الماريشال وولد السلطان فرانصة بقوة العمارة والحروب ومراده ليشيروا عليه بالرأى النافع .

فلما وصل ابن العنترى المذكور إلى قسنطينة واجتمع مع المذكورين وحدثهم بما سمعه وما رآه . أما سيدى الشيخ بن الفقون ، وقايد الدار ، صدقوا وأذعنوا وصاروا يدبروا في عاقبة الأمور ، وأمابن عيسى أصابته حماقة وأنوفة (كذا) وزعم أن بن العنترى أخذ الدراهم من عند الماريشال وولد السلطان فرانصة لأجل أن يشيع قوة الفرانصيص فيحصل بذلك الخوف إلى ناس البلاد ، ولم يقم بن العنترى إلا يوما واحدا في قسنطينة ورجع إلى الباي .

فكتب ابن عيسى في أثره إلى حاج أحمد باي قائلا له أنت كنت بعثت بن العنترى يسعى في صالحك وتحسبه أنه من خدامك فإذا هو بخلاف ذلك وصار يتكلم بقوة الفرانصيص بين الناس فأرهب أهل البلاد بذلك ، فلما وصل ذلك الجواب إلى حاج أحمد باي تغير خاطره على بن العنترى وساء ظنه به فمكث بعد ذلك نحو ثمانية أيام ومات . وقد تحقق عند الناس أن حاج أحمد باي قتله خفية بالسم ، ولما مات رحمه الله تعالى ترك أولادا منهم العبد الفقير إلى رب الأرباب محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب .
وإني الآن كاتب بالبيرو[104] بالدرب . وكان الذى ولانى القبطان بوسنه[105] المتولى أمور العرب وأنا أقول إن أبى تكلم الحق ونصح حاج أحمد باي كما ظهر له قبل سماع

---

104) يعنى المكتب العربي من الكلمة الفرنسية : **Le bureau arabe** .

105) **Le capitaine boissennet** .

كلام الشياطين . ولما بلغه كلامهم مكر به وقتله وهذا ظلم عظيم وأنا لا أنساه أبدا ، وأخدم الدولة بنية صالحة لما علمت من حب أبي لها لأنه لو عاش لكان أول من سارع إلى خدمتها بنصح وجد رحمه الله رحمة واسعة بمنه آمين ولجميع المسلمين .

سقوط مدينة قسنطينة في أيدى الفرنسيين

ثم يرجع الكلام إلى الماريشال وولد السلطان فرانصة أنهم بعد قضاء حوائجهم في مجاز عمار من بنيان وغيره رحلوا وتقدموا إلى قسنطينة فرحل أيضا حاج أحمد باي من فج سيله ، وتقابلوا في ناحية عقبة العشارى ومن هناك بدأ الفتن بين المسلمين والفرانصيص فمات رجم شيخ الحراكتة ومات محمد الشريف بن الحملاوى قايد عامر الغرابة في ذلك الوقت ، ومات سيدى عبد الله بن الأحرش ، كانوا أوائله في المخزن ، ومات من الجيوش غير معروفين في ذلك اليوم ومات أخو سي مقران في خنيفة الزناد ولا زال الفتن من الجانبين إلى أن نزلوا على قسنطينة وقابلوها من ناحية سطح المنصورة ، ومن ناحية الكدية ، فركبوا آلة حربهم ورتبوا عساكرهم ونشأ الطراد بين الفرانصيص وناس البلاد وتمادى القتال من الجانبين فكان ذلك ثمانية أيام . وكان في اليوم السادس مات الماريشال المذكور[106] بكورة نزلت عليه من الصور ، ومن بعد موته ترجع مريشال آخر الذى اسمه كونت فاله[107] فكان صاحب حرب وفطانة . فحين ترجّع أمر بحفر المتارزات . وجعلهم صفا بعد صف ، إلى أن وصلوا قريبا من صمعة سيدى بو قصيعة ثم رجع المدافع وقابلهم للصور ، ونزل عليه برمي البومبة والكور حتى انهدم وصار في العدم .

هذا الوقت قدم رسول من عند الماريشال وولد سلطان فرانصة وبيده جواب إلى ناس قسنطينة وهو هذا بنفسه : الحمد لله ولا شريك له في ملكه ولا يعبد سواه سبحانه جل شأنه وتبارك ، من سعادة كبير الجنرالية المأمر المحال الفرانصوية إلى قضات (كذا) ومفتى وعلماء ومرابطين وأعيان ، وكل واحد من سكان مدينة قسنطينة كبير وصغير يليه أعلامكم أعلمكم

---

(106) يقصد به دانرمون Le maréchal danremont .

(107) الماريشال فالي Le marechal valee .

أن مدافعنا تراها على أساس أصواركم فلابد أننا نهدمها وندخل مدينتكم إن شاء الله السميع العليم . وهو على كل شيء قدير ، فإذا شئتم تمنعوا عنكم ورود هذه الداهية البلية العظيمة فلابد منكم أن تبعثوا لي قبل دخولي إلى بلادكم آكم (كذا) رجل من كبرائكم الحكماء العقلاء لأجل أن نتحدث معهم مشافهة على ذلك وعلى مافيه خيركم وصلاحكم ، ما دام معكم الوقت وإذا فعلتم ذلك فما أنى أقسم لكم بالله العظيم وتالله الكريم أن نحرم جوامعكم ونسائكم وأولادكم وأرزاقكم وأملاككم وتبقوا مقيمين وساكنين في دياركم براحة سر وبال وهناء واطمئنان ونعطى طابعنا للذين ترسلونهم لعندنا لأجل مفاوضتنا معهم وأمان الله وأمان أنبياء ورسول الله عليهم وأنتم تعلموا جيدا أننا قط مانخدع بوعدنا وأماننا (كذا) وهذا الشيء مشهور على جنسنا عند جميع الملأ . هذا ولا زايد والسلام بتاريخ يوم الأربعاء 13 من شهر رجب الفضيل (كذا) عام 1253 هـ[108] رقم في كدية عاتي كتب عن إذن وأمر المذكور أعلاه .

فلما وصل ذلك الجواب واتصل بيد بن عيسى الذى هو باش حانبه ، وابن البجاوى الذى هو قايد الدار ، فقرؤوه وتحققوا بكل ما فيه فظنوا أنه ليس ذلك هو مقصودهم وإنما لما كادهم أمر الدخول في قسنطينة واستصعب عليهم الحال ولم يجدوا لذلك حيلة فحينئذ أرسلوا هذا الجواب ليختبروا به ناس البلاد ولعل يتمكنون بالدخول في قسنطينة من غير مقاتلة ولا إنكار فعند ذلك ظهر في عقل بن عيسى وتخميمه أنه يمسك الرسول ويتأخر برد جوابه حتى يبنوا الصور ويشدوه من خلله ، ففعل ذلك ، وبعد ما قضوا أمرهم فى الصور سرحوا ذلك الرسول وأرسلوا معه جواب ليس فيه فائدة ولا صواب (كذا) وصورة ذلك الجواب :

الحمد لله من عند كافة ناس قسنطينة ، وعلمائها وكبايرها إلى سعادة كبير الجنيرالية أما بعد فقد اتصل بيدنا جوابك فتصفحناه وفهمنا خطابك وتقرر عندنا معناه ، واليوم نحن لم يكون معنا كلام وإن كنت تريد الكلام فها هو مولى البلاد وهو حاج أحمد باي نازل بقربك فأرسل إليه وتكلم معه ولا زايد غير هذا والسلام .

108) الموافق لشهر أكتوبر 1837 م .

وأما هذا الجواب المذكور لم يحضرون فيه ناس البلاد ولا أعيانها سوى بن عيسى باش حانبه فقط لأنه المتولي على البلاد في ذلك الوقت . وقد جرى في السابق لما أتى يوسف إلى قسنطينة كاتبوه أهل البلاد ، وهو لم يتمكن بدخولها ، كان حاج أحمد باي في ذلك الوقت قتل البعض من الناس الذين كتبوا كما هو مذكور سابقا . فلذلك تمنعوا أهل البلد ولم يحضروا (كذا) لعل يصير لهم مثل المرة الأولى . فلما وصل الرسول إلى ولد السلطان فرانصة ، والماريشال بذلك الجواب استغاضوا واجتهد كل الاجتهاد ، وتقوى من جانبهم الرمي بالكور والطراد ، فانهدم الصور مرة ثانية وعظمت المحن وحلت الداهية ، وزحف عسكر الفرانسيس في المتارزات إلى أن وصل جامع سيدى بركات العروسي وزدم من ناحية الصور .

هذا الوقت نزل بناس البلاد الرعب ، والفتور فهرب بن عيسى المذكور من ناحية الطابية ، ولحقوه الكثير من ناس البلاد العامة وتبقى ابن البجاوى قائد الدار ومعه من ناس البلاد الأعيان الذين ليس لهم نسبة في البيدوان . فتقوى من الجانبين الطراد ، واشتدّ ذلك بين أبواب البلاد فانزعج قائد الدار المذكور ورفعوه إلى داره مجروحا فعند ذلك هجم عسكر الفرانسيس من كل جهة ودخل إلى البلاد ، وصارت مقتلة عظيمة ومعركة شهيرة بقرب الموقف ، وتخلطوا مسلمين وفرانسيس وبطل البارود فصار المسلم يضرب بالسيف والفرانسيس يضرب بالشفرة ، ولا يزالوا كذلك حتى يقعان في الأرض ميتين متعانقين ، ومات في تلك الساعة من ناس البلاد المعروفين منهم : السيد علي بن سيدى عمر الوزان ، وسي علي بن المسبح ، وإمام جامع سيدى الدّبي ، وسي بلقاسم بن المغلاوى وسي إسماعيل بن الذيب ، وبوذن ، وابن السبكى ، والهاشمي خديم قائد الدار ، وسي أحمد بن صالح السراج ، وبن العمورى كان قائد الباب ، وحاج حسن الجيجلي ، وغيرهم .

وأما قائد الدار لما رفعوه إلى داره ودخلوا إليه بعض أطباء الفرنسيس وعالجوه وقد مات في يومه بعد العصر ، ولما انجرح قايد الدار ورفعوه إلى داره فروا المسلمين والتجأوا إلى سيدى الشيخ بن الفقون مستغيثون قائلون (كذا) كيف يكون خلاصنا وأين السبيل إلى فرارنا وفي أى مكان يكون استقرارنا فأشار عليهم بتعليق بنديرة[109] طلب الأمان

109) يعني العلم .

التي هي علامة الدخول في الطاعة وانقطاع الافتتان ، وكتب جوابا في الحال وأعطاه للبعض من أعيان البلد وأمرهم يمشون بالفور لأجل مقابلة السلطان والماريشال فيطلبون العفوة (كذا) ويتوثقون منهما بالأمان فلما انفصلوا من عنده وصاروا في أثناء الطريق وجدوا عسكر الفرانسيس برحبة الجمال والناظر عليه والمتولي أموره كاندە(110) اسمه بيدو ، فلما رآهم قاصدين له وهم في غاية الرهب والدهشة تحقق أنهم أتوا الأمر يطلبونه فحينئذ أمر العسكر بعدم الرمي فامتثلوا ولما وقفوا بين يديه أول ماسألهم عن طريق القصبة وأين محلها فقالوا له نحن نوصلكم إليها ثم سألهم عن سبب قدومهم فأخبروه أنهم يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد علي أولادهم ونسائهم وأملاكهم فأجابهم إلى ذلك كله وأعطاهم الأمان وكان عنده الإذن في ذلك الشأن لكن بشرط أن يدفعوا السلاح في القصبة ليكون العفو والسماح فامتثلوا لذلك الأمر طائعين . ثم أمر برجل من ذلك الناس يمشى مع البعض من الفرانسيس ليعرفهم بطريق القصبة ، والبعض أرسلهم إلى ولد السلطان والماريشال . فلما بلغوهما طلبوا منهما الأمان على ما تقدم فأجابهما بذلك وفرحوا بهما . ثم رادوهم (كذا) إلى الكماندة بيدو .

ولما وصلوا ذهب معهم إلى دار سيدى الشيخ بن الففون ليطمن أهل البلاد في الأمان على ماتقدم ليسكن خوفهم فلما وصلوا قام سيدى الشيخ إلى الكماندة المذكور واستكثر من خيره وقال له إن هذه البلد لم تدخل عنوة من قديم الزمان إلا هذه المرة فقد مكنكم الله تعالى منها فيجب عليكم أن تعملوا الخير وتعطوا الأمان إلى ناس البلد ، فبذلك يتمهد لكم الأمر وتذعن إليكم الرعية والعباد .

فأجابه الكماندة المذكور قائلا له ما يكون لكم إلا الأمان التام ، وما عليكم من الدولة الفرانصوية إلا العافية والاحترام لكم ولأولادكم وحريمكم ، وديارکم ، وأرزاقكم . فلما تكفل لهم بذلك وسمعوا كلامه الخاص والعام فرحوا أهل البلد فرحا شديدا وطمأنت نفوسهم وسكن روعهم والكماندة بيدو أهل أول من أدخل السرور والفرح على أهل البلاد ، فله عليهم مزية كبيرة ثم تكلم معه بوزيان بن العلمى قائلا له حيث أعطيتمونا

110) Le commandant bedeau .

الأمان نحن أهل البلد أعطونا الأمان لأهل الوطن ليحصل لهم الهناء ، وتكون لنا القدرة على جلبكم (كذا) لخدمتكم ، ويصير الحال حسن مما كان في زمان حاج أحمد باي ، فقال له عندى الإذن نؤمن أهل البلد دون البادية ولكن نستأذن ولد السلطان والماريشال في ذلك ونخبر كم بما يأذناني به . فذهب إليهما وأخبرهما أن يعطى الأمان للرعية ، فرجع الكماندة المذكور إلى دار الشيخ وأخبرهم بالواقع ، وأعطى الأمان لأهل الوطن فبذلك زاد الفرح والسرور عند ناس البلد ، وزال عنهم الخوف والنكاد وكان ولد السلطان والماريشال من بعد ما رجعوا من عندهم ذلك الناس بالأمان تراهم تقدموا ، ودخلوا في قسنطينة ومعهم كل الجنيرالات وأرباب الدولة الفرانسوية ونزلوا في الدرب الذى هو محل سكنى حاج أحمد باي فاستقروا فيه واحتوا على ما كان من ذخائره ، وكان ذلك يوم الجمعة وقت الضحى الثالث عشر في اكتوبر عام 1837 سبع وثلاثين وثمانمائة وألف بالحساب الفرنجي وأما حساب أهل قسنطينة ، أنهم يقول دخول الفرانسيس يوم الرابع عشر في رجب عام 1253 هـ . ومن بعد دخولهم خرج التنبيه على السلاح إلى ناس البلد أن من يخفي سلاحه ولم يدفعه في القصبة تلزمه العقوبة فترى كل الناس بادروا بدفع سلاحهم واختاروا العافية لهم ولأولادهم فحينئذ استقر كل واحد من أكابر الفرانسيس بما يناسبه من المنازل ، فكان منزل الكماندة بيدو في دار باي خزناجي متاع أحمد باي .

تعيين حمودة بن الشيخ الففون حاكما على قسنطينة

وبعد ذلك اشتغل بتفريق العساكر على ديار الناس الذين هربوا وقررهم فيها وأمر لهم بما يحتاجونه من مأكول ومشروب وفراش وغيره لأنه الناظر على البلد في ذلك الوقت لما يشق عليهم أمر من الأمور يمشون إليه ولما يحضروا عنده يتكلم معهم بكلام لين حسن ويأمرهم بما يقدرون عليه فاستحسنوه ناس البلد وصاروا يركنون إليه في جميع أمورهم . ولم يزل واقفا وقوف الجد والحزم في أيام الضيق ويسكن الناس ويعدهم بالخير وأنهم لايخلفون .

وأما ولد السلطان والماريشال ومن معهم من أرباب الدولة الفرانصوية خمّموا في عقولهم ودبروا بما اقتضاه نظرهم في شأن تهنئة البلاد وتمهيد الوطن وجلب العباد فاتفق

رأيهم أنهم يجعلوا حاكم في قسنطينة كما كانت العادة القديمة حتى يستقيم الحال ، وينتظم الأمر ويطيب المآل . ثم إنهم اتفقوا على سي حمودة ولد سيدى الشيخ واختاروه ولذلك الوظيفة يقدموه لكونه ذو أصل قديم ونسل شائع كريم . فعند ذلك نهضوا أكابر الفرانسيس منهم الكماندة بيدو وترجمان الماريشال ، والقبطان فليس وغيرهم من أرباب الدولة ومشوا جميعا إلى دار سيدى الشيخ بن الفقون واستقروا بالجامع الكبير لأجل أن يلبسوه وحضروا ناس البلد والعلماء وذلك يوم السابع من يوم دخول الفرانسيس في بلد قسنطينة . فلما سمع أبوه وهو سيدى الشيخ تحير وبكى قائلا ولدى صغير ونحن زاوية ملجأ القلّيلين نطعم الطعام لوجه الله رب العالمين وما نحتاجوا من الدولة الفرانصوية إلا الاحترام مثل ما كانوا الدول الأولين . فأجابوه قائلين : لابد من ولدك يخدم في سربيسنا[111] وما يكون لكم ولزاويتكم إلا الاحترام منا . لأن دولة فرانصة دائما تحب تعمل الخير بالزيادة ، فترى سيدى الشيخ سلم في أمره وقدم ابنه بطيب نفسه ، فحينئذ لبسوه ، ولما شاع خبر ولايته انقادوا مشائخ الوطن ودخلوا في خدمة الفرانسيس بواسطته ، وانعطفوا عليهم ناس البلد العامة الذين كانوا هربوا مع بن عيسى باش حانبه ، واستقروا في منازلهم وصاروا مطمئنين ، ومن خوفهم هانئين .

وأما ولد السلطان حين نزل على قسنطينة بقصد دخولها وكان أخوه دوك دوجو نفيل[112] في البحر ومعه سفائن عديدة مشحونة بالعسكر يطوف به بقصد ما وجه إليه من جانب الدولة فلما بلغه الخبر وأن أخوه (كذا) مقيم على قسنطينة بالفتن أتى إلى بلد عنابة بما معه من السفن وأرسى بها وأقام هناك أياما يستخبر عن أخيه وعن ما وقع له مع أهل قسنطينة فلما طال عليه الحال وتغيب عنه الخبر نزل بعسكره ولحقه بقصد إعانته فلما وصل وجده دخلها قبل وصوله بسبعة أيام فاجتمع بأخيه وحصل له الفرح والسرور وبملاقاته وبقي معه إلى أن سافروا جميعا .

ثم إن سي حمودة المذكور طلب الإذن من ولد السلطان بأن يجعل ترتيب المخازنية في

---

111) يعني مصلحتنا الإدارية من الكلمة الفرنسية : Notre service .

112) Le duc de joinville .

وضائفهم ويجريهم على عادتهم لأجل جلب الرعية وتمهيد الأوطان ، فأعطاه الإذن وفوض له في ذلك الشأن فولي كل واحد لما يناسبه من الوضيفة على حسب المادة القديمة فبذلك الترتيب استقام الحال ، وطاب المآل .

ثم يرجع الكلام إلى ولد سلطان فرانصة والماريشال أنهم من بعد قضاء حوائجهم وترتيب أشغالهم سافروا إلى الجزائر وتبقى جنرال الذى هو اسمه برنيل[113] حاكم كبير في قسنطينة وكل الأحكام بأمره وبنظره . ومن بعد ذلك كان سي حمودة ابن الشيخ واقف مع الفرانسيس بخالص نيته . ولم يقصر في خدمته وكان يكتب إلى شيوخ الوطن ويجلبهم ، فأول من انقاد من الشيوخ ودخل في خدمة الفرانسيس الشيخ بوعكاز بن عاشور شيخ فرجيوه . وثم بن عز الدين شيخ زواغة ، وثم أولاد بن مذكور ، مشايخ الحراكتة ، وثم شيخ أمية ولا زالوا الشيوخ ينعطفوا ويكونوا في طاعة الفرانسيس واحدا بعد واحد .

ثم مشى الجنرال برنيل ، وجاء بعده الجنرال نيفريه[114] فمكث زمان وما ظهر على يده شيء من أمر تمهيد الأوطان ، إلى أن جاء الماريشال الذى هو كونت فالي[115] وكان رجل صاحب تدبير وسياسة فتراه جعل ترتيبا مليح وتدبيرا لايقا صحيح ، بأن بطّل اسم الوظائف القديمة واستنبط وضايف جديدة ، وهو أنه رتب خلفوات وجعل على كلّ وطن خليفة ، وجعل شيوخ وقياد صغار من تحت كل خليفة وبقي سي حمودة المذكور حاكم في داخل قسنطينة وكل التصريفات المذكورين تجرى بنظر الجنيرال الكبير ، فصار الأمر مستقيما بهذا الترتيب ، وانقاد الناس لذلك التدبير المصيب .

وكان الماريشال المذكور من بعد ترتيب ذلك الوظائف وتأسيسها على النمط المستأنف ، سافر إلى الجزائر وتبقى الجنيرال المتسمى فالبو[116] حاكم كبير فى قسنطينة وعمالتها وهو رجل كامل العقل بالغ السياسة فجلب الناس إليه بعقله ومهد البعض من

113) هو الجنرال تريزيل : Le general trezel وقد نطقه محرفا تولي عام 1837 م .

114) Le general negrier عام 1837 م .

115) Le marechal comte valee عام 1839 م .

116) Le general de galbois عام 1838 م .

الأوطان بسياستها وكان المعين له في أموره وأسبابه ترجمانه موسيو أربان(117) وهذا الاسم تفسيره بالعربية أديب الزمان . وهو المتسمى عند العرب سي اسماعيل لأنه صاحب عقل وتدبير في مصالح العباد بالخير الكثير . فبذلك استقام حال الجنيرال المذكور ، وصار أمره مستحسنا مبرور ، ونزلت العافية في وقته إلا أن البعض من الأوطان القاصيين باقيين ممتنعين لا تنالهم الأحكام ولا يؤدون مطالب البايليك بالتمام ، ومنهم وطن الصحرى وثم وطن الحراكتة وثم جبل أولاد سلطان ، وغيرهم حسبما نذكره آتيا مفصلا ومبيناً .

قدوم الدوك دور ليان إلى قسنطينة

وفي زمن الجنيرال فالبوه جاء ولد سلطان فرانصة الذى هو دوك دورليان(118) ومعه الجنرال فالي ، وجنيرالات وكان قدومهما على السكيكدة فلما سمع الجنيرال فالبوه بقدومه خرج من قسنطينة ومعه أصحاب الوضايف وشيوخ الوطن بقصد ملاقاته ومشوا جميعا للسكيكدة فلما وصلوا أقاموا هناك يوما إلى أن وصل ونزل من المرسى فوقفوا بين يديه وفرحوا كل الفرح بقدومه فاستكثر هو من خيرهم وشكرهم على حسن صنعهم ، ثم بعد نزوله واستقراره في داره تقدموا إليه أصحاب ذلك الوضايف المذكورين ، وشيوخ الوطن المتعينين وبيدهم الهدايا من الخيول المسومين ووقفوا بباب دار نزوله فلما سمع بهم خرج بنفسه إليهم وأعرضوا عليه ذلك فأعجبوه ثم تكلم معهم على لسان الترجمان الذى هو موسيو أربان المتقدم ذكره قائلا لهم قد تحقق عندى أنكم قدمتم إليّ فارحين وبيدكم الهدايا من الخيول المسومين فإني قد فرحت بكم وأعجبني حسن صنيعكم وقد زاد عندى تحقيقا بأنكم خدام الدولة الفرانصوية . ولكن ما قدمت لأجل أن تأخذ منكم ، وإنما قصدى في قدومي هذا لنشوفكم ونشوف بلادكم ونعطوكم من عندى لما بلغ عنكم وأنكم منصحين في خدمتكم ، ويكون متحقق عندكم أن كل من أتى بهدية فإني قبلتها منه ورديتها (كذا) إليه بخالص نيتي . ثم أمرهم بالدخول إلى داره فدخلوا فلما استقروا أنعم عليهم بالعطايا المثمنة من السلاح المذهب ، والمصوغ ، والسوايع وغير

---

117) George thomas ismail urbain .

118) Le duc d'orlean وذلك عام 1839 م .

ذلك لكل واحد ما يناسبه . وخرجوا من عنده مكرمين فرحين ثم إنه أقام يوما هناك لأجل الاستراحة ، ومن الغد توجه إلى قسنطينة بقصد الفرجة والنزهة فلما وصل خرجوا إليه العلماء وعامة الناس البلاد . ولاقوه بالفرح والسرور ، فاستكثر هو من خيرهم وفرح لفرحهم ، ثم أقبل عليهم بالإحسان وأعطى للعلماء بما يناسبهم مثل الأولين وإجراء الصدقات للفقراء والمساكين ، والضعفاء والقليلين ، وكانت مدة إقامته في قسنطينة نحو خمسة عشر يوما وفي تلك المدة يحظر العلماء عنده ويتكلم معهم بكلام حسن ويطيب خواطرهم ويحرضهم على حكم الشريعة . ثم من بعد خروج العلماء من عنده يدخلون إليه أصحاب وضايف المخزن وشيوخ الوطن كذلك يتكلم معهم بطيب الكلام ثم يوصي كل واحد منهم بالسيرة المحسنة والعدل مع الرعية التي هو متوضف عليها . ومن بعد خروجهم يدخلون إليه أعيان البلاد وأمناء الصنايع فيرحب بهم ويعدهم بالخير فيما يستقبل . ولا زال على هذا المنوال من فعل الخير والصدقات بالطعام وبذل الأموال إلى أن سافر إلى الجزائر . ولما أزاد الرجوع إلى بلده تأسفوا الناس على فراقه وتمنوا بقاءه لخيره معهم وإحسانه فكان صفره (كذا) للجزائر في البر على طريق البيبان والحال أن تلك الطريق صعبة فسلكها من غير فتن ولا هرج وذلك من سياسة الماريشال فالي وتدبيره وحزمه في أموره[119] .

وأما الجنيرال فالبوه المذكور فإنه مكث حاكم في قسنطينة نحو عامين وزيادة وفي أيامه نشأت السكيكدة وظهرت وكذلك سطيف أسس بنيانه واشتهر ، وكذا غيرهما من الأماكن الذى أسست وجعل فيها عسكر فرانسيس لتمهيد الوطن وعمارته ونزول عافيته ، ثم بعد الجنرال فالبوه جاء الجنرال نيقرية[120] مرة ثانية وهو رجل طبعه حار وكان مشى إلى تبسة وهي قرية قرب عمالة تونس فخدموا البعض من ناسها وبعد رجوعه من عندهم نكلوا (كذا) وبقوا كما كانوا ونقضوا أمره ولم تكن خدمتهم كاملة . وفي زمانه جاء الخبر بموت سلطان فرانسا دوك دورليان المتقدم ذكره أنه مات بالكروصة

119) لقد كان عبور دورليان وفالي لمضايق البيبان في أوائل نوفمبر 1839 سببا في نقض معاهدة تافنة وعودة الحرب بين الأمير عبد القادر وفرنسا في الشهر نفسه .

120) Le general negrier مرة ثانية عام 1841 م .

لفراقه وتأسفوا عليه كثير . وفي زمانه أيضا ظهر شريف في ناحية الساحل وفسّد على الفرانسيس ولا زال كذلك إلى أن جاء الجنرال برافيدلية المسمى عند العرب بوذراع[121] وهو رجل صاحب شجاعة في الحروب وكان مشى بالمحلة إلى بعض الأوطان فمهدهم ، ورتبهم وخدموا ناس ذلك الأوطان على وجه مليح وقتل الشريف الذى كان يفسد على الفرانسيس في زمان الجنرال نيقرية فبذلك تمهد الحال .

وفي هذا الوقت ظهرت وظيفة بيرو عرب في قسنطينة وكان المتولي حكومتها قبطان اسمه بوسنّي والعرب يسمونه بوسنه[122] وهو رجل عاقل له سياسة مليحة وفطانة بليغة وله معرفة بأحوال العرب لأنه يحسن التكلم بالعربية ومطلع على الكتب الإسلامية كثير النظر فيها ويفهمها مليح ويحب العلماء والأولياء ويفضلهم على غيرهم لكونهم دائما يكونون واسطة خير بين الناس .

ومن عادته أن من يأتيه شاكيا يسمعه في الحين ولا يتراخى عنه ويقضي حاجاته بما يناسبه ومن جملة سيرته الحسنة أنه لا يبادر بتعجيل العقوبة لمن يستحقها خوفا من الغلط في الحكم بها بل يتروى في ذلك وينظر حتى تظهر ظهروا بينا . والحاصل أنه يعجل في فعل الخير ويتأنى في العقوبة ، ومن هذا الصنيع استحسنوه ناس الوطن وناس البلاد وضربوا لذلك مثل فصاروا يقولون : هذا زمان القبطان بوسنّه ، كول كسيرتك واتهنى ، ومعناه أنه رجل صاحب عدل وسياسة ما عنده حمية مع واحد ولا حماصة (كذا) ، وكانوا القياد والمشائخ قبل ذلك يأخذون الجور من ناس الوطن ولما تولي القبطان المذكور حكومة العرب تراه مشى الأحكام بسياسة مليحة ونظر في أحوال العرب بسيرة مستحسنة ظريفة حتى فهم الناس كلهم أحكامه واستقام بالعدل والحق نظامه ، وزال بسبب ذلك الجور والظلم الصادر من كبراء العرب قبل رجوع القبطان المذكور للدرب .

---

121) Le general baraguay d'hilliers وتولى عام 1843 م .

122) بيروعرب هو المكتب العربي ، وبوسنة هو : Boissennet والذى أولاه هذا المنصب هو الجنرال بارقوى ديلي في أوت 1843 . وهو الذى كلف صالح بن العنترى بتأليف هذا الكتاب عن تاريخ قسنطينة فألفه وطبعه له الطبعة الأولى عام 1846 ، والثانية عام 1852 م .

العودة إلى حاج أحمد باي :

ثم نرجع إلى قضية حاج أحمد باي رحمه الله تعالى فإنه حين دخل الفرنسيس في قسنطينة واستولى عليها كان هو خارجها ، فبكى واستبكى ، وندم على ما فرط حين كان وقع الكلام بينه وبين ولد سلطان فرانصة ، في شأن الصلح والمهادنة فصار له مثل حكاية : آه على ما فات . فحصل له الإياس ، وتفرقوا من عنده كل الناس . فتراه جمع كل ما له وضم إليه المتقربين من خدامه وقصد وطن الصحراء فلما وصل مدينة بسكرة نزل بها واستغاث بناسها قائلا لهم كل الفرانسيس أخذوا الجزائر ، واستولى عليها من كونها مؤسسة بطرف البحر ، فسلمنا أمرها ثم التجأ إلى بلادنا قسنطينة وظهر في عقولنا أنها بلاد عروبة لا يقصدها الفرانسيس ، ولا يجنح إليها ، واليوم بحكمه وجاء إليها الفرانسيس بعساكره وتمكن فيها بقوته . أما تتحققون أن قسنطينة هى بلادكم تتسوقون إليها بأرزاقكم وتبيعون وتشترون فيها . ولكم فوائد كثيرة منها لأجل ذلك قدمت إليكم ونزلت في وطنكم فنزيد منكم تجمعون جيوشا من ناسكم ، وخيولا من أبطالكم وتتقدموا جميعا إلى قسنطينة تحاصروا الفرانسيس ، الذى في داخلها ، وتقطعوا عليه الطريق خارجها . وإذا كان هذا التأويل لازم يضيق الحال به ، ويظهر الكلام من عنده عسى يكون في ذلك صلاحنا ، وتنظم إلينا بلادنا .

فلما سمعوا كلامه وفهموا مقاله امتثلوا إليه وجبروا خاطره ووعدوه بأن يوفوا له مراده . وكان من بعد تخميم ظهر منهم الملل وكاد هم البعد ، ونزل بهم الوجل ، فلما نظر حاج أحمد إلى حالهم ، وتحقق له تخلف وعدهم ، وعدم تحصيل ما أرادوه منهم ، تراه رحل من عندهم وقصد موضع بطرف أوراس يسمونه منعه . فخزن فيه الكثير من ماله وبقي هناك البعض من حريمه من كون ذلك الموضع حصين وناسه بالخير معروفين .

ثم انتقل إلى وطن الحراكتة من كونه وطن عريض وناسه طبعهم غليظ ، فلم تكن لهم سياسة يدركون بها عاقبة الأمور ولا عندهم فطانة فيتخلصون بها من المحذور ، فلما نزل عندهم وتكلم معهم مثل ما تكلم مع ناس الصحراء ، فانقادوا لقوله وامتثلوا لكلامه بعد ما أكرموه وبأحسن الضيافة ضيفوه . ثم شرعوا في الفساد وتمادوا على الظلم ونهب

أرزاق العباد ، وكان ذلك في زمن الجنرال البوه ، فمشى إليهم بالعسكر والسرسور[123] وغزى (كذا) عليهم فهزمهم هزيمة كبيرة وهربوا من وطنهم . وكان حاج أحمد باي مستقر عندهم فلما وقع بهم ذلك الأمر انتقل من وطنهم وقصد وطنا آخر يتسمى بالدير ، وهو قريب من عمالة تونس فلما نزل عندهم فرحوا به ناس ذلك الوطن وأكرموه غاية الإكرام ، وأقاموا بحقه أتم القيام فتراه مكث عندهم زمان في العز والإحسان إلاّ أنهم لم يوافقوه على الفساد فلما تحقق منهم عدم الموافقة مكر بهم وقتل كبارهم وأراد أن يستولي على وطنهم فقاموا عليه عامة ذلك الوطن وأرادوا يقتلوه ففر هاربا إلى موضعه الذى كان بقًا (كذا) فيه حريمه وماله المتسمى منعة ، فمكث هناك زمان ثم ظهرت منه فارطة وقتل البعض من ناس ذلك البقعة ظلما وعدوانا فقاموا عليه عامة ذلك ، ولولا كبارهم منعوه لقتلوه العامة (كذا) .

ثم انتقل من هناك بجميع حريمه وقصد نجع أولاد دراج في وطن الحضنة ففرحوا به وأحسنوا إليه لكن البعض من ناس ذلك الوطن أرادوا يمكروا به فيمسكوه ويأتوا به إلى الفرانسيس فلما أحس بالخديعة انتقل من عندهم وقصد إلى جبل أولاد سلطان من كونه جبل حصين الملجأ إليه واستقر فيه . لكن صار له مثل ما صار إلى ناس غرناطة ، حين جاء إليهم الإسبانيول وكانوا ناسها دائما مشتغلون باللهو والطرب ، فحين نزل عليهم جاءهم النذير وقال لهم تيقضوا (كذا) وأوقفوا على أنفسكم فإن السبانيول استولى عليهم فقالوا حتى نكملوا هذا الشغل ، ثم جاء إليهم مرة ثانية وقال لهم وصل أبواب مدينتكم فقالوا له أيضا حتى نكملوا الشغل الآخر ، فما زالوا يفرغوا من شغل ، ويدخلوا في شغل آخر حتى دخل عليهم الإسبانيول واستولى على وطنهم[124] كذلك حاج أحمد باي صار ينتقل من وطن إلى أن وصل إلى جبل أولاد سلطان وصار به ما صار من التشتيت والهوان حتى نزل ولد سلطان فرانسة على ذلك الجبل كما سنذكره آتيا .

---

123) المقصود بالسرسور على ما يظهر هو القافلة العسكرية ، وقد ردد هذه الكلمة عدد من شعراء الملحون في أشعارهم .

124) إن هذه المقارنة مخطئة من أساسها لأن الحاج أحمد لم يتهاون كالاندلسيين ولكن الظروف التي كان يواجهها صعبة جدا ، إن العنترى يبحث عما ينقص من قيمته فقط ، وإلا فلا وجه للمقارنة .

ذكر قدوم ولد السلطان الذى هو دوك دومال : Le duc daumale

وكان وصوله إلى قسنطينة يوم الأربعاء الثالث والعشرين في ذى القعدة عام 1259 ألف ومائتين وتسعة وخمسين [125] ففرحوا الناس بقدومه فرحة عظيمة وخرجوا إليه أعيان البلد وكبرائها (كذا) بقصد الملاقات . وانقادوا إليه شيوخ الوطن والقياد والخلفوات وقابلوه بالهدايا من الخيول المسومات ، فقابلهم بالأمان والإحسان وقائلا لهم على لسان الترجمان إني قدمت إلى هذا الوطن نشوف في ناسه وندبر في شأنه وأسبابه ، ونتأمل الخير في قدومى إليكم ويكون السعد القوى عندكم ، فبذلك زاد عند الناس فرحا كثيرا واستكثروا من خيره استكثارا جزيلا ، وكان ترجمانه موسيو أربان الذى ، هو سي إسماعيل المتقدم ذكره لأنه صاحب سياسة بليغة ، ثم إن ولد السلطان المذكور من بعد استراحته تصدى للأحكام ليسمع شكاية الخاص والعام ويحضر العلماء فى مجلسه ، يفصلوا القضايا الشرعية ليتصل صاحب الحق بحقه ، فهذه سيرة من سير الملوك السابقين ، ومن تمام عقله وإرادته بالخير لأهل الوطن وناس البلاد أنه أسقط الامكاس الذى كانت تلزم البائع والشارى من الزمان المتقدم ، فبإسقاط ذلك الامكاس وإبطالها كثرت السلع ورخصت (كذا) الأسعار .

ثم إنه زاد مصلحة أخرى بأن قسم البلد شطرين وعين شطرا يسكنون فيه المسلمون والشطر الآخر يسكنون فيه الفرانسيس ، وكان قبل ذلك سكناهم مختلط . وظهر إلى ولد السلطان في ذلك التقسيم صلاح المسلمين ويحبوه ولهم في ذلك حظ ومنفعة وهو لما أن كان بقرب ديارهم بعض وكاندات[126] فرانسيس فإنهم يطلون بسبب الأمر الذى صدر . فهذه فائدة لا أحسن منها . وثانيا يرخص الكرى (كذا) عن الضعفاء والمساكين بانحياز المسلمين في شطرهم ، فكان لفاعله مزية وأجر كبير .

ولما فرغ من تدبير ما يصلح بالبلاد اشتغل بأمر الوطن فكتب أوامر عديدة بالعربية وفرقهم على مشائخ الوطن والقياد ، فأول ما أمرهم باتباع أحكام الشريعة ثم بالسيرة الحسنة مع الرعية وجعل لكل قائد ولكل شيخ قدرا معينا يأخذونه مما يستوجب الخطية .

---

125) الموافق ليوم 4 ديسمبر 1843 م .

126) يقصد بها فنادق على ما يظهر أو حانات .

أيضا قدرا حق خدمتهم يأخذونه في وقت سلاك[127] مطالب البايليك . وكذلك أيضا جعل قدرا خفيف للأعراش والعزل في شأن الزوايل[128] الذين يحملون الحلاس وهو قش البايليك[129] وغير ذلك فكان في هذه القوانين صلاح للوطن والبلاد ورفقا بالرعية والعباد .

ثم إن ولد السلطان المذكور من بعد ترتيب ذلك القوانين وتنظيمها شرع في تجهيز محلة قوية من قوم وعساكر فرانصوية ، وقصد وطن الصحراء فلما وصل إلى بسكرة تلقوه ناس ذلك الوطن بالطاعة والامتثال ، ودخلوا في خدمة الفرانسيس من غير مراجعة ولا نكال ، إلا بعض قليل تمنعوا وهربوا إلى شاهق جبل اسمه أحمر خدو وهو جبل حصين فلحق بهم ولد السلطان بمن معه ففتنهم فتنا كبيرا فهزمهم وفروا جميعا ثم رجع إلى بسكرة فرتب فيها نوبة من عسكر ، ورجع فيها قايد من أولاد بن فانة . وأقام هناك أياما حتى قضى حوائجه وأثبت تلك النوبة بجميع ما ينوبها ودفعوا ناس ذلك الوطن مطالب البايليك بالتمام . ثم من بعد ذلك رحل ولد السلطان من بسكرة وقصد جبل أولاد سلطان وهو جبل حصين لكثرة شعابه وتصعب طرقاته وشجاعة ناسه . وكانوا في زمان الترك لا تنالهم الأحكام ولا يعطون مطالب البايليك بالتمام[130] .

وكان حاج أحمد باي هذا الوقت نازل عندهم بخيامه وحريمه ، فلما نزل عليهم ولد السلطان المذكور تراه صعد إلى جبلهم بالعساكر والسرسور ، وجعل جيوش العرب من وراء الجبل ، ودوروا به الفتن من كل جهة فانهزموا أولاد سلطان هزيمة كبيرة وانهزم حاج أحمد باي معهم ، وضاع له رزق كبير ومال كثير ، وما نجي (كذا) إلا بنفسه ومات البعض من حريمه في ذلك الهزيمة . وما حل به ذلك إلا من قلة عقله لما أن جعل رأيه في يد غير العقلاء ، ولو اتبع كلام الناس العقلاء أول الزمان لم تجر عليه هذا الامتحان ، ولكن الأمر مقدر ولا ينفع الحذر من القدر[131] .

---

127) يعني وقت استخلاص ضرائب البايليك المطلوبة .

128) يعني الخيول والأحصنة التابعة للبايليك أي الدولة .

129) يقصد بالقش الأمتعة والحوائج التابعة للبايليك والتي عبر عنها بالحلاس كذلك .

130) يشير بهذا إلى حملة الدوك دومال إلى بسكرة في فيفري ومارس 1844 م .

131) هذا من قبيل التحامل والاستنقاص للحاج أحمد باي والتقرب من الفرنسيين .

وأما أولاد سلطان من بعد هزيمتهم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى وطنهم ويكونوا خدام كسائر الرعية التي هي تحت حكم الفرانصيص فعند ذلك عفى (كذا) عنهم ولد السلطان وآمنهم ، ورجع عليهم مشايخ ، ومن بعدهم خدموا ناس ذلك الأوطان والجبال من غير فتن ولا قتال ، وهم : جبل أولاد علي ، وجبل أولاد سلام ، وجبل أولاد فاطمة ، وغيرهم من الأعراش النازلين بخيامهم في الوطن[132] . الاخضر الحلفاوى وأولاد زيان ، والحراكته عرب المعذر ، وأولاد شليح ، وأولاد فضل ، وأولاد فضالة ، والعشاش ، والبعض من أوراس .

ولما خدموا الناس المذكورين وظهرت طاعتهم وكل فرقة استولي عليها شيخ يتولي أمرها ، هذا الوقت خمم ولد السلطان في عقله أنه يجعل تأويلا يدوم به تمهيد ذلك الأوطان وتثبيت العافية فيهم مدة الزمان فاقتضى نظره الرشيد أن جعل نوبة من عسكر فرانسيس في باتنة الذى هي واسطة ذلك الأعراش وواسطة طريق الصحرى (كذا) . وأسس بنيانا لاستقرار ذلك النوبة ورجع قائد في باتنه من أولاد بن القاضى وصار أمرها مشهور يستريح فيها القادم من الصحرى ، ويلجأ إليها الوارد من الأرض القصوى ، وكان هذا الوطن في السابق محل صعيب (كذا) لا يجوزه المسافرون إلا بالقوة الكثيرة والقفول[133] الغزيرة .

ثم إن ولد سلطان من بعد قضاء حوائجه في وطن الصحراء وترتيب نوبة بسكرة ونوبة باتنة على الوجه الأحضى (كذا) تراه رجع من سفره مسرورا ، وبنيل مرغوبه مبرورا . ودخل إلى قسنطينة ففرحوا ناس البلد بقدومه وشكروه على حسن صنعه ودعوا له بخير على ما ناله من التعب والافتنان في ترتيب الأحوال وتمهيد الأوطان فأجابهم هو على لسان الترجمان : إني قد أبذلت المجهود لأجل أن تكون العافية في الأوطان فيها تتيسر الأرزاق ، ويكثر بيعكم وشراؤكم ، وتبقون في الهناء إني دائما نفرح بكم لأن خدمتكم مع الفرانسيس خدمة مليحة وسيرتكم معه مستحسنة ظريفة .

---

132) يعني السهل أو سفح الجبل المنبسط .

133) يعني القوافل .

ومن بعد ذلك دولة فرنسا تثنى عليكم بالخير لما بلغها من حسن طاعتكم ونصحكم ومرادى تخلفكم في العافية إلى آخر ما تكلم معهم . فاستكثروا من خيره وفرحوا بحسن كلامه وانفصلوا من عنده على حسن حال ، وأتم منوال .

وبقى ولد السلطان مشتغلا بأموره مدة أيام فلما تعين له السفر إلى باريز اجتمعوا عنده العلماء ، وأعيان البلاد ، والخلفوات ، والقياد ، فلما حضروا بمجلسه أكرمهم وفرح بهم ثم أخبرهم أنه مسافر إلى باريز ، بلاده لقضاء مآربه ويرجع بعد مدة قليلة . فلما سمعوا كلامه تغيروا لفرقته وقائلين لا نرضوا بفراقك ونحبوا أن تبقى معنا مدة حياتك لما رأينا من إحسانك معنا وجزيل خيرك معنا ، فأجابهم إني خلفت لكم رجل كبير صاحب عقل وسياسة وتدبير وهو الجنرال بيدو ونوصيه عليكم بأن يبقى معكم بالسيرة الحسنة وما يكون معه إلا الخير إن شاء الله ثم وادعوه ودعوا له بالخير والسلامة[134] .

ولما عزم على السفر طلبوا منه البعض من أصحاب الوظائف يمشون معه إلى باريز بقصد الفرجة والتنزه فأجابهم لما أرادوه وأعطاهم الإذن فيما رغبوه ، وبعد ما سافر لحقوه إلى باريز وهم : سي علي بن باحمد ، وسي الأخضر بن وان ، وسي البوروبي ، وسي بوالاخراص ولد شيخ العرب ، وسي أحمد ولد سي مقران ، وسي أحمد ولد أحمد بن محمد خليفة مجانة ، وسي محمد الشاذلي قاضي في قسنطينة ، والعالم العلامة الداركة الفهامة صاحب العقل والمشهور بالفضل السيد الحاج محمد بن الخروبي وهو من ذرية العلماء المشهورين . فأقاموا بها أياما في عز وإكرام وتفرجوا في باريز وما فيها من العجائب المستحسنة والغرائب المستظرفة وشاهدوا دولة فرانصة وملكها ، وترتيب عساكرها ، وآلة حربها . ولما قابلوا سلطانها تلقاهم بالفرح والسرور وخاطبهم بكلام بليغ مع الرفق واللين . ومن بعض كلامه لهم : أنا فرحت فرحا كثيرا لما رأيتكم مجتمعين قدامى في دارى بين أهلي وأولادى فالآن أنتم عندى مثلهم وأنا لا أنساكم كأنكم أنتم الذين دبرتم العافية مع أولادى في وطنكم . وقاتلتم المفسدين تحت طاعتهم ونظرهم ، وإنا نحمد الله الذى ملك أرضكم للجنس الفرانصوى دون غيره من الأجناس ليكون لكم الخير

---

134) غادر الدوق دومال قسنطينة يوم 3 أكتوبر 1844 وخلفه الجنرال بيدو مدة ثم تغيب وناب عنه مؤقتا الجنرال راندون حاكم الكاتب بعنابه إلى أن عاد .

والعافية . ولا تظنون أنا نمسك بلادكم بالفتن بل نملكوها بالعافية الكاملة ولا نقصدوا أحد بسوء إلا الذى أراد الفساد . وإنا نبذل جهد في حفظ دينكم وشريعتكم ، وبقاء مساجدكم وتعميرها وإحياء مدارسكم وعلومها حتى يحسبوننا العرب أحبابا لهم ويظهر لهم أن لا غرض لنا في إفساد دينهم وشريعتهم ونطلب من الله جل جلاله أن يعيننا على مصالحكم كلها ، إنه على كل شيء قدير .

ولما سمع الجماعة المذكورين كلام سلطان فرانصة فرحوا بذلك فرحا شديدا وشكروه شكرا جميلا وقالوا له بما قلته تكون أرضنا طيبة وسنخبر بكلامك أهل أرضنا ليفرحوا . ثم ودعهم وانصرفوا بعد ما أعطى كل واحد عطية تليق به . وأقاموا بباريس بعد ذلك أياما ورجعوا لقسنطينة فرحين مسرورين إلا ابن الخروبي فإنه بقي بداره بالجزائر ، ولما دخلوا قسنطينة استراحوا يوما واحدا ، وقابلوا السيد الجنيرال بيدو الذى تركه ولد السلطان بعده حاكما وسألهم عما رأوا بفرانسة فأخبروه . وهذا الجنيرال لما خلف ولد السلطان سار في الناس بسيرته ، وأمضى قوانين ولد السلطان وأتبعها فازداد عند الناس أهل الوطن حبا ، ومع ذلك يعرف اللسان العربي ويحدث الناس بلسانه ويفهمون كلامهم ويفهم كلامهم من غير واسطة ترجمان .

وهذا الجنيرال هو الذى تقدم الكلام على فعله الخير مع الناس وقت دخول الفرانسيس البلد وهو إذ ذاك كماندة[135] . وهذا سبب كثرة الفرح به حين خلف ولد السلطان وقد كان وعدهم ألا يكون بعده إلا الذى يفعل الخير مع الناس فصدق في كلامه ووعده ، ولما تولى الحكم في رمضان سنة 1260 هـ[136] قام بقسنطينة نحو الستة أشهر وذهب إلى أرض أوراس ليدخل أهلها في طاعة الدولة . وهي أرض صعبة لكثرة الجبال بها وخشونة أهلها وعدم معرفتهم لسياسة الأحكام والحكام لأنهم لم يدخلوا من سابق الزمان تحت ولاية الترك ولا ينالون منهم شيئا إلا بغارة عليهم في بعض الأحيان ، فأقام عليهم مدة حتى أدخلهم في الطاعة بسياسته ودفعوا ما جعلوه عليهم من اللوازم والمطالب وتابوا من عصيانهم وفسادهم ، فعند ذلك جعل

---

135) أي حاكم من الكلمة الفرنسية : Le commandat .

136) الموافق لشهري سبتمبر واكتوبر 1844 م .

عليهم قائدا يسمى سي محمد ولد سيدى بلعباس صاحب منعة . ومنعة هذه كما سمها قلعة بأوراس ، وهذا القائد من بيت كبير أهل علم وصلاح وكل أهل تلك الناحية يحبونهم من قديم الزمان . ثم رجع إلى قسنطينة من بعد فراغه من حاجته مسرورا . وقابله أهل البلد وهنوه بالسلامة . ثم أقام بقسنطينة زمانا وسافر إلى باريس قاعدة ملك الدولة وأقام بها أربعة أشهر ورجع . ولما رجع إلى قسنطينة وجد رجلا من أصحاب الفساد قام بناحية سطيف بأرض عموشة يسمى مولاى محمد ودعى (كذا) الناس إلى حرب الفرنسيس ، ورغبهم في ذلك وقال لهم أنا صاحب الوقت نخرج الفرنسيس من هذه الأرض فأجابوه إلى ما طلبه منهم ، واجتمعت عليه الجموع من أخلاط الناس ، وصار يغير على رعية الدولة يأخذ أموالهم ويقتلهم ووقع بذلك هرج كبير ، ولما بلغ ذلك السيد الجنيرال بعد رجوعه من فرانصة أراد أن يخرج إليه بالعساكر الفرنصوية ثم دبر بعقله أن العسكر الفرانصوى إذا خرج إلى العدو يغلبه ولا يقدر على مقابلته ويهرب أهل الفساد بأنفسهم ويبقى ضعفاء الناس مثل الشيوخ والصبيان والنساء الذين لا دخل لهم في الفساد فتهلكهم العساكر وقت الحرب ، وفرار المفسدين ، فأدركته الشفقة فكتب الكتب إلى أعراش القبائل القائمين مع هذا المفسد وأخبرهم فيها بحاله من أوله إلى آخره وأنه يكذب عليهم مثل كذبه على من قبلكم وذكر لهم فيها أيضا أن الخير كله في العافية لأن بها يكون ميسرة العيش وأنذرهم أنهم إن لم ينتهوا عن فسادهم تخرج إليهم العساكر الفرانصوية ، فتهلكهم عن آخرهم ويكون وبال فسادهم عليهم . وفرق الكتب على الأعراش المتقدمة ، ولما بلغتهم وتأملها عقلاؤهم ظهر لهم أن كلام سعادة الجنرال جيدا وصوابا (كذا) فتفرق عليه أكثر الجمع بتدبير عقلائهم وبقي أمره في وهن حتى تفرق عليه الكل وفر بنفسه[137] وانظر إلى هذه السياسة العظيمة والتدبير الحسن كيف حقن دماء الناس وكف الفتنة بين العرب والعساكر وفعل بكلامه ما لم يفعله الإنسان بحسامه ، فشكر الناس فضله واستحسنوا فعله . ومن سياسته أيضا أنه لما رأى المسلمون (كذا) يحبون شريعتهم مثل غيرهم ويحبون دوامها بينهم ، وبلغه أن البعض من أصحاب الوضايف من كبار العرب لا يوصلون الناس إلى حقوقهم ، ويتعرضون لهم لأغراض لهم في ذلك

---

137) مولاى محمد حارب مع الثائر محمد بن عبد الله بومعزة في جبال الونشريس ، والظهرة ثم انتقل إلى بني يعلي غرب سطيف وأسس هناك زاوية واستقطب حوله أنصارا عديدين وشارك في عدة انتفاضات قبل أن يختفي . انظر دراستنا : المجهولون من زعماء المقاومة في الشرق الجزائرى . مجلة الأصالة عدد 54 / 55 (الجزائر — فيفرى ، مارس 1978) ص 31 - 58 .

خصوصا الفقراء والضعفاء ، وإذا طلبوا الشرع تعرضوا لهم ، ومنعوهم من ذلك وربما بعثوا إلى القاضي ويأمرونه أن لا يدخل نفسه في قضيتهم ، وهذه عادتهم في السابق مع الترك ، جعل كتبا ذكر فيها أن القضات (كذا) يلزمهم أن يحكموا بالحق ولا يخافون من شيء أصلا ولا يستحون من قائد ولا غيره ، وأمر كل قائد أن ينبذ حكم القاضي ولا يتعرض له وذكر ما يلزم القاضي وما يلزم القائد مع القاضي ، ومع رعيته ، وما يلزم الرعية معه ، وفرق ذلك على القضات ، والقياد ، وقرئت كتبه على عامة الناس وفهموها غاية الفهم ففرحوا بذلك فرحا شديدا حيث بطل التعرض للشريعة . وشكروا سعادة الجنيرال المدبر لهذه الأمور حتى حلمها الناس كلهم ، ومن ذلك الوقت وهن المتعرضون للشريعة .

وفي رجب عام 1262 اثنين وستين ومائتين وألف(138) رجع ولد السلطان حاكم قسنطينة المتقدم إلى قسنطينة بقصد الفرجة . ولما سمع بقدومه أعيان البلد والقياد وكبراء الأعراش اجتمع الكل بقسنطينة بقصد ملاقاته إلى سكيكدة وساروا إليها ومقدمهم السيد القبطان بوسنة متولي أمور العرب بقسنطينة وهم في غاية الفرح والسرور لأنهم لم ينسوا ما فعله معهم من الخير زمان ولايته ، والقبطان المذكور يسير بالناس ويرتبهم في السير ترتيبا حسنا بحيث جعل كل قائد يسير أمام قومه لا يفصلهم غيرهم عن بعضهم بعضا . فإذا فرغ قوم القائد الأول تقدم قائد آخر بقومه وهكذا . والكل سائرون بالطريق لا يعدل عنها أحد ويأتوا بحروش (كذا) وفي الليل ركب السيد الجنيرال بيدو في خاصته وسار إلى السكيكدة واجتمع فيها بولد السلطان ، ولما خرج ولد السلطان من السكيكدة وبلغ واد الصفصاف وجد القوم مرتبين ترتيبا حسنا بإشارة السيد القبطان المذكور ، وحين بلغهم ولد السلطان سلم عليهم وسلموا عليه وهنئوه بالسلامة . وكلما مر بفريق يضربون البارود وهكذا . وكان يوما مشهودا ، وشكر الناس سياسة القبطان المذكور وترتيبه لهم على هذه الهيئة بحيث لم يسقط منهم أحد على فرسه . ولم يصب أحد منهم بالبارود ولو كانوا على غير هذا الترتيب لوقع بهم ما ذكر حتى دخل قسنطينة يوم الاثنين الخامس من رجب من السنة المذكورة . وأقام بها يومين ، وفي اليوم الثاني دعى كبراء

138) الموافق لشهر جوان 1846 .

البلد من العلماء وغيرهم وقت الغذاء وأكلوا معه على مائدة واحدة بعد ترتيبهم في الجلوس عليها بحسب مراتبهم من القرب والمقابلة والبعد والمقابلة ، وتكلم معهم كلاما حسنا ووعدهم بكل خير ولما رجع إلى السكيكدة رجع معه وسايره كل من لقيه من الناس أولا على الترتيب المتقدم حتى بلغ ولد السلطان إلى السكيكدة فوجد نحو الثلاثة آلاف من الفرسان مرتبة يمينا وشمالا ، ترتيبا حسنا من باب قسنطينة أحد أبواب السكيكدة إلى ستورة آخر المرسي ونزل بالأوطيل[139] ليتغذا (كذا) ونزل معه كبراء الفرانسيس إلا السيد القبطان المتقدم فإنه اشتغل بترتيب القياد وقومهم من باب المرسى إلى ستورة كل قائد مع قومه حتى فرغ ولد السلطان من غذائه وأتى ليركب البابور وجد الناس مرتبين يمينا وشمالا وكل ما مر بفريق سلموا عليه وودعوه ودعوا له ولأبيه ولأهل الدولة . ولما فرغوا من السلام عليه ركب الفلوكة ذاهبا إلى البابور فأمر السيد القبطان الناس بضرب البارود فضربوا ولم يزالوا كذلك حتى صعد ولد السلطان البابور واستقر به فحينئذ رجع الناس حازنين على ولد السلطان .

ومما قيل في مدح السلطان المذكور حين قدومه في هذه المرة ، من الأشعار ما أنشده العالم الأجل السيد محمد بن القاضى والفقيه النزيه السيد محمد الشاذلي القاضي .

فمن إنشاد الأول قوله :

بشرى لنا بقوم هذا الوالي ... ولكل ذى فضل فضل من المعالي
بمجيئه سعد الزمان فسمه ... سعد الأنام خليفة المتعالى
يحمى الإمارة سيفه متجردا ... من غوره للحكم لا للمال
محبوب أهل العلم مثل حبه ... لهم فيا سعد رضى الحال
فرح الفؤاد به لكونه يكرم ... ذا الفضل بالتعظيم والإقبال

وله أيضا :

بسعادة دوك دومال تعرف ... تنل ما تبتغي ولا تتوقف
يعطى من ماله جزيلا يولف ... وفي الحكم بين الرعية منصف
له ميز براتج ومزيجه ... وبمن يستحق أن يستشرف

ومن إنشاد الثاني قوله :

قدم جميل لا يفارقه السعد ... ويصحبه التعظيم والعز والرشد

---

139) الموافق لشهر جوان 1846 .

طلعتم كبدر الأفق من بعد غيبة وأنتم بدور العز أنتم لنا القصد
لغيبتكم قد فارق الجفن نومه وصار قذى فيه كجفن به رمد
وكيف وفيكم للرعايا منافع بها تشكرون الدهر ليس لها جحد
صنعتم جميلا وقت تقليد أمرها بعد لكم إذ ناله الحرّ والعبد
ونام مريد الخير في ظل عدلكم ألا ليت شعرى هل يكون لكن عود
فأهلا بكم إذ زرتمونا ومرحبا فزورتكم فيها لنا الفخر والمجد
ولو طالت نال الناس فيها مناهم وأبكاهم إذ لم تطل عنكم البعد
خليفتكم ذو العدل يسلى همومهم ويقفوا طريق الخير والرشد من بعد
وأطلب منكم إن رجعتم لأهلكم وفزتم بجمع الشمل صاحبكم رشد
بلوغ سلامي للجميع ونجلكم وذكرى فيهم بالجميل هو القصد
وقائلها يرجو المودة منكم وفي مدحكم حكم بالشعر كان هو الود

انتهت القصيدة بحمد الله تعالى .

خاتمة الكتاب رزقنا الله حسن الخاتمة وحسن الصواب :

اعلم أيه (كذا) الناظر في هذا الكتاب المشتمل على ولات (كذا) الترك ، وبعض سيرهم مع رعيتهم وأحكامهم ، وعلى الكلام على بعض ولات (كذا) الفرانسيس المالكين بعدهم . وعلى سيرهم مع الرعية . أنك إذا تأملت ذلك حق التأمل وجدت بين الدولتين في الأحكام والسياسة ، فرقا كبيرا ، وذلك أن الأتراك في بدء أمرهم حتى لم يتمكنوا من الوطن كل التمكن عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحدا . وحين تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق ويعدون ولا يوفون ويؤمنون ، ويغدرون كما يعلم ذلك مما تقدم . ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد في ولاية حاج أحمد باى بن محمد الشريف الذى أخذت قسنطينة زمان ولايته فإنه بلغ في الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل الغاية . وأما غدره وعدم الوفاء بوعده فأمر معلوم عند كل الناس حتى صار لا يأمنه أحد ولو حلف له الأيمان المغلظة كما يعلم فعله كله مما تقدم .

ومن جملة غدره والرجوع عن الوفاء بوعده أنه لما أخذ الفرانسيس الجزائر ورجع هو إلى قسنطينة وخاف من قيام الناس عليه وعزله . جمع العلماء وأرباب دولته وكبراء البلد وأعيانهم وقال لهم ما تقولون في أمرين (كذا) فقالوا له إذا أردت تبقى حاكما ونبايعك أن تقبل شروطنا وهي أن تزيل الظلم على الرعية والمغارم السابقة ولا تأخذ منهم الزكاة والعشور لأن الظلم السابق كان سببه الجزائر وهى الآن أخذت . فأجابهم إلى ذلك وقبل شروطهم وكتبوا في ذلك كتابا ووضعوا فيه خواتيمهم (كذا) شاهدة عليهم . فأول الخاتم خاتم الحاكم المذكور وبعد خاتم الشيخ مصطفى بن باش تارزى قاضي الحنفية . وبعد خاتم الشيخ العباسي قاضي المالكية وبعد خاتم السيد محمد العربي بن عيسى الناظر ، ويليه خاتم الخليفة السيد مصطفى ، ويليه خاتم بن البجاوى قايد الدار ، ويليه خاتم الشيخ العربي بن أحمد بن الحاج ويليه خاتم محمد بن العربي قايد الزمالة ، كما يعلم ذلك من يقف عليه . وبقي على ذلك مدة قليلة ثم شرع في نقض الشروط حتى أبطلها كلها وتمرد في الأحكام حتى أنه لما تكلم معه في ذلك بعض العلماء القاعدين معه للشروط المتقدمة ونهاه عن فعله هم بقتله وبقي على ظلمه وضاق الأمر بالناس حتى تمنوا الناس ولاية الفرانسيس وكان الأمر كذلك .

وأما ولات (كذا) الفرانسيس فإن عدم الظلم والمساوات (كذا) بين الناس في الأحكام شاهدا يوم دخول البلد فإنهم دخلوه عنوة بعد موت كثير في رجالهم ، وحين طلب منهم أهل البلد الأمان أمنوهم على أنفسهم وأرزاقهم كأنهم لم يكن بينهم فتنة . وبعد أمان أهل البلد أمنوا أهل البادية ووعدوهم بإزالة المظالم عليهم فنفروا أول مرة وظنوا أنهم يغدرون مثل الترك ولما تحققوا صحة أمانهم ووفاء عهدهم دخلوا تحت الطاعة وأزالوا عنهم المظالم وكثرة المغارم وسووا بين الناس في المطالب كلها ، وعمرت البلاد بالفلاحة أكثر من الزمان والسابق وخصوصا ولد السلطان فإنه فعل الخير مع الناس أكثر من غيره وأزال عنهم الامكاس (كذا) وجعل قوانين حسنة لمديرها بكمال العقل . والخليفة بعده سعادة الجنيرال بيدوا فإنه وقف مع الحق واقتضى طريق ولد السلطان في السياسة والنظر في مصالح الناس حتى شكره الناس ، ووعدهم بكل خير مثل ولد السلطان ونحن نرجعوا الوفاء بذلك إن شاء الله كما يعلم كل ذلك مما تقدم .

وهذا فرق ظاهر بين الدولتين ، فإن ظلم الترك ليس مخصوصا بمحل بل هو عام في أرضهم الأصلية وفي غيرها ، فما تحت أيديهم كما يعلم ذلك من سافر إليهم وشاهد أحكامهم بخلاف الفرانسيس فإن أرضه الأصلية أهلها في غاية العافية بسبب العدل بينهم ، وعدم الظلم فسار هذا إلى كل محل تحت أيديهم ومن لم يعلم ذلك يسئل العارفين[140] .

وقد تم ترتيب هذا الكتاب المسمى بتاريخ قسنطينة المحروصة ، وهو ثاني كتاب رتب وطبع بقسنطينة على يد مديره ومرتبه على هذا الترتيب ومحسنه الفاضل الأجل محب الخير وأهله ومن شهد الناس بفضله وعدله السيد القبطان بوسنه متولي أمور العرب بقسنطينة ويدلك على كمال عقله ترتيب هذا الكتاب فإنه ذكر أولا دولة الترك ، وسيرتهم وأتبعها بدولة الفرانسيس وسيرتهم ليتبين للناظر الحسن من القبيح والصحيح من السقيم فيختار لنفسه ما يحلو ، انتهى بحمد الله تعالى .

□□□

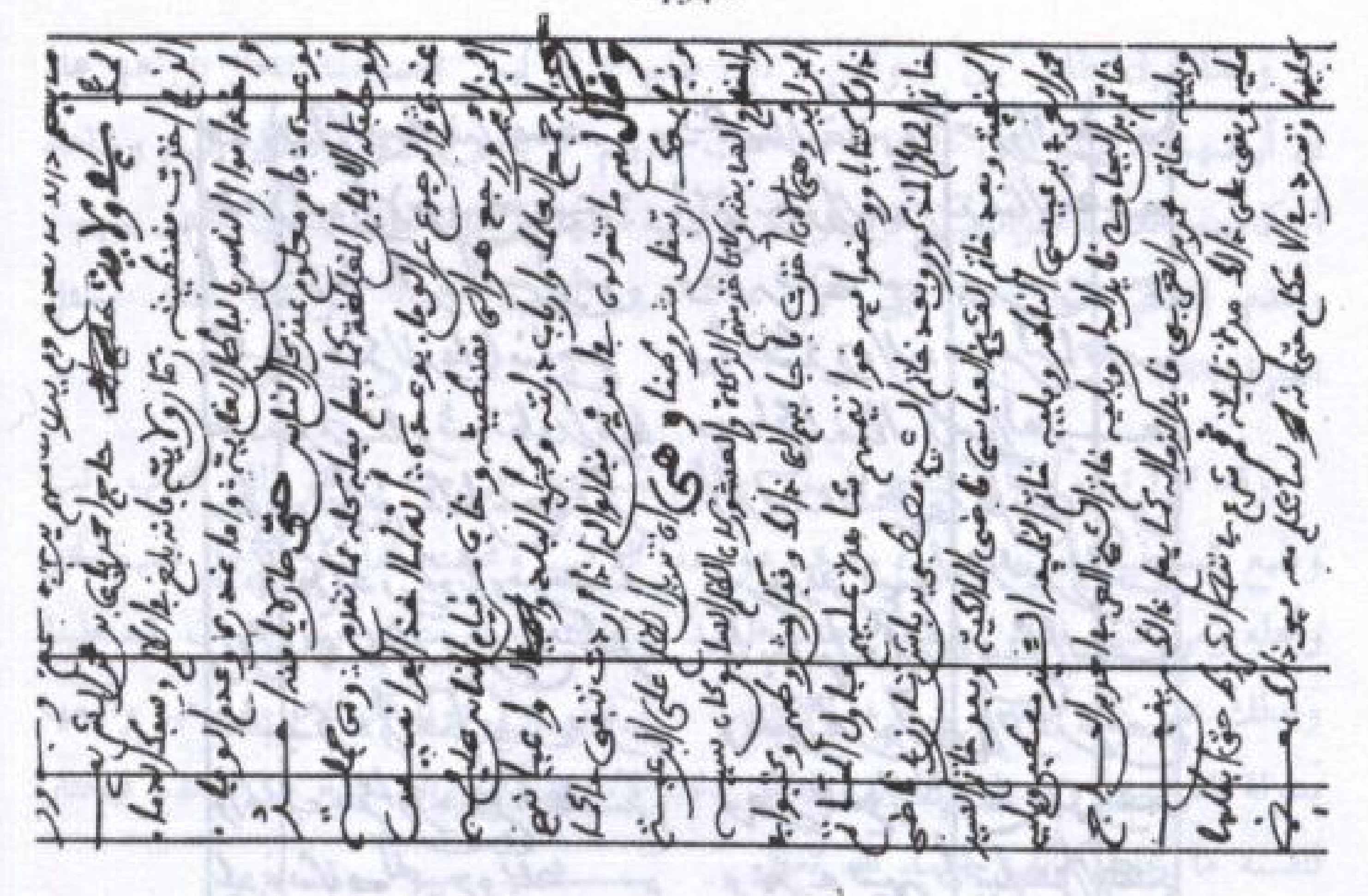
---

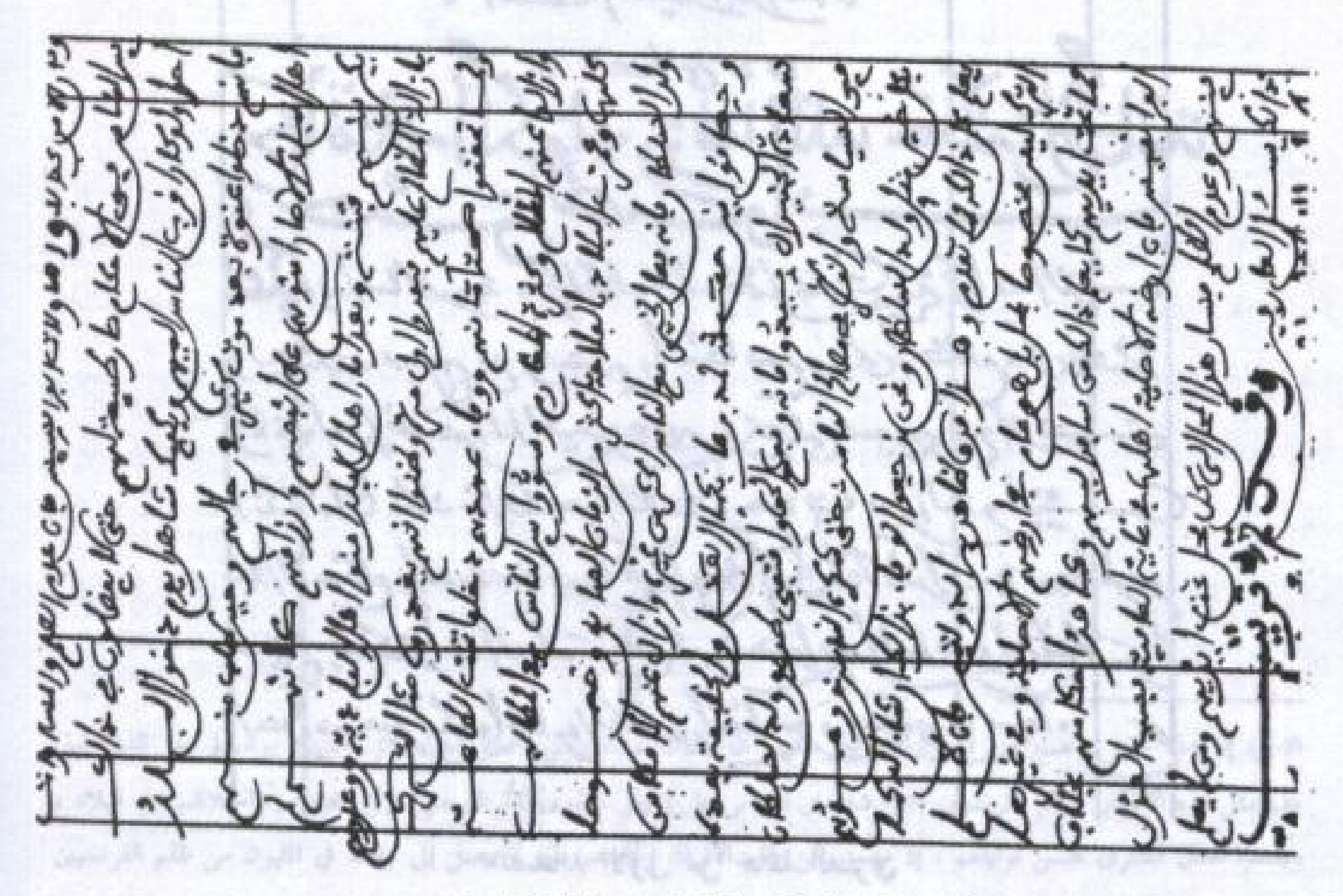
140) إن هذا تحامل واضح من العنترى ، وليس غريبا أن يكون سيده وولي نعمته الضابط (بوسنّه) بواسولي هو الذى أملى عليه مثل هذه الأفكار . لأن الفرنسيين كانوا شديدى الحرص على إظهار مساوى الأتراك حتى يبرروا غزوهم واحتلالهم لهذه البلاد ، ويقنعوا أمثال العنترى بحسن نواياهم ، إذ مهما يكن ظلم الأتراك وتجبرهم فإنه لا يصل إلى واحد في المليون من ظلم الفرنسيين وجبروتهم . والتاريخ شاهد على ذلك .

انتهت القصيدة بحمد الله تعالى

خاتمة الكتاب رزقنا الله حسن الخاتمة وحسن الصواب

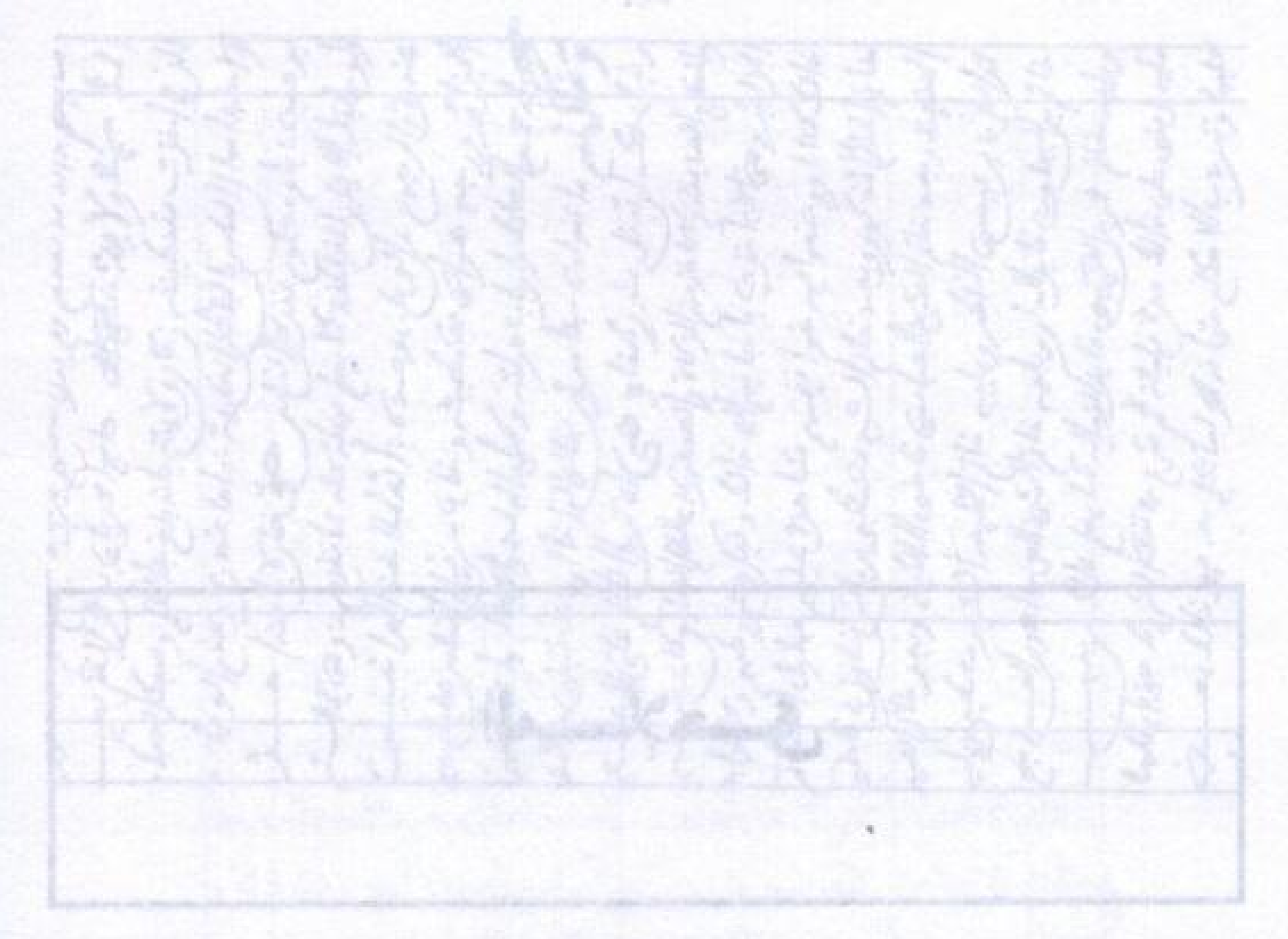
الصفحة الأولى من خاتمة العنتري
بخط ناسخه المكي بن علي بن الفقون





الصفحتان الثانية والثالثة من خاتمة كتاب العنتري

الملاحق





الصفحتان الثانية والثالثة من حافة كتاب العنبري

□ الملحق الأول :

نص العقد بين الحاج أحمد باى وأعيان قسنطينة :

هذا ظهير كريم وخطاب واضح أمر مبارك عميم ، وإعلام صالح عظيم ، وأمر مبارك جسيم فيه مصلحة تامة ، ومسرة شاملة عامة ، بحول الله وقوته وعزته ، وإرادته ، قد صدر ذلك وانبرم عندما هنالك من جانب أمير البلد المعظم الأكرم الهمام الأفخم ذى الرأى السديد والتدبير الصائب السيد الحاج أحمد باى حفظه الله بسرّ السُّور والآى ، والعلم الجليل الخطيب الأصيل أبى عبد الله السيد محمد شيخ البلد ، والعالم العلامة الفهامة السيد مصطفى مفتى السادات الحنفية ، والعالم العلامة النحرير السيد أحمد العباسي قاضى السادات المالكية والعالم الأمثل السيد مصطفى مفتى السادات الحنفية ، والعالم الفقيه السيد عمار مفتي السادات المالكية ، والعلامة الأكمل السيد محمد العربي ناظر الأوقاف ، والمعظم الأبجل السيد مصطفي الخليفة ، والمعظم الأجل السيد الحاج محمد قائد دار الإمارة السعيد ، والمعظم الأقبل السيد محمد بن الحاج شيخ العرب ، والوجيه المبّجل السيد محمد بن الحملاوى أغة الدايرة ، والزكي المكرم سي محمد بن العربي قائد الزمالة ، وأعيان البلد والكبراء والأمناء وكافة أهل الحرف من العرب ، والأجناد سدد الله الجميع ، ووفق الكل إلى صالح العمل وحسن الصنيع آمين .

ليعلم الواقف على هذا المكتوب الأعظم والمنشور المبارك الأفخم الجالب للخير والسرور المضاعف بحول الله وقوته للبركة ، والحُبور ، وبه تكون إن شاء الله عافية البلاد ، وهناء العباد ، وعمارة الوطن ، وذهاب البؤس والمحن ، وهو أن الأمير المتفق على إمارته ، والنظر في كافة المصالح وعامة المطالب والمآرب ، هو السيد الحاج أحمد باى المذكور لا خلاف عند أحد في ذلك ، وأنه حرر الرعية من كافة المظالم السابقة لا يطالبون بمغرم ولا محتمة ولا حلاس ولا جابذة[1] ولا غير ذلك من التكاليف الفارطة ، ولا يأخذ منهم شيئا سوى ، الزكاة والعشور بوجه ما حكمه قانون الشرع العزيز للاستعانة على جهاد الكفرة دمّرهم الله تعالى .

---

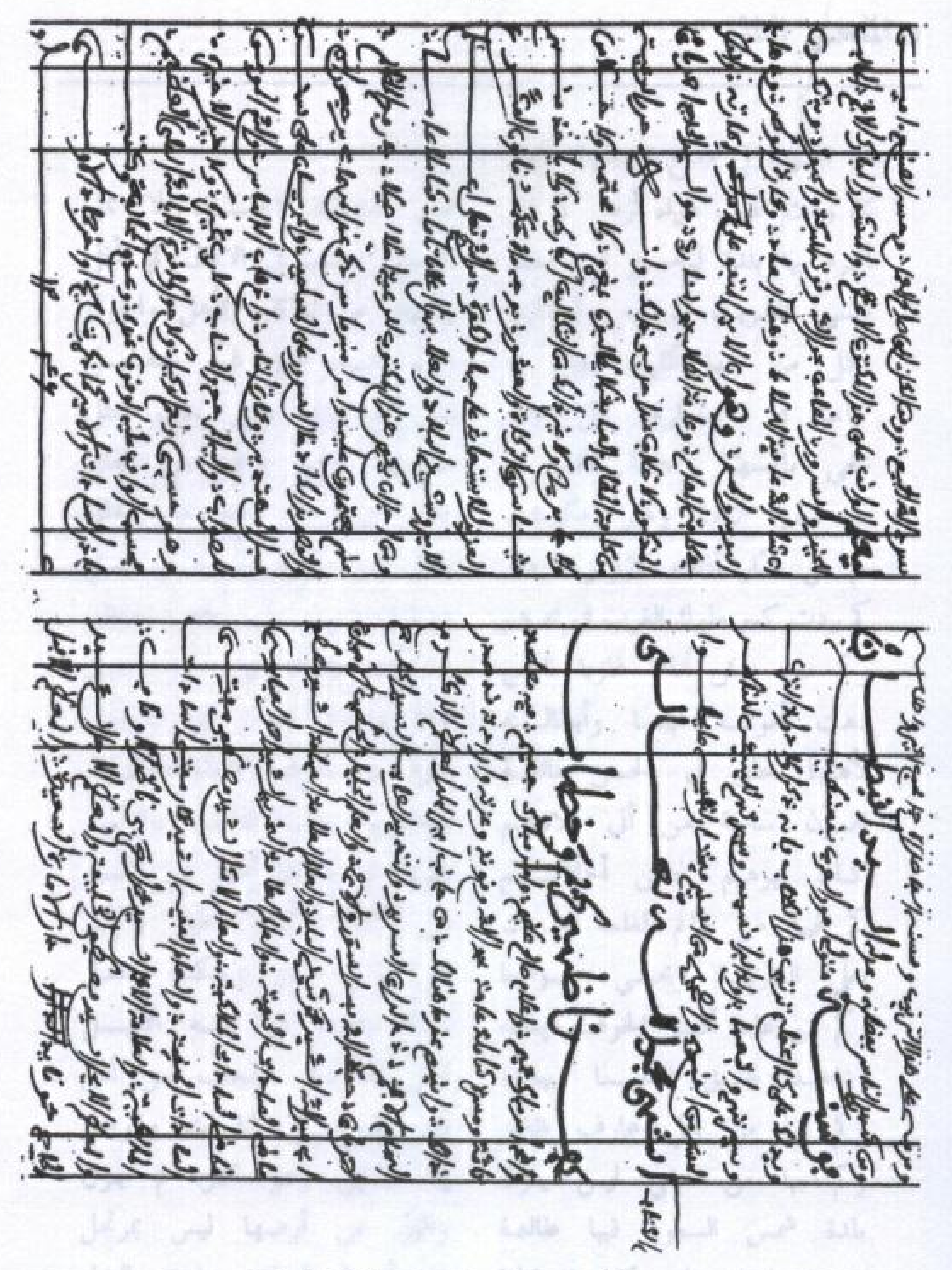
1) يعني بالحلاس تجهيزات الخيول والأحصنة ، وبالجابذة الزوج من الأبقار أو الثيران التي تستغل في حرث الأراضي فتجد المحرات لحرث الأراضي وقلب تربتها .

أعلم الأمير وشيخ البلاد والعلماء ، فهذا إعلاماً تاماً شاملاً عاماً ، ومن أجل أن يكون هذا المكتوب للرعية أصلاً فى رفع المظالم عنهم يعتمدون عليه ، وأمرا منبرما ممن ذكر ، عند المهمات يرجعون إليهم والقصد بذلك إدخال السرور على المسلمين والجريان على سنن سبل المهتدين وعمارة الناس ، وإذهاب الالباس ، والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب ، لا ربّ غيره ولا خير إلاّ خيره ، وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فحسب الواقف عليه الوقوف عنده وعدم المخالفة .

وكتب بإذن السادات والأمير كما ذكر بتاريخ أواخر جمادى الأولى عام 1246[2] هـ .

•••

2) الموافق لشهر نوفمبر 1830 م .



صورة الظهير بين الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة



▫ الملحق الثاني :

هذه قصيدة في مدح قسنطينة وأهلها :

إن رمت طيب هواء أرض لم يحل   فعن قسنطينة الحسناء لا تمل
أكرم بها بلدة للحسن قد جمعت   فشمس حسنها في الآفاق لم تأفل
تنسي الغريب دياره وأوطانه   وتلهيه عن تذكار الأهل والخول
فكل من أمها ألقى عصاه بها   وودّ أنه منها غير منتقل
كأنها في استقرارها على جبل   ذو تاج فوق سرير ملك ممتثل
تنفي بأنسها وحشة المقيم بها   نسيمها مرهم يبرى من العلل
كم فقير أتاها وهو مكتئب   فصار يزمل في جمع من الحلل
كم من جبّار أذاقته كؤوس الردى   فكل من رامها بسوء لم يصل
كم ردت كبير ملوك الغرب في نحرهم   وسقت تونس من مناهل الحنظل
وكم من جيش أتاها غازيا فانثنى   من بعد شرته في غاية الخجل
دهت أمواله نهبا وأبطاله   قتلا ونحسه عند غير منعزل
لأهلها خلق في الحسن فائقة   نالوا بها شرف الثناء المكتمل
يحمون ساحة من أتي بلادهم   ويغفرون عظيم الذنب والزلل
كأن نهرهم لحسن أخلاقهم   يجرى لذا ماؤها أحلى من العسل
كم فيها من عالم لعلمه ضربت   من الأفاق أكباد الخيل والإبل
يعلي الشريعة ويحمي جوانبها   من قول مختلق وحكم مفتعل
وكم من عابد أضنى الخوف مهجته   تراه مجتهدا في ليله الأليل
وزاهد طلق الدنيا ببهجتها   ليس له بدار الذهاب من أمل
وكم بها من ولي عارف ظاهر   إليه المفزع في الشرات والوجل
وكم بها من خفي ليس يعرفه   إلا القليل وهو كنز لم يزل
بلدة شمس السعود فيها طالعة   والعزّ عن أرضها ليس بمرتحل
دع اعتراضك يامن كان ذا فطنة   فإن أحوال العطف جاءت بالبدل

•••

□ الملحق الثالث :

ومما قاله بعض المداحين غير الطلباء[4] عن بلد قسنطينة حين قدموا التوانسة إليه بقصد دخولها :

بسم الكريم نبدا قولي باه يزين … انرتب الغنا واندبد الانشاد ياريم
على ما طرا على قسنطينة في ذا السنين … قصة متورخة وخبرها يعاد ياريم
الشر والفتن والأسعار العالـيين … في كل عام تظهر فتنة وانكاد
حتى التوانسة راهم جاونا حاركين … قومان والعساكر في مثل جراد ياريم
خرج محلة حمودة ذاك اللعين … وابعث خليفة هاذوك الأزفات
علي وبن عباد وهاذوك الضايعين … سليمان كاهية واجوانب تزداد
حلف لسيدهم حمودة باكبر يمين … لن ندخلوا المدينة من غير طراد ياريم
راه نجوعهم ودوايرهم خايرين … بالمال نجلبوهم من غير طـراد
ويعود لك رعية من غير مراد … ما صار في البلاد الدهما باثبات
مع التوانسة يا معتاه نهار ياريم … خـرج محلـة حمودة واثبـات
يده من البلاد على ثلاثة دوار ياريم … فزع جميع العرب أهل الخيمات
قومان راكبه شيء لا يحصار (كذا) ياريم … والكور والمدافع فوق العجـلات
ويسير من وراهم عسكر جرار ياريم … وابعث خليفته هاذوك الازفات
علي وبن عباد والكلب الغدار ياريم … رحلوا وجاوا ، بانواجعهم ضفات
ووديان حامل كالبحر الزخـار … آخر يقول نأخذ منها خودات
وآخر يقول نسعى منها الأبكار … وأما رجالهم ما فيهم شفعـات
ونهدموا المدينة وتعود قبـار … المال والسعايـة لينا يائبـات
والروح إلى حمودة في خنـار … هذا حسابهم ما حسبوه الازفات
وانساو حكم رب الحي القهار … هذا حسابهم ما حسب قوم الطحين

4) يعني بهم غير المثقفين لأن شعره من نوع الشعبي الملحون الذي لا يخضع لقواعد اللغة .

وانساو حكم رب الحي الجواد — مدّور الفلك بالقدرة في كل حين
أمرُ ينجدُ في رمشت (كذا) الاثماد — لا حبّر عقوبة لا هاب صالحين
أعمات ابصارهم وانخطاو المعتاد — حتى أكلاو زنده بضرب البلاد
ما صار في البلاد الدهما باثبات — مع التوانسة يامعتاه نهاريا ريم
ما صار في البلاد الدهما ياناس — مع التوانسة جاونا جند أكثير
حطوا على البلاد ونصب مرجاص — انحصرت المدينة في يوم عسير
جرح عساكر للزدمة دعاس — على كل باب تسمع ضجا واهدير
وانتصبت المشالي فوم وتراس — أهل البلاد فزع شايب وصغير
احما الطراد بكور ومدافع وارصاص — نيران شاعلة ياويله يوم كبير
قعدت عساكر موتي تعفاس — على كل باب وارجع كاسر واحقير
علي وابن عبادو قطع الاياس — سليمان كاهية صاد ضيم أكثير
ركب امدافع وجنود بو الأخراص — اللي يرمي تسمع ليه ازهير
البونبة تشرشف فيها مقباضي — سبعين فرد ليلة ارماها الخنزير
شهر ويوم لا من يهواه انعاس — والخلايق صابر لا من يدبر تدبير
شهر ونهار كامل الناس محيرين — نسوان محيرة وكذلك ـــ الأولاد
انهدمت الجوامع وامصار رايبين — حتى الصلاة قطعوها على العباد
لا يفعل افعايلهم حتى الكافرين — كفار اخوارج انصارت حلق الواد
لو كان ما الطفشي رب والصالحين — نغد على بلادهم هيا الاسياد
انحرقت المدينة ولات ارماد ياوالدى — ياسامع الغنا وابنى على الساس
اسمع لي ما اطرا واسمع كيف يصير — لمن طغى علينا عرّت الأجناس
أهل البلاد بعث حكم الأمير — اكتب بريه وداها رقاس
سيار بالعزم واقصد بلد الجير — وصلت لسيدى وقراها ياناس
آمر على العساكر والقوم اتسير — في البر والبحر جابوهم رياس
أعلى بلاد عنابة جيش غزير — عرب الفراقيط شاريين الكاس
أهل السيوف تلعج من هند ذكير — قياد راكبين أعياد أن توساس
أبطال شعتهم في الراى والتدبير — ارحل وجاى بهم مالو برباس

تلاقاه سيدى وأفرح به كثير بعث رسول إلينا عاقب الأدماس
بريـة البشارة وأخبـار الخير جاو المشايخ يدور على الاعسس
واقراوا على الناس بصوت شهير فرحت رجالنا وزالت الاوكاس
بالفرح والهنا من بعد التغيير شهرت رجالنا وانزاحت الأوكاس
بالفرح والهنا من بعد التغيير شهرت رجالنا بالكل باتت زاهيين
بقدوم العساكر جات من الأبعاد رحلوا الصباح جملة وتلاقوا العسكرين
انجرت الصناجق للفتـن اضداد قالوا التوانسة نبداوهم راحلين
من قبل لا يحط نـال المراد لمن ألقى وهذا العسكر متغششين
بارود من يديهم يشعل وقاد لن صارت الطواغن بالدم مخصبين
خلاوهم بطاين على جرع الواد يا والد أهل البلاد خرج بالكل محزمين
ركح يفتنهم على غـار الحداد أولاد طبجية فى الرمي معلمين
بالبونيـة والكور ومدفع غراد هاذو الحنانشة والقومان مخلطين
هاذوا الصبايحية من فوق اعياد حملوا على الخوارج ردوهم كاسرين
رجعوا لسيدهم في ذل وانكـاد ركبوا خيولهم في الليل غدا وهاربين
وعرضوا لهم قبايل عسكر مداد خلاو محال باعساكرهم سايبين
نسوان هاملا يبكوا على الأولاد خلا مدافع في المنصورة مطيشين
في الأرض بـارك مـاعنهم نشاد والباى هاد بالقوم وراهم غايرين
باصناجق ترفرف طبول ارعـاد الحق الجوع بالليـل مهجـمين
واسعـاو نجوع مايلها اعـداد ما راح اخلاف اسباق العالفين
اشتات ووزايع على كل بلاد ياريم وارجع بينا في شدة سيدى احسين
ضاقوا الركاب النقرى براني الأزناد الله ينصر من عين الحاسدين
وينضر عـليهم رب العبـاد قال الأديب عمر اسمي حاذق فطين
فى مدينة الهوى ظاهر ولد بلاد شاعر أديب قولي يعجب العارفين
انظم الغنـا وانتورخ الانشاد في عام ألف ومائتين وعشرين[5]
زيد ليهم يكمل الاعداد تو السلام لأهـل العبـاد يـاريم

5) الموافق لعامي 1805 — 1806 م . وهي الحرب التى واجهها حسين باي بن صالح باي كاهر .

كملت بحمد الله وكمل جميع الكتاب بحمد رب الأرباب اللهم اختم لنا بالحسنى والزيادة وحسن الصواب ، واهزم لنا كل الأعادى وارميهم منك بشهاب ، على يد كاتبه المستعجل في نسخه عبده المكي ابن علي بن الفكون غفر الله ذنوبه وستر عيوبه . وبلغ بفضله مرغوبه وأسرع بعونه مطلوبه ولكافة المسلمين آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . ا هـ

•••

□ الملحق الرابع :

الحمد لله وحده لا رب غيره[6] .

ومما وجد في بعض عقود الأملاك والظهراوات ما هو صحيحا وتحقيقا (كذا) الكتاب المشار إليه من دار سيدى الشيخ بن الفكون ، ومن دار بن كجك علي ، وعلى يد سي الحاج أحمد ، وعلى يد السيد الحاج أحمد بن المبارك المفتي ، وعلى يد أولاد سيدى معمر ، وخلاف ذلك غير ما هو سطرناه من تقديم وتأخير بايات قسنطينة حسبما نذكرهم مجردين . وبالله أستعين .

وأما دخول الأتراك في قسنطينة عام 1052 هـ فأول من تولى في دولتهم :

فرحات باي 1052 هـ .

محمد باي بن فرحات 1063 هـ .

رجم باي 1077 هـ .

خير الدين باي 1083 هـ .

دالي باي 1087 هـ .

باش أغا باي 1090 هـ .

شعبان باي 1099 هـ .

علي خُوجة باي 1104 هـ .

أحمد باي بن فرحات 1112 هـ .

إبراهيم باي العلج1114 هـ .

حمودة باي 1119 هـ .

علي باي بن حمودة 1120 هـ .

حسين شاوش 1121 هـ .

عبد الرحمن باي بن فرحات 1122 هـ .

حسين دنفزلي باي 1122 هـ

علي بن صالح باي 1122 هـ .

---

6) يبدو أن هذه القائمة وما جاء معها من الكلام قبلها وبعدها ليس من كلام العنترى وإنما من ناسخ الكتاب المكى بن عل بن الفكون كما يتضح ذلك فى آخر الصفحة الثالثة قبل بداية كلام صالح العنترى وهذا ما جعلنا نؤخرها إلى هنا ونضعها ضمن الملاحق .

قليان حسين بوكمية 1125 هـ .

حسين باى بوحنك المتسمى حسن باشا 1170 هـ .

صالح باى 1185 هـ .

براهيم بوصبع 1206 هـ .

صالح باى ثانيا 1206 هـ .

حسين ولد حسن باشا بوحنك باى 1207 هـ .

مصطفى باى الوزناجي 1209 هـ .

حاج مصطفى باى انفلير 1212 هـ .

عثمان باى 1218 هـ .

عبد الله باى 1219 هـ .

حسين باى ولد صالح باى 1221 هـ .

علي باى بن يوسف 1223 هـ .

أحمد شاوش القبايلي 1223 هـ .

أحمد باى طبال 1223 هـ .

محمد باى نعمان 1229 هـ .

محمد باى جاقر 1229 هـ .

قارة مصطفى باى 1233 هـ .

أحمد باى المملوك 1233 هـ .

محمد باى الميلي 1233 هـ .

براهيم بن الغربي 1234 هـ .

أحمد باى المملوك أيضا 1235 هـ .

براهيم باى الفريتلي 1237 هـ .

محمد باى منامانى 1240 هـ .

حاج أحمد باى بن محمد الشريف الذى آخر البايات 1241 هـ .

وأما حكام الفرانسيس بعد ما كان دخولهم بالعساكر في قسنطينة 13 في أكتوبر سنة

1837 ، فأول من تولي منهم سعادة الجنرال نيغريي[7] في أواسط دى صامبر 1837 م ، وبعده سعادة الجنرال بارون ، دوغالبوه[8] وتولى يوم 28 ف جويلية 1838 م . وبعده سعادة الجنرال نيغربى أيضا وتولى يوم 24 فيفرى 1841 . وبعده سعادة الجنرال بوذراع[9] يوم 25 دى جنبر 1842 م . وفي ولايته تولي أمر العرب سعادة السيد القبطان بوسنّه[10] في غشت 1843 م . وبعده تولي الحكم السيد ولد السلطان سعادة السيد دوك دومال[11] ودخل قسنطينة يوم 4 في دى جنبر 1843 م . وبعده سعادة الجنرال بيدو[12] .

وكان خروج السيد ولد السلطان من قسنطينة يوم 3 في أكتوبر 1844 م وأما الجنرال بيدو فإنه تأخر أياما من بعد ولد السلطان وبقا (كذا) الحكم في ذلك الأيام بنظر سعادة الجنرال راندون[13] حاكم عنابة المعروف بالعدل وبكمال العقل إلى أن قدم الجنرال بيدو . ثم رجع سعادة السيد ولد السلطان سعادة السيد دوك دومال إلى قسنطينة مرة ثانية على سبيل الضيافة في 29 يونيه . ولما رجع كان ركوبه 1846 فى شقف النار يوم 3 في يوليه فتعلقت به قلوبنا والسلام .

قال ناسخ هذا الكتاب وهو المكي بن علي بن الفكون أردت أن نضم هنا نصيب كلام لأجدادنا منهم سيدى عبد الكريم الفكون على ، ما وضعه في أهل قسنطينة وشهد عليهم بالحسد والبغض والبطالة وعدم الوفاء بالعهد والخيانة الملازمة لهم ولمن قوى جاهه يظهر حقه وغير ذلك وجعل عليهم قصيدة بليغة فتركت ذلك لعدم الأوراق . قال رحمه الله وهو القول الذى قلته بتقوية الحجج على سبيل واد النصيحة لأن الّدين نصيحة عسى يكفون على ما هم عليه والسلام .

أصلح الله الجميع ووقاهم من سوء الصنيع .

---

7) Negrier.

8) Le baron de galbois.

9) يعني به بارا قوى ديل : Baraguay d'hilliers هكذا يلقبه الناس آنذاك .

10) Le capitaine boissennet.

11) Le duc d'aumale.

12) Bedau.

13) Randon .

[illegible] 1206 هـ .

الحسين ولد حسن بوحنك باي 1207 هـ .

مصطفى باي الوزناجي 1209 هـ .

الحاج مصطفى إنجليز باي 1213 هـ .

عصمان باي 1218 هـ .

عبد الله باي 1219 هـ .

حسين باي ولد صالح باي 1221 هـ .

علي باي بن يوسف 1223 هـ .

أحمد شاوش القبايلي 1223 هـ .

أحمد باي طوبال 1223 هـ .

محمد باي نعمان 1229 هـ .

محمد تشاكر 1229 هـ .

قارة مصطفى باي 1233 هـ .

أحمد باي المملوك 1233 هـ .

محمد باي الميلي 1233 هـ .

براهيم بن الغربي 1234 هـ .

أحمد باي المملوك أيضا 1235 هـ .

إبراهيم باي القريتلي 1237 هـ .

محمد باي مناماني 1240 هـ .

الحاج أحمد باي بن محمد الشريف الذي آخر البايات 1241 هـ .

◘ الملحق الخامس :

معارك الحاج أحمد في جبال أولاد سلطان

من خلال ثلاث وثائق جزائرية

بقلم : د. يحيى بو عزيز

استمرت مقاومة الحاج أحمد باى للاستعمار الفرنسي في بايليك الشرق ، ثمانية عشر عاما كاملة إلا شهرا واحدا . ومع ذلك لم يقدر لها حتى اليوم أن تدرس ، كما درست مقاومة نظيره في الغرب الأمير عبد القادر ، رغم صلابة مواقفه ، وبعد نظره وذكائه ، وصبر أيوب الذى أوتيه إلى آخر لحظة من وجوده بالجبال .

فقد كان يدرك تمام الإدراك تفوق الفرنسيين عليه عسكريا ، ولذلك تجنب مواجهتهم في معارك عسكرية ضخمة ، وجها لوجه ما عدا معركتي قسنطينة عامي 1836 و 1837 التي مثل فيهما دور الدفاع ، وليس الهجوم ، وحاول أن يصل معهم إلى حل سلمي مشرف عن طريق المفاوضات التي تواصلت بينه وبينهم منذ حملة الاحتلال عام 1830 إلى ما بعد سقوط قسنطينة عام 1837 . ولكن اتضح أن الفرنسيين غير مخلصين في مفاوضاتهم له ، وأنهم يفوتون عليه الوقت والغرض ليتمكنوا من تحطيمه وهو ما فعلوه وصنعوه في النهاية .

وكان يعلق آمالا كبارا على مساعدة الدولة العثمانية له عسكريا ، وتأييده سياسيا وبقي على هذه الآمال حتى بعد سقوط مدينة قسنطينة وضياعها منه ولم يستطع أن يدرك أن هذه الدولة غارقة إلى الأذقان في مشاكل عسكرية وسياسية بشرق أوربا ، وغرب آسيا . من أبرزها : الأزمة اليونانية بمنطقة البلقان ، والأزمة المصرية التي أثارها ضدها واليها محمد علي ، والذى اضطرها في النهاية أن تستنجد بروسيا ألدّ أعدائها على الإطلاق منذ نشأتها إلى نهايتها بعد الحرب العالمية الأولى . وعلى هذا الأساس والاعتبار اكتفت الدولة العثمانية بتقديم الوعود تلو الوعود له وحثته على عدم إبرام أى اتفاق مع الفرنسيين إلاّ بعد العودة إليها والحصول على موافقتها .

ويمكن أن نحصى المشاكل التى حالت دون نجاحه في الأمور التالي :

أولاً : المعارضة التى أثارها ضده كل من باى التيطرى مصطفى بومزراق ، والباي السابق لقسنطينة ، إبراهيم الكريتلي ، ومساعدتهما الفرنسيين على احتلال مدينة عنابة ، وذلك لأغراض وقضايا شخصية وليس وطنية ، ولعب فيها يوسف المملوك أدوارا قذرة معهما ، وبعدهما .

ثانياً : معارضة شيخ العرب السابق فرحات بن سعيد وتعاونه مع الفرنسيين أولاً ، والأمير عبد القادر ثانيا ضده وذلك لأغراض شخصية كذلك ، بعيدا عن القضايا الوطنية .

ثالثاً : المتاعب الكثيرة والمتنوعة التي أثارها ضده خاله وصهره بوعزيز بن قانة . والتي ذكر الحاج أحمد نفسه ، وأكد في مذكراته ، أنها أكبر مصائبه التي أدت به إلى النهاية المؤلمة .

رابعاً : عدم تعاونه مع نظيره في الغرب ، الأمير عبد القادر الذى صادف نجاحات كبيرة ، ويبدو أن الغيرة والكبرياء لعبا دورهما في العداء ، والجفاء ، الذى ظهر ، ونما ، وكبر ، بينهما ، على مر الشهور والأعوام . ولكل منهما وجهة نظره في هذا الميدان ، ولكننا نحن كباحثين ، ومحققين ، نلومهما ونحملهما وزر النتيجة المؤلمة التي انتهيا إليها معا ، إذ لو قدر لهما أن يتعاونا لانتهت قضية الاستعمار الفرنسي لبلادنا ، وصفيت في عقد الثلاثينات أو الأربعينات على الأكثر من القرن الماضى التاسع عشر .

خامساً : معارضة بايات تونس له واتفاقهم منذ البداية مع الفرنسيين على تعيين أميرين تونسيين لحكم بايليك قسنطينة (مصطفى باشا شقيق الباي) ، وبايليك وهران (خير الدين باشا) . ونفذت العملية على وهران بحيث بقي خير الدين باشا بوهران ستة أشهر كاملة معتصما بقصبتها وسط مشاكل وصعوبات كبيرة اقتصادية وسياسية وعسكرية ، وهذا يكشف أطماع بايات تونس في شرق الجزائر على الأقل[1] .

ولم يكتف بايات تونس بهذا فقاموا بحجز المساعدات العسكرية التي أرسلت إليه بحرا إلى تونس ، وأرغموا الجنود الأتراك على العودة من حيث أتوا عام 1836 .

---

1) عبد الجليل التميمي : معاصرة فرض الحماية التونسية على وهران عام 1831 . المجلة التاريخية المغربية عدد 5 (تونس — جانفي 1976) ص 5 - 19 .

وموقف بايات تونس هذا من الحاج أحمد باي ، لا يختلف كثيرا عن موقف سلطان المغرب الأقصى من الأمير عبد القادر في غرب البلاد أو بايليك الغرب .

مراحل مقاومة الحاج أحمد باي :

إن مقاومة الحاج أحمد باي في بايليك الشرق مرت بمرحلتين اثنتين : أولاهما من حملة الاحتلال الفرنسية لمدينة الجزائر عام 1830 إلى سقوط مدينة قسنطينة في أيدى الجيش الفرنسي عام 1837 . وثانيهما بعد ذلك إلى استسلامه عام 1848 .

وقد ركز الدارسون والباحثون على المرحلة الأولى وسلطوا عليها الأضواء ، وعالجوا أحداثها ومشاكلها من وجهة النظر الفرنسية في الأعم الأغلب ، باستثناء دراسة التميمي التونسي الحديثة ، التي لم تخل هي الأخرى من الثغرات والفجوات ، ولكنها أحسن دراسة عنه حتى الآن[2] .

أما المرحلة الثانية فما تزال حوادثها غامضة ومجهولة ومشتتة هنا وهناك ويحتاج الباحث إلى تتبع كل الكتابات الفرنسية للتعرف عليها واستخلاصها ، كما يحتاج إلى العودة إلى كل دور المحفوظات في فرنسا ، تركيا ، وتونس ، حتى يطلع على المزيد من الوثائق ، والرسائل ، والتقارير ، المختلفة . وإلى كل الكتابات الفرنسية ليجمع ما بها من المعلومات المشتتة هنا وهناك .

ومنذ استعادة الاستقلال إلى اليوم تم كشف ونشر عدد لا بأس به من الرسائل والوثائق عن مقاومة الحاج أحمد باي ، ملأت الكثير من الثغرات والفجوات بالنسبة للمرحلة الأولى ، أما الثانية فما تزال كما هي . وتوضح بعض الوثائق ، والرسائل التي تم الكشف عنها ، غناها بالحوادث ، ودحضها للمزيد من الادّعاءات الفرنسية ، ولدينا في هذه المحاضرة معكم ثلاث رسائل جزائرية اكتشفناها في أرشيف الوزارة الأولى بتونس ، تتحدث عن معارك أولاد سلطان في ربيع عام 1844 وعن غيرها ، سنعود إليها بعد قليل .

2) Abd el-jelil temimi: le beylique de Constantine et hadj ahmed bey. 1830 -1837 (tonis - 1878) 302 p.

بعد سقوط مدينة قسنطينة في أيدى الجيش الفرنسي خلال يومي 13 و 14 أكتوبر 1837 ، فكر الحاج أحمد في محو الهزيمة وجمع رفاقه ، واقترح عليهم تكوين زمالة من عائلاتهم وأطفالهم وأموالهم ، وتوجيهها إلى الصحراء لتكون في مأمن من الأخطار ، ثم قيامهم بمحاصرة قسنطينة ، وقطع الطريق بينها وبين عنابة لمنع الامدادات الفرنسية عنها ، وتحريرها بعد ذلك ، ولكن خاله بوعزيز بن قانة عارضه في ذلك ، بدعوى أن فرحات بن سعيد يهددهم من الجنوب ، ويستعد لمهاجمتهم واقترح عليه التوجه له أولا لمحاربته والتخلص منه ، ثم التفرغ بعد ذلك للفرنسيين ولم يجد الحاج أحمد بُدًا من الامتثال لرأيه ، واعترف في مذكراته بأن خاله هذا بن قانة هو الذى ضيعه وقضى عليه ، وهو السبب في كل المشاكل التي تعرض لها ، والصعوبات التي واجهته ، وأكد أن هدفه هو الاستيلاء على أمواله ، وأمتعته ، وأنه بمثابة امرأة إلى جانب فرحات بن سعيد الذى يستطيع أن يقاتل وحده مائة رجل ، وجرب الحرب ضده سبع سنوات كاملة[3] .

بعد يومين من ضياع مدينة قسنطينة وبينما الحاج أحمد يستعد للانسحاب إلى الصحراء وفق خطة خاله ، اتصل به في معسكره بأم الاصناب على طريق باتنة ، رسول من قبل قائد القوات الفرنسية عرض عليه أن يستسلم سرا ، ويرحل إلى فرنسا ، فرفض ، وبعد ثلاثة أيام من ذلك ، اتصل به ابن العطار القسنطيني والحاج الباي العنابي موفدين من قبل نفس القائد ، وعرضا عليه نفس الاقتراح السابق ، فأعلن لهما استعداده للاستسلام ، ولكنه رفض الذهاب إلى فرنسا ، وطلب أن تترك له الحرية في أن يذهب إلى أي بلد إسلامي ، أو إلى البلاد المقدسة .

غير أن خاله ابن قانة ، اعترض سبيل وذكره بالتزامه السابق في التوجه إلى الصحراء لمجابهة فرحات بن سعيد ، فرضخ له ورفض العرض الفرنسي ، وأخذ طريقه إلى بسكرة بعد أن عاقب أولاد عمر . وقد أرسل أفراد عائلته ، وأمتعته إلى القنطرة ثم إلى الأوراس ، وبالضبط إلى قرية منعة ليكونوا في أمن وطمأنينة .

3) مذكرات أحمد باي وحمدان خوجه وبوضربة . ترجمة محمد العربي الزبيرى (الجزائر — 1973) ص 76 - 78 .

وعندما وصل إلى الوطاية علم بأن فرحات بن سعيد غادر أحواز قسنطينة ليلاحقه وأنه هاجم مدينة بسكرة بجموع غفيرة من أولاد عبد النور ، ويللزمه ، والحضنة ، وأخذ عدة أسرى ، وكاتب قائد قسنطينة حمودة بن الشيخ ، وأبلغه بأنه سيرسلهم إليه ، وأوضح له بأنه لا يريد الاتصال والمراسلة إلا مع الماريشال فالي ، مباشرة دون واسطة[4] .

ومن الوطاية اتجه الحاج أحمد باى إلى زاوية سيدى رحال بين فوغالة والعمرى ، وعسكر هناك بعض الوقت واعترض أتباعه من البوازيد ، حوالى 500 رجل من أولاد نايل كانوا في طريقهم لنجدة ودعم فرحات بن سعيد ، الذى يعسكر في واحة ليشانه 6 وقتلوا منهم حوالى 50 رجلاً ، وعزم الحاج أحمد على مهاجمة فرحات بن سعيد قبل أن يتقوى أمره ، ولكن ابن قانة أثناه عن ذلك وطلب منه أن ينتظر وصول أهل سلمية ، وأهل رحمان ، الذين كانوا ما يزالون في واد السفل ، ثم القيام بعد ذلك بهجمة قوية على ليشانة ، والزعاطشة معا حيث يتمركز فرحات بن سعيد[5] .

وفي خلال شهر ديسمبر 1837 اصطدمت قوات الجاج أحمد وفرحات بن يعيد في معركة ضارية بواحة صحيرا وقتل لفرحات أكثر من 600 رجل ، وقتل لأولاد بن قانة من أتباع الحاج أحمد أكثر من 100 رجل كذلك ، وكانت من أعتى معارك الطرفين بالزيبان ، وصمم أولاد بن قانة والحاج أحمد على مهاجمة كل واحات الزاب الغربي[6] .

بعد هذه المعركة بعث فرحات بن سعيد رسولا إلى الفرنسيين طالبا منهم الدعم والمساعدة لملاحقة الحاج أحمد وأولاد بن قانة ، فماطلوه ولم يجيبوه إلى ما طلب لأن ظروفهم في الشمال لا تسمح بذلك . وفي الوقت نفسه علم بخبر تعيينهم لابن عيسى خليفة الحاج أحمد السابق قائدا وخليفة لهم على المنطقة الساحلية للشمال القسنطيني فساورته الشكوك فى موقفهم نحوه . واستغل قيام الأمير عبد القادر بمراسلة زعماء العائلات القسنطينية كابن يللس ، وبن عبد السلام المقراني ، وأحمد الشريف ، وبن قندوز ، وبوعكاز بن عاشور ، ليستميلهم إليه فأخذ يتقرب منه هو الآخر عله يستفيد

---

4) شارل فيرو : صحراء قسنطينة (الجزائر —1887) ص 287 - 289 .

5) نفس المصدر . ص 290 - 292 .

6) نفس المصدر . ص 292 — 293 .

بمنصب من طرفه[7] . وقد سبقه إلى هذا كاتبه السابق الحسن بن عزوز فأرسل إليه رسولا سريا يدعى سي السنوسي يطلب منه أن يعينه خليفة على الصحراء الشرقية مقابل قيامه بمحاربة الحاج أحمد والقضاء عليه . وبعد مدة توجه الحسن بن عزوز بنفسه إلى الأمير عبد القادر صحبة الحاج الباي شقيق فرحات بن سعيد ، رسولين من طرفه للغرض نفسه . وكشفت هذه الرحلة على أنه سافر ليخدم أغراضه الخاصة ، وليس أغراض وأهداف سيده السابق فرحات بن سعيد ، الذى كان خوجة لديه عدة سنوات . وقد مال الأمير عبد القادر إليه وعينه خليفة له على بسكرة ومنطقة الزيبان ، وكلف خليفته البركانى الذى كان في بوسعادة بأن يرافقه لينصبه فأخذ معه حوالي 1700 فارس ، ومدفعين ، وعدداً من الأسلحة والذخائر واتجهوا إلى بسكرة ، فانسحب منها ، الحاج أحمد وأولاد بن قانة ، وطلب البركانى من فرحات بن سعيد أن يرافقهم إلى هناك فرافقهم على مضض ، وقال للحسن بن عزوز هكذا ذهبت رسولاً ، وعدت خليفة ، ووعده بأن يؤيده شريطة أن يعمل على تحطيم وتخريب الحاج أحمد باى وأولاد بن قانة ، وتم هذا التنصيب أواخر عام 1838 . واضطر البركاني أن يعود بسرعة إلى عين ماضي بأمر من الأمير لتشديد الحصار على التيجاني في قصره . ويذكر فيرو بأن الأمير عبد القادر لم يقم بهذه الحركة التوسعية في الصحراء الشرقية إلا بعد أن كاتب الماريشال فالى ، وأبلغه بأن ذلك يخدم السيطرة الفرنسية كذلك ، لأن ترك الحاج أحمد حرا طليقا ، سيسمح له بتكوين قوات تمكنه من محاربتهم جميعا هو ، وهم ، وأن فالى ، كاد أن يقتنع بوجهة نظره لولا معارضة الجنرال نيقريي negrier له وتأكيده على عدم التضحية بفرحات بن سعيد على الأقل[8] .

وقد عاود فرحات بن سعيد الاتصال سرا بالفرنسيين وراسل الماريشال فالى ، والحاكم العام العسكرى بقسنطينة ، ولكن رسوله إلى الجزائر قتل ، ووقعت رسالته بأيدى الحسن بن عزوز الذى حولها في الحال إلى الأمير عبد القادر . وتمكن رسوله الآخر من الوصول إلى قسنطينة ولكن رسالته لم تسلم للمسؤولين الفرنسيين ، لأنها وقعت في أيدى أناس يكرهونه فأخفوها وأبقوها عندهم ثم أرسلوها إلى خصمه ابن قانة بالصحراء الذى حولها

---

7) نفس المصدر ص 293 - 294 .

8) نفس المصدر . ص 293 — 294 و 296 — 298 .

بنفسه إلى قريبه بن أحمد بلحاج في سيدى عقبة ، فحولها بدوره إلى الحسن بن عزوز ، فانكشف أمره ، وتعاون ضده الرجلان لدى الأمير ، وسار في المنطقة المثل السائر : « ضبع الميدة القارة ومعه ثعلب الغيران ، تغامزوا على صيد الغابة » ، فأعطى الأمير أوامره باعتقاله فاستدرجه البركاني باللطف والحسنى إلى المدية ، ثم اعتقله واقتاده إلى تاكدمت حيث سلمه إلى الأمير . فوضعه تحت الرقابة الشديدة مدة من الزمن[9] .

بعد أن انسحب الحاج أحمد باي من بسكرة التحق بواد سوف ، وكاتب من هناك سلطان اصطنبول ليذكره بوعوده السابقة وبتأخر نجدته . كما كاتب باي تونس وطلب منه أن يرأف بأتباعه ورفاقه الذين تضطرهم الظروف إلى الالتجاء إلى هناك ، واعتذر له عن عدم قدرته هو الالتجاء إلى تونس . ثم التحق ببوحصيف على أطراف التل ، وأذن لأصحابه بالذهاب إلى تونس لشراء الحبوب ، والمواد الغذائية بعد أن اشتدّ حصار الفرنسيين لهم ، وتخريبهم لأملاكهم ومزارعهم ، ومطامرهم ، وقطعان حيواناتهم وتأسف بعد ذلك عندما علم بأنهم لم يحترموا تقاليد الضيافة . وأغاروا على زاوية عبد الكريم التي كانت بمثابة مخزن للحبوب ، واضطر أن ينقد من جيبه 50 ألف ريال كتعويض عما اقترفوه ، رغم أن الكاهية التونسي طلب منه ألا يفعل ذلك بعد أن تفهم الوضع . وأكد الحاج أحمد في مذكراته بأن الاقتراح كان من خاله بن قانة ، وأنه كان يهدف من ورائه أن يفسد العلاقة بينه وبين الرسميين التونسيين .

ومما يثبت خبث وخيانة ابن قانة ، استسلامه للفرنسيين على أثر هذه الحوادث زاعما أنه سيكون واسطة بينهم وبين الحاج أحمد باي الذى رفض ذلك ولكنه لم يثنه على الاستسلام حتى يتخلص من مشاكله على ما يبدو . فعينه الفرنسيون شيخ العرب على الجنوب بمقتضى قرار 18 جانفي 1939 . ولم يقنع بذلك فطلب أن يخلعوا عليه لقب الخليفة ولكنهم لم يلبوا رغبته ، وتوانوا ليجربوا مدى إخلاصه .

---

9) الضبع : هو الحسين بن عزوز والميدة القارة : ربوة صغيرة أمام واحة الزعاطشة . وثعلب الغيران : هو بلحاج في سيدى عقبة . وصيد الغابة هو الأسد ، ويعنون به فرحات بن سعيد الذى يلقب كذلك بثعبان الصحراء . انظر : شارل فيرو ، المصدر نفسه . ص 298 - 299 .

بقى الحاج أحمد باي عند الحراكتة بالنمامشة حوالي شهرين ، وفي شهر ماى 1838 قاد الجنرال نيقري حملة عسكرية ضده وضد أنصاره ، وراسله وعرض عليه الاستسلام فأجابه بأنه ينتظر جواب السلطان العثماني ليقرر ماذا سيصنع ، وانسحب إلى وادى ريغ ليكون في مأمن من مفاجأة القوات الفرنسية له ، وقضى هناك فصل شتاء عامي 1838 - 1839 . وفي فصل الربيع اتجهت إليه حملة فرنسية لملاحقته واستعملت حتى وسائل الخداع لاعتقاله بواسطة ولد يونس ، وأولاد سيدى يحى والزغالمة من رعايا تونس .

وحكى ذلك بنفسه ، وذكر أن الفرنسيين سلموا لهم مبالغ مالية ليوزعوها على بعض أنصاره القربين منه ، والذين يأوونه حتى يدلّوهم على مكانه ويسلموه . وذهب إليه ولد يونس هذا وأبلغه الخطة وقال له بأنها وسيلة للإيقاع بالفرنسيين ولكن الحاج أحمد لم يصدق الرواية ، أو علم ببعض خلفياتها ، فاعتقله هو وابنه ، وقتلهما وعين في مكانهما أحمد بن الزين في وظيفتهما التي لم يذكر كنهها وطبيعتها ويبدو أنها استخبار واستعلام عن أعدائه وخصومه الجزائريين والفرنسيين معا .

وفي عام 1840 قاد الجنرال فالبوا حملة عسكرية أخرى ضده ، وهاجم الحراكتة الذين يؤيدونه ويزودونه بالمال والمأوى ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وسلب لهم 80 ألف راس غنم ، فاستنجدوا بالحاج أحمد ، ولبّى دعوتهم وتمكن من استرجاع جزء من قطعانهم المسلوبة ثم عاد إلى وادى ريغ مرة أخرى ، وحاول أولاد يونس أن ينتقموا منه فأدبهم . وقتل لهم عددا من الرجال .

وفي أواخر شهر مارس من العام نفسه هاجم بن قانة الحسن بن عزوز وأتباعه في صالصون عير بعيد من الدوسن وأولاد جلال ، وقتل عدداً كبيرا من الناس وقطع 500 زوج من آذان القتلى وأرسلهم إلى الجنرال فالبوا فأكرمه على صنيعه وقلّده وسام ضابط الشرف وزوده بمبلغ 50 ألف فرنك[10] وكانت هزيمة بن عزوز هذه سببا في

---

10) نفس المصدر ص 306 - 312 .

قيام الأمير عبد القادر بعزله[11] ، وتعويضه بفرحات بن سعيد الذى أطلق سراحه وكلفه بالالتحاق بمنطقة الزيبان لملاحقة الحاج أحمد ، وأنصاره البنفانيين ، وأبقى عنده أسرته حتى يضمن عدم خداعه ، واستسلامه للفرنسيين ، وقد وقع فرحات هذا ضحية لأولاد بن قانة ، فغدر به البوازيد في سبتمبر 1841 وقتلوه بأولاد جلال ، ودفنه أنصاره في ضريح (النبي) خالد ، بقريه سيدى خالد ، بعد أن قطعت أذناه ولحيته وانتزع منه خاتمه ، من قبل قاتليه وأرسلوها إلى الفرنسيين بقسنطينة . مما يدل على عمق العداء بين الطرفين وتأصله .

وفي عام 1842 انتقل الحاج أحمد من واد ريغ إلى الخنانشة بالأوراس لجمع شمل عائلته ، وأملاكه ، فاتجه إليه طابور فرنسي ليلاحقه ، ولم يستطع أن ينال منه ، وعاد أدراجه . وفي العام الموالي 1843 استنجد به أولاد دراج ليساعدهم ضد خليفة الأمير عبد القادر الجديد ، محمد الصغير بن أحمد بلحاج . بمنطقة المسيلة ، وبسكرة ، فلبّى رغبتهم واشترك معهم في مهاجمته ببسكرة ، وقتلوا 40 رجلا ، وانتزعوا منه 30 بندقية . فعادوا إلى الحضنة ، وعاد الحاج أحمد إلى مكانه ، وأرسله زعيم ريغة الشيخ مسعود بأحواز سطيف ، وأعلمه بأن طابوا فرنسيا يتجه إليه من سطيف ليهاجمه حتى يأخذ احتياطاته ، وأعلن استعداده بأن يتعاون معه ، وعندما اصطدم بالفرنسيين فقد ستة من رجاله ، وبعض الأحصنة وعاد إلى الحضنة وبقي بها حوالي أربعة أشهر ، ثم اتجه إلى أولاد سلطان وبقي عندهم عاما ونصفا واتجهت إليه عدة طوابير فرنسية لتحاصره وتقاتله ، فلم تستطع أن تنال منه كثيرا لأن المنطقة جبلية صعبة التضاريس قاسية المناخ ، وسكانها مخلصون له كثيرا في أغلبهم .وخلال إقامته بأولاد سلطان توفيت أمه الحاجة رقية ودفنها بمقاوس .

معارك أولاد سلطان عام 1844 :

بعد مقتل فرحات بن سعيد في خريف عام 1841 تمركز محمد الصغير بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر في مدينة بسكرة على رأس 400 جندى منظم برأسهم

---

11) عن الحسن بن عزوز : انظر مقالنا : جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية . مجلة الأصالة : عدد 48 . (الجزائر — أوت 1977) ص 2 - 42 .

أحمد بن عمر أحد ضباط الأمير في الحضنة . وتصارع مع ابن قانه وأتباعه في عدة معارك قتل في إحداها سي علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الذى كان يحاول إصلاح ذات البين بين الطرفين . وعمت الفوضى كل منطقة الزيبان ، وقطع الكثير من نخيل واحاته . وعندما حاول ابن قانه أن يثأر من محمد الصغير بلحاج في واحة سيدى عقبة هزم أمامه . وقتل له 20 رجلا ، و 20 حصانا ، وجرح 45 رجلا ، و 12 حصانا ، فأرسل إلى الفرنسيين بقسنطينة يطلب النجدة والمساعدة .

وصادف طلبه هذا حسن الاستجابة من الدوك دومال : **Le duc d'aumale** ابن الملك الفرنسي لويس فيليب الذى رأى أن يغتنم الفرصة ويقوم بحملة كبيرة إلى الصحراء ليحطم قوات محمد الصغير بلحاج خليفة الأمير عبد القادر في بسكرة والزيبان ويصفّى الحساب إن أمكن مع الحاج أحمد باي الذى يعتصم بجبال أولاد سلطان ، وكان أومال هذا قد عين قائداً عسكريا على منطقة الشرق الجزائرى منذ أواخر عام 1843 من طرف الجنرال بيجو حاكم الجزائر العام .

غادر الدوق دومال قسنطينة أوائل عام 1844 وعندما وصل إلى باتنة في أوائل شهر فيفرى ركز بها مركزا عسكريا للتموين والاستعلامات . وهاجمه أتباع الحاج أحمد باي ، ورموا حراسه ليلتي 19 و 20 من الشهر . وحاول فرسان أولاد سلطان ولخضر الحلفاوية ، احتلال القنطرة ، واعتراض قافلة الجمال التي أرسلها بن قانة من الصحراء لتحمل أمتعة الجيش الفرنسي وأثقاله من باتنة إلى بسكرة . واصطدموا بقوات فرنسية منجدة وفقدوا 15 رجلاً .

وفي الوقت نفسه خرجت قوات عسكرية أخرى من سطيف إلى جبال أولاد سلطان غرب باتنة لمحاربة الحاج أحمد باي وأتباعه وأنصاره المعتصمين هناك ، وفق خطة مدروسة . وعندما علم محمد الصغير بلحاج بأخبار هذه الحملة غادر مدينة بسكرة قبل خمسة أيام من وصولها إليها ، وذهب إلى واحة مشونش ثم إلى جبال الأوراس . وعندما وصل الدوق دومال إليها دخلها بسهولة دون أى حادث يوم 4 مارس وكلف أربعة ضباط يحسنون التحدث بالعربية بزيارة كل القرى المجاورة للتعرف على أوضاع سكانها والاستعلام عمن يودون البحث عنه خاصة الحاج أحمد ، ومحمد الصغير . وهؤلاء

الضباط هم : طوماس Thomas ودونوفو De Neveux وديفو Desvaux وفورني Fournier .

وعندما علموا باعتصام محمد الصغير بلحاج في مشونش هاجموه ، فخاض ضدهم معركة كبيرة خارج الواحة دخلها وأبدى رفاقه بطولة وشجاعة فائقة اعترف بها دومال في تقرير إلى الحاكم العام بيجو وقتل للفرنسيين ستة ، وجرح لهم ستة عشر[12] .

بقي الحاج أحمد باى لدى أولاد سلطان في أعماق جبالهم وتحول منزله إلى مأوى للمجاهدين الذين أكثروا من هجوماتهم ضد القوات الفرنسية بباتنة وأحوازها .

وفي يوم 21 أبريل 1844 ، توجهت ستة ألوية عسكرية و 500 حصان ، إلى مقاوس على أقدام أولاد سلطان وشرعت يوم 24 في الهجوم على الجبل ، واصطدمت بجموع أولاد سلطان أنصار الحاج أحمد باى . وجرت معركة مهولة طوال اليوم وعجز الفرنسيون عن التقدم وسقط عدد كبير من رجالهم ، وعزوا ذلك إلى كثرة الضباط ، وقتل من أتباع الحاج أحمد 100 رجل بينهم 17 من طلبة العلم . واستعمل الفرنسيون أسلوب الأرض المحروقة ، وعسكروا في الأراضي المزروعة بالحبوب والمغروسة بالأشجار المثمرة فأفسدوها كالجراد .

ونظرا لهذا الفشل طلب الفرنسيون نجدات عسكرية أخرى من سطيف قادها الجنرال سيليق : Sillegue يوم 26 ووصل إلى مكان المعارك أواخر الشهر . وفي أول ماى جدد الفرنسيون هجومهم على أولاد سلطان . وتمكنوا من الوصول إلى قمة الجبل التي تعرف باسم « البير » فأبعد الحاج أحمد الذى كان مريضا ، إلى مكان آخر على نعش ، وقتل من أتباعه حوالي 40 رجلاً ، فوضعوا خطة جديدة للهجوم على معسكر باتنة ، واضطرت القوات الفرنسية أن تنسحب بسرعة وتعود إلى باتنة لتحميها[13] .

وفي يوم 8 ماى تجددت المعارك للمرة الثالثة في جبال أولاد سلطان وتمكنت القوات الفرنسية من الاستيلاء على معظم خيام وأمتعة الحاج أحمد باي ، وعدد من البغال

---

12) نفس المصدر . ص 346 - 359 .

13) نفس المصدر ص 360 - 364 .

والأحصنة وقطعان المواشي وقتل لها خلال المعارك الثلاثة 23 رجلا وجرح 92 بينهم 13 ضابطا[14] . تلك هي الروايات الفرنسية عن أحداث أولاد سلطان . فما هي روايات الوثائق الجزائرية عنها . ذلك ما نورده في الفقرة التالية :

رواية الوثائق الجزائرية عن معارك أولاد سلطان

في شتاء عامي 1973 - 1974 اكتشفت بأرشيف الوزارة الأولى بتونس ثلاث رسائل جزائرية تحدثت عن أربعة أحداث بكيفية وأسلوب يختلف بين هذه وتلك ولكنها كلها تجمع على خلاصة الحوادث :

الأولى : للمدعو بلقاسم بن عبد الكريم القسنطيني .

والثانية : للشيخ محمد الحسناوى بن بلقاسم الحنانشي الأوراسي .

والثالثة : لمحمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر في بسكرة وسيدى عقبة .

والحوادث الأربعة التي تحدثت عنها هي :

ــ قصة امرأة فرنسية قدمت من فرنسا بهدية كبيرة إلى الأمير عبد القادر لتفدى ابنها الأسير عنده .

ــ تنظيم مؤامرة لاعتقال الحاج أحمد باى في جبل أحمر خدّو بالأوراس .

ــ تآمر حاكم وجدة المغربي مع القوات الفرنسية ضد الأمير عبد القادر .

ــ الخطة العسكرية التي مكنت محمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بلحاج من اقتحام مدينة بسكرة ، والسيطرة على كل ما بها من مؤن وذخائر وأموال ونقود ، وذلك ليلتي 13 و 14 ماى 1844 م[15] .

---

14) نفس المصدر . ص 365 - 366 .

15) في هذه الوثائق الثلاث انظر مقالنا : أربعة أحداث في ثلاث وثائق . المجلة التاريخية المغربية . عدد 2 (تونس جويلية 1974) ص 94 - 102 . وكذلك مجلة الثقافة عدد 45 (الجزائر ــ يونيو ، يوليو 1978 م) ص 9 - 24 .

والذى يهمنا نحن هنا هو إيراد رواية هذه الرسائل حول أحداث أولاد سلطان لنقارن ذلك مع الروايات الفرنسية ، ونرى ما بينها من فروق .

فبلقاسم بن عبد الكريم القسنطيني في الوثيقة الأولى قال مخاطبا كاهية الكاف : « ونخبركم على الحاج أحمد باى وخليفة سي محمد الصغير خليفة سيدى عبد القادر وهو شيخ سيدى عقبة فلما أتاهما ولد الربي إلى الصحرة فترك سي محمد المذكور بسكرة وسيدى عقبة ، وخرق البيبان ، وذهب هو والناس الذى عنده في البلاد إلى الجبل أحمر خدو ، ثم إن ولد الربي دخل بسكرة وخلف بها نوبة عسكر وخيالة من النصارى والمسلمين وذهب ولد الربي إلى أولاد سلطان الذى عندهم الحاج أحمد باى وتكلم معهم أن يمكنوه بالحاج أحمد باى ، فلما بلغ ذلك للحاج أحمد أرسل لكبار العروش وذبح لهم أربعمائة كبش وأكلوا الطعام ثم قال لهم إن هذا فرقي اقتلوني ولا يقتلنى النصارى وبكى فبكت الناس لبكائه واتفقوا إما يموتوا جميعا مجاهدين وإلا ينصهرهم الله تعالى فتقابلوا مع العدو ثلاثة طرق فنصروا المسلمين في الثلاثة نصرا عزيزا أخذوا لولد الربي في المرة الثالثة سبعمائة بغلة رافعين العوين ، وأزيد من مائة خباء و ثلاثة مدافع ، وعلجية فراشة لولد الربي ، وأما الأثاث فلا يحسب وتمكنوا بأسرى كثيرة نصارى ومسلمين فقتلوا جميعهم فهرب ولد الربي وحط محل يقال له باتنة وبعث للجزائر وبلدانها يأتوه يريد الرجوع إلى المسلمين »[16] .

ـ والشيخ الحسناوى ذكر في رسالته إلى كاهية الكاف ذلك « إن التراسة الذى بعثناهم إلى الغرب قدموا وحكوا لنا كسرة الرومي دمره الله ونحن في ذلك الحال وإذا به قدم حاج حسين صاحب الحاج أحمد باى الذى كان سابقا يسير فيه إلى بر الترك فحكى لنا سورة الواقع كما أنزل حكى لنا على المحلت التي أخذها الحاج أحمد باى وأولاد سلطان وأخذ لهم المدافع وغيرهم وبعد ذلك روح ولد الربي وأخيه إلى قسنطينة وحدر أخيه[17] وجمع أمحاله وقصد إلى جبل أولاد سلطان ولما وصل إلى طرف الجبل فرق محلة حشر هو بها إلى الجبل وبعض خلها في الوطي خلوه حتى حط وحده من العصر يطاردوا فيه إلى بعد العشى وبات عليه الغلب وشطر الليل الربي حدر بالعسكر ، وبقي

16) أ . د . ت . ملف 929 . صندوق 78 . وثيقة رقم 45 .

17) يقصد به أخاه الأمير مونبونسي : Mohponcier .

المحلة بما فيها وفاقوا به وطاروا معه وحكموا منه مائة وخمسين سبايسي ، وخمسة نصارى ، وحكم منهم أربع روميات ، والمدافع والجرابى على ما فيها»[18] .

وقال محمد الصغير بن عبد الرحمن في رسالته الثالثة إلى إبراهيم بن عون باختصار : «إلحاق خير وعافية وكذلك ولد الربي لعنه الله قصد إلى جبل أولاد سلطان فقاتلوه قتالا عظيما فهزموه وأخذوا بعض محلته ، ثم جمع لهم ثانيا وثالثا فهزموه أيضا وانصرف مذموما مخذولا ولم ينل ما هم به والسلام»[19] .

اقتحام محمد الصغير بلحاج لمدينة بسكرة

كان الدوق دومال قد ركز ببسكرة بعد أن دخلها في مارس 1844 قوة صغيرة تتألف من جنود الفوم بينهم ثمانية من الفرنسيين .

وبعد حوادث أولاد سلطان بأقل من أسبوع دبر محمد الصغير بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر خطة لاقتحامها ونفّذها ليلتي 12 و 13 ماى 1844 . وقتل معظم من بداخلها من الفوم والفرنسيين ما عدا الطباخة مارى التي تزوجها فيما بعد ، والضابط بيليس : Pilisse الذى تمكن من الفرار إلى طولقه واحتمى بشيخها ، وأرسل من هناك من أخبر أومال في باتنة بالحادث .

وقد تخوف محمد الصغير من أن يعاجله الفرنسيون وأنصارهم فطلب من الناس أن يمدوه بالمزيد من البغال لحمل غنائمه فرفضوا ، واكتفى بالبغال التى وجدها بقصبة المدينة ، وحمل عليها الأسلحة ، والذخائر ، والألبسة ، والنقود ، ومدفعين خفيفين ، وانسحب يوم 17 ماى إلى الأوراس ومن هناك إلى نفطة التونسية عبر نقرين . وعندما اندلعت أحداث الزعاطشة عام 1849 اشترك فيها على رأس 700 فارس ، ثم عاد إلى نفطة وتوفي بها عام 1856 وخلف ولدين اثنين من الطباخة الفرنسية مارى حسب رواية فيرو الذى ذكر عام 1887 أنهما ما يزالان يعيشان في القيروان[20] .

---

18) أ . د . ت . صندوق 212 . ملف 239 . وثيقة 24 .

19) أ . د . ت . صندوق 212 . ملف 239 وثيقة رقم 19 .

20) فيرو . المصدر نفسه ص 366 — 368 .

وعن هذا الحادث أورد بلقاسم بن عبد الكريم في رسالته أشياء مفصلة وشائقة فقال :
« وأما خبر سي محمد الصغير فلما دخلت النوبة بسكرة تكلم مع مائة من العسكر الذى في الجبل على أن يهربون من عنده أفذاذا إلى بسكرة ويذموه فعند تمامهم هناك يرسلوا إليه يأتيهم ويحلوا له البيبان للدخول إلى النصارى ففعلوا ذلك فلما بلغوا بسكرة نحو الخمسة والعشرين رجلا أرسلوا إليه فأتاهم بعسكره لسلا وفتحوا باب بسكرة ودخلوها وقتلوا جميع ما فيها وأخذوا خزنتها إلى الجبل والخزنة بها مليونان دورو واثنان وعشرون مكخلة كبرى وخمسة عشر مائة كسوة ملف للعسكر . واربعمائة حصان وخزنتين بارود ، وخزنة كور ودوبلي ، وأربعة مدافع ، وأما القمح والشعير لا يحصى . ولم يمنع من النصارى الذى ببسكرة إلا واحدا هرب لرجل مسلم من عرب الخيام فأمنعه الرجل خفية وأخذ منه ماأخذ إلى أن بلغ الرومي إلى ولد الربى وأخبره بالخبر .

وأما الرجل الذى منع الرومي سمعوا به المسلمين فقتلوه ، وولد الربى أرسل إلى قسنطينة على ألفي شاقور يريد الرجوع للمسلمين وقطع نخيلها وربنا يلطف بنا وبهم » .

أما محمد الصغير بلحاج الذى نفذ العملية قال في رسالته : « إننا هجمنا على عسكر عدو الله الذى تركه بقصبة بسكرة ومكننا الله منهم وظفرنا بجميع الخزنة من مدافا وسلاح ، وكور ، وبارود ، وأما الأطعمة من بر ، وشعير ، وروز ، وأنواع الخبز ، لا تحمله ذوات الأربع ، ولا يحصى عدده إلا الله ومسكنا علجية ونحو الستين فرصا وقتلنا القباطين . وأما بقية عسكرهم كله بقي لنا والحمد لله ذلك من فضل الله علينا والله ينصر دين الإسلام » .

وقد خلد أحد شعراء الملحون أحداث أولاد سلطان فقال ضمن ما قال :

باسم الله بدين نقـــول	يانـاس صلوا على الرسـول
اللي مات للجنة والقصـور	وسبعين من بنـا الحـور
يانـاس انصـروا الديـن	ومـوتوا بالمـاية والألفـين
بركـانا من موت الشـين	على الشهوة والدنيا الاثنين
يانجعـــي النفخـــات	الأبطال أبدوا الزدمـات
	والنـار شعـلت رقـات

كف ايطيحوا فى المايه أو أكثر   هذاك فتن قدر

أهل الله تلقى تحضر   والضباب ولا من ينظر

الأحرام والمجاهدين   للزدمة كيف هادين

ذاك النهار طاحوا سبعين   غير اللي هو نقض العين

أهل الجهاد ياخوتى الاحرار   طاحوا في مثل الغمار

رايحين للجنة والنار   غير في الحور يختار

ما عتا هذا يوم الطراد   بولدون في مثل الجراد

غير في الأبطال يصطاد

الذى طاح شهيد   الجنة له تريد

يضرب المدفع والكور   والموت عنا بالبدور

آخر ميت آخر مكسور   والبعض طايح مفقور

النهار الأول لهم كسرة   وطاحوا الأبطال ياحسرة

ذاك النهار عنا نصرة   والغيم على الجبال رسى

قلعوا تل وزيبان   جاونا ترس وقومان

ما لاة يا جبل السلطان   شوايفك وصلوا وهران

قلعوا تل وصحراء   ما عظم ذاك اليوم ما جرى

ما لاة ياجبل القيام   والحال عليه تتسلام

مغلوب وبحشد الاسلام   ياناس راحوا الأيام

ما لاة ياجبال المنافق   جات عليه النجوع تتشاف

ما لاة يا جبل الواعرين   كيف عدتم مذًا للين

آه محكيه ياناس   جرات مع جبل أوراس

على أهل الحرب والقرطاس   اللي غلبوا الترك والتشركاس

كيف غلبونا فرانصيص والنجوع   عينى ساخية بدموع

ما لاة يا نجع المسطوع   كيف عاد للخدمة مطبوع

خلاى وخلا عرشي   ما بقى لي باه نعاشي

نرغى في مثل الحاشـي   وما بقى في ساحتى غاشي

راني ثـم مكسـور   والمحال ثم بـنيّ تـدور

أنـا طـايح مـكسور   وبعيني فيهم ننظـور

يا ناس راني في غلبـة   على الأيسار ما خذ ضربة

أنا ضرير لا صبت قوام   هذا الضيف راه ما يدوم

نعي نتفكر مع اللـم   والذى خلف أخيه يندم

خلوني خوتي العـروز   وانا ضرير لا صبت نفوز

غير اللي يقول أنا أمي عجوز   والضيم جاءنـا محفـور

خلوني طايح في الكـاف   وأنا مقسوم على لنصاف

خلوني قاعـد حابـس   عطشان وربقي يابـس

راني في الكاف حـاضر   وفي الليالي نبات نباصـر

ولد الراي مع جننـار   وعساكرهـم الكفـار

في الجبال طلقوا النـار   وفي الوطا مشت لخبار

ولد الرابي مع جننـار   والحب بطيـر تطيـار

مـا يعرفوا إلا النـار   مـا يعرفوا غير البـدار

إلى أن يقول :

استوت الفيران مع القطوطـة

في دولة بو برنيطـة

ليهون الظلم عن المظلـوم

وطريـق الحق دايم معلوم

والذى ينكر الحق مذمـوم

عند الله الحـي القيـوم

كذا حكموا شرق وغـرب

ما خلوا حتى مضـرب[21]

---

21) فيرو : المصدر نفسه . ص 376 - 381 . إن هذا الشاعر الذى لم يذكر اسمه جرح في هذه المعارك وعالجه الفرنسيون ، وهذا على ما يظهر هو السبب في إشادته بهم في آخر القصيدة .

وخلال عمليات الدوق دومال في جبال أولاد سلطان غرب الأوراس ، كان الجنرال راندون يقوم بعمليات عسكرية شرق الأوراس على الحدود التونسية ، ووصل حتى إلى تبسة على مشارف الصحراء . وذلك في إطار عملية حصار للحاج أحمد باي وأتباعه على ما يبدو[22] .

كان الحاج أحمد خلال معارك جبال أولاد سلطان يتوفر على حوالي 700 فارس من أولاد سلطان ، هم الذين تولوا مواجهة هذا الجيش الاستعمارى المتفوق عدة وعددا . خلال المعارك الثلاثة الكبرى أيام 24 أبريل ، و 1 و 8 ماى 1844 التي كانت تبدأ دائما بيوم الأربعاء كما ذكر ذلك الحاج أحمد ، وأكد أنها من أكبر المعارك التي خاضها في حياته[23] .

وكان مريضا جدا يحمله أصحابه على نعش وينقلونه من مكان إلى آخر ، والرصاص يمر على جنبيه أو فوق رأسه . وتأسف على عدم قدرته المشاركة في المقاومة . وقد حملوه من المكان الذى يعرف بالبير في قمة الجبل إلى غربه ، ومن هناك حملوه إلى جبل متليلي ، ثم إلى الضاية ، فبني فراح ، وأخيرا إلى قرية منعة ، حيث آواه الشيخ بلعباس لمدة عام كامل وقدم له كل الإسعافات ، وواجبات الضيافة . وهناك في منعة فقد اثنين من أبنائه وهما محمد وعمره 13 عاما ، ومحمود ، وعمره خمسة أعوام[24] .

وفي عام 1845 هاجم الجنرال بيدو سكان واد عبدى فاستنجدوا بالحاج أحمد ، وذهب إليهم ووجدهم مختلفين ومنقسمين على أنفسهم ، وحذرهم من مغبة ذلك عليهم ونصحهم بالاستسلام ما داموا لا يستطيعون تجاوز خلافاتهم لأن مواجهتهم للقوات الفرنسية على تلك الحالة بمثابة انتحار . فرفضوا الانصياع لرأيه وعندما اصطدموا بتلك القوات تشتتوا وفروا هاربين واكتسحت القوات الفرنسية قرى واد عبدى مثل نارة ، ومنعة ، وعيدوسة ، وهدمه ، واستسلم لها أولاد عبدى ، وأولاد داود ، وبني وجانة وبني بوسليمان ، وسكان الخنقة ، وأولاد يعقوب ، وبني معافة ، والولجة ، وصادرت

---

22) نفس المصدر . ص 372 - 374 .

23) مذكرات . ص 197 - 198 .

24) فيرو . ص 391 .

منهم آلاف الأغنام والأبقار ، ومئات من البغال ، وكميات كبيرة من القمح والشعير في المطامير .

وعندما عاد الحاج أحمد إلى منعة لاحقه الفرنسيون إلى هناك يوم 22 ماى 1845 فانسحب إلى قرية الكباش بجبل أحمر خدو واحتمي بأولاد عبد الرحمن وبقي هناك حوالي عامين آخرين .

وفي عام 1847 عاد سكان واد عبدى إلى الثورة ضد القوات الفرنسية . وتولي حاكم بسكرة الجديد سان جرمان : Saint german ملاحقتهم ومحاربتهم ، وزحف الجنرال هيربيون Herbillon على واحة أولاد جلال لملاحقة الشريف بومعزة الذى انسحب من جبال الظهرة والونشريس إلى هناك ، واصطدم مع أتباعه أولاد زياد ، وأولاد الساسي ، ابتداء من 10 جانفي 1847 .

وجرت بين الطرفين معركة كبيرة في غياب بومعزة الذى انسحب قبل وصول القوات الفرنسية إلى هناك ، وقد قتل للفرنسيين 35 رجلا ، وجرح 110 مما يدل على هول المعركة وشراستها(25) .

نهاية الحاج أحمد باي :

عندما اعتصم الحاج أحمد بقرية الكباش في أحمر خدو بقي على صلة بالكثير من أتباعه في التل والصحراء . وتخوف الفرنسيون من أن يستعيد نشاطه ويجدد قواته فأخذ كانروبير : Canrobert الحاكم العام الجديد على باتنة في الاستعلام عنه في مطلع عام 1847 ، وكان يوجد في قرية الكباش بأحمر خدو كما ذكرنا ، لدى أولاد عبد الرحمن . ووصل إلى علم كانروبير بأن بعض الناس يسعون لتسليمه لهم ، فكلف الضابط سان جرمان بالبحث عنه وعن مكانه . وألحّ عليه بأن يغلق كل الطرق والمسالك الجنوبية في وجهه حتى لا يفلت إلى الصحراء ويصعب عليهم بعد ذلك اعتقاله .

---

25) نفس المصدر . ص 388 - 390 .

قاد سان جرمان مجموعة من قوات القوم والجنود وتوجه إلى قرية الكباش ، فغادرها الحاج أحمد تحت رعاية عدد من رجال أولاد عبد الرحمن وأخذ اتجاه شرق الأوراس فاعترضه بنو ملكم ، وأقنعوه بضرورة العودة إلى الكبايش ، وذلك بأمر من القايد بن ناصر شقيق أحمد باي بن شنوف ، وبتنسيق من سان جرمان حاكم بسكرة ، فأغلقت في وجهه كل الأبواب ووجد نفسه محاصرا من كل جهة بالضبط كما فعلوا بالأمير عبد القادر بغرب البلاد أواخر عام 1847 .

فكتب رسالة إلى سان جرمان حاكم بسكرة بتاريخ 2 جوان 1848 قال له فيها بأنه كتب إليه سابقا رسالة شرح له فيها بالتفصيل ما يهمه ، وأرسل له هذه الرسالة مرة أخرى مع الشيخ مسعود ، ولكنه مرض فتأخر إرسالها . وطلب منه الأمان كما وعده سابقا وهو عمل الحكام ، وخاصة من الفرنسيين الذين يفون بالوعود . وأوضح له بأنه يعلم منذ مدة طويلة بأنهم أصحاب كلمة وعند وعودهم . وطلب منه أن يكتب له بالسرعة الممكنة ليعطى له الأمان التام ويحدد له المكان الذى يجب أن يقود إليه نساءه وأتباعه دون خوف ولا حاجة لأية واسطة ، ويعرفه أين يذهب ليلتقي به مع أتباعه . وأوضح له كذلك بأنه كان سلطان هذه الولاية ولكن إرادة الله ناجزة ، وهو سيد الكون والأرض وهو الذى يرزق النصر من عنده ، وقال له : أجبني بسرعة عن إعطائى الأمان وضمان حلمكم وعطفكم لأن الغدر هو ضد عاداتكم ودينكم ، ولا تحبون المخادعين والخائنين . وباختصار أطلب الأمان التام إلى كل من هم في حوزتى وعندما تصل رسالتي هذه أرسل إلى ضابطا فرنسيا ليسلم لي أمانكم ، وسنصحبه إليكم . ولا ترسلوا معه أى شخص مسلم[26] .

بمجرد أن اتصل سان جرمان بهذه الرسالة استدعى الجاويش عمر بن عبد الله وأعطاه ساعته ، وختمه ، وكلفه بالاتجاه إلى الحاج أحمد وإبلاغه الأمان الذى يطلبه وعندما وصل إلى مكانه اعترضه حارس وحال دون تقدمه نحوه ، واشتدت المشادات الكلامية بينهما وكادت أن تتطور لولا أن الحاج أحمد أسرع إلى المكان على ظهر حصانه ، وبيده مسدسه

26) المصدر نفسه . ص 393 . ولم يوضح فيرو أين يوجد النص العربى لهذه الرسالة . وأورد هو الترجمة الفرنسية وعليها اعتمدنا نحن ، والعهدة عليهم بالنسبة للأفكار التي وردت فيها .

شاهرا إياه فأسرع الجاويش إليه وارتمى على أقدامه يسلم عليها فنزل على فرسه وقاده إلى شجرة مجاورة وجلسا معا بعض الوقت فأبلغه الجاويش الرسالة الشفوية لسان جرمان فطلب يومين للتفكير وأخذ القرار النهائي ، وقال له الجاويش ، إن الوقت سيكون قد فات آنذاك لأن القوات الفرنسية تحاصرك من كل جهة . والأحسن لك أن تسلم حالا بإرادتك بدلا من أن يلقى عليك القبض دون شروط ، فنهض واقفا وأعلن له باستعداده الذهاب معه في الحال فانقسم أولاد عبد الرحمن إلى فريقين ، فريق أراد أن يمنعه من ذلك ، وفريق رأى أن تترك له الحرية ليتخذ ما أراد ، فعزم على الرحيل وبكى فبكى معه كل الحاضرين وسار مع الجاويش عمر بن عبد الله حتى أوصله إلى سان جرمان . فتقدم الأخير لمصافحته باليد . وعندما شاهد غير بعيد من المكان بعض رجال أولاد بن فالة تقطب وجهه ، ووقف وقال له : لم تأخذ ولم تعمل بما قلته لك في رسالتي (ويعني بذلك عدم اطلاع أى أحد من المين) ، إن أولاد بن فالة هددوني وأتعبوني ، وسيهددونكم ويتعبونكم ، أنتم كذلك ، إنهم السبب في كل المآسي ولا أحب أبدا أن أراهم بعيني هذه ، وكان ذلك يوم 5 جوان 1848 .

فأمر سان جرمان في الحين بأبعادهم . وهدأ عندئذ حاله ، فاستراح بعض الشيء ثم كلف 30 صبايحيا قادوه إلى ديدية Didia حيث قضى ليلته هناك وفي اليوم الموالي حمل الجاويش عمر بن عبد الله أمتعته وحوائجه وأفراد عائلته على 60 بغلا الذين قدمهم إليه أولاد عبد الرحمن بالكبايش وساقه إلى قارته : Garta حيث قضى الليلة الثانية بها . وفى اليوم الثالث وصل إلى بسكرة . ووضع في حي عسكرى حتى يستريح ، ومنع أى واحد من الاتصال به بطلب منه . وكلف الضابط بونمان Bonnemain (مصطفى) الذى يحسن العربية بالاتصال به والتحادث معه ، فظن أنه عربي وغضب وكاد أن يطرده من مكان إقامته إلى أن ذهب سان جرمان ، وكانروبير ، إليه ، وأبلغاه بأنه ضابط فرنسي وليس عربيًا ، ولكنه يحسن العربية فهدأ حاله وانشرح باله ، وطلب أن يكون مرافقا له من بسكرة إلى قسنطينة[27] . فأخذ طريقه من بسكرة إلى باتنة

27) المصدر نفسه . ص 394 - 396 .

ومنها إلى قسنطينة حيث قضى بها ثلاثة أيام ، ثم سافر بحرا إلى الجزائر العاصمة وخصص له مرتب شهري ، وبقي ينتظر الإذن له بالسفر إلى البلاد المقدسة ولكنهم خدعوه كما خدعوا قبله نظيره الأمير عبد القادر . ولم يطل به الأمر إذ توفي في شهر أوت عام 1850 ودفن في مقبرة ضريح سيد عبد الرحمن الثعالبي .

د . يحي بوعـــزيز
جامعة وهــران

□□□

مراجـــــع الكتـــــاب

ومنها إلى قسنطينة حيث قضى بها ثلاثة أيام، ثم سافر بحرا إلى الجزائر العاصمة وخصص له مرتب شهري. وبقي ينتظر الإذن له بالسفر إلى البلاد المقدسة ولكنهم جاءوه لا بعد عزل قيادة ثورة الأمير عبد القادر، ولم يطل به الأمر إذ توفي في شهر أوت عام 1850 ودفن في مقبرة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي (2).

د. يحي بوعزيز

بطاقة تعريفية

بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع

بالعربيــــة

ـــ أحمد باي (الحاج) : مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ترجمة الزبيرى (محمد العربي) . (الجزائر 1973 م) 201 ص .

ـــ بوعزيز (يحي):

1 - الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائرى . ط 3 (تونس . 1983) 366 ص .

2 - ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (قسنطينة دار البعث 1980) 550ص .

3 - الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر 1965) 220 ص .

4 - ثورة 1871 دور عائلتي المقراني والحداد . (الجزائر 1978) 471 ص .

5 - كفاح الجزائر من خلال الوثائق (تحت الطبع) .

6 - علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500 . 1830 م (د . م . ج . 1985) 206 ص .

ـــ التميمي (د . عبد الجليل) : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي . تونس والجزائر وطرابلس . 1816 . 1871 م (تونس 1972) 358 ص .

ـــ خوجة (حمدان بن عثمان) : المرآة . تقديم وتعريب وتحقيق الزبيرى (د . محمد العربي) (الجزائر 1982 م) 310 ص .

ـــ الزبيرى (محمد العربي) : التجارة الخارجية للشرق الجزائرى . (الجزائر ـــ بدون تاريخ)351 ص .

ـــ الزهار (الحاج أحمد الشريف) : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (تحقيق ونشر المدني ـــ أحمد توفيق) . (الجزائر 1974) 196 ص .

ـــ الزياني (محمد بن يوسف) : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تعليق وتقديم المهدى البوعبدللي (الجزائر 1979م) .

ـــ سعيدوني (د . ناصر الدين) :

أ) النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800 - 1830 م (الجزائر 1979) 341 ص .

ب) دراسات وأبحاث فى تاريخ الجزائر (الجزائر 1984) 355 ص .

ــ ابن شعيب (محمد المهدى) : تاريخ قسنطينة أم الحواضر في الماضى والحاضر (قسنطينة 1980) .

ــ ابن عبد الكريم (د . محمد) : أحمد بن عثمان خوجة الجزائرى ومذكراته . (دار الثقافة بيروت 1972) 255 ص .

ــ ابن العنترى (صالح) : سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة : نشر وتحقيق رابح بونار ، تحت عنوان مجاعات قسنطينة (الجزائر 1974) 76 ــ ص .

بعض المجلات والجرائد :

المبشر (1847 - 1899) .

الأصالة (1971 - 1981) .

الثقافة (1971 - 1985) .

المجلة التاريخية المغربية (1974 - 1985) .

الأخبار (1845 - 1880) .

● ● ●

المصادر الأجنبية

- Achille (Robert): Autographe d'el- Hadge Ahmed Ben Mohamed Cherif, dernier bey de constantine, en R.N.M.S. A.C. (Constantine — 1919) pp 147-157.

— ANONYME :

a) Journal de L'Expedition et de La Retraite de Constantine en 1836 par un officier de l'Armée d'afrique (Paris - 1837) 92p.

b) Receuil de Document sur L'expedition et La Prise de Constantine par les français en 1837 pour servir à l'histiore de cette campagne atlas (.Paris - 1838) 5 planche.

c) **Constantine** , son passé , son centenaire (1836 - 1937) en ; R.N.M.S. A.C.(Constantine 1938) vol. 64 p 492 p.

- Badja (Abdelkrim) : La Bataille de Constantine 1836, 1837 (Constantine imr el Baath S.D.) 64 P.

— Baudens (dr.) : Journal d'un Medicine de l'expidition de constantine (rev. Paris 1838) t.l.11.pp. 5 — 37,89 - 124 repris sous le titre, relation de L'expedition de Constantine (bailliere 1838) 73p.

— berbrugger (auguste);

a) Les Epoque Militaire de La Grande Kabylie. R.A.F.T.U. (1860)

b) Le Pegnon d'Alger ou les origines du gouvernment Turc en Algerie. Raf (1856 — 1857)

c) Notes Relatives à la revolte de Ben Sakheri R.A.F. (1866) pp 337 — 352.

d) Un cherif kabyle en .R.A.C.T.3. (1858) pp.

— Biconet (e.): Une lettre de bey de Constantine en 1827 .R.A.F. (1889) pp 172 - 181.

— **Bonnafont** (dr);

a) Reflixion sur l'Algerie particulierement de la province de Constantine (Paris 1846) 59p .

b) Douze ans en algerie (1830 - 1842)(Paris 1883) 441p .

a) Buisson d'Armandy (general) : La prise de Bon en 1832 . extrait des mémoires de M. le general d'Armandy .

— .rev. de bretagne et de vendée (1882) 6 em sérié T.1.pp 405 —422 . T 11. pp.29 — 45/181 — 197. (à part nantes forest et grimand) S/D/ (1882) 48p.

— **Cadart** (general .ch .r) : Souveniras de Constantine, journal d'un officier du génié redijet en 1838 — 1839 et coordonée en 1839 .par le general ch . Cadart (Firmin Didot - 1894) in 18 VIII- 385 p.

— **Carrette** : Etude sur La kabylie (exploration scientifique de l'Algerie).

— Carrette et warnier ; Discription et division de l'Algerie (Alger 1847) .

Cherbonnet (A);

innscription arabe de La province de constantine .IN.R.N.M.S.A.C. (Constantine 1854) 1855 pp. 70 — 139.

Delphin (G.) : Histoire des pachas d'Alger de 1515 a 1745. extrait d'une chronique indigéne.

Traduit et annoté in journal asiatique. 1 er partie (Avril ? juin? 1922) pp 161 233 2eme partie (Janvier — Mars — 1925). 15p

— **De Paradis** (venteure.) alger au XYIII seicle (alger 1898).pp.

— **De Voisins** (V.): Expedition de Constantine (Pares 1840) 148 p.

— **De Voulx** (Albert) ;

a) les archives du consulat de france à Alger. (Alger — 1867)

b) Biographie de Rais Hamidou .R.A.F. (1913).pp.

- **Tachrif at** . Recuil des notes historique sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger (Alger 1852) 99p .

Dournon (A) :

a) Kitab tarikh Qosantina par el Hadj Ahmed el Mobarak. R.A.F. (1913) pp 265 - 305.

b) Constantine sous les turcs d'aprés Salah el Antri. IN.R.N.M.S A.C. (Constantine 1928 - 1929) pp. 61 - 178 (& part challamel 1930).

- **Duc d'Orleans** (le): Campagnes de l'armee d'Afrique 1835 - 1839 - (Paris 1870) 460 p.

- **Du Granmont** (H.D.D.E) Histoir d'Alger sous la domination turque 1515 . 1830 (Alger - 1887) 420 p. de Tassy (Langier): histoire de royaume d'Alger (1725) .

- El-Antri (Salah): Premiere essai d'une histoire de Constantine (Constantine felix geunde imprimeur et lithographe place de palais 1846) 2em ed 1852 sous le titre Faeida Mounissa. (la perle agreable) (texte arabe) .

- Emerit (Marcel);

- a) Les memoires d'Ahmed bey dernier bey de Constantine in rev .AF (1949) PP 65-125

b) Hadj Ahmed bey et la résistance constantinoise à la conquete française .in encyclopédie "les africains" tome 8 (Paris ed. Jean afrique (1977) p 101 - 131.

c) Le Mystére de Yasuf .R.A.F. (1952) pp 385 - 399.

- Esquer (Gabrliel): Les debuts de Yasuf à L'Armeé d'Afrique d'apres des documents iné dits (1830 - 1838) R.A.F. (1910) pp 225 - 300,

- Feraud (CH.L.):

a) Oued el Kebir et Collo .R.A.F (1858 - 1859) pp.

b) Zebouchi et Osman bey .R.A.F (1862 pp 120 - 127.

c) Epoque de l'etablessement des turques à Constantine R.A.F. (1866) pp 179 - 196

c) Monographié de palais de Constantine R.N.M.S.A.C (Constantine 11867)

e) Kitab el Adouani ou le sahara de Constantine et de Tunis R.N.M.A.C (Constantine 1868) pp 1-208.

f) Ferdjicua et zouara .notes historiques sur la prorrience de constantine ref (1878) pp 5-81. 161,241,321.

g) Notes Hostoriqques sur la province de Constantine Raf(1886)

h) Histoire des villes de la province de Constantine ,Setif, Bordj bou arreridj, Messila, Boussaada (Constantine 1872) 379 p

i) Le Sahara de Constsntine (Constantine 1887) 525 p.

j) Lettres autographe de Mohamed manauanni bey de Constantine 1824 1826 R.A.F (1874) pp 413 . 417.

Gaid (Mouloud);

a) L'Algerie sour les turcs (Tinis 1973).

b) Chronique des beys de Constantine (Alger .O.P.U.S ans date) 160 p.

c) Histoire de Bedjaia et sa region depuis l'antiquete jusqu à 1954 (Alger 1976 196 p.

- **Galibert (Leon):** L'Algerie ancienne et moderne (Paris 1846)

- **Garrot (henri)** :Histoire General de l'Algerie (Alger 1910) 1189 p.

julien (CH.A) : Histoire de l'Algerie contamporain 1827 - 1871. (Paris .puf 1964) 613 p.

Haido (Fray Diégode) : Epitomée des rois d,Alger 1596. traduit et annoté par du grammont (Alger 1884).

- **La Cheraf (mostefa):** Contantine, politique et militaire dans les guerres coloniales d'Algerie 1830 - 1860 (Temps Modernes Janvier 1961) pp 727 800

- **La Malleu (Dureau de):** Province de Constantine recueil de Renseignements pour l'expedition ou l'etablissement des français dans cette partié de l'Afrique septentrional (Paris 1837) 315 p.

- **Marnol (Luis Carvajal):** Descripcicn general de Africa 1573 1599 (Madrid 1933) 3 tome.

- **Mercier (Ernest) :**

a) Les Deux sieges de Constantinie 1836 - 1837 (Constantine - 1896) 100 p.

b) Histoire de Constantine (Constantine 1903) V.730 p.

- Mercier (Ernest) :

- **nousHi (Andre):**

a) Constantine a la veille de la Conquete, cahiers de Tunisie (1955) PP370 -387.

b) Enquete sur le niveau de vie des populations rurales Constantinoises de la conquete jusqu à 1919 (tunis 1961) LXXIII, 767 p.

- **Péchot (L):** Histoire de l'Afrique de nord. T III. (periode Turque).

- **Pelissier de Reynaud (E):** Annales Algerienes .(Alger 1854) 3 T.V II-478 + 517 + 535 p.

- Peyssonnel et des Fontane : voyage sur les cotes barbarie en 1824 1825. voyage dans les regences de Tunis et d'Algerie (alger 1838).

- **Rousseau (Alphonse):** Les annales tunisiennes.

- **Rousset (Camille):** Les commencements d'une Conquete ; L'Algerie de 1830 à 1840 (alger 1887) 2 T 496 p

- **Schluser (Von Dlin):** le peylik de Constantine et Hadj Ahmed bey 1832 - 1837. traduit en langue arabe par Belaid Doudou (Alger 1980)

- **Sedillot (Dr.C):** campagne de Constantine de 1837 (paris 1838) 304 p.

- **Saint Calbre** (c) Constantine et quelque auteurs arabe constantinoises R.A.F (1913) pp. 70 - 95.

- **Sander Rong** : de fondation de la regence d'Alger in tableaux des etablissements français en Afrique 1838 (Paris 1839) 239 p (1840) 365 p.

- Tableaux des etablissements français en Afrique (1839 - 1840).

-**Temini (dr.Abu El Jelil)**:

a) Trois lettres de Hadj ahmed bey de Constantine a la sublime porte in R.O.M.M.N 3 (aix en provence 1968) pp 132 - 152.

b) Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed 1830 - 1837 (Tonis 1978) 303 p.

c) Recherches et Documents d'Histoire magrebine, la Tunisie, l'Algerie, et la tripolitaine de 1816 à 1871 (Tunis - 1971) 336 p.

- **Trumelet** (c.): Le general Yusuf. (p. ollendorf 1892) 240 L 545 + 507 p.

- **Vayssettes (E.)**:

a) Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 A 1837 R.M.S.A.C (Constantine 1867) pp 241 - 352 (1869) pp 255 - 392 (1869) p. 453 - 620 p.

b) Histoire des derniers beys de Constantine depuis 1793 jusqu à la chute de Hadj Ahmed R.A.F (1858.59) : pp 107 128. 193-198 270 (1860) pp (1861) pp 93 - 113. (1862) pp. 206 - 213, 383 - 392, (1863) pp 114 - 126.

- Walsin es terhzy (M.) : de la domination Turqus dane l'ancienne regence d'Alger (Alger 1840) XX II - 327 p.

- Watbled (Ernest) : Souvenirs de l'armée d'Afrique . cirta Constantine. 1er expedition de Constalntine. 2em expedition et prise de Constantine R.A,F.T.X.I.V. (1870) p 20 - 208 253 - 279, 305 - 325.

- **Yver (Georges,)**:

a) Si Hamdan ben Othman Khodja R.AF. (1913) pp 96 - 138.

b) Correspondances de general Damrémont 1837 collection de documents inedits sur l'histoire de l'Algerie aprés 1830 (Paris 1927) 788 p.

c) La Question de Constantine en 1837. II congrés des sciences his. (Alger 14 - 16 Avril 1930) (Alger 1932) pp 385 - 393.

d) Correspondances de marechal Valeé (Octobre 1837 Mai 1838) Paris. Larose 1949) . 468 p.

Des Revaux et des Journaux:

- Bulletin officiel du governement general de l'Algerie (année 1870 - 1873). (B.O.G.A.)

- Recuell des Notices et Memoires de la societe archeologiaue. Histoire et Geographie du departement de constantine (année 1925 - 1927) . (R.N.M.S.A.H.G.P.C.).

- Revue africaine (année 1856 - 1956) . (R.AF.)

- Revue de Paris (année 1917) (R.P.).

- Revue des deux mondes (année 1873) (R.D.M.).

- Revue d'histoire maghrebien (année 1974 - 1985) (R.H.M.).

- L'Algerie Française (1871) (A.F.).

- Al Akhbar (1845 - 1871).

• • •

فهـرس الموضوعـات

الموضـوع **الصفحـة**

□□□□

روضة النسرين

في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين

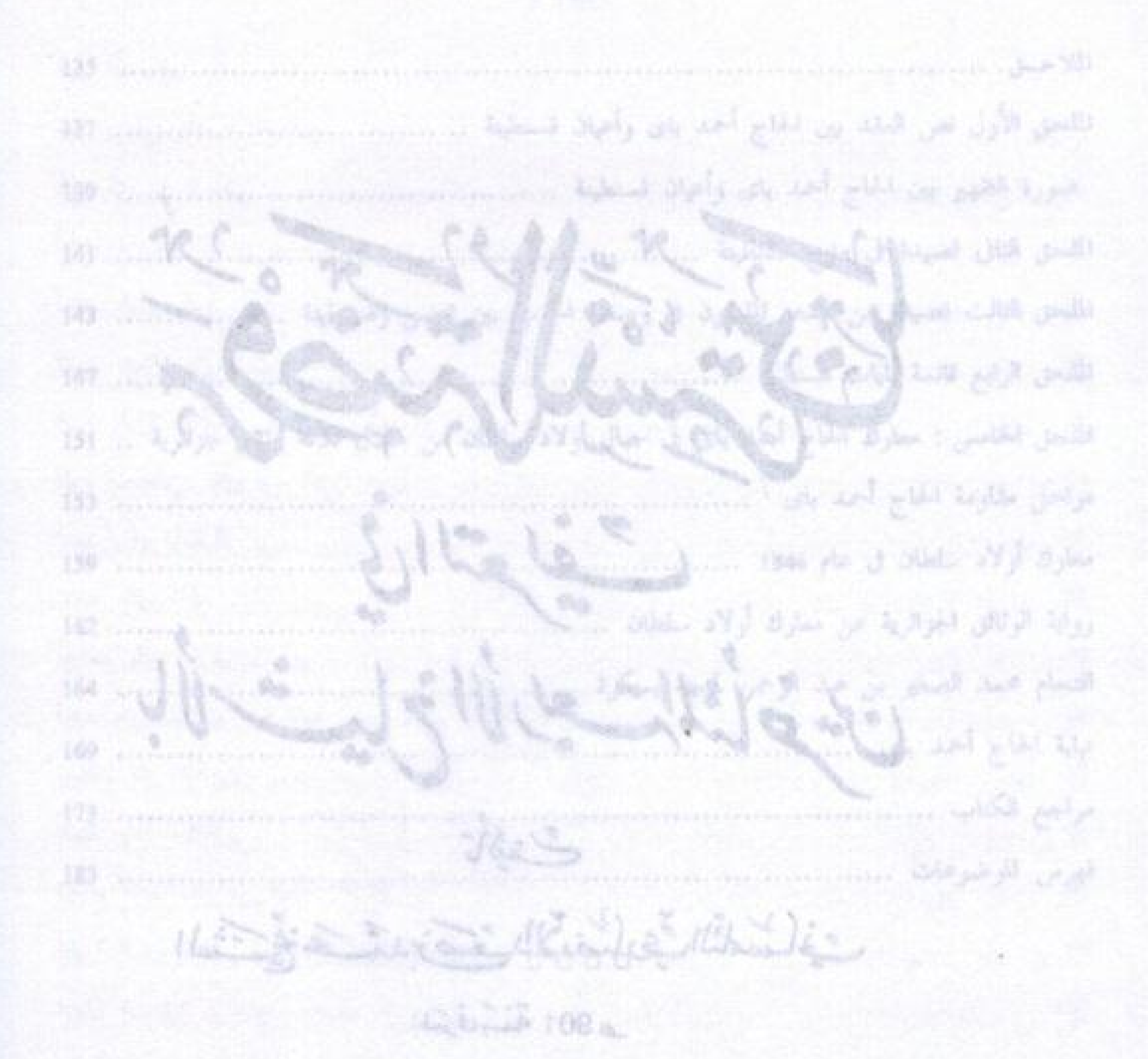
تأليف

الشيخ محمد بن صعد الأنصاري التلمساني

المتوفى سنة 901 هـ

مراجعة وتحقيق

الدكتور يحيى بوعزيز



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

في التعريف بالمخطوط

«روضـة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين»، اعتمدنا في تحقيق هذا المخطوط على نسختين اثنتين:

النـسخة الأولى: بالمكتبة الوطنية في الجزائر تحت رقم (2596)، وعنوانها في بداية الصفحة الأولى هو ما أثبتناه هنا أعلاه، وبها (497) صفحة، الأخيرة منها بيضاء، طول كل ورقة (20) سنتيم والعرض (15) سنتيم، وعدد الأسطر (11)، وهي مكتوبة بخط مغربي جميل جدًا، واضح، ونقي، واسع، وليس بها شطب، ولا يُعرف ناسخها ولا تاريخ النسخ لأنها مبتورة في الأخير ببضعة أسطر فقط من الخاتمة، في الورقة الضائعة ونعتقد أن اسم الناسخ وتاريخ النسخ كانا ضمن الأسطر الضائعة والمبتورة.

وقد صور لنا هـذه النسخة مدير المكتبة الوطنية السيد «عبد الكريم باجاجة» ونائبه السيد «نوار جدواني»، على فيلم وسحبها لنا على الورق مسئول قسم الميكروفيلم في الأرشيف الوطني الجديد ببئر خادم، بأمر من السيد عبد الكريم باجاجة الذي أصبح مديرًا له، وبمساعدة أمينه العام عبد الكريم غربي، فإليهم شكري وتقديري، وتراجم العلماء الأربعة في هذه المخطوطة غير متوازنة وتم ترتيبهم حسب تاريخ وفاتهم.

* **الشيخ محمد بن عمر الهواري** له (190) صفحة من (1) إلى (190).

* **الشيخ الحسن أبركان** (54) صفحة من (191) إلى (245).

* **الشيخ إبراهيم التازي** (114) صفحة من (245) إلى (359).

* **الشيخ أحمد الغماري** (147) صفحة من (360) إلى (496).

○ **أمّا النسخة الثانية:**

فتوجد بالمكتبة العامة في الرباط تحت رقم (1006 ك)، والكاف إشارة إلى خزانة عبد الحي الكتاني بفاس، التي آلت ملكيتها إلى الخزانة العامة بالرباط، وتوجد هذه النسخة ضمن مجموعة أوراق عدد صفحاتها (82) صفحة من (450) إلى (531)، وهي مبتورة في الوسط بصفحتين اثنتين (507، 508) من ترجمة الشيخ إبراهيم التازي، ومبتورة في الأخيرة بضياع ترجمة العالم الرابع أحمد الغماري كلها ما عدا أحد عشر سطرًا في بدايتها.

وخط هذه النسخة مغربي كذلك ولكنه مضغوط جدًا، وكل ورقة بها (29) سطرًا، وتوجد بها فراغات في الأسطر لكلمات وجمل وتهميشات على الحواشي يمينًا ويسارًا.

شملت ترجمة الشيخ الهواري (41) صفحة من (450) إلى (491).

وترجمة الشيخ الحسن أبركان (11) صفحة من (492) إلى (503).

وترجمة الشيخ إبراهيم التازي (28) صفحة من (503) إلى (531).

وليس لهذه النسخة عنوان، كما أن ناسخها غير معروف كذلك.

وقد تفضل الأستاذ عبد العزيز الساوري الموظف بديوان وزارة الشئون الثقافية المغربية، الذي زودنا مشكورًا بنسخة من هذه المخطوطة، تفضل بإثارة مشكل عنوان المخطوطة وقال: «وعنوانه الصحيح»: «**روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخـــرين**». ونحن نميل إلى رأيه ونرجحه؛ لأن موضوع التراجم كله استعراضٌ لمناقب هؤلاء العلماء الأربعة وأخلاقهم وكرامتهم، وحتى الشيخ المرحوم

بلهاشمي ابن بكار مفتي معسكر ذكر في كتابه: «مجموع الحسب والنسب»، هذا العنوان: «روضة النسرين في مناقب الأربعة الصالحين»، وخالف فقط في الكلمة الأخيرة حيث عبّر عنها بالصالحين بدلاً من المتأخرين.

- ولأهمية رسالة الأستاذ عبد العزيز الساوري نوردها فيما يلي:

الرباط في (94/02/28)

السيد الأستاذ: يحيى بو عزيز المحترم

تحية المودة والتقدير... وبعد:

فأشكرك جزيل الشكر على رسالتك الأخيرة وما تضمنته من كلمات نبيلة وعواطف صادقة، كل ذلك كريم شيمك وما عرفته فيك من فضائل وتواضع علمي، فجزاك الله خيرًا وأرشدك إلى نبيل الأعمال وجليل الأفعال.

بخصوص كتاب «روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين» وعنوان الصحيح: «روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين»، تأليف ابن صعد محمد بن أحمد بن أبي الفضل سعيد الأنصاري التلمساني. المتوفى بمصر سنة (901هـ). هو غير موجود في الخزانة الملكية (الحسنية حاليًا) بالرباط، كما ذكر لي الزميل د: محمد رزوق، وإنَّما في الخزانة الفاسية كما ذكر الزركلي في الأعلام... والخزانة الفاسية هي المكتبة الكتانية (خزانة محمد عبد الحي الكتاني بفاس) أغلب التراث الجزائري موجود بها، وقد آلت إلى الخزانة العامة بالرباط بعد الاستقلال، ويحمل رقم (2006ك): تعني الكتانية.. بخط مغربي مبتور من الأخير، وهو آخر كتاب في المجموع من صفحة (450) إلى (531)، وتبقى هذه النسخة وحيدة في المغرب وربما في العالم، والأشياخ الأربعة:

1) أبو إسحاق إبراهيم التازي نزيل وهران ودفينها عام (866هـ).

2) محمد الهواري. 3) الحسن أبركان.

4) أحمد بن الحسن الغماري.

وأتمنى في الأخير أن تزودوني بمؤلفاتكم العلمية كسعد السعود أو كتاب عن مليلية... وتقبلوا مني سيدي فائق الاحترام..

عبد العزيز الساوري

(الإمضاء)

وقد اعتمدنا أساسًا على المخطوطة الأولى، مخطوطة الجزائر لأنها كاملة، واضحة، ونقية وتم ترتيب العلماء الأربعة المترجم لهم حسب تاريخ وفاتهم، وهم كلهم من علماء القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي:

- الشيخ الهواري (751 - 843هـ) : (1351 - 1439م).
- الشيخ الحسن أبركان توفي آخر شوال (857هـ)، 2 نوفمبر (1453م).
- الشيخ إبراهيم التازي توفي يوم 9 شعبان (866هـ)، 9 ماي (1462م).
- الشيخ أحمد الغماري توفي يوم 12 شوال (874هـ)، 14 إبريل (1470م).

وبما أن المخطوطتين ليستا بهما عناوين فرعية داخل النص، فقد قمنا نحن بوضع تلك العناوين حسب الموضوعات وصدرنا المخطوط بوضع تراجم مختصرة لمؤلف الكتاب نفسه ابن صعد، وللعلماء الأربعة موضوع المخطوط؛ لأن النص الأصلي محشو بالاستطرادات والحكايات والطرائف والنوادر، وخوارق العادات التي كثيرًا ما تكون خارجة عن الموضوع، ومحشو كذلك بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والأشعار الملحونة والأمثال، والقصص التاريخية والاجتماعية وتلك هي طريقة مؤلف ذلك العصر.

وقد مرَّ الآن على تأليف هذا المخطوط خمسة قرون وزيادة وآن الأوان

ليرى النور لكي يطلع الناس على سير هؤلاء العلماء الفضلاء الذين كان لهم دور في زمانهم، ويُمكن للأجيال أن تستفيد من خصالهم وسلوكهم وأعمالهم الحسنة والطيبة وهو الأمر المطلوب من قراءة سير العظماء خاصة العلماء منهم، وللتسهيل على القارئ معرفة بداية الصفحات في المخطوط وضعنا أرقامها بين قوسين.

وقد وضعنا قبل استعراض النص تراجم مختصرة للعلماء الأربعة كمدخل نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن ينفعَ الأجيال بهذا العمل، وأن يرزقنا حسن الثواب عنه والسلام.

الدكتور يحيى بوعزيز

معهد التاريخ - جامعة وهران

الجمعة 13 شوال (1414هـ)

الجمعة 25 مارس (1994م) - وهران حي جمال الدين

***

التعريف بالشيخ ابن صعد التلمساني

(توفي في رجب 901هـ- 16 مارس 14 إبريل 1496م)

هو محمد بن أبي الفضل بن سعيد بن صعد التلمساني، من مواليد القرنين التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي، ولم يذكر المترجمون له تاريخ ميلاده بالضبط واكتفوا بذكر تاريخ وفاته فقط، ومنه نعرف أنه ابن القرن (9 هـ - و15م)، أشاد به كل من ترجم له وذكروا أنه من أكابر علماء تلمسان وفقهائها ومحصليها، كما ذكروا أنه ألَّف عِدَّة كتب منها:

1) النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب.

2) روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين.

3) كتاب في الصلاة على النبي ﷺ.

ومما قاله فيه شعرًا مُحمد العربي الغرناطي أحد فضلاء الأندلس:

إذا جـئـتَ تلمـسان	**فقل لـصنديدها ابن صعد**
علمك فاق كل علم	**ومجدك فاق كل مجد**

ومن العلماء الذين أخذوا عنه وتتلمذوا عليه الحافظ محمد بن عبد الجليل التنسي، والإمام محمد بن يوسف السنوسي، قطب علمي التوحيد والتصوف، وهذا مِمَّا يؤكد مكانته العلمية والثقافية وعلو قدرته ومركزه.

ولكن المصادر التي تحدثت عنه كانت شحيحة جدًا، ولم تسجل لنا أخباره المستفيضة مِمَّا يسمح لنا بالتعريف به أكثر، وقد رحل إلى الشرق في فترة لم نعرفها بالضبط آخر القرن التاسع الهجري، ولا شك أنه قصد أن يحج ويؤدي فريضة الحج إلى جانب الغايات الأخرى خاصة التزود بالعلوم والمعارف والتعرُّف على العلماء والفقهاء والمتصوفين كما هي عادة كل

علماء المغرب الإسلامي الذين يقصدون المشرق، ولسنا ندري هل أدّى فريضة الحج فعلاً ومتى تم ذلك وكل ما نعرفه أنه توفي بالديار المصرية وبالقاهرة وبالذات خلال شهر رجب من عام (901هـ)، وهو ما يوافق 16 مارس - إبريل (1496م).

وكان معاصرًا للعلماء الأربعة: محمد بن عمر الهواري، وإبراهيم التازي، والحسن أبركان، وأحمد الغماري، الذين ترجم لهم في موسوعته الكبرى «النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب»، وفي كتابه الذي خصصه لهم وهو: «روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين» الذي نقدمه اليوم للقراء بعد مضي خمسة قرون كاملة وزيادة على تأليفه، وعنوانه الصحيح: «روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين».

ومِنْ ضِمْن مَنْ ترجم لابن صعد ولو بكيفية مختصرة ومقتضبة وغير وافية أحمد الونشريسي في المعيار، وأحمد المقري في نفح الطيب، ومحمد بن محمد مخلوف في شجرة النور الزكية، وابن القاضي في درة الحجال، وابن مريم في البستان، والحفناوي في تعريف الخلف، والزركلي في الأعلام، وبروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية.

ومِمَّا تَجدر ملاحظته هنا هو أن تراجم ابن صعد لهؤلاء العلماء الأربعة غير متوازنة، فقد توسع كثيرًا في سيرة الهواري، والتازي وتوسط في الغماري والحسن أبركان، ثم إن هذه التراجم تتخللها استطرادات كثيرة وبتوسع في الكرامات وخوارق العادات، وسير أهل البيت وشرفهم، وفي الموضوعات الدينية والاجتماعية المختلفة التي تتخللها آيات وأحاديث كثيرة نبوية لا حدَّ لها ولا حصر، مِمَّا يصح معه القول بأن موضوع المخطوط ديني وليس تاريخًا وسيرًا لهؤلاء العلماء الأربعة بالذات.

اتبع ابن صعد التسلسل التاريخي للذين ترجم لهم حسب تاريخ وفاتهم، فبدأ بالشيخ الهواري وثناه بالشيخ أبركان وثلثهما بالشيخ إبراهيم التازي وختم بالشيخ أحمد الغماري.

- وفيما يلي تعريفات مختصرة لكل واحد منهم كتمهيد لقراءة المخطوط نفسه.

التعريف بالشيخ محمد بن عمر الهواري

(751 - 843هـ - 1350 - 1439م)

ولد محمد بن عمر الهواري في أحواز كلميتو على بُعد عشرين كلم شرق مدينة مستغانم عام (751هـ ، 1350م)، وتربى بين أهله وعشيرته الأقربين من المغراويين، وأوكله أبوه الشيخ عمر إلى الشيخ علي بن عيسى ليعلمه ويحفظه القرآن الكريم، فلاحظ عليه نوعًا من الغفلة والتواكل وعدم الاهتمام بهندامه، وأخذ ينهره ويضربه فعاتبه والده وقال له: لا تضربه حتى ولو كان كسولاً ومغفلاً، لأن ذلك من علامات ولايته ونجابته.

وعندما بلغ سن العاشرة ذهب إلى كلميتو، وتعرّف هناك على ولي صالح يتعبد في غار، ولازمه حتى نال سره وأخذ عليه طريقته الصوفية وبقي عنده مدة من الزمن ثم غادره وغادر كلميتو، وتنقل في مناطق البلاد المختلفة، ومنها الواحات الصحراوية، وركب البحر وزار بعض جزر البحر المتوسط وخالط الوحوش والسباع.

وبعد ذلك اتجه إلى مدينة بجاية واعتكف على الدراسة وتتلمذ على الشيخ أحمد بن باديس، والشيخ عبد الرحمن الوغليسي، شيخي وأستاذي عبد الرحمن بن خلدون، وأخيه يحيى المعاصرين له، وأعجبته بجاية وطاب له المقام بها، كما طابت للشيخ أبي مدين شعيب قبله، فأثنيا عليها وعلى سكانها المضيافين، وعلمائها وأمرائها، وذلك لتقديرهم للعلماء وطلبة العلم، وإيوائهم للغرباء وتقديم العون والمساعدة لهم.

يُضاف إلى هذا استقطاب هذه المدينة للعلماء الفضلاء أصحاب الباع الطويل والواسع في مختلف فروع العلم والمعرفة، وقد سجل هذا الثناء في

نظمه الملحون المسمى بالتسهيل، وفي هذه المدينة بجاية ألَّف كتابه المسمى «بالسهو والتنبيه في أحكام الطهارة والصلاة»، ونظم قصيدته التي سمَّاها: «التسهيل» ولا ندري كم سنة قضاها في بجاية، وما هي السنة التي غادرها فيها.

ومن بجاية عاد الشيخ الهواري إلى مسقط رأسه ثم قصد مدينة فاس للدراسة والتعلُّم كذلك، وجلس إلى حلقة الشيخ العبدوسي والشيخ القباب، وذكر ابن صعد بأنه أتم في فاس كتاب المدونة للإمام مالك عام (776هـ) (1374م)، وهو في سن الخامسة والعشرين كما ذكر أنه في هذه السنة أتم نظم كتابه: «السهو في الطهارة والصلاة»، علمًا بأن ذلك تم في بجاية وليس بفاس، ولعل المقصود بذلك هو إتمام هذا الكتاب، وتنقيحه في فاس وإدخال بعض التعديلات عليه وهناك بفاس تصدى الشيخ الهواري للتعليم والتدريس بعد أن أصبح عالمًا والتف حوله طلاب العلم وأثنوا عليه.

ومن فاس شد الرحال إلى المشرق عبر تونس وليبيا، وعندما وصل إلى مصر أقام مدة في الجامع الأزهر، وتتلمذ على الشيخ الحافظ العراقي وآخرين، ثم التحق بالحجاز وأدَّى فريضة الحج بمكة وزار المدينة المنورة، وتبرك بزيارة قبر الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، ولا شكَّ أنه أخذ العلم على عدد من علماء مكة والمدينة المجاورين هناك وأكثرهم وما أوسع علمهم.

ومن المدينة المنورة انتقل إلى فلسطين عبر غزة والتحق بمدينة المقدس وزار المسجد الأقصى، وقبة الصخرة وقبر الخليل إبراهيم - عليه السلام - ، وباقي المزارات الأخرى، وحضر عددًا من الدروس في المسجد الأقصى، واتصل بالعلماء الموجودين هناك وتعرَّف عليهم، وانتفع بعلمهم وآدابهم،

ولربما ألقى دروسًا هناك، كما فعل في المدن والعواصم الأخرى التي أقام بها أو زارها في المغرب العربي.

ومن بيت المقدس اتجه إلى بلاد الشام وقصد مدينة دمشق الفيحاء، وأقام بها مدة ممن الزمن يدرس على علمائها، ويدرس الطلبة المتعطشين للعلم خاصة ما يتصل بتاريخ المغرب العربي وحضارته، ولو بمجرد حكايات وأقاصيص عنه، وخلال إقامته بدمشق اعتاد الخروج إلى الغوطة للانفراد بنفسه، واستعراض ما حصل عليه من علوم ومعارف، والتفكير فيما يعتزم عمله مستقبلاً.

وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى بلدان المشرق العربي الإسلامية التي لا نعرف متى بدأت ومتى انتهت، قفل الشيخ محمد بن عمر الهواري راجعًا إلى بلاده عبر مدن وعواصم كل من مصر، وليبيا، وتونس، والجزائر، واستقر به المقام في مدينة وهران، التي كانت آنذاك تعج بالنشاط الاقتصادي والعمراني، والثقافي والاجتماعي، واستقطبت جموعًا غفيرة من المهاجرين الأندلسيين الذين حملوا إليها حيويتهم ومهارتهم الفنية: المعمارية، والصناعية، والثقافية، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا.

ويبدو أن الشيخ الهواري استهوته بجاية كذلك وفضل الإقامة والاستقرار بها لتلك الأسباب وتصدى للتعليم والتدريس، والتف حوله عدد لا بأس به من طلبة العلم أغلبهم قدم إليه من الآفاق البعيدة، كما تصدى لتلقين الأذكار والأوراد لعدد آخر من المريدين، من الناحية الدينية والصوفية، وصادف نجاحًا وإقبالاً كبيرين، ولما كان كتابه «السهو والتنبيه» ألّفه باللغة الدارجة، فقد حاول تلميذه «أبو زيد عبد الرحمن مقلاش» أن يُصلح ما به من أخطاء نحوية ولغوية فاعترض عليه وقال له: «دع سهوك عندك، واترك سهوي لي»،

ونهره عن فعله ذاك.

وقد عاش الشيخ الهواري أحداث زحف السلطان الحفصي أبي فارس عزوز على مدينة تلمسان وأميرها الزياني أحمد العاقل الذي توسط بالشيخ الحسن أبركان التلمساني ليطلب من الشيخ الهواري أن يتدخل لدى سلطان تونس من أجل إبرام الصلح، وحقن الدماء وتجنب تلمسان مخاطر الغزو، وهذا يدل على المكانة التي كانت للشيخ الهواري آنذاك.

ولما كان الحسن أبركان تلميذًا للهواري فقد أسرع بإبلاغه رغبة أحمد العاقل، فرفض في البداية بدعوى أنه لا شأن له بالملوك والأمراء، ثم بعد الإلحاح والمراجعة قبل، وقال له: «قل لصاحبك سلطان تلمسان أن يطمئن فسوف لن يرى ولن يتقابل مع سلطان تونس»، وصادف أن توفي أبو فارس عزوز فجأة في سفح جبل الصدر من جبال الونشريس صباح عيد الفطر من عام (837هـ) (11 ماي 1434م) بينما كان الناس ينتظرون خروجه لأداء صلاة العيد، وهو في طريقه إلى تلمسان فأخفى ابنه وفاته، وتوقف عن مواصلة الزحف إلى تلمسان وحمل جثته وعاد بها إلى تونس وكفى الله تلمسان وأميرها شره، وشاع يومئذ بأن الشيخ الهواري هو الذي دعا عليه.

وهناك إشاعة أخرى نقلها كثير من تلاميذه، ومنهم إبراهيم التازي والحافظ أبو راس وشاعت بعد ذلك وانتشرت في كتابات الأوروبيين، ومفادها أن الشيخ الهواري هو الذي دعا على وهران حتى احتلها الأسبان، وذلك أن بعض الناس من سكانها قبضوا على ابن له هائج لمرض ألم به على ما يبدو حتى لقبوه بالهائج، وقتلوه وزعموا أنهم حَكَّمُوا فيه الشرع الإسلامي، فسكت هو وتحمل المصيبة على مضض ولكن زوجته غضبت وألحّت عليه في الاقتصاص، وضربت له عدة أمثلة من الواقع حتى أثرت فيه حتى اتصل

بقاتلي ابنه وحاجحهم، وزعموا له بأن ابنههائج استوجب القتل وطبقوا في قتله أحكام الله، فعارضهم وأكد براءة ابنه مما نُسب له، واشتد غضبه فدعا على وهران بقوله: «روحي يا وهران الفاسقة يا كثيرة الجور والبغي والطارقة، يا ذات الأهل الباغية السارقة، إني بعتك بيعة لنصاري مالقة وجالقة إلى يوم البعث والتالقة، مهما ترجعي فأنت طالقة»، ولما سأله أحد تلاميذه قائلاً: والفرج يا سيدي، استدرك وقال: «والفرج لاحقه»، وهذا التلميذ هو الشيخ إبراهيم التازي.

وفعلاً احتلّ الأسبان وهران بعد (72) عامًا من تاريخ هذا الدعاء الذي لا ندري مدى صحته ونسبته إلى الشيخ الهواري، الذي لا يرضى ولو مع غضبه بأن تسقط مدينته أو أية مدينة إسلامية أخرى في أيدي عدو نصراني كافر خاصة في مثل تلك الظروف التي تكالب فيها النصارى الأسبان وغيرهم على احتلال واستعمار البلدان الإسلامية في إطار الحروب الصليبية البغيضة، وإلاَّ فلا معنى لولايته وتزهده، وعمله، وتدينه وتصوفه.

بقي الشيخ الهواري يواصل نشاطه الديني والثقافي والاجتماعي بوهران حتى توفي عام (1439م) (834هـ)، ودفن بأسفل حي القصبة العتيق، وبني على قبره ضريح ومسجد ما يزالان قائمين حتى اليوم، الضريح مزار، والمسجد عامر تؤدى فيه الصلوات الخمس، والجمعة، وبه تشتهر وهران حتى اليوم وتنسب إليه، ولكن الضريح يوجد داخله تابوت من الحطب، ولا وجود هناك لأية علامة قبر تحته بل هناك أرضية عادية، ودفن معه عام (1944) مفتي وهران الشيخ بولحبال القسنطيني.

حول مدفن الشيخ الهواري

هناك عدة روايات متضاربة حول مدفن الشيخ الهواري، فزعم جان

كازناف في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران عام (1926م) بأن حوش الشيخ الهواري المحاط بسور ما يزال موجودًا وقائمًا في قرية بني تالة قرب مدينة وهران، ولكنه لم يحدد مكان القرية بالضبط.

وأورد المقدم ديدي في الجزء الرابع من كتابه «وهران» عام (1931م) صورًا لأفراد أسرة زعم أنهم من أحفاد الشيخ الهواري عددهم أربعة أخذت لهم يوم (9أوت 1931م) وهم: الهواري، وحامد، ومحمد، وبدرة، يحملون جميعًا لقب بن ستي البشير بن الهواري، وروي عنهم بأن جدهم الشيخ الهواري مدفون في ضريح صديقه الشيخ سيدي سعيد بقرية حاسي الغلة غرب مدينة وهران على الطريق المؤدي إلى عين تيموشنت وتلمسان، وأما الضريح والمسجد الحاليان اللذان يحملان اسمه بمدينة وهران فقد أسسها حفيده: الحاج حاجي وحمو بويعزار عام (1793)، أي بعد عام من تحرير المدينة من الاحتلال الأسباني الأخير.

ومن أجل الزيادة في التحري والتحقيق قمنا بزيارة إلى ضريح سيدي المسعود قرب قرية تارقة شمال قرية المالح على بعد حوالي (65 كلم) من وهران صباح الخميس (5) ذو الحجة (1407هـ) (30 جويلية 1987م)، ولم نجد في الضريح سوى قبر واحد وبجواره مسجد صغير بدأ يتداعى سقفه، ولكن هناك على بعد بضعة أمتار منه آثار لقبر داخل تحويطة، محاطة بثلاثة جدران، ولم يحدثنا أحد لمن هو.

ثم قمنا بزيارة لضريح آخر غرب قرية تارقة بحوالي (4كم) يحمل اسم: سيدي الهواري صباح الخميس (25) ذو الحجة (1407هـ) (20 أوت 1987م)، ووجدناه داخل ضريح تهدم سقفه بفعل السلطات الاستعمارية خلال ثورة التحرير المباركة الأخيرة (1954 - 1962) على ما قال لنا أحد

الرجال هناك، وأكد لنا رجلٌ آخر في تارقة بأن هذا الولي الصالح ليس هو الشيخ الهواري الوهراني، وإنما هو رجلٌ آخر كان صديقًا وتلميذًا للشيخ بختي بن عياد ودفين قرية سيدي بختي ببلاد غمرة شمال قرية حمو بوتليليس، كما أكد لنا بأن بني تالة يوجدون بين قرية زفيزف، وحمام بوحجر قرب سيدي بلعباس، وأن سيدي شافع يوجد قرب قرية عين البيضاء بجوار حاسي الغلة على طريق حمام بوحجر.

إن الحقيقة ضائعة بين الأقوال والروايات، فالأسبان الذين احتلوا وهران ما يقرب من ثلاثة قرون حولوها إلى محتشد للجنود الأسبان وغير المرغوب في إقامتهم بإسبانيا، ولم يبقوا فيها أي أثر للمعالم العربية الإسلامية فكيف سلم قبر الشيخ الهواري ومسجده من التخريب اللهم إذا بلغتهم دعوته عليها باحتلالهم لها، وعندما تحقق لهم ذلك كرموه بالإبقاء على قبره وضريحه ومسجده، ولو أن هذه الرواية مشكوك في صحتها؛ لأنه مهما بلغ غضب الشيخ الهواري على سكانها فلا يُعقل أن يرضى باحتلال النصارى المسيحيين الكفار وهو رجلٌ مربي وعالم وولي صالح متصوف، وإلا فلا معنى لعلمه، وتدينه، وتصوفه، وتزعمه لعلماء عصره.

والروايات العديدة المتوارثة عن دفنه بوهران يصعب تكذيبها خاصة أنه عاش بها، وشهرت به ونقل ذلك تلاميذه وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم التازي وآخرون، ومع ذلك فالرأي الذي أورده ديدي جدير بالدراسة والبحث والتدقيق والله أعلم في الأخير حقيقة الأمر.

وقد أورد ديدي ملحقًا في كتابه المشار إليه آنفًا، يحتوي على أكثر من ثلاثين رسالة بين طويلة وقصيرة، تتضمن الأوقاف التي حبست على ضريح الشيخ الهواري ومسجده والكيفية التي ينبغي اتباعها لصرف مواردها المالية

بعض هذه الرسائل لباشوات الجزائر، والبعض لبايات بايلك الغرب الوهراني والبعض لأشخاص آخرين أثرياء، أولهم قرابة بعائلة الشيخ الهواري، وتواريخ هذه الرسائل متنوعة بعضها في القرن (18م) والبعض في القرن (19م).

ومِنْ جُملة مَن ترجم للشيخ الهواري، محمد بن يوسف الزياني، في دليل الحيوان، والآغا المزاري في طلوع سعد السعود، وأبو راس الناصر في رحلته، وابن مريم في البستان، والحفناوي في تعريف الخلف، ودلبيس في المجلة الأفريقية (1984م)، وبارجيس في كومبليمانت، وديستيق في المجلة الآسيوية وديدي في وهران، وجان كازناف في مجلة الجغرافية والآثار لوهران (1926) وآخرون.

ومِمّا ينبغي تسجيله هنا هو أن الشيخ الهواري رغم مركزه العلمي والديني فإن ثقافته العربية ضعيفة فهو ينظم الشعر بالدارجة ويكتب كذلك بالدارجة، وهو ما أدّى بتلميذه عبد الرحمن مقلاش إلى إصلاح أخطائه في كتابه «السهو والتنبيه»، ولكنه رفض ذلك وأصرّ على إبقائه لغته الدارجة على ما كانت عليه، ونهر تلميذه كما سبق أن ذكرنا، ورد عليه إصلاحاته.

***

التعريف بالشيخ الحسن أبركان

(توفي آخر شوال عام 857هـ - 2 نوفمبر 1453م)

ينتمي إلى قبيلة مزيلة التي تنحدر من بني راشد، ومسقط رأسه قرية الجمعة على وادي يسر غير بعيد عن مدينة تلمسان، ولم يتحدث المترجمون له على تاريخ ولادته، ولكنه كان في نهاية القرن الثامن الهجري، وأمه مصمودية حضرت إلى تلمسان صحبة السلطان أبي الحسن المريني وتزوجها أبوه، وسكن بها قرية المنصورة زمنًا طويلاً قبل أن ينتقل بها إلى حي باب زير في مدينة تلمسان، حفظ الحسن أبركان القرآن الكريم في مسقط رأسه قرية الجمعة، ثم انتقل إلى تلمسان، واعتكف على الدراسة والتعلم، وتلقى العلوم والفنون على أجلة شيوخ وعلماء المدينة أمثال الشيخ إبراهيم المصمودي، والعالم ابن مرزوق الحفيد.

وعندما توفي والده رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ومرَّ على بجاية وتوقف بها مدة، وأخذ العلم على الشيخ عبد الرحمن الوغليسي، ثم انتقل إلى قسنطينة ودرس بها على الشيخ عبد الله المراكشي، ومن هناك انتقلَ إلى تونس، وليبيا، ومصر، ومكة المكرمة، أين أخذ على الشيخ عبد الهادي، وبقي بالحجاز خمس سنوات، ثم عاد إلى تلمسان واستقر بها مع والدته المسنة، بباب زير وتابع دراسته على الشيوخ: إبراهيم المصمودي، ويحيى المطغري، وسعيد، وعيسى أمزيان، وأتقن علوم الحساب، والفرائض والفقه، والنحو، والمنطق، والسيرة النبوية، وتصدى للتدريس فأخذ عليه كل من الحافظ التنسي، والشيخ محمد بن يوسف السنوسي، وعلي التالوتي، وآخرين، وقد عمرت والدته طويلاً، وعندما توفيت دفنها بعين وأنزوته خارج باب الجياد،

وقضى هو حياته في التعليم والوعظ والإرشاد وأكبره سلاطين تلمسان وأمراؤها، وعلماؤها وساروا في جنازته عندما توفي آخر شوال عام (857هـ) الموافق ليوم 2 نوفمبر (1453م).

التعريف بالشيخ إبراهيم التازي

(توفي يوم 8 شعبان 866هـ - 9 ماي 1462م)

من مواليد مدينة تازة بالمغرب الأقصى، ومن قبيلة لنت البربرية ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له عن تاريخ ميلاده، والغالب أنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري، وقد أوكله أبوه إلى الشيخ أبي زكريا يحيى الوازعي الذي اعتنى به كثيرًا، وحفظه القرآن الكريم ورعاه تمام الرعاية، ومن تازة انتقلَ إلى مدينة تلمسان وتتلمذ على الشيخ محمد بن مرزوق الحفيد الذي أجازه، ثم انتقلَ إلى وهران وتعرَّف على الشيخ محمد بن عمر الهواري، ووثق صلاته به ومنها رحل إلى تونس وتتلمذ على الشيخ أبي القاسم عبد العزيز العبدوسي، ثم شد الرحال من هناك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عبر ليبيا ومصر، وفي مدينة مكة المكرمة أخذ على الشيخ القاضي تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي علم الحديث، والرقائق وأجازه عام (830هـ) (1427م)، وعندما انتقل إلى المدينة المنورة أخذ على جماعة من العلماء بينهم الإمام أبو الفتح بن أبي بكر القرشي في نفس العام والذي تلاه.

أتقن الشيخ إبراهيم التازي علوم القرآن، والحديث، واللغة وقواعدها، والأصول، والمنطق، كما أتقن تَجويد القرآن الكريم بصوت جميل حتى أصبح يضرب به المثل وينصت إليه الجميع عندما يتلوه ويجوده، واشتهر بنظم الشعر في الزهد والتصوف، وكان له كناش كبير من الأشعار متداول في الحجاز، ولبس الخرقة الصوفية على الشيخين: شرف الدين المراغي، وصالح بن محمد الزواوي، ثم على الشيخ محمد بن عمر الهواري عندما عاد

إلى وهران.

ومن المشرق عاد إلى مدينة تلمسان بعد أن أدّى فريضة الحج واستقرّ بها بعض الوقت، وأخذ على جماعة من علمائها أمثال الحافظ التنسي والإمام السنوسي وعلي التالوتي، ثم تصدى للتدريس وتتلمذ عليه أحمد زروق الذي أجازه عام (832هـ) (1429م).

ومن تلمسان انتقلَ إلى وهران، واستقرَّ بها إلى جانب شيخه محمد بن عمر الهواري، ولازمه طيلة حياته، واتَّخذ لنفسه زاوية خاصة بأمر منه، ونشط في التعليم والوعظ والإرشاد وتلقين الأذكار، وتحدث عنه الرحالة القلصادي في فهرسته وذكر أنه اجتمعَ به في وهران، وعندما توفي شيخه الهواري عام (843هـ - 1439م) خلفه في مشيخته ونشاطه العلمي والتربوي.

ومن الأعمال الكبرى التي أنجزها إدخال الماء إلى مدينة وهران من منابيعها البعيدة عنها، بعد أن اتفق مع أثريائها على تقديم الأموال اللازمة لذلك، وجرى احتفال كبير بذلك الحدث الذي خفف على الناس عناء الإتيان بالماء من منابعها البعيدة خاصة النساء اللاتي كن يقضين ساعات طويلة من اليوم لإحضاره على ظهورهن بالقِرَب.

توفي الشيخ إبراهيم التازي يوم (8 شعبان 866هـ) (9 ماي 1462م) قرب ضريح شيخه الهواري لمدة خمسين عامًا، وعندما احتل الأسبان مدينة وهران واتخذوا قبره مخمرة، استنكرَ ذلك تلاميذه، ونقلوه سرًا إلى قلعة هوارة التي تعرف اليوم بقلعة بني راشد، ودفنوه هناك وبنوا عليه قبة وضريحًا ما يزالان حتى اليوم مزارين خاصة بالنسبة للعنصر النسوي، وذكر الأغا المزاري في كتابه «طلوع سعد السعود» بأن محل قبره بوهران كان ما يزال محاطًا بحويطة يتبرك به الناس وذلك أواخر القرن التاسع عشر، ولكن هذه الحويطة غير

موجودة اليوم.

إن الشيخ إبراهيم التازي ذو ثقافة متينة، وله شعر غزير في أغراض شتى خاصة الزهد، والتصوف، وذم الدنيا، نورد فيما يلي نماذج عديدة ومتنوعة منها، قال في ذم الدنيا وزخرفها:

أمـا آن أرعـواؤك عـن شنار كفـى بالـشيب زجرًا عن عوار
أبعـد الأربعـين تـروم هـزلا وهـل بعـد العـشية مـن عرار
فخـل حظـوظ نفسك واله عنها وعـن ذكـر المـنازل والـديار
وعـد عـن الـرباب وعن سعاد وزيـنب والمعـازف والعقـار
فمـا الدنـيا وزخـرفها بـشيء ومـا أيامهـا إلا عـواري
ولـيس بعاقـل مـن يـصطفيها أتـشري الفـوز ويحـك بالتبار
فـتب واخلـع عذارك في هوى من لـه دار النعـيم ودار الـنار
جمـال الله أكمـل كـل حسن فللـه الكمـال ولا ممـاري
وحـب الله أشـرف كـل أنس فـلا تـنس الـتخلق بالـوقار
وذكـر الله مـرهم كـل جـرح وأنفـع مـن زلال لـلأوار
ولا موجـود إلا الله حقًـا فـدع عـنك الـتعلق بالـشنار

وله قصيدة أخرى في ذم الدنيا كذلك:

يا صاح من رزق التقى وقلى الدنيا نـال الكـرامة والسعادة والغنى
فاصـرف هوى دنياك واصرم حبلها دار الـبلايا والـرزايا والعـنا
ووداهـا رأس الخطايـا كلـها ملعـونة طـوبى لمن عنها انثنى
لا تغتـر بغـرورها فمـتاعها عـرض معـد للـزوال وللفنا

لعــب ولهــو، زيــنة، تفاخــر ... لا تخدعــنك جــنانها مــر الجنا

خداعــة، غــدارة، نكــارة ... مــا بلغــت لخلــيلها قط المنى

الــيوم عــندك جاهــا وحطامها ... وغــدًا تــراه بكف غيرك مقتنى

فاقــبل نــصيحة مُخلــصٍ واعمل ... تدنــيك من رضوان ربك ذي الغنى

يــدخلك جــنات النعــيم بفضله ... دار المقامــة والمــسرة والهــنا

وله أيضًا من أخرى في ترتيب الوظيفة سمّاها الحسام:

حــسامي ومنهاجي القويم وشرعتي ... ومناجــي في الدارين من كل فتنة

محــبة رب العــالمين وذكــره ... علــى كــل أحياني بقلبي ولهجتي

وأفــضل أعمــال الفتى ذكر ربه ... فكــن ذاكرًا يذكرك باري البرية

ومــا مــن حسام للمريدين غيره ... وكم حسموا ظهرًا لزاهر وباهت

وكــم بددوا شملاً لذي جراة وكم ... أبــادوا عــدوًا مــسهم بمضرة

وكــم دافــعَ الله الكريم بذكرهم ... عــن الخلــق من مكروهة ومبيرة

وأفــضل ذكر دعوة الحي فلتكن ... بهــا لهجًــا في كــل وقت وحالة

فكثــرة ذكــر الــشيء آية حبه ... وحــسب الفــتى تشريفه بالمحبة

وله أيضًا من أخرى - رحمه الله - في مدح الرسول - عليه الصلاة والسلام - :

وخــيرة الخلق مَنْ مِنْ أجله خلقوا ... مُحمــد خــير محمود ومن حمدا

مــن خــصه بلواء الحمد حامده ... وبالمقــام القيامــي الــذي حمدا

ويوم حشر الورى للفضل يرشده ... إلى محامــد لم يرشــده لهــا أحدا

وكثـرة للحمد من أوصاف أمته في اليسر والعسر في الكتب العلا وجدا

صلى الحميد على المحمود أحمد ما بالحمـد أفـصح حماد وما سجدا

لله عـبد شـكور حامـد وعلى قـرباه والـصحب أعلا الأمة الحمدا

وله أيضًا من أخرى في الحبِّ والهوى:

أبـت مهجتي إلاَّ الولوع بمن تهوى فـدع عنك لومي والنفوس وما تقوى

هـو أن الهوى عز، وعذب أجاجه وعلقمـه أحلا من المن والسلوى

وتعذيـبه للـصبِّ عـين نعـيمه وسعى اللواحي في السلى من العدوى

ومن لم يجد بالنفس في حب حبه فلوعـته إفـك وصـوبته دعوى

ولـيس بحـر مـن تعبده الهوى للهـو الدنا فاختر لنفسك ما تهوى

فما الحب إلا حب ذي الطول والغنى وأملاكـه والأنبـيا وأولي التقوى

وخـيرة رسـل الله أفـضل خلقه محمـد الهـادي إلى جـنة المأوى

وله أيضًا من أخرى:

روحـي وراحة روحي ثم ريحاني وجـنتي من سرور الإنس والجان

ومـأمني وأمـاني من سعير لظى ذكـر المهـيمن في سرٍّ وأعلان

ومـدح أحمد أحمى العالمين حمى وذو المقـام الـذي ما قامه ثاني

إلى أن قال:

هـذا السراج هو المنجي لمعتصم هـذا المعاد وملجأ الخائف الجاني

يـا رحمـة الله إني خائـف وجل يـا نعمـة الله إني مفلـس عاني

وله قصيدة في نصح المسلمين حذر فيها من أشياء ورغَّب في أشياء سمَّاها «بالنصح التام للخاص والعام»؛ أولها:

إن شئت عيشًا هنيئًا واتباع هدى فاسمع مقالي وكن بالله معتضد

وتُسمى بالدالية وقد علّق عليها شرحًا صاحب البستان. وله قصيدة أخرى أخرجها في الشوق إلى بيت الله الحرام أولها:

ما حال من فارق ذلك الجمال وذاق طعم الهجر بعد الوصال

قصيدة المرادية للشيخ إبراهيم التازي

وله قصيدة أيضًا تقرأ مع وظيفته التي جمعها في الأذكار تقرأ في كل وقت من ليل أو نهار، أولها:

مرادي من المولى وغاية آمالي دوام الرضا والعفو من سوء أعمالي

وتُسمى باللامية، كما تُسمىٰ بالمرادية وشرحها محمد الصباغ القلعي في القرن العاشر الهجري (16م)، وسمى شرحه عليها: «شفاء الغليل والفؤادي في شرح النظم الشهير بالمرادي»، كما شرحها أيضًا ابن مريم في كتاب البستان كذلك، ومنها جزء من أولها:

مرادي في المولى وغاية آمالي دوام الرضا والعفو عن سوء أعمالي

وتنوير قلبي بانسلال سخيمة به أخلدتني عن ذوي الخلق العالي

وإسقاط تدبيري وحولي وقوتي وصدقي في الأحوال والفعل والقال

وفي حبه وحب صفوته الرضا ملائكة وأنبياء وإرسال

وحب النبي الهاشمي محمد وأصحابه الغر الأفاضل والآل

وحب رجال خالفوا النفس والهوى وخافوا مقام الواحد الصمد العاليض

رجال كرام في النفيس تنافسوا شروا عارض اللذات بالغابر الغالي

فليس لهم في غير حب إلاههم غرام ولا في كسب جاه ولا مال

رجـال كـرام قـوتهم ذكر ربهم | قـيامًا قعـودًا في صـدور وأقبال
وشـيمتهم ترك المطامع في الورى | فلـيس لِمخلوقٍ عليهم من أفضال
على الصبر والإيثار راضوا نفوسهم | فكلـهم نـدب وحامـل أثقال
صـدورهم مـن كل ضغن سليمة | كـرام السجايا أهل سمح وأجمال
هـم القوم لا يشقى جليسهم بهم | يحـق لمـن ولاّهـم جر أذيال
فمذهـبهم قـتل النفوس ومحوها | فمن مات قبل الموت ليس بمقتل
وكـل جـبار قَـلَّ أن يبلغ المنى | ومـا عاملوا في فوزهم مثل بطال
وكـل بخـيل فهو عنهم بمعزل | فمـا يعـبأ الـرب الكريم ببخال
وغـنم مـريد بانقـياد لكامـل | لـه خـبرة بالوقت والعلم والحال
هو السر والإكسير والكيميا لمن | أراد وصـولاً أو بقـا قـيد آمال
وقـد عدم الناس الشيوخ بقطرنا | وآخـرهم شيخي ومعظم إجلالي
وقـد قـال لي لم يبق شيخ بغربنا | وذا مـنذ أعـوام خلون وأحوال
يُـشير إلى أهـل الكمال كمثله | علـيه مـن الله الرضى ما تلا تال
ونـص على حب التشبه شهمهم | أبـو مدين الغوث المعاصرو التالي
وقـد قـال حـب الأولياء ولاية | ولي إلاه الـشاذلي ابـن بطـال
سـليل شفيع الخلق يوم انبعاثهم | ومـنقذهم مـن موبقات وأهوال

وقصيدة أخرى في مدح النبي ﷺ:

بإحـسان ذي الطول أهل الكرم | لي الحمـد حمـدًا يـوافي النعم

وقصيدة أخرى في الحجيج بلَّغَنا الله ذلك المقام الشريف أولها:

ألفـت هــواك علــى قـدم أسـير إلـيك علـى القـدم

وهي على حروف الهجاء من الألف إلى الياء، وقصيدة أخرى أولها:

رويــدكم فمــا سمــع بقابــل لغــى لاغ ولا يــصغي لعاقــل

وله قصيدة مشهورة بالزيارة أولها:

زيــارة أربــاب التقــى يــبرى ومفـتاح أبـواب الهداية والخير

وزاد كات بهذه النسخة تمام القصيدة وهي[1]:

وتحـدث في القلـبِ الخلي إرادة وتشرح صدرًا ضاق من سعة الوزر

وتنـصر مظلـومًا وتـرفع خاملا وتكـسب معدومًا وتجبر ذا كسر

وتبـسط مقبوضًا وتضحك باكيا وتـرفع بالـبر الجـزيل وبالأجر

علـيك بهـا فالقوم باحوا بسرها وأوصوا بها يا صاح في السر والجهر

فكـم خلصت من لجة الإثم فاتيا فألقـته في بحـر الأنابـة والـسر

وكـم مـن بعـيد قربته بجذبة تفاجـأة الفـتح المـبين من البر

وكـم مـن مـريد ظفرته بمرشد حكـيم خـبير بالـبلاد وما يبرى

فألقـت علـيه حلـة يمينـية مطـرزة بالـيمين والفتح والنصر

فـزر وتـأدب بعد تصحيح توبة تـأدب مَملـوك مـع الملك الحر

ولا فـرق في أحكامها بين سالك مـرب ومَجذوب وحي وذي قبر

وذي الـزهد والعباد فالكل منهم علـيه ولكـن الـشمس كالبدر

وزورة رسـل الله خـير زيـارة لهـم درجـات في المكانة والقدر

(1) لا توجد هذه الزيادة إلا في نسخة السيد (واليام مارصي) والتعليق لصاحب البستان.

وأحمـــد خـــير العالمين وخير من يأمـــه عارفـــون في العسر واليُسر

وأمـــته أصـــحاب الغـــر خيرهم وأفـــضل أصـــحاب النبي أبو بكر

ويـــتلوه فاروق أبو حفص الرضى على رأي أهل السنة الشهب الزهر

وبالوقف قالوا في الهزبر أخي العلا علـــي وعـــثمان الشهير أبي عمرو

وقالـــوا كتـــرتيب الخلافة فضلهم وقـــد تم نظمي في المزور وفي الزور

علـــى أنبياء الله مـــني ورســـله أحـــيهم أزكـــى ســـلام عد الدر

وقـــرباه الـــصحب الكريم وتابع لهم في التقى والبر والبصر والشكر

وذكر لي أحدهم بأن له مولديات وإنشادات لا تُحصى، ولم أقف عليها. انتهى من «المواهب القدسية فى المناقب السنوسية للملالي». انتهى

التعريف بالشيخ أحمد الغماري

(توفي يوم 12 شوال 874هـ - 14 إبريل 1470م)

أصله من عرب رياح، ولم يتحدث المترجمونَ عن تاريخ ميلاده، ولكنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري، وسكن بطيوة وبلاد غمارة مع الشيخ الحاج موسى البطيوي، ونسب غمارة لكونه سكن بها وحذق لهجتها الزناتية، ثم انتقلَ إلى تلمسان واستقر بها وأخذ العلم على الشيوخ: موسى البطيوي، وأحمد الماواسي، ومحمد بن يخلف، ومحمد بن عمر الهواري الوهراني، وأصبح إمامًا في علوم القرآن، والحديث، والفقه.

وفي أوائل العشرية الرابعة من القرن التاسع الهجري (801) سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع ركب حجيج تلمسان ومر على تونس وحضر بها دروس الشيخ العبدوسي، ثم التحقَ بالحجاز، وأدّى فريضة الحج، وعاد إلى عنابة حيث علم أن أخاه توجه إلى الحجاز للالتقاء به.

فعاد أدراجه إلى الحجاز عبر تونس، ومصر، ولم يُدركه إلا بمكة المكرمة فحج حجته الثانية، وعاد إلى تلمسان، واستقر بها واتخذ إحدى مساجدها مأوى له لأنه لم يكن يملك سكنًا خاصًا به، ودأب على حضور دروس ابن مرزوق الحفيد، وكان يجيد تلاوة القرآن، وكان يتردد على مدن: الحناية، وهنين، وندرومة، ويُلازم أداء صلاة الجمعة في مساجدها، ويتردد كثيرًا على أسواق ندرومة ويسقي الناس به وكان يحضر يوم الخميس دائمًا، ويحتطبُ ويبيع الحطب في الأسواق ليحصل على قوته من عمل يده.

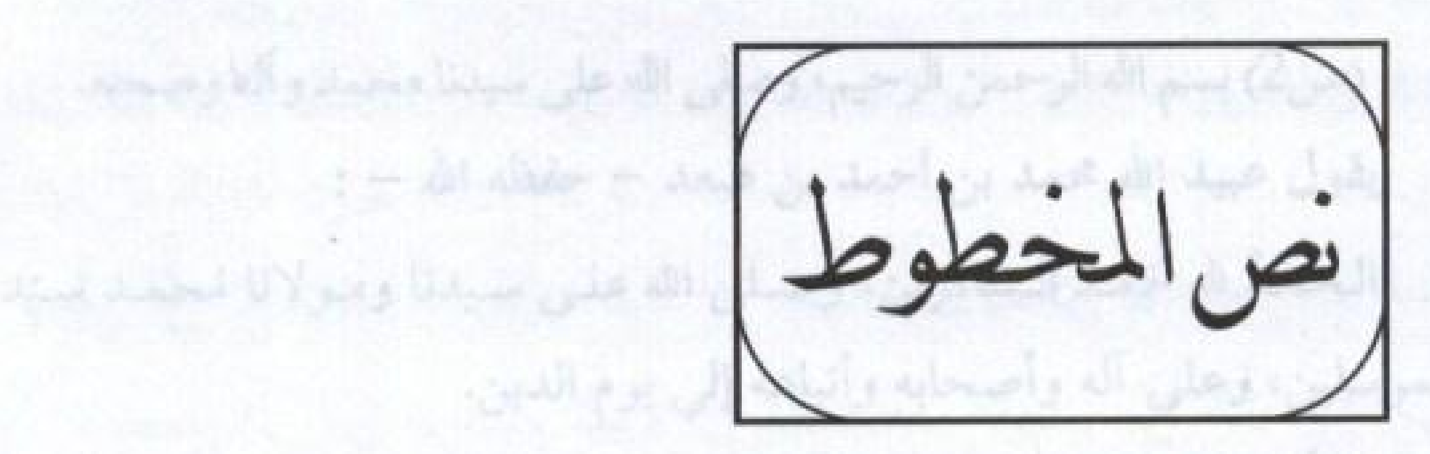
وفي آخر أيامه أصيبَ بمرض الإسهال الذي يدعى آنذاك بالزرب وتوفي يوم (12 شوال عام 874هـ الموافق 14 إبريل 1470م)، وسار في جنازته سلطان تلمسان وعلماؤها، وشعبها، ودفن بخلوته شرق الجامع الأعظم الحالي.

التعريف بالشيخ أحمد الغماري

12 شوال 874هـ/ 14 أبريل 1470م

أصله من عرب رياح، ولم يتحدث المترجمون عن تاريخ مولده، ولكنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري، وسكن بطيوة وبلاد غمارة مع الشيخ الصالح موسى البطيوي، ونسب غمارة لكونه سكن بها وحذق لهجتها الزناتية، ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها وأخذ العلم على الشيوخ: موسى البطيوي، وأحمد الماواسي، ومحمد بن يخلف، ومحمد بن عمر الهواري الوهراني، وأصبح إمامًا في علوم القرآن والحديث والفقه.

وفي أوائل العشرية الرابعة من القرن التاسع الهجري (831) سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع ركب حجيج تلمسان ومر على

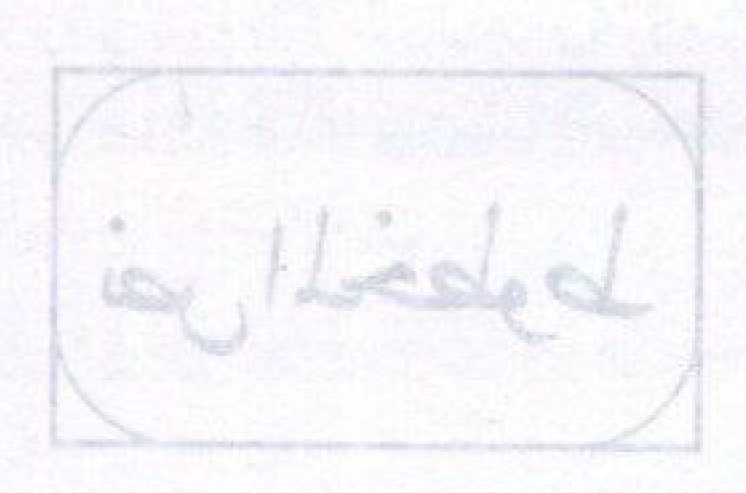


بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله...

هذا الكتاب

روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين

مِمَّا اختصره مؤلفه من كتابه الكبير المعروف باسم: «النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب»، وهو: عبيد الله محمد بن أحمد بن أبي الفضل بن صعد النصاري - حفظه الله - .



أولاً: الشيخ محمد بن عمر الهواري المغراوي

(ص2) بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

يقول عبيد الله محمد بن أحمد بن صعد – حفظه الله – :

الحمدُ لله حَمْدَ الشاكرين، وصلى الله على سيدنا ومولانا مُحمد سيّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فهذا كتابٌ اختصرناه من كتابنا الكبير المؤلَّف في أخبار الصالحين، واقتصرنا فيه على الشيوخ الأربعة المتأخرين إسعافًا لمن سأل منا ذلك من فضلاء الإخوان وأكابر الفقهاء بمدينة وهران، يسّر الله أمورنا وشرح للخير صدورنا.

فألحقهم (ص3) بسبقية التقدير والذكر، أولهم في الوجود وأخصهم بخالصة الحمد والشكر، شيخ الشيوخ المشهود له بالتثبيت والرسوخ سيدي محمد بن عمر بن عثمان سبع بن عياشة بن سيد الناس بن خير الغياري المغراوي المعروف بالهواري، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركته.

هكذا وجدت نسبه بخط وارث مقامه المختص بأسراره وعلومه سيدي إبراهيم التازي، كان هذا الولي سيدي محمد الهواري - رحمه الله - آية من آيات الله في ذلك الزمان، وشيخ من مشايخه في المقامات والعرفان، (ص4) سيقت من الله العناية فجمع له بين العلم والولاية ورقاه في درجات التقوى إلى الغاية:

حوى من فنون العلم ما أعجز الورى ... فلله منه ما حواه وما ضما

وأيده منه النطق بالحكم التي ... على كل قلب خائف أمضت الحكما

فكانت نشأته منذ أنبته الله نشأة حسنة وأوصافه في صغره أوصافًا مستحسنة، تولى الله حفظه فكانت أحواله مبنية على الهوى والرشد، مؤسسة على التوفيق والسداد، ما لعب قط مع الصبيان ولا شغله اللهو الذي كان يشتغل به أترابه من الولدان. (ص5)

نمشي مع الصبيان وإذا يلعبوا نلبد   عيبا نرى نسكن فما نبوح به لحد

وحصل إليَّ من مواضيع كثيرة في كلامه هذا الفصل من حاله في زمن صباه، وأنه كان موفقًا مباركًا من أهله إليه للخيرات وحبب إليه الطاعات، كما حصل إليَّ من كلامه حال والده فيقول:

*** والد الشيخ الهواري:**

كان والد سيدي عمر من حَملة القرآن، ومن أكابر قومه وأفاضلهم معروفًا بالكرم والإيثار، وعلو الهمة في أمور الدنيا والآخرة، ومن علو همته وفخامته قدره أنه لما مَنَّ الله عليه بولادته لهذا الولي الكريم عند الله وتفرس فيه مخايل الفضل (ص6) والصلاح تخيَّر له من أفاضل الأساتذة رجلاً صالحًا فاضلاً عابدًا اسمه: «علي بن عيسى».

*** نشأة الشيخ الهواري وتعلمه:**

قال سيدي محمد: كان من أهل المعرفة والحذق بقراءة القرآن وشارطه على تأديب سيدي محمد وتعليمه القرآن، وقال له: يا علي إيَّاك أن تضجر هذا الولد أو تسوطه، فإني أرجو من الله أن يفرحني به ومنه أسأل تسديده ومعونته، فأخذ المعلم في تأديبه وتعليمه فرأى عليه المؤدب أثر الغفلة والفتور في أحواله فظن أن ذلك من البله الذي يعتري أكثر الصبيان فشدد عليه في الزجر، وأمره بتعلم الحذق والفطنة وربما ضربه على ذلك، فبصر به والده سيدي عمر، قال له: يا فقيه لا تضربه ودعه على حاله فإني أودعته لخالقه (ص7) -

سبحانه وتعالى -، وإني أرجو من الله أن يجعله من الصالحين؛ لأنه ليس كالأولاد ما يطلب على طعام ولا شراب، ولا وقفت له من قط على كذبة، فقال له المؤدب: كيف أترك تأديبه وهو على هذه الحالة من العقلة والمشي بالحفا، وعدم الحذق في أحواله، فقال له الوالد: دعه على حاله فإن ذلك من جُملة التسديد والتوفيق الذي ينشأ عليه الشباب الذي يخصه الله بولايته ويخصصه لعبادته.

* رحيل الشيخ الهواري إلى كلميتو:

وكان سيدي محمد - رحمه الله - أحد من أتاه الله الولاية صبيًا وصان له في الأفاق زمن صباه ذكرًا عاليًا، قال في بعض كلامه:

فكـــم رأيـــت من بلاد وكم رأيت من أخبار

(ص8) وأنـــا صبي محقور لا كنني ندكار (كذا)

وذكر في كثير من كلامه أن أول ما فتح الله به عليه أنه خرج من وطنه بعد حفظه للقرآن وهو دون العشر من السنين، فدخلَ كلميتو فوجد بها شيخًا من أولياء الله في غار أو خلوة فدعا له أن يكون من أهل الطريق، فقبل الله دعوته ورقاه إلى درجة أولي التحقيق.

* رحلات الشيخ الهواري في البلاد:

ولمَّا نالَ سيدي محمد من هذا الشيخ بغيته، وقبل الله فيه دعوته خرج من وطنه مهاجرًا إلى الله إلى سبيل أهل الإرادة مقبلاً على طلب العلم والعبادة، فطافَ في البلاد شرقًا وغربًا، وتجوَّل في الصحاري الخالية البعيدة من العمران (ص9)، وفي جزور الحر على قدم التجريد والتوكل، فكان في سياحته يُخالط السباع والوحوش العادية فلا يخاف منها، ولا يتحرك لا صره،

وهذا من أشرف المقامات في باب التوكل والاعتصام بالله تعالى.

*** حكاية سيدنا موسى:**

وفي أخبار سيدنا موسى - عليه السلام - ، روي أن موسى ﷺ قال: يا رب كيف يكون العباد كما تريدهم لا يعلمون ما تريد؟ فأوحى الله - عز وجل - إليه: «يا موسى من أفرد نفسه لي كان كما أريد، ومن شغل نفسه بشيءٍ دوني تركته وما أراد». فقال موسى - عليه السلام - : يا رب، كيف يفرد نفسه لك؟ قال: «وكل أمره إليَّ فأنا أقيه المكاره، وأصرف عنه المضار، وأكون له كهفًا، وأحرزه (ص10) من عدوه، وأجعل له حلاوة من طاعتي، فإذا وجدها لم يرد سواي»، فقال: يا ربي، فكل عبادك كذا إذا فعلوا هذا؟ قال: «إنما أفعلُ هذا بمن أختار من عبادي وإنما الفاعل لما أريد، يا موسى لو عاملني عبادي كما عامل بعضهم بعضًا، ولو توكلوا عليَّ ما ابتليتهم بهَمِّ الدنيا، ولو طلبوا الغنا من عهدي ما افتقروا أبدًا، وذكر أنه كان في أوقات سفره لا يتخذ معه آلة من حديد، ولا يصحبه سوى دفاسه أو بريقه وعكازه وهو العصاة، وعلى هذا كان عمل السلف الصالح من المتصوفة إذا سافر أحدهم لا تُفارقه عصاه من اقتداء بالنبي ﷺ.

ففي كتاب العوارف، عن ابن عباس (ص11) - رضي الله عنه - قال: «التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء، كان للنبي ﷺ عصاة يتوكأ عليها، فمن قوله مسيرًا لذلك في التنبيه:

وكـم مـن طـروق (كـذا) امـشيت ولا حبست قط حديد

وقال في التنبيه أيضًا:

فكـــم رأيـــت من بلاد والناس رأيتهم أردود

وقد كنت متوكل على الواحد المعبود

ونـــسكن في الخـــلا وحدي في الغار الذي نوجد

وحـــدي ساد تويدي أو بعض من الأعواد

(ص12) ومن غرائب فوائد التوكل ما حكاه القشيري في كتاب الرسالة: حدث أبو القاسم، عن ولي الله أبي حمزة الخراساني، قال: حججتُ سنة من السنين فبينما أنا أمشي إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلتُ: لا، والله لا أستغيثُ فما استكملت هذا الخاطر حتى مرَّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعالَ حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب ويأزبة (كذا)، وطمسوا رأس البئر، قال: فهممت أن أصيح، ثم قلت في نفسي: أشكو إلى من هو أقرب منهما، وسكت فبينما أنا كذلك بعد ساعة وإذا بشيء جاء، وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله حتى وصلت إليَّ ثم همهم ففهمت من مهمته أنه يقول لي: تعلَّق بي فتعلقتُ به، فأخرجني (ص13)، فإذا هو سبع فتركني ومر، فبينما أنا أنظرُ إليه ذاهب وإذا بهاتف يقول: يا حمزة أليس هذا أحسن؟ نجيناك من التلف بالتلف فانصرفت وأنا أقول:

نهـــاني حيائي منك أن أكتم الهوى وأغنيتني بالفهم منك من الكشف

تلطفت في أمري فأبديت شاهدي إلى غائبي واللطف يدرك باللطف

أراك وبي مـــن هيبتي لك وحشة فتؤنسني باللطف منك وبالعطف

وتحيـــي محبًا أنت في الحب حقه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

*** رحيل الشيخ الهواري إلى مدينة بجاية:**

(ص14) وكان مبدأ قراءة سيدي محمد بمدينة بجاية دخلها بعد صومه سنة والله أعلم، فقرأ بها على أعلامها الجلة عَيَّن منهم الإمامين: سيدي عبد الرحمن الوغليسي، وسيدي أحمد بن إدريس.

وكلام سيدي محمد في منظوماته ملأن بالثناء على أهل بجاية، وذِكر محاسنهم في الإيثار والصدقات، واشتمالهم على الغرباء، وحبهم للفقراء ومحافظتهم في معاملاتهم على الربا، وصرَّح في كثير من كلامه أنه لقي بها جماعة من العلماء أهل الصدق والورع أجازوه في جميع العلوم، ومن إشارته لذلك: وعندي إجازة وأنا صبي دون لما.

وكان يحدث عن أهل بجاية بغرائب كثيرة في باب (ص15) الصدق والورع، ويقول: ما لقيت مثلهم في غيرها من البلاد، وفي نظمه المسمى بالتسهيل قوله:

لو وصفت لك ما ريت في بجاية وهي هيا

بلـد الـورع والعلـم وترابي حقيقيا

فأقام بها مدة أعوام مواصلاً الجد والاجتهاد في قراءة العلوم المنقول منها والمفهوم، واستظهر هناك حفظ كثير من الكتب قل أن يحفظها غيره.

*** سفر الشيخ الهواري إلى فاس:**

ثم لَمَّا أخذ في درس المدونة البراذعية وبلغ فيها إلى كتاب الصيد سافر من بجاية مغربًا لمدينة فاس، وقد جرت عادة الله مع أوليائه أن يحرك خواطرهم للأسفار ليزدادوا يقينًا بالاستبصار في أشعة الأنوار (ص16)، ومن فوائد ذلك عند أرباب القلوب ابتداء قطع المألوفات، والانسلاخ من ركون

النفس إلى ما تعهده من المعلومات، والتحامل عليها في تجرع مرارة فرقة الأهل والأوطان، واحتساب الصبر عمّا ألفته من مفارقة الأقران، مع ما فيه من دلائل التوحيد وهو التفكير في رؤية القدر والآثار، وتسريح النظر في مساريح المصنوعات بالتدبر والاعتبار.

وقد أوصى بها الأئمة والأدباء في أشعارهم، أنشد محمد بن مرزوق الزعفراني في كتابه الذليل لمحمد بن إدريس الشافعي قوله:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

(ص17) تفرج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الأسفار هَمّ وغربة ... وقطع فيافي واقتحام شدائد

فموت الفتى خير له من مقامه ... في أرض العدا ما بين واش وحاسد

وأنشد قول الشاعر:

وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب يتجدد

(ص18)ألم تر أن الشمس زيدت محبة ... إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

وأنشد ابن الربيع الأشعري لحماد بن هبة الله الحراني:

قالوا نراك كثير السير مُجتهدًا ... في الأرض تنزلها طورًا وترتحلِ

فقلتُ لو لم يكن في السير فائدة ... ما كانت السبع في الأبراج تنتقل

فوصل سيدي محمد - رحمه الله - إلى مدينة فاس، ولوحه في كتاب الصيد من المدونة فدخلها فقيرًا لا يملكُ شيئًا، ولا يلوي على سبب بنية صادقة في طلب العلم ولقاء مشايخ الوقت وفي ذلك يقول:

دخلتُ فاس غريب وقد آويت للسعا ... وقد نشتهي خبزًا أو من كسكسو شعبا

(ص19) فأخذ بها عن الشيخ الإمام حافظ المغرب سيدي موسى العبدوسي، وعن زعماء الفقهاء والمتكلمين سيدي أحمد القباب، فأقام بمدينة فاس للقراءة عليهما جُملة أعوام معروفًا عند أهلها بالعلم والديانة عظيم القدر، معروف المكانة.

وكان مشايخ الوقت يعظمونه ويُخاطبونه على صغر سنه بالسيادة، ومن قوله في تبصرة السائل:

بلدا دخلت نصيب أناس تألف يل مثل الأمير يعراف بالدخايل

وقال في نظمه المسمى بالكافية: وسيد من صغري كالفقيه.

وبمدينة فاس كمل حفظ المدونة وهو حينئذٍ (ص20) ابن خمس وعشرين سنة، وذلك سنة ست وسبعين وسبعمائة[1]، وكان طلبة فاس يقرؤون عليه القرآن والكتب العربية، والفقه، ويتحدثون أنهم ما رأوا أبرد من قراءته ولا أفيد من تعليمه.

وفي هذه السنة نظم كتابه المسمى «بالسهو في أحكام الطهارة والصلاة» وهو من أجمع الكتب لأحكام مسائل الطهارة والصلاة، وأعظم فائدة وأعملها بركة، وسمّاه في بعض كلامه: بالمؤانس.

*** انتقاله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج:**

ولمّا حصل سيدي محمد من القراءة ما يجب تحصيله أراد أن يكمل من الفرائض الخمس ما يجب عليه تكميله، فأعمل الرحلة شرقًا لأداء فريضة حجة الإسلام، ولقاء من هناك من أكابر العلماء الأعلام (ص21)، فذكر أنه دخل مصر فأقامَ محاورًا بالحرمين الشريفين مكة والمدينة عدة أعوام، وكان

---

(1) الموافق لعامي (1374 - 1375).

سكناه في مكة المشرفة برباط الفتح.

*** سفره إلى بيت المقدس:**

ثم سافر إلى بيت المقدس ليكمل له فضل الصلاة في المساجد الثلاثة وزيارة ما بها من المشاهد المعظمة، قال في منظوقه المسمى بالتسهيل:

في الشام ريت أخيار فلو كنت نتمنا — نسكن خليل الله أوجاع بني ميا

مَنَّ الله علينا برؤيتهم — وأعاد علينا من بركاتهم

*** رجوعه لمدينة وهران واستقراره بها:**

وبعد رجوعه من البلاد المشرقية نزل بمدينة وهران، لما سبق له في الأول من علو المكانة ورفعة الشأن، فاستقر بها قراره، واطمأنت بها داره، وجلس (ص22) به لنشر العلم وبثه والدعاء إلى الله تعالى، فانتفعَ الخلق على يديه وظهرت عليهم بركته، وفعلت فيهم سريرته الصالحة ونيته، ولم يكن في زمانه أحرص منه على العبادة ومُجاهدة الصيام، والقيام صابرًا محتسبًا، في دعوة الخلق إلى الله المعبود بحق، على سنن الزهاد الفقهاء سالكًا سبيل المتعبدين من الصلحاء إذا رءاه الناظر تبينت له ولايته، وظهر له أن خير السعايات سعايته وذكره مرآه قول النبي ﷺ لمن قال له من أولياء الله قال: **الذين إذا رأووا ذُكر الله.**

وكانت مُجالسه مجالس رحمة، وخواص أصحابه كلهم أولياء (ص23)، فتارة يخوف الناس بالأغلال وأنواع العقوبات التي أعدها الله للعصاة، فتكاد قلوب الحاضرين تنفطرُ وتنشق من الخوف، ويتسارع الناس إلى الإقلاع والتوبة، وتارة لهم بذكر سعة رحمة الله، ويزجيهم في كريم عفوه، وجميل إحسانه وطويل غفرانه، ويمنيهم بما عنده من كثرة الثواب.

ولمَّا علت سِنُّه وتقارب أجله كانت مجالسه في التبشير وفوائد التسيير،

وذكر ما عند مولانا سبحانه من سعة الغفران، والتجاوز عن السيئات وأن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ لأنه لم يبق عند الله إلاَّ الطمع في رحمته والرغبة فيما عنده.

(ص24) حدثني جماعة من الثقاة أن سيدي محمد عليه السلام كان إذا جلس في مجلسه يتكلم على الخواطر، وينحشر الناس إليه فيكاشفهم بأحوالهم ويطلعهم على خفي أسرارهم وشاع ذلك عنه، وتحدث الناس عن بركته فكان المسافرون وذو الحاجات يقصدون مجلسه، وكل قد أضمر حاجته في نفسه من سفر أو تزوج أو غير ذلك، ثم يأخذ في الكلام المرسل من غير أن يخاطب به أجرًا معينًا ويضرب الأمثال بذكر غرائب الأحوال، واطلاعه على عجائب الأسرار، فيقع جواب كل من الحاضرين، فينصرف بجوابه وقد عرف وصف حاله الذي سأل عنه في نفسه وسمت حاجته التي وسمها بمثاله (ص 25)، ووسمه إلى غير ذلك مما تنتهي إليه أحوالهم وتسمو إليه آمالهم، وفيهم من يتواجد ويحدد التوبة مع الله، وكانت القلوب تنفعل كثيرًا لكلامه، وترق لموعظته وتتأثر لتذكيره.

وكان إذا حضر مجلسه الأغنياء وأرباب الدنيا دعاهم إلى الله بطريق الخوف وذكرهم بآيات الرجاء، وحسن الظن بالله، وإذا حضره أهل الصحة والعافية من التجار ذكرهم بطريق الشكر، وحضهم على إخراج الزكاة وأنها مطهرة للمال، ثم يندبهم لترك المعاملة مع من غَلبَ عليه الحرام ويبصرهم بفائدة طلب الحلال (ص26).

فينصرف أهل مجلسه وقد أحرزوا من الخيرات آمالاً وحصلوا من مسائل التكليف وأسرار الأعمال أقوالاً صالحة وأعمالاً، وكان مع ذلك لا يخلي مجلسه من مفاوضة علمية، ومحاضرة أدبية ومذاكرة صوفية.

حدثني جماعة من الأصحاب أنه كان ربما يعرض لطلبة العلم من أهل وهران وتلمسان وغيرهم من سائر البلدان كثير من المسائل العويصة فيستفتونَ فيها شيوخ الوقت فلا يجدون عندهم شفاء غليلهم فيقصدون مجلس الشيخ سيدي محمد ويحضرونَ في جملة من حضر من الناس وقد أضمروا تلك المسائل العويصة على اختلاف أفانينها، فإذا أخذ الشيخ على عادته في الكلام خرج (ص27) إلى تلك المسائل وأسرع الجواب عنها وأوضح مشكلها معرفة في قالب الوعظ، فيقضي منه العجب، ويبهت الحاضرون لسرعة جوابه، وحشده من الأقوال على أكمل ترتيب ويستغربون لطافة تخلصه من المسائل إلى ما هو بسبيله من الوعظ.

وكان - رحمه الله - من حين ظهر بانيًا على ترك الدنيا والانقطاع إلى الدار الآخرة، زاهدًا فيها حقيقيًا بظاهره وباطنه، تاركًا لها بقلبه وجوارحه لا يميل إلى شيء منها، معرضًا عنها بنفس طيبة زكية، وهِمَّة عالية، وكان زاهدًا في مطعمه ولباسه، أما الطعام فكان أكله - رحمه الله - قليلاً، وكان ينوي به التقوية على طاعة (ص28) الله ليكون مطيعًا بالأكل، ولا يقصد به التنعم في أطاييب الطعام، وإن كان من المباح، فمقامه - رحمه الله - أكبر من أن يأكل بشهية، وصرَّح في كثير من كلامه أنه ما شبع قط وأنه لا يمد يده إلى الطعام إلاّ وهو جائع محتاج إليه؛ لأن الشبع من البدع المحدثة بعد النبي ﷺ، ومِمَّا يمنع من القيام بحق العبودية كالصلاة وغيرها.

وتبع في ذلك قوله ﷺ: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه». وكان أكثر أكله الخبز، وفي الحديث عنه ﷺ: «أكرموا الخبز فإنه نزل من بركات السماء»، وأخرج المسعودي، عن يزيد، عن ابن عوف، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله (ص29) ﷺ قال: «إذا وضع الخبز فأرتعوا، وخير مراعيكم الخبز، ولكل

شيء مرعى، ومرى بني آدم الخبز، والجوع من صفات أولياء الله وأرباب القلوب».

كان أبو سليمان الداراني يقول: «مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع»، وروينا عن سهل بن عبد الله أنه لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة.

وفي أخبار داود - عليه السلام - : «أوحى الله إلى داود - عليه السلام - أيا داود حذر وأنذر أصحابك، أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة».

وأما اللباس فذكر في كثير من منظوماته أنه ما كان (ص30) عليه في تجوله سوى سترة وكساء من صوف، خلق أو سلهام، ومن قوله في ذلك:

كـــنت بالحفى نمشي ولباسي أيضًا سترا

وخير الرزق ما يلفي أن الصبر للفقراء

وفي بعض منظوماته أنه دخل مصر بثوب خلق من صوف مقتديًا في ذلك من تقدَّمه من زُهاد الصوفية، إذ بلبسهم ثياب الصوف سُميت صوفية عند المحققين نسبة إلى ظاهر حالهم، يقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يُقال: تقمص إذا لبس القميص، إنما وقع اختيارهم على لبس الصوف لكونه أرفق؛ ولأنه من لباس الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ، فقد روينا من حديث أنس بن مالك (ص31) قال: «كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد، ويركب الحمار، ويلبس الصوف».

وروي أن عيسى - عليه السلام - كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى، ومن حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَلَّم الله موسى - عليه السلام - كان عليه جُبَّة صوف وسراويل

من صوف، وعمامة من صوف، ونعلاً من جلد حمار غير ذكي».

وكانت الصدقات والنذور ترد عليه من آفاق البلاد فيخرج ذلك من يده لوقته ويصرفه لمن يستحقه، ولا يعود بشيء منه على نفسه، وكان زاهدًا حتى في الكتب العلمية، فهمت هذا عنه من مواضيع كثيرة (ص32) في كلامه هذا مع حبه في العلم وشغفه به وملازمته إيّاه، فكان مِمَّن أمره الله بحفظ ما قرأه وحصله فكان لا يفتقر في مجالسه العلمية تواليفه في الفقه، والمناسك، والآداب، إلى مطالعة كتاب ولا مراجعة شيء بجميع العلوم، وتحصيله منها المنقول والمفهوم، وما كان يطالع في ذلك سوى مجرد فكرة السليم، ونظرة المسدد القويم.

ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال أنشدهما له الماوردي في كتابه «آداب الدين والدنيا»:

علمي معي حيث ما يممت ينفعني

قلبي وعاء لا له بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي (ص33)

أو كنت في السوق كان العلم في السوق

فكان على عادة أمثاله أولياء الله الذين وصلوا إلى بساط القرب والمشاهدة، وبلغوا بقلوبهم إلى درجة أهل المعرفة والحكمة، فعرفوا الله بجمال الربوبية، وإخلاص العبودية.

فسيدي مُحمد – رحمه الله – مِمَّن تجرَّد عن لباس الدنيا، وارتدى برداء أهل الخصوصية والحياة، ووقف بين يدي الملك الحق الأعلى قائلاً بلسان أهل الخوف والرجاء يا من يرى ولا يُرى، عبدك واقف ببابك بلا الدنيا، ولا

نفس ولا هوى.

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يُدركه بالحول مُحتال

(ص34) والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

*** تنبيه:**

لعل الواقف على هذا الكلام في ذكر تحقيق زهادة هذا الولي- رحمه الله - يقول: كيف يطلق عليه أنه من الزاهدين، وقد كانت له زوجة وأولاد؟

والجواب: أن تزوجه كان من كمال ولايته - رحمه الله - ؛ لأن القيام بحق الزوجية والأولاد على طريقة الزهد والورع في الإنفاق عليهم وأداء حقوقهم لا يُحسنه إلاَّ أفراد الرجال المتصفين بصفات الكمال.

هذا سيدنا علي - عليه السلام - كان أزهد الصحابة - رضوان الله عليهم - ، وقد كان له أيام خلافته وأيام (ص35) حروبه مع الخوارج وغيرهم أربع نسوة وسبع عشرة سرية، وكان عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - يقول: «خير هذه الأمة أكثرها نساء»، وكان سفيان الثوري يقول: «كثرة النساء ليس من الدنيا في شيء».

وفي الحديث عنه ﷺ: «ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك».

وكان هذا الشيخ - رحمه الله - ممَّن أخذ نفسه بطلب الحلال، وكان لا يتقوت إلا بما علم حليته على أتم وجوه الكمال، وطلب الحلال هو أصلُ هذه الطريقة، وعليه سداد علماء الشريعة والحقيقة (ص36)، وهو من فراض الدين وأصول الإسلام.

قال أبو حامد: مثل الطعام الحلال من الدين مثل الأساس من البنيان، فإذا أثبت الأساس، وقوي استقام البناء وارتفع، وإذا ضعف الأساس من البنيان واعوج تهدم البنيان ووقع، وكان أفاضل الصدر الأول يوصي بعضهم بعضًا بالمحافظة على القوت من الحلال، ويقولون: أن هذه الأنفس لا تستقيم لنا إلاَّ بأكل الحلال، وكان طعام سيدي محمد - رحمه الله - في المفاوز والخلوات، الحشيش والنبات، ويقول هذا العيش هو أطيبُ الطيبات، فإذا ورد الحاضرة وبلاد العمران وكل أمر غذائه إلى من يثق به من معارفه أهل (ص37) الولاية والعرفان.

وقد أرشدنا الله تعالى في كتابه العزيز إلى طلب الحلال، وقدّمه على العمل الصالح، فقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]. جاء في تفسير هذه الآية أن المراد بالطيبات: الحلال.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم». وحدث عبد الله بن المبارك، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! إن الله - عز وجل - طيِّب لا يقبل إلاَّ طيبًا، وإن الله - عز وجل - أمر المؤمنين بِمَا أمرَ به المرسلين، فقال - عز وجل - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

(ص38) وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: 172]. ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فإنَّى يُستجابُ له».

وفي الحديث عنه ﷺ: «العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في طلبِ الحلال».

وروي عنه ﷺ أنه سأل بعض أصحابه أن يدعو له فيكون مُستجاب الدعوة. فقال له: «أطب طعامك يستجب دعاؤك».

وفي بعض الأثار: «منَ اشترى ثوبًا بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله صلاته ما دام الثوب عليه».

وعنه ﷺ: «من اكتسبَ مالاً من (ص39) حرام فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن مات وتركه كان زاده إلى النار».

وعن كبير الأولياء في وقته سهل بن عبد الله التستري: «من أكلَ الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أم لم يعلم، ومن كانت لقمته حلال أطاعت جوارحه ووفقت للخيرات». وفي كتاب «الرسالة» عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يقول: «أطب مطعمك ولا عليك لا تصم النهار ولا تقم الليل»، وفيما رويناه عن الخليفة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - ، أنه وزن بين يديه وعاء من طيب المسك أتى به في الغنائم فتورع عن أن يصل من رائحته إلى أنفه قبل قسمه على المسلمين، فكانت يده إلى أنفه مدة الاشتغال بوزنه فقيل (ص 40) له في ذلك، فقال: وهل ينتفع منه إلا برائحته. ورحم الله القائل:

المال يذهب حله وحرامه ... طرا وتبقى في غد آثامه

ليس التقي متق للإله ... حتى يطيب طعامه وشرابه

ويطيب ما تحوي وتكسب كله ... ويكون في حسن الحديث كلامه

نطق النبي لنا عن ربه ... فعلى النبي صلاته وسلامه

وفي الصحيح، ومن كتاب لأبي داود نقلتُ لكونه من محفوظات هذا الشيخ - رحمه الله - ، حدَّث أبو داود بسنده عن النعمان بن بشير، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الحلالُ بيِّن، والحرامُ بيِّن، وبينهما أمورٌ متشابهات، ولا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات وقع في الحرام».

هذا الحديث الكريم أصلٌ في معرفة الحلال وطلب الورع، ومعنى قوله: «وبينهما أمور متشابهات»، أي: أنها تشتبه على بعض أصول الشريعة؛ لأن مولانا - سبحانه وتعالى - لم يترك شيء سبق في علمه وقوعه إلاَّ وقد بيَّن - سبحانه وتعالى - وجه الحكم فيه بيانًا شافيًا. إمّا في كتابه المنْزل أو على نبيه ﷺ، أو لسان أصحابه وأتباعه الذين اتبعوه بإحسان.

وبيان ذلك أن الأحكام التي خاطبنا الله بها على قسمين:

قسمٌ ظاهر: ومعناه (ص42) جلي يعرفه عامة الناس.

وقسمٌ غير ظاهر: ومعناه خفي لا يعرفه إلاَّ خواص الناس الذين جعلهم الله قادة ورسخت أقدامهم في معرفة الاستنباط والتأويل، وعرفوا طريق القياس برد الشيء إلى المثال والنظير، وإذا صار هذا المعنى الخفي معلومًا عند الراسخين في العلم فليس لمشتبه في نفسه.

فالواجب على من وقع في الأمر المشتبه أن يتوقف فيه ولا يقدم عليه إلاَّ ببصيرة واضحة من عالم عرف علمه ودينه واستبانَ ورعه ويقينه، احذر أن تقلد فيما اشتبه عليك بعض هؤلاء الفقهاء الذين نصبوا أنفسهم للفتوى طلبًا للرياسة والظهور الدنيوي، وحرصًا على جمع حطام هذه الفانية فإنهم ليسوا من علماء (ص43) الآخرة، وقد غلب عليهم الطمع وحُب الرياسة، فقلوبهم فارغة من الخوف والورع فهم من الشبهات التي أمرك النبي ﷺ بتركها وحذرك من الوقوع فيها، فالحذر الحذر من الوقوع فيها، فالحذر الحذر ممن هذه صفته، واقصد أهل العلم والدين كما قال سيدي محمد في بعض منظوماته:

من لا يعرف الله لا تعرف — واحذر منو واتقى

مع شيخ عارف والعلم — من أهل الدين يستقي

فانظر إلى نهي الشيخ - رحمه الله - عن معرفة مَن لا يتق الله وكأنه أشار إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تصاحب إلاّ مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي».

(ص44) فقد نهى ﷺ في هذا الحديث عن صحبة من لَيْسَ من أهل التقوى، فلا تقلد في فتواك إلاّ من عرف بالدين والتقوى، واحذر مَنْ لا يتقِ الله، فلا تتخذه جليسًا ولا تطاعمه، ولا تخالطه، وإنما خص ﷺ «المطاعمة» بالذكر لأنها تدعو إلى الألفة والمودة في القلوب.

وروينا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «إن لكل شيء معدنًا، وأن معدن التقوى قلوب العارفين»؛ لأنهم عقلوا عن الله - عز وجل - أمره ونهيه.

وأمّا قول الشيخ - رحمه الله - : «والعلم من أهل الدين يُستقى» فاعلم أن أهل الدين الذين أشار إليهم هم العالمون بالله المخلصون (ص45) في أعمالهم الصادقون في أحوالهم الذين أطلعهم الله على عيوب النفس التي هي بالسوء أمارة، ولم يغتروا بما تزينه لهم من مناها، وكان الشيخ - رحمه الله - في وصاته (كذا) هذه وقف على أبيات الفاضل الزاهد أبي موسى عيسى بن عمران التلمساني يوصي ولده في قصيدة طويلة منها قوله:

والعلم كونوا يا بني من أهله ... فالعلمُ أفضل ما رأى أن يكسبا

فتعلموه لدينكم ومعادكم ... وذروا أناسًا صيروه مكسبا

فلهم أشد من اللصوص مضرةً ... ولهم ذئاب يأكلون الأذؤبا

وفي أخبار يحيى بن يحيى الليثي عَلَم الأندلس في وقته (ص46) قال: سمعتُ الإمام الليث بن سعد يقول فيما يعظنا به: الله! الله! عليكم بالعلم وطلبه، وإيّاكم وشهوته، قال: فقلنا له: وما شهوته يرحمك الله، قال: شهوته أن تسرعوا الجواب فيما سلبتم فتعجبكم أنفسكم بذلك فتدعوكم إلى أن تدخلوا

في دين الله ما ليس منه.

وحدَّث عبد الله بن وهب عن شيخه الإمام مالك، قال: روينا عن ابن عباس، أنه قال: «مَن أفتى الناس فيما يسألونه فهو مَجنون».

وعن بعض العارفين: «من لم يكن قصده في العلم والعمل إرادة الله - عز وجل - ، لم يرشد قلبه، ولم تصل إليه مواهب أولياء الله ولو كان معه علم الثقلين، وعمل المقربين حتى يخلص النية لوجه الله؛ لأن الإخلاص في العلم والعمل أصلُ فرائض (ص47) الدين، وعليه مدار أولياء الله المحققين لقوله تعالى مخاطبًا لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: 2، 3]. فمن عمل بالإخلاص أو قال به أو دعا إليه أو رغَّب فيه، فهو من الدعاة إلى الله - عز وجل - ، وإلى دين الله وإلى سُنَّة رسوله ﷺ، إذ الإخلاص بالأعمال في هذا الزمان فريضة دراسة وشريعة ينابيعها يابسة».

وقد اختلفَ أئمتنا في قوله ﷺ: «طلبُ العلم فريضة على كُلِّ مسلم»، ما هو هذا العلم؟ فقال جمهور الصوفية: هو طلبُ الإخلاص في الأعمال، ومعرفة آفات النفس وفساد الأحوال (ص48)، وقيل: هو علم الفقه؛ لأنه يشتمل على علم الحلال والحرام.

لأن أكل الحلال فريضة، وقيل: هو علم التوحيد، وقال الشيخ أبو طالب: هو علم الفرائض الخمس التي بني عليها الإسلام، فالتوحيد أولها، والإخلاص داخلٌ فيها لأن صحة الإسلام لا تكون إلاّ بالإخلاص، وروينا في الأحاديث المسلسلة بالسند المتصل عن الحسن البصري قال: سألتُ حُذيفة بن اليمان عن الإخلاص ما هو؟ فقال: سألتُ رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ فقال: «سألتُ جبريل - عليه السلام - عن الإخلاص ما

هو؟ فقال: سألتُ رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ فقال: أيا جبريل، هو سرٌّ من سري، استودعته قلب من أحببت من عبادي».

وفيما رواه (ص49) من أخبار سفيان الثوري أنه قال: «ما من عمل أفضل من طلب العلم، إذا أخلصت النية فيه»، قيل له: يا أبا عبد الله، وأي شيء إخلاص النية؟ قال: أن يكون له عقد صحيح أنك ما أردت به إلاَّ الله - عز وجل - وثواب الدار الآخرة».

وقرأتُ في كتاب الهداية، روي عن بعض أكابر العلماء أنه قال: أكثر ما يقع سوء الخاتمة بثلاث طوائف من الناس:

الطائفة الأولى: هم العلماء الذين يتحكمون في كتاب الله - عز وجل - وسُنَّة رسوله ﷺ بعقولهم الفاسدة، وآرائهم التي ليست بقاصدة، فكل ما أجازتهم عقولهم أجازوه، وما ردته ردُّوه، فإيمانهم ينتقل حيث انتقلت بهم عقولهم، فأول آية تظهر لهم عند المعاينة (ص50) لا تقاومها عقولهم لضعفها وفسادها وعدم تثبيتها لأنها كانت منتقلة غير ثابتة قبل ذلك فينطفئ نور إيمانهم كما ينطفئ المصباح عند احتراق الفتيلة، قال الله - عز وجل -: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف: 5]. وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: 27]. فكل من حكَّم عقله في كتاب الله - عز وجل - وسُنَّة رسوله ﷺ فما أجازه عقله أجازه وما لم يجزه ردَّه؛ فقد جعل أحكام الله - عز وجل - تابعة لعقله فلذلك حال الله بينه وبين عقله عند الموت، وعند سؤال الملكين (ص51) إيَّاه في القبر.

والطائفة الأخرى: هم أهل الكبر والجبروت المنكرين لكرامات الأولياء

في الدنيا والآخرة، فمن أكرمه الله بولايته وخصه بكرامته فإن تنكر كرامات الله عنده، فلمّا أنكرتَ هذه الطائفة كرامة الأولياء وتكبروا على عبادة الله بما سوّلت لهم أنفسهم الأمارة بالسوء لم تكن لهم عند الله كرامة، وعوضهم منها الخزي والندامة.

والطائفة الثالثة: هُم الفُسّاق المتمردون على الله في بلاده وعبادته المصرون على كبائر المعاصي، الغافلونَ عن التوبة إلى أن يأخذهم ملك الموت بالنواصي، فهم إذا أدركهم الفوات وعلموا أنهم من الأموات تابوا إلى الله - عز وجل - (ص52)، فلم تنفعهم توبتهم لما غلبت عليهم شقوتهم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: 17، 18]. فبمثل هؤلاء تقع سوء الخاتمة، فنسأل الله العافية، والسلامة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

ومن فضل هذا الشيخ - رحمه الله - ، الدال على ما له من الكرامة عند مولاه أنه ما كذب قط، ذكر الكثير من كلامه، قال في منظومه المسمى بالتسهيل: (ص53)

كـنت صـبي نقراً وأنا يا صبي ننها — الناس على العار ولا أور رات لي شبهة

إذا رأيت من يكذب بالعمل أو من يسها — نتـركوا بالكل إن الكذب هو شوها

لا جرم أن الكذب معدود في كبائر الذنوب كما أن الصدق معدود في الدرجة الثانية من النبوة، قال الله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: 69]. والصديق هو الكثير الصدق وحد الصدق هو الإخبار بالشيء على حقيقته ما هو به، كما أن حقيقة الكذب الإخبار بالشيء على ما ليس هو عليه.

وبالصدق وصل الأولياء (ص54) إلى درجة الصديقية، وقد أمر الله بالصدق، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: 119]. كما أثنى عليه في قوله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: 33]. فالصدق من صدق في أقواله، والصديق من صدق في جميع أقواله، وأفعاله وأحواله. قال أئمتنا: ومن فوائد الصدق وثمراته أنك لا ترى الصادق أبدًا في فرض يؤديه أو فضل يعطي فيه، كام كان هذا الشيخ سيدي محمد - رحمه الله - ، وحقيقة الصدق عند الصوفية أن تصدق في موطن لا ينجيك إلاَّ الكذب.

وحدثوا في ذلك بحكايات منها ما روي عن الزاهد أبي عمرو الزجاجي: قال: ماتت أمي (ص55) فورثت منها دارًا بعتها بخمسين دينارًا، وخرجت إلى الحج فلما كنت في بعض الطريق لقيني لص فقال لي: إيش معك؟ فقلتُ في نفسي: الصدق أنجى من الكذب، فقلتُ: خمسين دينارًا. فقال: ناولنيها، فناولته الصرة فعدها فإذا هي خمسون، فقال: خذ دنانيرك. فلقد أخذ بمجامع قلبي صدقك، ثم نزل عن دابته وقال: اركبها، فقلتُ: لا أريد، فقال: لابد، وألحَّ عليَّ فركبتها وانصرفت فلمَّا كان العام الآتي لحقني، وقال: إن الله قد أنجاك مني بصدقك، وتاب عليَّ ببركتك، ثم لم يزل معي حتى مات - رحمه الله - ، وما زال الصدق علامة لأولياء الله المتقين، وبرهانًا واضحًا لعباده الصالحين، يحملهم على التحقيق (ص56)، ويوضح لهم الطريق.

بلغنا عن الفضيل بن عياض أنه قال: «ما يزين الناس بشيء أفضل من

الصدق»، وأوصى بعضهم ولده فقال له: «يا بني عليك بالصدق فإنه يقبله منك العدو، وإيّاك والكذب فإنه يرده عليك الوالد»، وما أحسن قول القائل:

عليك أخي بالصدق في كلٍّ موطن وإن كان وزن الصدق شق المفارق

فمـا الغبن والخسران إلا لطالب بلوغ رضى المخلوق في سخط الخالق

وفيما رواه سيدي محمد في كتاب أبي داود أن النبي ﷺ قال: «إيّاكم والكذب فإن (ص57) الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وعليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنَّة»، أصل الفجور في كلام العرب: الميل إلى الصدق والانحراف إلى الكذب. قال بعضُ المفسرين: خرج الحديث مخرج الشرح والتفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: 13، 14].

مـا أقبح الكذب المذموم صاحبه وأحسن الصدق عند الله والناس

وفي وصايا لقمان لابنه: «يا بني احذر الكذب، فإنه شيء كحلم العصفور، من أكل شيئًا منه لم يصبر عليه»، وقال بعضُ الحكماء في بعض وصاياه (ص 58): «لا تستعن بكذاب فإنه يقرب عليك البعيد، ويُسهل عليك الصعب، ويؤمنك المخوف». وقول سيدي محمد: أن الكذب هو شوها، هو من قولهم: شاهت الوجوه تشوه شوهًا؛ أي قبحت. ولا ريب أن الكذب من أقبح صفات الرجال؛ لأن صاحبه لا يوق به في كل الأحوال، وكفاه محطة ودناءة أنه من أعظم علامات النفاق، وأقوى الدلائل على دناءة الأخلاق، ومن شعر القاضي عياض:

أدبت نفـسي فمـا وجـدت لها بعـد تقـوى الإلـه مـن أدبِ

في كـل حالاتهـا وإن كثـرت أفـضل مـن صـمتها عن الكذبِ

وكان سيدي محمد - رحمه الله - يُقالُ له: حكيم زمانه؛ لأنه ينطق بالحكمة في وصاياه، وتصرفاته.

(ص59) قال في التنبيه: ونُعرف في البلاد حكيم، وقال كلامي كله حكمة، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدًا في الدنيا، ومنطقًا بالحق فاقتربوا منه، فإنه يلقن الحكمة». ومن مراسل الإمام مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخلصَ لله العبادة أربعين يومًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، ومِمَّا أنشد الهمذاني في كتابه «البهجة» لبعض الصالحين:

كلام الحكيم شفاء القلوب كوبل السماء غياث الأمم

فنطق الحكيم يداوي السقيم وصمت الحكيم وعاء الحكم

ومن كلام بعض الأكابر من آمن السُّنة على نفسه (ص60) قولاً وفعلاً، فقد نطق، ومَن أمَّرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، وكان بعض مشايخ الوقت إذا حدَّث عن سيدي محمد يقول: قال لقمان الحكيم، ولقمان - رحمه الله - كثير الصدق.

واختلفت فيه أقوال العلماء فمنهم من قال: إنه من الأولياء، ومنهم من قال: أنه ليس بنبي وإنما من عباد الله الصالحين وأوليائه الصادقين عرف بقول الحق فنُسب إليه.

وفي كتاب «اللآلي» لأبي عبيد البكري روي أن لقمان كان راعيًا، وأنَّ إنسانًا وقف عليه وهو في مجلسه فقال له لقمان: ألست كنت ترعى معي في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: ما بلغ منك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمتُ عمَّا لا يعنيني (ص61). قال: ويروا أنه كان بحارًا، وقيل: خياطًا. وقيل: أنه كان عبدًا حبشيًا غليظ المشافر، ولكن أتاه الله الحكمة.

فلسنا نشك أنه حكيمًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12]. وقيل: أنه كان في زمن سيدنا داود - عليه السلام - ، ومنه تعلَّم الصدق والحكمة، ومن حكمة وصيته لولده في مساعدة المرأة السيئة حدث به صاحب كتاب النساء، قال لقمان لابنه: «يا بني ليكن أجلَّ شيءٍ تكسبه بعد الإيمان بالله خليلٌ صالح، وامرأة صالحة، فإن من اكتسبَ امرأة صالحة فقد التقطَ نقطة حسنة، ومن اكتسب امرأة سوء فقد أصابته مصيبة، يا بني إنما مثل المرأة الصالحة كمثل التاج على رأس الملك (ص62)، يا بني إنما مثل المرأة السوء كمثل الليل لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه، ولا يرعوي عن سننه ومجراه، وأنعتها لك يا بني لتعرفها: إنها إذا تكلمت أسمعت، وإذا مشت أسرعت، وإذا دخلَ إليها زوجها كشرت فيْ وجهه، وإذا خرج عليها لعنته في ظهره، يا بني كل شيء ينقضني إلأ شر المرأة السوء، وكل داء يزول إلاّ داء المرأة السوء، يا بني لئن تساكن الأسد والأسود في بيت، خير من أن تُساكنَ المرأة السوء، تبكي وهي الظالمة، وتحكم وهي الجائرة».

وفي كتاب «الأحياء»: «من أكل الحلال أربعين يومًا نوَّر الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة على لسانه»، وحقيقٌ لهذا الشيخ أن يُدعى حكيم الزمان؛ لأنه كان على الغاية القصوى (ص63) في الزهد والورع، أنشد القاسم بن يوسف التجيبي السبتي في رحلته الحجازية لبعضهم:

إذا شئت أن تدعى حكيمًا ... وتلحق بالرجال ذوي الكمال

فلا تغبط الدنيا بشيءٍ ... ولا تخطر لك الدنيا ببال

وكان سيدي محمد محبًا في العلم وأهله من لدن صباه إلى أن توفاه الله يتأنس به في وحشته، ويجعله كالصديق في غربته، وتواليفه كلها مشحونة بفضل العلم والحض على تعليمه، والثناء على العلماء العاملين، ومن قوله في

التنبيه:

العلم من يقرأ فيكبر به مدًا وإذا قبل منو الجنة له خلدا

ومن قوله أيضًا (ص64):

العلم هو عندي كالإبر أطرز يطرز ....

ومن يخاف الله بالتقوى أيضًا يوعز فكان - رحمه الله - يُرغِب إلى الله في الزيادة من العلم ليزداد تعظيمًا لربه وتحقيرًا لنفسه، وقد ندب الله تعالى لطلب العلم، وأرشد إليه رسول الله ﷺ، ورغَّبَ فيه بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: 114]. وجاء عن الضحك في تفسير قوله تعالى: «كونوا ربانيين، أي كونوا علماء فقهاء».

وفي حديث عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن تعلَّم العلم لله لم يُصب منه بابًا إلاَّ ازداد به لله خوفًا، وفي نفسه ذُلاً، وفي الناس تواضعًا، وفي الدين فضلاً، فذلك الذي ينتفع (ص65) بعلمه فليطلبه».

ومن مناجاة موسى - عليه السلام - : «يا رب، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه لعله يسمع كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى». وعن كعب الأحبار: «طلبُ العلم مع العمل الصالح جزء من النبوة».

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يتعلم أحد بابًا من العلم يريد أن يصلح به نفسه إلاَّ كتب الله له به أجر سبعين صديقًا». وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أكرم سبعين شهيدًا، ومن أحبَّ العلم والعلماء لا تكتب عليه خطيئة (ص66) أيام حياته».

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «بلغنا عن إبليس، أنه قال: لعَالِم واحد أشد عليَّ من ألف عابد؛ لأن العابد يعبد الله ببدنه، والعالم يُعَلِم الناس

الخير والحكمة حتى يكونوا علماء»، ورحم الله الأستاذ أبا القاسم بن الشاط حيث يقول:

مــن لازم العلــم وحــاز التقى ســـاد علـــى أقـــرانه وارتقـــى

ومـــن تزكـــى فـــرع تمهيده أنـبـاه عـــن أصـــله المنتقـــى

تنبيه:

ما تقدَّم من الأخبار في فضل العلم وأهله، وما لهم عند الله من الثواب إنَّما يُراد به من كانت نيته في طلب العلم وجه الله تعالى والدار الآخرة، وأنه تعلم ليعمل بما علم كان كما كان حال هذا الشيخ - رحمه الله -، فإنه لم يقصد (ص67) بطلب العلم الظهور والرياسة، ولم يحمله عليه الرياء والنفاسة؛ لأنه كان على حالة عظيمة من التواضع في لباسه وهيأته، ولما علم الله منه إخلاص الطلب لوجهه الكريم نظم له الأسباب وأعانه بالحفظ والفهم، فكان أحفظ أهل زمانه وأذكاهم عقلاً، قال في بعض منظوماته:

إذا يحفـــظ شـــيءٍ يذكـــر ولا نـنـســاه ولا ننكـــرو

وبهذا جرت عادة الله فيمن أحكم أساس التقوى وزهد بكليته في الدنيا أن يتولاه ويجعله من أوعية العلم، وحكى بعض المفسرين أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴾ [الحاقة: 12]. قال رسول الله ﷺ (ص68) لعلي بن أبي طالب: «سألتُ الله - عز وجل - أن يجعلها أذنك يا علي»، فكان علي يقول: «ما نسيتُ شيئًا قط، وما كان لي أن أنسى بعد دعائه ﷺ».

أما من تعلَّم العلم ليرأس به على الناس ويجوز به الذكر والشرف والثناء عند الملوك والأمراء فهو غير مثاب عليه، والوعيد لاحقٌ به إن لم يتب من هذه النية الفاسدة؛ إلاَّ أن يتجاوز الله عنه، روينا عن السلف الصالح - رضي

الله عنهم - أنهم كانوا يقولون في قوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي».

إن الإشارة بهذا إلى العالم العارف بالله وبصفاته العلية المطلع على خفايا هذه الأنفس (ص69) الرديئة الذي قصد بعلمه وجه الله العظيم والدار الآخرة، وأخلص النية في ذلك. قالوا: أمّا مَن تعلّم الفقه والحديث للرياسة والظهور فلا مدخل له في هذا الثواب حدّث صاحب «الهداية»: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس شر؟ فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس سلوني عن الخير ولا تسألوني عن الشر، شر الناس شرار العلماء، وخير الناس خير العلماء».

ورحم الله القائل، وروى المسعودي، عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ويرغبون فيها، (ص70) وينبسطون عند الأغنياء وينقبضون عند الفقراء، أولئك الجبارون عند الرحمن». ورحم الله القائل:

يـا طالـب العلم للدنيا وزينتها ... مـن رام قصدك فيه بئس ما فعلا

علمـت علمًـا ولم تعمل بموجبه ... فقد ضللت وأضللت الذي جهلا

وقـد تـبوأت في الدارين منزلةً ... الخـزي والذل فيه حظ من نزلا

طـوبى لعبـدٍ حوى علمًا أراد به ... وجـه الإلـه فـوفاه لـه عملا

وفي أخبار سفيان الثوري أنه قيل له: من الناس (ص71)؟ قال: العلماء العاملون بعلمهم. قيل: فمن السفهاء؟ قال: الظلمةُ من العلماء. قيل: فمن السفهاء؟ قال: الظلمةُ من العماء. قيل: فمن الغوغاء؟ قال: الذين يتعلمون العلم ليأكلون (كذا) به أموال الناس. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد فيما في أيدي الناس.

وكان سيدي محمد ملازمًا لقيام الليل ذكره في كثير من كلامه ونص عليه في التنبيه في قوله: «لكن ما زي برقاد»، وقال في «تبصرة السائل»: أهل الرقاد مثل الربيع اليابس.

فمن طالعَ كلامه حصل له العلم اليقين أنه كان - رحمه الله - في قيام الليل من أهل الجد والاجتهاد قائمًا به على حالة أوائل العباد، وكان إذا صلّى العتمة تهلل (ص72) وجهه وقام للصلاة بسكينة، ووقار اقتضاهما منصبه الرفيع المنار، فإذا أصبح ظهر عليه سر قوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

جعل الظلام مطية لقيامه ... لينال وصلاً ما يريد سواه

طاب المقام له وطاب نعيمه ... في دار عدن والجليل يراه

وحكى أبو حامد في كتاب «الأوراد من الإحياء» عن بعض العلماء قال: ليس من الدنيا وقت يشبه الجنة إلاَّ ما يجده أهل التملق في قلوبهم، بالليل من حلاوة المناجاة؛ لأن المناجاة ليست من الدنيا في شيء، إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها غيرهم (ص73)، وما زال قيام الليل من عمل الصالحين، وشعار السلف الماضين، ندب الله إليه وأثنى عليه أهله، قال الله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: 17]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان: 64].

وفي الحديث عنه ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم»، وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: 26]. أن الملك هو قيام الليل، خرج المحدث أبو جعفر أحمد بن وداعة في كتابه «الأربعين» عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال

رسول الله ﷺ: «مَن صَلّى منكم بالليل فليجهر بقراءته، فإن الملائكة تُصلي بصلاته وتسمع لقراءته (ص74)، وأن مؤمني الجن الذين يكونون في الهواء وجيرانه الذين معه في مسكنه يصلُّون بصلاته ويسمعون قراءته؛ وإنه ليطرد بجهر قراءته عن داره، وعن الدور التي حوله فساق الجن، ومردة الشياطين».

وأن البيت الذي يقرأ فيه القرآن عليه خيمة من نور يقتدي بها أهلُ السماء، كما تقتدونَ أنتم بالكوكب الدري في لجج البحار، وفي الأرض القفر، وما من رجل يتعلم كتاب الله - عز وجل - ثم يُصلي ساعة من الليل إلاَّ أوصلت به تلك الليلة الماضية الليلة المستأنفة أن تنبه لساعته وأن تكون خفيفة عليه، وأنشدَ بعضُ العارفين (ص75):

غريب الوصف ذو علم غريب ... عليل القلبِ من حب الحبيب

إذا ما الليل أظلم يبكي ... ويشكو ما يكن من الوجيب

يقطع ليلة فكرًا وذكرًا ... وينطق فيه بالعجب العجيبِ

به من حب سيده غرام ... يجل عن التطيب والطبيب

ومن يك هذا عبدًا محبًا ... بطيب ترابه من غير طيب

وحكى سيدي أبو العيش، عن الحسن البصري، أنه كان يقول: «أن العبد ليذنب الذنب فَيُحرَمُ به قيام الليل».

وفي أخبار إبراهيم بن أدهم أنه كان يقول: «لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقاب: أولها: أن يغلق باب النعمة، ويفتح باب الشدة. الثاني: أن يُغلق باب العز، ويفتح باب الذل. الثالث: أن يُغلق باب الراحة، ويفتح باب التعب (ص76). الرابع: أن يُغلق باب النوم، ويفتح باب السهر. الخامس: أن يُغلق باب الغنى، ويفتح باب الفقر. السادس: أن يُغلق

باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للموت، وأنشد العسال:

إن لله عباد ليلهم ليل طويل — خلطوا خوفًا وشوقًا همهم هم دخيل

بأبي هم من عباد حظهم حظ جزيل — في رياض مونقات شربهم ما السلسبيل

فهنيئًا يا عباد الخير — قد طابَ المقيل

وفي شرح «الأسماء الحسنة» لسيدي أبي العيش: كان بمدينة القيروان رجل من أولياء الله (ص77)، في الليل أخذ نفسه بالتذكير فيمشي أكثر الليل في المدينة يذكر الناس بقيام الليل، ويقول في مشيه بأزقة المدينة: الرحيل الرحيل، وأقام على ذلك على أن توفي ففقد صوته أمير المدينة ابن الأغلب، فسأل عنه، فقيل له: مات، فأنشدَ ابن الأغلب:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره — حتى أناخَ ببابه الجمال

فأصابه ذا أهبة مستقيظًا — متشمرًا لم تلهه الشغال

وفي أخبار معاذ بن جبل - رضي الله عنه - من كتاب «الاكتفاء» للكلاعي، قال: لَمَّا أصاب معاذ الطاعون وهو أمير المسلمين بالشام، واشتد عليه وجعه دخل عليه رجلٌ، فقال له: علمني شيئًا ينفعني الله (ص78) به، فقال له معاذ: خذ عني ما آمرك به، كن من الصالحين في النهار ومن المسلمين في جوف الليل، ومن المستغفرين بالأسحار، ومن الذاكرين الله على كلِّ حال، ثم اشتد معاذ وجعه فكان كلامه حين حضرته الوفاة: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري النهار ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الطويل ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ثم قال: أجلسوني فأجلسوه وجلس رجل خلف ظهره، فقال معاذ: ليست ساعة الكربِ هذه، حدثني رسول الله ﷺ حديثًا فكنتُ أكتمه مخافة أن تتكلوا عليه،

فأما الآن فإني أحدثكم: (ص79) «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أنه لا يموت عبد من عباد الله وهو يشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله إلاَّ أدخله الله الجنة وحرَّمه على الناس»، ثم مات معاذ ساعته - رحمه الله - ، وذلك سنة ثمان عشر من الهجرة، وفي هذه السنة كان تمام بلاد الشام كلها واستيلاء المسلمين عليها.

وأول من سَنَّ قيام الليل كله من هذه الأمة عثمان بن مظعون من أكابر أصحاب النبي ﷺ، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً من الصحابة - رضي الله عنهم - ؛ إلاَّ أنه توفي قديمًا في صدر الإسلام بعد مرجع النبي ﷺ من غزوة بدر، فكانت الرواية عنه قليلة لأجل ذلك، وهو أول من مات من (ص80) المهاجرين بالمدينة - رضي الله عنهم - .

فكان - رحمه الله - يُدمنُ قيام الليل، وصيام النهار إلى أن مات، ومن حديثه ما أخرجه أهل الصحة وأجاد تخريجه العلامة الفاضل ابن الرقيق في كتاب «النساء» من تأليفه قال: وعن علي - رضي الله عنه - قال: جاء عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قد غلبني حديث الناس لست أفعل شيئًا حتى أشاورك، فقال: «بم حدثتك نفسك يا عثمان؟» قال: هممتُ أن أسيح في الأرض. قال: «إن لسياحة أمتي المساجد»، قال: وهممت أن أحرم اللحم على نفسي، قال: «فلا تفعل فإني أشتهيه وآكله، ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم لفعل». قال: وهممت (ص81) أن أجب نفسي وأكون خصيًا. فقال: «يا عثمان ليس منا من يفعل ذلك بنفسه، ولا بأحد، إن وجاء أمتي الصيام»، قال: وهممت يا رسول الله أن أحرم خولة أهلي، قال: «لا تفعل يا عثمان فإن العبد المؤمن إذا أخذ بيد زوجته كتب الله - عز وجل - له عشر

حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، فإن قبّلها كتب له مائة حسنة، ومحى عنه مائة سيئة، فإن ألَمَّ بها كتب الله له ألف حسنة، ومحى عنه ألف سيئة، فإذا اغتسلا جميعًا لم يمر الماء على شعرةٍ منهما إلاَّ كتب حسنة ومحى عنهما سيئة، وإن كان ذلك في ليلة باردة، قال الله - عز وجل - لملائكته: انظروا إلى عبديَّ هذين قد اغتسلا في هذه الليلة الباردة علما بأني ربُّهما أشهدكم (ص 82) أنِّي قد غفرتُ لهما، فإن كان لهما في ليلتهما تلك ولد كان لهما ضياء في الجنة»، ثم ضرب رسول الله ﷺ على صدر عثمان، وقال: «يا عثمان، لا ترغب عن سنتي، فإن مَن رغبَ عن سنتي عرضت له الملائكة يوم القيامة فصرفت وجهه عن حوضي».

وفي ترجمة عبد الله بن موسى بن برطلة من كتاب «تنظيم الدرر» لابن ربيع الأشعري، حكى أبو عبد الله الرازي أن بعض الصالحين من قُضاة العدل بالديار المصرية خرج ذات ليلة إلى النيل فتوضأ وصلى ما شاء الله أن يُصلي فإذا به يسمع هاتفًا يقول:

لولا أناس لهم سرد يصومونا ... وآخرون لهم وردٌ يقومونا

(ص83)لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرًا ... لأنكم قوم سوء لا مبالونا

ومن الحكايات المستحسنة في أخبار المصلين بالليل ما حدَّث به الحافظ ابن عبد البر في بعض كتبه، قال: روي عن محمد بن سيرين أنه قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، فقالت له: يا أمير المؤمنين، زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، وقد أشبع بطني وكسا ظهري، فمره فليحسن إليَّ، فقال لها عمر: نعم الزوج زوجك، فردت عليه كلامها فقال لها: زوجك رجل صالح، وكان بحضرته كعب بن سوار الأزدي فقال: يا أمير المؤمنين، إنها تريد نصيبها من فراشه، فقال له عمر: يا كعب، أما أنا نظرت في

(ص84) أول أمرها فانظر في آخره، فقال: يا أمير المؤمنين، أراه بمزلة رجل له أربع نسوة فلها منه الربع لا محالة، ثم جلس كعب للحكم في المسألة فأنشدته المرأة:

يا أيها القاضي الفقيه أرشده ... إلهي خليلي عن فراشه مسجده

زهده في مضجعي تزهده ... نهاره وليله ما يرقده

فقال كعب: عليّ بزوجها، فأتي به وسأله عن مقالة زوجته فأنشد:

إني امرؤ زهدني ما قد نزل ... في سورة النور وفي السبع الطول

وفي الحواميم الشفاء وفي النحل ... وفي كتاب الله تخويف الوجل

فلمّا سمعت المرأة ذلك قالت: والله يا أمير المؤمنين مالي شوق إلى ما يشتاق إليه النساء من الرجال غير أني رأيته (ص85) يقوم الليل ويستغفر لوالديه، فرجوت أن يخرج الله مني من يستغفر لي وله، فبكى عمر ودعا لهما ولكعب بخير، وما أحسن قول الإمام الشافعي - رحمه الله - في قيام الليل، أنشدهما الحضرمي:

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي

تروم العز ثم تنام ليلاً ... يغوص البحر من يبغي اللآلي

وحكى شمس الدين ابن قيم الجوزية في كتابه المؤلف في الروح، عن الولي الزاهد قبيصة بن عقبة قال: رأيتُ سفيان الثوري بعد موته في المنام، قلتُ له: ما فعل بك ربك يا أبا عبد الله؟ فأنشد يقول:

نظرتُ إلى ربي عيانًا فقال لي (ص86) ... هنيئًا رضائي عنك يا ابن سعيد

لقد كنت قوّامًا إذا الليل قد دجى ... بعبرة محزون وقلب عميد

فدونك فاختر أي قصر تريده وزرني فإني منك غير بعيد

وفي أراجيز سيدي محمد بالتنبيه وغيره، ذكر معاودة الحج إلى بيت الله وتمنيه، وأنه في كل عام ينويه، قال في التنبيه:

إذا نفتكر مكة وأيضًا بيار علي وتقوم نار في قلبي يا فتى وتشغل

أروم كل عام نزور وقلبي أيضًا ممل (ص87) باهم يا فتى وهو أيضًا شغل

وقال:

سلم لي على النبي يا ماشي إلى الحجرا كل سنة نقول نمشي لكن ما يلي قدرا

وكلامه هذا ينظر من وراء ستر رقيق إلى أبيات الولي الزاهد أبو العباس بن العريف، أنشده ابن ربيع الأشعري في كتابه «الجامع بين الصلة والتكملة» وهي قوله:

شدوا الرحال وقد نالوا المنى بمنى وكلهم بأليم الشوق قد باحا

راحت ركائبهم تندى روائحها طيبًا كما طاب ذاكَ الوفد أشباحا

(ص88) نسيم قبر النبي المصطفى لهم راح إذا سكروا من أجله فاحا

يا راحلين إلى المختارِ من مضر زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على شوق وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا

وهذا الذي كان سيدي محمد - رحمه الله - يقصده من المشي للحج وينويه هو من أقوى الدلائل على فضله وكمال ولايته، فإنه كما سكن قلبه حب الله تعالى، وحب رسول الله ﷺ تاقت نفسه لهذه الأماكن المشرفة والمشاهد المعظمة؛ لأن الطواف ببيت الله الحرام (ص89) والصلاة فيه من أعظم القربات كما أن الوقوف بعرفة من أحسن الطاعات، وأما زيارة قبره ﷺ فهي من سنن

الإسلام وشرائع الدين التي أجمع على فضلها المسلمون، ورغَّب فيها العلماء بالله والصالحون رحمهم الله.

فمـن ذا لـه فضل كفضل محمد على أمـته أو من له مثل نعمته

فـيا ربـه بلـغ عبـيدك قـبره ليحظـى بتقبـيل لظاهـر تربته

ويـأنس في الدنـيا به في جواره ويدخل يوم العرض في أهل قبيلته

وجـازه عـنا بالـذي أنت أهله إلـه الـورى أنت الكفيل بمنته

وصـلِّ علـيه مـا لاح كوكب وجلـى عمود الصبح ظلماء ليلته

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «مَن أرادَ الدنيا (ص90) والآخرة فليقصد هذا البيت، ما أتاه عبد سائل دنيا إلاَّ أعطاه الله منها، ولا آخرة إلاَّ ادَّخرَ له منها».

وفي حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «وفد الله – عز وجل – ثلاث: الحاج، والمعتمر، والغازي في سبيل الله. دعاهم الله – عز وجل – فأجابوه وسألوه فأعطاهم».

وحدَّث أبو الفرج بن الجوزي عن جابر – رضي الله عنه –، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ جاءَ هذا البيت حاجًا فطافَ أسبوعًا فأتى مقام إبراهيم – عليه السلام –، فصلَّى ركعتين، ثم أتى زمزم فشرب من مائها أخرجه الله من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ومِن حديث الإمام أحمد بن حنبل، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا لقيت الحاج فصافحه (ص91) وسلم عليه ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته، فإنه مغفور له».

وروينا عن سيد التابعين بن جبير أنه قال: «ما أتى هذا البيت طالب حاجة

قط من أمر الدنيا وأمر الآخرة إلاّ رجع بحاجته».

وفي كتاب «الشفا» للقاضي عياض أبي الفضل: حكى أن قومًا أتوا سعدون الخولاني بالمنستير فأعلموه أن كتامة قتلوا رجلاً، وأضرموا عليه النار طول الليل، فلم تعد عليه، وبقي أبيض البدن، فقال لهم سعدون: لعله حج ثلاث حجج، قالوا: نعم. قال: حدثت أن من حج حجة أدّى فريضة، ومن حجّ ثانية دان ربه، ومن حجّ ثلاث حجج حرّم الله شعره وبشره على النار.

وحدّث الأزرقي في كتابه المؤلف في «تاريخ مكة والمدينة» عن جابر قال: قال (ص92) رسول الله ﷺ: «هذا البيت دعامة الإسلام، فمن حج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر، كان مضمونًا على الله إن قبضه أن يُدخله الجنة، وإن ردّه إلى أهله ردّهْ بأجر وغنيمة».

ومن فضائل سيدنا الحسين بن عبي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، لَمّا مَرض مرض وفاته جمع أولاده وأهله، ثم قال لهم: يا بني إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن حجَّ ماشيًا كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم». فقال بعضهم: وما حسنات الحرم؟ قال: «كل حسنة بمائة حسنة». (ص93)

وفي كتاب «الإنشادات» لأبي عبد الله الحضرمي: حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجياب قال: سمعتُ الشيخ الصالح أبا يعقوب البادسي - رحمه الله -، وقد سئل عن الحج والجهاد أيهما أفضل؟ فقال: سمعتُ الشيخ الإمام أبا إبراهيم الأعرج يقول في هذه المسألة بعينها: الحج أفضل من الجهاد إلاّ أن تكون مخافة، فالجهاد أفضل من الطعام إلاّ أن تكون مجاعة. قال: وكتب أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين إلى القاضي أبي الوليد بن رشد - رحمه الله - يسأله: هل الحج أفضل لأهل الأندلس أم الجهاد؟ فأجابه ابن

رشد: فرض الحج ساقط على أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطًا في الوجوب؛ لأن الاستطاعة هي (ص94) القُدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال، وذلك معدوم في هذا الزمان فبان أن الجهاد الذي لا تُحصى فضائله في القرآن والسُّنة المتواترة والآثار أفضل منه، وأن ذلك أبين من أن يحتاج فيه إلى السؤال عنه، وبالله التوفيق.

ولمَّا تكلم القاضي أبو بكر بن العربي في «سراج المريدين» على هذه المسألة قال: العجيب مِمَّن يقول أن الحج لا يجب على أهل المغرب وهو يسافر من قطر إلى قطر فيخترق البحار ويقطع المفاوز المخيفة في مقاصد دينية أو دنيوية، والحال واحدة الخوف والأمن. وإنفاق المال وإعطائه، ثم لا يصدهم ذلك عن غرضهم.

وأمَّا الآثار في الترغيب في زيارة قبره ﷺ فهي كثيرة، ومن الحق (ص95) المتأكد له ﷺ علينا أن من تَمكَّن من زيارته ﷺ فليزره، ومن تمكن ولم يفعل فقد جفاه - عليه الصلاة والسلام - .

ورحم الله أبا عبد الله بن الحكيم فاضل علماء الأندلس في وقته فإنه لَمَّا عاين المدينة المشرفة نزل عن راحلته وأنشد قصيدة يقول في آخرها:

وأن بقائي دونه لخسارة ولو أن كفي تملك الشرق والغربا

فيا عجبًا ممَّن يحب بزعمه يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتبا

وزلات مثلي لا تُعد كثيرة وبعدي عن المختار أعظمها ذنبا

فمما روينا عنه ﷺ أنه قال: «مَن زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي، ومَن زَارَ قبري وجبت له شفاعتي». وفي حديثٍ آخر عنه ﷺ (ص96): «مَن زارَ قبري في المدينة محتسبًا كان في جواري، وكنتُ له شفيعًا يوم القيامة».

وفي جامع الترمذي، عن علي - رضي الله عنه - ، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بينَ قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

وقد اختلفت العلماء في معنى هذا الكلام، فقال الخطابي: «معناه أن من لزم طاعة الله تعالى في هذه البقعة الشريفة عوضه في الآخرة روضة من رياض الجنة».

وقال غيره: «الصواب حَملُ الكلام على ظاهره؛ إذ بعد أن ينقل الله تلك البقعة يوم القيامة فتكون روضة من الجنة؛ لأن في ذلك اليوم من خوارق العادات ما لا يخطر ببال». وقرأتُ في كتاب «جنى الجنتين» أن زين الدين يحيى بن عبد المعطي النحوي لمّا (ص97) أشرفَ على المدينة المعظمة على ساكنها الصلاة والسلام أنشد:

نـزلنا علـى الأكوار نمشي مهابة ولـو كان إنصافًا فرشنا خدودنا

وهـان علينـا أن نـريق دموعنا ونجـري في تلـك العيون عيوننا

وكأنه عارض الإمام أبا الفضل الجوهري؛ فإنه لَمّا ورد المدينة زائرًا وقرب من بيوتها نزل عن دابته ومشى باكيًا منشدًا:

ولمّـا رأينـا رسم من لم يدع لنا فـؤادًا لعـرفان الرسوم ولا لبا

نـزلنا عـن الأنوار نمشي كرامةً لمـن بـانَ عـنه أن نلم به ركبا

وحدثني شيخنا الحافظ أبو عبد الله التنسي أن الفقيه الصرصري لما شاهد روضة النبي ﷺ أنشد قوله (ص98):

جُبْنا إليك القفار الشاسعات على ظهـر المطي بنص السير والعنق

ولـو سعينا على مقدار فضلك يا خـير الورى لقطعنا البيد بالحدق

زارت حماك قلوب حشوها حرق شـوقًا إليك فزحزحنا عن الحرق

وقد استجاب أئمتنا للحال بالمدينة المشرفة أن يقصد أول حلوله مسجد النبي ﷺ فيُصلي به تحية المسجد، ثم يقصد الروضة الكريمة فيقف تجاه السيد ﷺ وقد أخلصَ النية في زيارته والصلاة والسلام عليه مع خشوع وتواضع، كما روينا عن الإمام مالك - رحمه الله - في مناظرته مع الخليفة أبي جعفر المنصور.

ذكرها القاضي أبو الفضل في كتابه «الشفا» وغيره في الأخباريين، قالوا: لمَّا ناظرَ أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور مالك (ص99) بن أنس في مسجد النبي ﷺ بالمدينة، وذهبا في المناظرة كل مذهب صار أبو جعفر يرفع صوته في الاحتجاج، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله - عز وجل - أدَّب قومًا فقال: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: 2]. وإن حرمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًا، فاستكانَ لها أبو جعفر وأدركته الخشية خفض من صوته، ثم قال: يا أبا عبد الله، أستقبل القِبلة وأدعو أم أتسقبل رسول الله ﷺ، فقال: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم - عليه السلام - إلى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعكَ الله، فانظر كيف أمر مالك (ص100) أبا جعفر المنصور باستقبال القبر الكريم.

ومِمَّا يلزمك في استقبالك له ﷺ أن تستحضر في قيامك أنك بين يدي ﷺ، وأنه يسمع كلامك وتمثل وجهه الكريم في ذهنك وتحضر قلبك جلال رتبته وعلو منزلته، فإن أكابر الصحابة ما كانوا يخاطبونه إلاَّ سرًّا تعظيمًا له لما عظَّم الله تعالى من شأنه.

قال عبد الملك بن حبيب: روينا عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد يسلم عليَّ إلاَّ ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه». ثم تقول بحضور قلب، وخفض

صوت، وسكون جوارح، وإطراق هيبة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك (ص101) يا إمام المتقين، السلام عليك يا شفيع المذنبين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا من ظهرت أنوار علائمه، السلام عليك يا من بهرت أنوار سنائه، السلام عليك يا نتيجة الشرف الباذخ، السلام عليك يا سلالة المجد الراسخ، السلام عليك يا منبع الكرم والجود، السلام عليك يا من عظمت هباته، السلام عليك يا من بهرت آياته، صلوات الله وملائكته وجميع خلقه في أرضه وسماواته عليك يا سيدي يا رسول الله، الحمد لله الذي أقرّ عيني برؤية روضتك، وقضى لي أن أتشرف بحضرتك، اللهم إني أشهد أنك قد بلغت الرسالة (ص102)، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده، وأنزل عليك كتابه النور المبين، وجمع لك فيه علم الأولين والآخرين، ووصفك فيه بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وأنزل عليك فيه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64].

وإني يا سيدي يا رسول الله قد ظلمتُ نفسي وجئتُ مستغفرًا من ذنبي، مستشفعًا بك إلى ربي أن يغفر لي ذنبي بشفاعتك، وأن يمتني على ملتك ومحبتك، وأن يغفر لي ولوالدي والمسلمات والمسلمين، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات (ص103)، اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد،

وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم اجزه عنا أفضل ما جزيت نبيًا عن أمته، ورسولاً عن قومه، ولا تجعله آخر العهد به، وانفعنا بمحبته.

ثم تقول مخاطبًا لوزيره في الحياة، وضجيعه بعد الممات: السلام عليك يا خليفة رسول الله، السلام عليك يا أبو بكر الصديق، اللهم إني أشهد أنك قد نصحت الأمة، وعدلت في الخلافة فرضي الله عنك وجزاك أفضل ما جزى به أئمة العدل خلفاء الهدى والعدل، نفعنا الله بمحبتك وحشرنا في زمرتك (ص 104) مع سيدنا محمد ﷺ.

ثم يقول مخاطبًا لسيدنا عمر: السلام عليك يا صاحب رسول الله ﷺ، السلام عليك يا أمير المؤمنين، اللهم إني أشهد أنك قد أخلصت في صحبتك، ونصحت في خلافتك، وعدلت، فرضي الله تعالى عنك، وجزاك عن المسلمين أفضل ما جزى به الأئمة المقسطين.

ومن النظم الحسن في السلام على النبي ﷺ القصيدة الحجازية التي نظمها حين سفره للحجاز العلامة زين الدين أبو الحسن علي بن المنير خاتمة المحدثين بمدينة الإسكندرية، أواخر المائة السابعة أفادنا بها شيخنا ابن عبد الله التنسي فيما قرأته عليه وهي: (ص105)

أجب دعوة الرحمن يا صاح تسعد ... وبادر لفرض الحج غير مفند

ولذ بالمتاب الآن وازدد من التقى ... فإن اتقاء الله خير التزود

ودع خاطر التسويف والخوف جانبا ... وسلم لأمر الله أمرك في غدِ

فكم ذي صدى ما بين أهل ومنزل ... وريان ماء بين قبر وفرقد

وكم فاطن في موطن غير آمن ... وراكب أخطار يفوز المقصد

وكـم ذي سـرى سـراه همومه	وأعقـبه مـرآه قـبر محمـد
آيادي لأيدي العيس إن تبد ويثرب	وكـم مـنة فـيها عليَّ وكم يد
تبلغـنا مـشواك يـا سـيد الورى	وتـشهدنا مـنه مقـر التعبد
فـتمحو خطايانـا بدمـع إنابـة	ونظفـر بالغفـران والعفو في غد
ونـنشد والأمـاق تبكـي مسرة	وخاطـرنا بالـشوق كالمـتوقد

(ص106) علـيك سـلام الله يا خير من هدى

علـيك سـلام الله مـن كـل مهتدِ

علـيك سـلام الله مـن كل عالم	علـيك سـلام الله في كل مقتد
علـيك سـلام الله مـن كل عابد	علـيك سـلام الله في كل معبد
علـيك سـلام الله في كـل مجلس	علـيك سلام الله في كل مسجد
علـيك سـلام الله مـن كل قارن	علـيك سـلام الله من كل مفرد
علـيك سـلام الله مـن كل وافد	تجـرد للإحـرام حـق التجرد
علـيك سـلام الله مـن كل شيق	وشـيقة في خـدرها كالمفـصد
علـيك سـلام الله عن سلف لنا	وعـن ولـد يـتلو كطير مغرد
علـيك سـلامُ الله في كل مصدر	علـيك سـلام الله في كل مورد
وصـلى علـيك الحق جل جلاله	مـع المـلأ الأعلى صلاة ممجد
وصلى عليك الرسل في الخلد كلهم	وصـلى علـيك الآن كل موحد
(ص107) وأولى ضـجيعيك الرضا عنهما معا	وأتـبعه أزكـى سـلام مجـرد

يقول فيهما:

قـصدناه نستـشفي بطيب ترابه	ونحظـى بمـرآنا مقام التمجد

فنطـرق إجـلالاً ونخـضع هيبة ونـدرك أنـوارًا بـأعظم مشهد

ونـسجد فـيه بـين قـبر ومنبر فنـرتاح في روض الجنان المخلد

فأجـر صلاة فيه كالألف في سوا فاغتنم وأكثر من ركوعك واسجد

وحافظ على الوقت الذي قد منحته ولا تخلـه مـن طاعة الله وأحمد

وقـم خاضـعًا لله واسـأله عفوه سـؤال مُلِـحٍ في الـدعاء مردد

وقـل يـا رسول الله جئتك تائبًا ومـن توبتي قصدي لبابك سيدي

إلى أن قال:

وقـد آذني قـيد الذنوب وأسرها فكن منقذي من أسر دنا مقيد (ص108)

وأني مـن وفـد أتـاك محبة وهاجـر يرجو الأمن يوم التوعد

أحـن حـنين الجزع شوقًا لقبلة بأخمـصك الأعلى وموطنك الند

وأسـأل مـن قبل الممات شفاعة فأسـعف وكن فيما سألتك مسعد

ومـن يـسأل المولى بجاه محمد يقيـنًا تكـن منه الإجابة في اليد

كـذا جـاء في الأخبار عنه محررًا فكـن واثقًـا بالـنقل فيه وأسندِ

وكان سيدي محمد - رحمه الله - يُحبُّ الاجتماع على الذكر ويرغب فيه، قال في التبيان:

إذا سمعـت الفقرا حين يذكر وايمش عقلي يجول في الأحوال ويقول أين ذا أش

وذِكْر الله تعالى هو شعار المؤمنين، ومُجير عباده الصالحين في وقت وحين، قال الأستاذ (ص109) أبو القاسم: «الذكر هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلاَّ بدوام الذكر».

وكان بعضُ الأكابر يقول: «الذكر هو ظهير الولاية، فمن وفق للذكر فهو

علامة على أنه قد أعطي ظهير الولاية، ومن سُلب الذكر فذلك علامة على أنه ليس من الأولياء في شيء، وقد عزل عن الولاية».

قال صاحب الهداية: وقد اختلفت عبارات الأولياء وطبقات الأصفياء في تحصيل حقيقة ذكر الله بقصدهم. فقال بعضهم: أصدق الذكر تركُ ما شغل من الذكر. وقال آخرون: هو أن يصير القلب فارغًا من كل شيء إلاَّ من الله - عز وجل - ، وأن لا يكون فيه موضع لغيره.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: 45]. قيل: المعنى: ولذكر الله في (ص110) قلب الذاكر له على الحقيقة أكبر، وأعظم من أن يذكر مع ذكره شيئًا من دنياه أو يخلطه بذكر شيء سواه.

وقد أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالذكر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 41]. ثم بيَّن وصف الذاكر وثوابه فقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 35].

قال فخر الدين بن الخطيب: «من فضيلة الذكر عند الله أنه لم يجعل له حدًّا معلومًا، فقال: ﴿ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾، ثم إنه لم يعن واحدًا في تركه في سائر الأحوال إلاَّ من كان مغلوبًا على عقله، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: 191]. وقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا (ص111) وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: 103]. أي: بالليل والنهار في البر والبحر، في السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والمرض».

وفي الخبر المشهور عنه ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها»، فقيل له: يا رسول الله، وما رياضُ الجنة؟ قال: «مَجالسُ الذِّكر».

وفي حديث عنه ﷺ: أنه جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أي الرجال أفضل؟ فقال - عليه السلام - : «طوبى لمن طال عمره وحَسُن عمله». فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تُفارق الدنيا ولسانك رطبٌ من ذكر الله».

ومن الآيات الدالة على فضيلة الذكر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]. قال أئمة التفسير: كلفنا - سبحانه (ص112) وتعالى - في هذه الآية بأمرين: الذكر، والشكر؛ لأنه اشتغال بالحق تعالى، والشكر اشتغالٌ بنعمه، ولأرباب التأويل في التفسير من هذه الآية عدة أقاويل:

الأول: اذكروني بالنعمة أذكركم بالرحمة.

الثاني: اذكروني بالدعاء أذكركم بالنعماء، بدليل قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

الثالث: اذكروني في الرخاء، أذكركم في الشدة.

الرابع: اذكروني بطاعتي، أذكركم بمعونتي.

الخامس: اذكروني بالصدق والإخلاص، أذكركم بالخلاص والاختصاص.

السادس: اذكروني بالخوف والرجاء، أذكركم بالأمن والعطاء.

السابع: اذكروني بالوحدانية في الفاتحة، أذكركم بالرحمة في الخاتمة.

الثامن: اذكروني بالتوبة (ص113)، أذكركم بغسل الحوبة.

التاسع: اذكروني بالإنابة، أذكركم بالإجابة.

العاشر: اذكروني بالندامة واشكروا لي بالسلامة، أذكركم بالكرامة يوم القيامة، وأحلكم دار القيامة.

الحادي عشر: اذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة، قال تعالى: ﴿لَئِن

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: 7].

الثاني عشر: اذكروني بالصبر، أذكركم بأوفى الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 10].

الثالث عشر: اذكروني بالتوكل، أذكركم بالكفاية، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: 3].

الرابع عشر: اذكروني بالإحسان، أذكركم بالرحمة، قال - عز وجل - : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56].

الخامس عشر: اذكروني بمعرفتي، أذكركم بمغفرتي.

السادس عشر: أذكروني بالطاعة، أذكركم عند (ص114) الساعة.

وحكى أبو القاسم في كتاب الرسالة أن جبريل - عليه السلام - قال لرسول الله ﷺ: «إن الله - تبارك وتعالى - يقول: أعطيتُ أمتك ما لم أعطِ أمة من الأمم. فقال: وما ذاكَ يا جبريل؟ قال: قوله - عز وجل - : ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾. لم يقل هذا لأحدٍ غير هذه الأمة».

ومن أخبار ذي النون المصري قال: «لقيتُ ببعض سواحل الشام امرأة، فقلتُ لها: من أين أقبلتِ؟ فقالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلتُ: وإلى أين تريدين؟ فقالت: لي رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فقلتُ لها: صفيهم لي فأنشأت تقول:

قومٌ همومهم بالله قد علقت ... فما لهم همم تسموا إلى أحدِ

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطامع واللذات والولد (ص115)

ولا للبس ثياب فائق أبق ولا لروم سرو رجل في بلد

والأخبار الواردة في الذكر كثيرة، والحسنات التي وعد الله بها الذاكرين أثيرة شهيرة، قال صاحب الهداية: وأفضل ما أعطي أهل الدنيا في الدنيا ذِكر الله - عز وجل - ، فذكر الله - عز وجل - على الحقيقة في الدنيا كالنظر إليه في الآخرة؛ لأن أفضل ما أعطي أهل الجنة في الجنة النظر إلى الله - عز وجل - ، وهو أفضل نعيم أهل الجنة، وذلك أنهم إذا تجلى لهم الحق سبحانه ونظروا إليه حصل لهم من النعيم ما أنساهم جميع ما في الجنة، فكذلك ذكرُ الله - عز وجل - في الدنيا؛ لأن الذاكر مشاهد بسّره جلال الربوبية ناظر بقلبه لحضرة الملك الحق، (ص116) فكأنه في حالة إقباله على الذكر مخلصًا النية فيه مستشعرًا المقول بين يدي مولاه كمن هو يرتفع في رياض الجنة جعلنا الله من الذاكرين، وكتبنا في زمرة الصالحين بمنه وكرمه:

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت إذ رأتك النفس أهواي

فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى إذ صرت مولاي

تركتُ للناس دنياهم ودينهم شغلاً بذكرك يا ديني ودنياي

وكان سيدي محمد مِمَّن جمع الله له الأوصاف الشريفة والمحاسن المتفرقة في غيره، فكان من العلماء الزاهدين والفقهاء المتصوفين الفقراء الشاكرين، فكان إمامًا في جميع العلوم الشرعية، مقدمًا في الطريقة القرآنية (ص117)، أشار في منظوماته إلى أنه كان يحفظ الشاطبية، والألفية، وكثيرًا من الكراريس المشتملة على علوم القرآن رسمًا وأداءً ونحوًا ولغةً.

وذكر في كثير من كلامه معرفته بكتاب ابن عطية في التفسير وقيامه على التفسير الكبير للإمام فخر الدين بن الخطيب، وأما علم الفقه فكان مشهورًا بحفظه معروفًا بالقيام على غوامضه، مقبولاً قوله في فتاويه متبحرًا في مذهب مالك يحفظ

منه ما لم يحفظه أحد من فقهاء عصره، عارفًا بالخلافيات ذكر معرفته بعلم الخلاف في كتابه التبيان، وذكر في كثير من كلامه أنه كان يحفظ رسالة ابن زيد وشرحها للقاضي عبد الوهاب.

ومن محفوظاته المدونة المسماة (ص118) بالتهذيب للبراذعي، وكان إكماله لحفظها سنة ست وسبعين وسبعمائة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان يحفظ كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب، وكتاب جامع الأمهات لابن الحاجب، ذاكرًا شرح ابن عبد السلام قائمًا على فوائده، ولما ظهر شرحه لسيدي خليل في أواخر عمر سيدي محمد، وبلغه عنه ما اشتمل عليه من الفوائد، قال في بعض كلامه:

قد نشتهي نسخًا من خليل فيه أبيان ونفـــرح بما ننقل ولا يكن نسيان

وهذا منه - رحمه الله - اعتناء كبير بعلم الفقه، وفي كتاب عوارف المعارف: الفقه في الدين من أكمل الرتب (ص119)، وأعلاها وهو علم العالم الزاهد في الدنيا الذي يبلغ رتبة الإنذار، ومن حديث عبد الله بن عمر، وابن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه». وكان عبد الله بن عباس يقول: «أفضلُ العبادة الفقه في الدين».

ومِمَّا أوصى به بعضُ الأدباء قوله:

العلـــم شـــيء حـــسن فكـــن لـــه ذا طلـــب

وابـــدأه بالـــنحو وخـــذ مـــن بعـــده في الأدب

فـــإن أردت أن تـــرى جاهًـــا وعـــز منـــصب

فاقـــرأ أصـــول مالـــك واحفـــظ فـــروع المـــذهب

فـــإن قـــال مالـــك سلـــسلة مـــن ذهـــب
واعمـــل بمـــا حفظـــته تحظـــى بأعلـــى الـــرتب

وكان سيدي محمد - رحمه الله - مع هذه الدرجة العظيمة التي حصلت له في سائر العلوم مداومًا على طلب العلم مكثرًا من تعليمه وتعلُّمه معرضًا عن النظر إلى علمه أو عمله. ومنظوماته مفصحة بذلك، وأنه كان يحتقر علمه ولا يرضى بعلمه، فكانت حالاته كلها مثل حالة العبد الفقير إلى سيده مقتديًا في ذلك بالسيد الكامل ﷺ، فقد روينا عنه من طريق عائشة - رضي الله عنها - قالت: «قال رسول الله ﷺ: «إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علمًا (ص121) فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم».

وكان - رحمه الله - من أئمة علم التوحيد، سالكًا فيه الطريق السديد، وزعماء المتصوفة وأرباب القلوب يرون أن الوصول إلى حقائق الأعمال وبلوغ من بلغ إلى مقام الكشف، والمراقبة من أفاضل الرجال إنما هو بمعرفة علم التوحيد، فأنت إذا طالعت أخبار فحول الأولياء الذين شهروا بمقام التصريف والاصطفاء لا تجد أحدًا منهم إلا وقد ترقى في علم التوحيد المرتبة العليا، انتقلت عنه الحقائق في مسائله كما تنقل عن أهل الفقه والفتوى، وكان من محفوظات سيدي محمد - رحمه الله - في هذا الفن: كتاب الإرشاد في علوم الاعتقاد، تأليف إمام الحرمين (ص122) أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني إمام الشافعية في وقته، وقيل له: إمام الحرمين لأنه كان جاور بالحرمين الشريفين مدة أعوام لتدريس المذاهب الأربعة.

فكان طُلاَّب العلم يقصدونه من الآفاق، فلا يَجدون أعلم منه هنالك - رحمه الله - ، وما أحسن قول القاضي أبي الحسن علي بن محمد الطبري يرثي أبا المعالي، أنشدهما له التجيبي في كتابه المفخم:

يـا أيهـا الناعـي شمس المشرق ... بـأبي المعـالي نور دين مشرق

أنـذر بـني الدنـيا قـيام قيامة ... فالشمس صار مغيبها في المشرق

وكتابه الإرشاد هو مدونة في علم التوحيد، وكان سيدي محمد - رحمه الله - من أهل المعرفة التامة بهذا الكتاب، وكان إذا قرأ شيء منه ينطلق لسانه فيه بما لم (ص123) يسبق إليه، وبما لو سمعه مؤلفه إمام الحرمين لقال له: أنتَ العالم بمعاني هذا الكتاب المحكم لأصول بيانه على وجه الحق والصواب، وقد أجادَ بعض الفقهاء في مدح هذا الكتاب فقال:

مـن كـان معتنيًا بذكـر معاد ... ومعـيده فعلـيه بالإرشـاد

وليحتـرس بـسبيله ودلـيله ... مـن ظلمـة التشكيك والإلحاد

وليـستعد أنـوار قطعـياته ... في حالـة الإصـدار والإيـراد

عـول علـيه تـزينا فكفـى به ... ذخـرًا لـيوم تجمـع الأشهاد

تنبيه:

فائدة علم التوحيد أن يعرف الإنسان معنى (لا إله إلاَّ الله) مطلوبه أمر واجب على كل واحد من المكلفين، إذ لا إله مطلوبه أولاً وآخرًا، أمَّا أولاً فلقوله (ص124) ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله». وأما آخرًا؛ فلقوله ﷺ: «مَن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

فإذًا مبدأ الأمر التوحيد، وآخره التوحيد، فكلمة (لا إله إلا الله) جعلها الله في الدنيا عصمةً ونجاة من ذل السيف والهوان، ثم وعد سبحانه لمن مات عليها أن تكون له ثمنًا لجنة الرضوان، وهذه الكلمة أعني (لا إله إلا الله) لها حقوق عظيمة، وفوائد كريمة وهي أشرف كلمة ينطق بها اللسان وأرجح شيء يوضع في الميزان، وروي في الحديث، عن النبي ﷺ أنه قال: «لو وضعت السماوات والأرض في كفة

الميزان (ص125)، ووضعت لا إله إلاَّ الله في الكفة الأخرى لكانت لا إله إلاَّ الله أرجح من ذلك».

وعنه ﷺ: «إذا قال العبدُ لا إله إلاَّ الله مُحمدًا رسول الله، فكأنه ردَّ على كل كافر وكافرة». وعنه ﷺ أنه قال: «أفضلُ ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلاَّ الله».

وعن بعض العلماء: «كل دعاء يكون أوله لا إله إلاَّ الله فإنه غير مردود».

وعنه ﷺ أنه قال: «أن لا إله إلاَّالله كريمة على الله فمن قالها صادقًا حجزته عن المعاصي ودخل الجنة».

وروي عن الحسن بن علي - عليهما (ص126) السلام - أنه رأى سيدنا عيسى ابن مريم - صلى الله على نبينا وعليه - فقال:

«يا نبي الله، إني أريد أن أكتب على خاتمي شيئًا، فعلمني ما أكتبُ عليه، فقال له اكتب: لا إله إلاَّ الله الملك الحق المبين، فإنها تذهب الهم والحزن، وهو آخر الإنجيل»، واعلم أن أئمتنا - رضي الله عنهم - استنبطوا عن كتاب الله تعالى لهذه الكلمة الشريفة أسماء عديدة.

الاسم الأول: كلمة الاستقامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [الأحقاف: 13]. جاء في التفسير: عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ هو قول: لا إله إلا الله؛ لأن قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إقرار بوجود الرب - سبحانه وتعالى - ، ثم لمَّا وجدنا كثيرًا من المقرين بوجوده (ص127) سبحانه قد أثبتوا له الند والشريك، وكمال التوحيد إنما هو باعتقاد نفي الشريك، فإذا قال الموحد: (لا إله إلاَّ الله) فقد بقي الشريك والنظير، وأثبتَ المعتقد السليم، واستقامَ على النهج القويم.

الاسم الثاني: الكلمة الباقية.

جاء في التفسير أن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28]. أنها قوله: (لا إله إلاّ الله)، وأيضًا أهل الجنة لا يبقى معهم شيء من الطاعات سوى التوحيد فإنها طاعة باقية مع الموحد لا تفنى أبدًا.

الاسم الثالث: كلمة التقوى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال أهلُ التفسير: هي (لا إله إلاّ الله). وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26]. فيه شرفٌ كبير لأهل التوحيد (ص128)؛ لأنهم إذا كانوا أهلاً لكلمة التوحيد، وهي أشرف من الجنة؛ فلأن يكونوا أهلاً للجنة أولى.

وفي كتاب القاضي بن خلاد بسنده المسلسل بالسماع إلى سلمة بن كهيل قال: «سمعتُ عباية بن ربعي يقول في قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: هي كلمة (لا إله إلا الله)».

الاسم الرابع: الكلمة الثابتة.

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]. قال أئمة التفسير: هو قول العبد حين دخوله في الإيمان: (لا إله إلاّ الله)، وتلك هي الحياة الدنيا، وأمّا الآخرة فذلك قوله: (لا إله إلاّ الله) عند آخر ساعة في الدنيا، وأول منزل من منازل الآخرة، ثبتنا الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا (ص129) وفي الآخرة.

الاسم الخامس: الكلمة الطيبة.

قال الله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: 24]. ومعنى

كونها طيبة أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ [النور: 26]. وقيل: سُميت طيبة بمعنى أنها مقبولة عند الله، وهو إحدى التأويلات في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: 10]. وقال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الحج: 24]. ولا قول أطيب من هذه الكلمة، ولا أظهر منها كما أنه لا أنتن ولا أنجس من الشرك المبعد من هذه الكلمة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: 28]. ثم إن الكافر إذا أقام على نجاسته وشركه مثلاً سبعين سنة فإن نجاسته تزول بهذه الكلمة إذا وفقه الله لها وقالها مرة واحدة، قال أهل الإشارات: «فإذا كانت (ص130) هذه الكلمة تطهر النجاسات الكفرية؛ فلأن تزيل ذنوب المؤمن العاصي أولى وأحق».

الاسم السادس: دعوة الحق.

قال الله تعالى في سورة الرعد: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الرعد: 14]. قال ابن عباس: «دعوة لا إله إلاَّ الله».

الاسم السابع: كلمة العدل.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: 90]. في كتب التفسير: أن العدل شهادة أن لا إله إلاَّ الله، والإحسان والإخلاص فيه.

الاسم الثامن: كلمة الإحسان.

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: 60]. قال أئمة التفسير: معناه هل جزاء من أحسنا إليه بالإيمان إلاَّ أن نحسن إليه بالغفران،

واتفق المفسرون على أن المراد بالإحسان في قوله تعالى: (ص131) ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. هو قول: (لا إله إلاّ الله).

الاسم التاسع: القول السديد.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70]. قال أئمة التفسير: المراد بالقول السديد هنا: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

الاسم العاشر: العروة الوثقى.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]. لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

هذا تلخيص بعض ما ذكره الأئمة باختصار؛ إذ كان هذا المجموع مراد به كلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص وكلمة الله العليا، وكلمة (ص132) النجاة إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتب التفسير.

واعلم أن من أكثر من قول (لا إله إلاّ الله) مخلصًا من قلبه، عارفًا بوحداينة ربه فإنها تحجزه عن معاصي الله وتمنعه من الشهوات المظلة، وتبغض له الدنيا وتحبب له الآخرة.

اللهم ببركة (لا إله إلاّ الله) اشرح صدورنا لمعرفة (لا إله إلاّ الله)، وأطلق ألسنتنا بذكر (لا إله إلاّ الله)، وثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

تنبيه:

اعلم أن حقيقة التوحيد لا تُدرك إلاّ بالنظر في آيات الله - عز وجل -، والاستدلال عليه لا يكون إلاّ بالتفكر في آثار قدرته وشواهد صنعته، ولطائف حكمه سبحانه لا إله إلاّ هو، وقد أرشد - سبحانه وتعالى - إلى التفكر والنظر

(ص133) في عجائب مقدوراته، والاستدلال بذلك على وحدانيته، وكمال ربوبيته بجملة آيات من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: 185].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: 6 - 8].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: 17 - 20].

فقد أمرنا الله - عز وجل - باعتبار النظر في مخلوقاته والتفكير فيما أحكمه من مصنوعاته من أرضه وسماواته، وبهذا النظر والتفكير يصل العبد إلى حقيقة (ص134) المعرفة.

فمن وفقه الله وهداه إلى حسن التأمل، وأرشده لمقام التدبر بالعقل، والفكر فقد أنعم عليه، فأنت إذا تدبرت بصحة عقلك أن ربنا وخالقنا - سبحانه وتعالى - غني عن خلقه قائم سبحانه بذاته مدبر تعالى في تصرف هذا الخلق من جميع جهاته، وأن المخلوقات كلها محتاجة إلى الخالق المدبر سبحانه لا تستغني عنه طرفة عين، علمت أنه الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، وأنه - سبحانه وتعالى - كما خلق هو الخلق وأحكم صنعته على غير مثال سابق، فهو تعالى عالم به قبل خلقه، وأن القُدرة التي بها (ص135) كان ابتداؤه هي القدرة التي بها يكون فناؤه، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59].

واحذر أيها العبد من وسوسة الشيطان في عقيدة توحيدك فإنه يأتيك بالوسوسة في كيفية ما وصف الله به نفسه من السمع والبصر والاستواء على العرش واليدين، فإذا خطر هذا بعقلك فادفعه عن قلبك وارفضه عن قلبك ولا تفكر في كيفيته؛ لأنه مما ستره الله عنا ولم يكيفه لنا ولا أعلمنا به لأنه لا تطيقه عقولنا وتحارُ فيه أفكارنا:

كل ما يرتقي إليه بوهم ... من جلال قدرة وسناء

فالذي أبدعَ البرية أعلى ... منه سبحانه مبدع الأشياء

(ص136) وكذلك أيضًا إن ذهبت بك الوسوسة استقلال الرزق الذي قسّمه الله لك ووسع على غيرك وضيّق عليك، ومتع قومًا بالعافية في البدن، وابتلاك بأنواع المرضْ فاطرح ذلك من عقلك واستعن بالله من وسوسة الشيطان، فإنه حريصٌ على إذايتنا وإفساد عقيدتنا ولا عصمة لنا إلاّ بالله - عز وجل - ، وهذه الوسوسة بحرٌ عميقٌ هلك فيه خلقٌ كثير؛ ولأنها تؤدي إلى تعقب أحكام ربنا - سبحانه وتعالى - فارفضها من بالك ولا توسع لها عقلك، فإنه مما ستر الله عنا من سائر أمره، وقد أخبر تعالى أنه لا معقب لحكمه ولا رادَّ لأمره، لا يسأل عما يفعل في عبيده، وهم المسئولون، وهم الفقراء (ص137) إليه، وهو الغني الحميد.

وقد نهى الرب - سبحانه وتعالى - عبيده في محكم كتابه عن تمني ما حرمهم، وأناله غيرهم، فقال - عز وجل - : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [النساء: 32].

قال بعضُ المفسرين: هذه الآية مفصحة بوجوب الرضى والتسليم، والانقياد لما قضاه وقدَّره في سابق علمه الحكيم العليم، فإذا قادتك الخطرات إلى شيءٍ من هذه الوساوس والشبهات، فافزع إلى التعوذ بالله وسؤال فضله أن يزيح ذلك عن قلبك، ويريح عنه شواغل لبك، وتأمل قوله تعالى: (ص138) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

فالعبدُ ليس له حق على ربه ولو كان الأمر على ما يتمناه العبد لبطل التدبير الإلهي، ولفسد الحكم الرباني، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71].

فينبغي لك يا ابن آدم أن تعرف نفسك، وأن تخاصم عدوك بالمبادرة إلى الرضى والتسليم والقيام بحق العبودية في التذلل والخضوع للعزيز الحكيم، ألا ترى أنه - سبحانه وتعالى - خلق ملائكته وجعل منازلهم متفاوتة وأعمالهم متباينة، وكلهم له عابدون وساجدون (ص139) يُسبحون الليل والنهار لا يفترون، وكذلك الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: 253].

فأهل المعرفة بالله المخصوصين بطاعاته لا يروا أنفسهم أهلاً لِمَا أعطاهم فكيف يطلبونَ ما لم يعطهم، فهم واقفون في موقف الشكر على ما أعطاهم راغبون إليه في المزيد من فضله والثبات على طاعته، بل الواجب عليك أيها العبد أن تشغل قلبك بمعرفة نفسك، وأن تتفقد خطاب الله الوارد عليك في أوامره ونواهيه، وفيما سلفَ من ذنبك، وفي شكر نعمة الله عليك، وفيما

فرطت فيه مدة عمرك من التوبة (ص140) الواجبة عليك؛ إذ لعله أن يكون قد اقترب أجلك، واسأل الله - عز وجل - أن يمنعنا وإيَّاك مِمَّا لا يرضاه من العمل والقول بيده القوة والحول.

حدّث المقرئ الزاهد أبو محمد القاسم بن داود الصديني في رحلته بسنده من شيوخه أنه قام رجل بين يدي ذي النون المصري، فقال له: يا ذا النون، أخبرني عن التوحيد ما هو، قال: هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاح، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه وليس في السماوات العلى ولا في الأرضين السفلى مُدبر غير الله - عز وجل -، وكل ما تصور في وهمك فالله بخلاف ذلك.

قال الصديني: (ص141) وأنشد الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي لبعضهم:

الله أكبر أن تكون لذاته	كيفية كذوات مخلوقاته
أو أن تقاس صفاتنا في كل ما	تبديه من أفعالنا بصفاته
تبًا لذي سفه يقول بأنه	جسم وأن سماتنا كسماته
لبديع صنعته عليه شواهد	تبدو على صفحات مصنوعاته
ذرأ الأنام بقدرة أزلية	وإرادة فيهم لتقديراته
ورمى بعين العلم ما تأتي به	لحات أعينهم وما لم تأته

ومن فوائد (لا إله إلاَّ الله) ما حكاه ابن عميرة في كتابه «بغية الملتمس في تاريخ علماء الأندلس»، وذكره العلامة أبو القاسم بن يعيش في فهرسته واللفظ له، قال: روي عن الأستاذ أبي الحسن نجبة الرعيني أنه قال: حضرتُ الجمعة (ص142) يومًا في جامع العدبس بإشبيلية والخطيب إذ ذاك به

الأستاذ أبو الحسن شريح، ففجأة وقد حان الرواح إلى الجمعة، مرض مرضًا منعه من الخروج، وارتقبَ وصوله فلم يكن، وضاق الوقتُ فتقدم الناس إلى القاضي أبي بكر بن العربي وطلبوه النيابة عن الخطيب فصعد القاضي أبو بكر المنبر من غير استعداد للخطبة، فلمّا سكت المؤذن استوى قائمًا فقال: أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله، فلمّا قالوها قال:

روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قال العبدُ لا إله إلاّ الله اهتز عمود من نور أوله تحت العرش وآخره تحت الأرض السابعة، فيقول الله - عز وجل - له: اسكن، فيقول: يا رب كيف أسكن وأنتم لم تغفر لقائلها، (ص143) فيقول الجليل جل جلاله: أشهدكم يا ملائكتي وحملة عرشي أني قد غفرتُ لقائلها، فقال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذلك العمود».

ثم قال القاضي أبو بكر: أن أحسن ما لفظ به لافظ، وأبلغ ما وعظ به واعظ، كتاب الله العزيز الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]. قال الله العظيم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98].

ثم تلا آية الكرسي إلى قوله: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. ثم قال: روينا عن عكرمة بن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: العروة الوثقى: لا إله إلاّ الله.

ثم جلس الجلسة الفاصلة بين الخطبتين، ثم قام إلى الخطبة الثانية فقرأ الفاتحة، وسورة (ص144) فاطر، ثم صلى على النبي ﷺ، وسلم على آله وصحابته بما تيسر، ثم قرأ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

ثم نزل فصلى وانفصلَ الناس على أن القاضي أبا بكر هو الخطيب المصقع - رحمه الله ورضي عنه -.

وكان سيدي محمد مجبولاً على الكرم والإيثار، معروفًا بسخاوة النفس مُحبًا في الجود، وأما السماط فكان لا يفارقه، قال في التبيان: ولابد للسماط للجالس ومن يمشي، وذكر في منظوماته أنه كان إذا تم له نظم تأليف أو أمر ديني جعل لذلك سماط من الطعام، إمّا باللحم أو الفاكهة (ص145)، ويُسمى ذلك الباروك، ولا ريب أن الكرم هو أساس التصوف وبه قوامه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة».

وعنه ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».

وحدَّث الأستاذ أبو القاسم عن علي أمير المؤمنين كرَّم الله وجهه أنه قال: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء».

وكان من شأن أوليائه الصادقين، وحزبه السابقين أن يتحرزوا من صفة الغناء أن تدخل عليهم فلا يمسكون (ص146) شيئًا يُفسد عليهم فقرهم كما يتحرى الأغنياء من صفة الفقر أن تدخل عليهم، فهم لا يسمحونَ بما في أيديهم من عرض الغناء حذرًا أن يدخل عليهم الفقر، فيفسد عليهم غناهم.

فهذا الشيخ - رحمه الله - كان متمسكًا بصفة الفقر متحققًا بفضله مؤثرًا له على الغناء، فقد كانت الصدقات والنذور ترد عليه من جميع البلاد ويهوي بها إليه المسافرون من جميع الأقطار البعيدة، فيصرف ذلك لوقته ولا يخص نفسه بشيء منه، حدثني جماعة من الثقات، أنه قال: قلَّ أن يرد على وهران جفن فيه جماعة من المسلمين إلاَّ وفيه عدة أو صلة لسيدي محمد، وكانوا يضمرون ذلك في نياتهم عند تحركهم في سفرهم من بلادهم فيجدون (ص147)

بركة ذلك.

وربما أخبر سيدي محمد أصحابه وأهل مجلسه بورود ذلك عليهم قبل وصوله، فيكون كما قال، فكان - رحمه الله - يتصدق بكل ما يرد عليه وينفقه على الفقراء إيثارًا لصفة الفقر، وطمعًا أن يفوز غدًا بثواب السبقية إلى دار الفناء.

ففي الحديث عنه ﷺ: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم»، وهو خمسمائة عام، ومعلومٌ أن الكرم في الصفات المحمودة الجامعة لخير الدنيا والآخرة.

فمن حديث عائشة - رضي الله عنها - ، عن النبي ﷺ أنه قال: «السخي قريبٌ من الله قريبٌ من الناسْ، بعيدٌ من النار، والبخيلُ بعيدٌ عن الله، بعيدٌ عن الناس، بعيد من الجنة».

(ص148) وفي الحديث عنه ﷺ: «إن الله ليباهي بمطعم الطعام الملائكة». وكان علي بن أبي طالب يقول: «إذا أقبلت عليك الدنيا فانفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فإنها لا تبقى»، وقد نظم هذا الكلام بعضُ المجيدين من الشعراء فقال:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة ... فليس ينقصها التبذير بالشرف

وإن تولت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا أدبرت بالخلف

وأكرم الكرماء نبينا محمد ﷺ لأنه كانت تجيء إليه أحمال الفضة والذهب فيجود بذلك كله على المساكين حتى لا يبقى بيده منه درهم واحد، (ص149) ومات ﷺ ودرعه مرهونة في قوت أهله، ومِمَّا روينا من إيثاره ﷺ حديث الثمانية دراهم.

حدَّث صاحب الذخائر والأعلاق وغيره من أهل الأخبار، أن النبي ﷺ

خرج إلى السوق ومعه ثمانية دراهم، فإذا بجارية على الطريق تبكي، فقال لها: «ما يبكيك؟» قالت: بعثني أهلي بدرهمين لأشتري بهما حاجة فوقعا لي، فأعطاها درهمين، ومضى بستة دراهم، فاشترى منها قميصًا بأربعة دراهم، ولبسه وانصرف، وإذا بشيخ من المسلمين عاريًا وهو ينادي: من كساني كساه الله من خضراء الجنة، فتجرَّد ﷺ من القميص وأعطاهُ إيَّاه، ثم رجع إلى السوق (ص150) فاشترى قميصًا لبيسًا بدرهمين فلبسه، وأقبل ﷺ يبادر أهله فإذا هو بالجارية حيث تركها وهي تبكي فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طالبت غيبتي عن أهلي وأخشى عقوبتهم، فقال لها: «تقدمي لأهلك، وأنا على إثرك»، وجعل ﷺ يتبعها حتى أتت بعض دور الأنصار وليس فيها إلاَّ النساء، فقال: «السلامُ عليكن ورحمة الله، فسمع النساء صوته فعرفنه فسكتن ولم يجبن رجاء أن يُعيد النبي ﷺ عليهن من السلام ما يحصل لهن الخير والبركة، فلمَّا لم يسمع النبي ﷺ مجيبًا أعاد عليهن السلام ثانية، ثم ثالثة رافعًا صوته فأجابه النساء بأجمعهن السلام عليك (ص151) يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، فقال لهن ﷺ: «ما سمعتن ابتداء سلامي أولاً؟» فقلن: بلى، ولكننا أحببنا أن نكثر لأنفسنا وذريتنا من بركة تسليمك، فقال لهن ﷺ: «إن جاريتكن هذه قد أبطأت عنكن وخشيت العقوبة فهبو إلى عقوبتها». فقال النساء: قد قبلنا شفاعتك يا رسول الله، وقد أعتقناها لممشاك معها، فهي حرة لوجه الله العظيم، فانصرفَ رسول الله ﷺ وهو يقول: «ما رأيتُ دراهم أعظمَ بركةً من هذه الثمانية، دراهم أمن الله بها خائفًا، وكسا بها عاريًا، وأعتقَ بها رقبةً، وما من مسلم يكسو مسلمًا إلاَّ كان في حفظ الله ما دامت عليه منه رقعة». (ص152)

يبقى الثناء وتنفد الأموال ... ولكل دهر دولة ورجال

مـــا نال محمدة الرجال وشكرهم   إلا الجـــواد بمالـــه المفـــضال

وكان سيدي محمد - رحمه الله - يُحب الشرفاء الكرام ويعظمهم ويذكر حقوقهم، فمن قوله في تبصرة المسائل:

من هو فصيح عربي من آل فاطما   ونقدموا على من سبق لو التقدما

من هو شريف هو سيدي ونعظما   مطلب كبير عندي من جهلوا عما

حدثني جماعة من أهل الخير أنه كان معظمًا لأهل بيت النبي ﷺ يعترف لهم بالعبودية، وإذا قدم عليه أحد من الشرفاء قام له من مجلسه، ووقف كالخديم (ص 153) بين يديه، وأكرم نزله، وأبانَ للحاضرين فضله، فإذا انصرفَ عنه زوده بما يجده في الوقت من دراهم أو ثياب.

ولما عرف عنه اعتناؤه بالشرفاء وإكرامه لهم صار المتطفلون منهم يقصدونه لذلك وينتسبون على الشرفاء طمعًا فيما عهد من كرمه ونواله، فيكرمهم وينوه بهم، فيقول له أصحابه في ذلك، فيقول: نحن عرفنا من عاملنا إن كان من ادعى الشرف منهم صادق فذلك، وإلا فقد بلغت النية والحمد لله، وهذا الذي كان عليه هذا الشيخ - رحمه الله - من حب الشرفاء الكرام هو من فرائض الدين ومعتقدات أهل السنة؛ لأن حب أهل البيت وسيلة إلى حبه ﷺ، وإنما خصص الشيخ - رحمه الله - آل فاطمة - رضي الله عنها - ؛ لأنها أصلٌ لهذا الشرف الكريم، وولداها الحسن والحسين وأولادهما ومن كان عقبهما هم المختصون بالإجلال والتعظيم.

قال سيدي محمد في بعض منظوماته: والشرف من فاطمة لا من علي فإطلاقُ الشرف على غير أولاد الحسن والحسين؛ إنَّما هو بحسب التبع، ويجب إكرام الجميع لأنهم أهل البيت (ص154) الذين أوصى بهم النبي ﷺ، ففي الصحيح عنه ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي».

قال أئمتنا:معناه أحذركم الله في شأن أهل بيتي، وأقول لكم: اتقوا الله ولا تؤذوهم واحفظوهم، وفي الحديث عنه ﷺ أنه أخذ كساء وجعله كالخباء، ثم أدخل فيه الحسن والحسين وفاطمة وعليًا - رضي الله عنهم - قال: «﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: 33]. اللهم هؤلاء أهل بيتي»، ولنذكر ترجمة مختصرة لكل واحد من هؤلاء السادة تكميلاً للإفادة.

أمّا سيدنا علي أمير المؤمنين - رضي الله عنه - فبويع بالخلافة سنة خمس وثلاثين من الهجرة، وله من الفخر (ص155) بقرابته من رسوله ﷺ، وسبقيته إلى دار الإسلام، وبالصهر المنعقد له على فاطمة سيدة نساء أهل الجنة - رضي الله عنها -، وبكونه من النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى ما لم يكن لغيره، وفي كتاب العمدة عن أبي بكر الصديق في كتابه بسنده المتصل إلى أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل علي فيكم، - أو قال: في هذه الأمة -، كمثل الكعبة المستورة النظر إليها عبادة، والحج إليها فريضة».

وأسند الخطيب أبو بكر عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مكتوب على باب الجنة لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، عليّ أخو رسول الله قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بألفي عام». (ص156)

ومن شعره مشيرًا لذلك:

محمد النبي أخي وصهري	**وحمزة سيد الشهداء عمي**
وجعفر الذي يمسي ويضحى	**يطير مع الملائكة ابن أمي**
وبنت محمد سكني وعرسي	**منوط لحمها بدمي ولحمي**
وسبط أحمد ولداي منها	**فأيكم له سهم كسهمي**

سبقتكم إلى الإسلام طرا صغيرًا ما بلغت أوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت ردءًا فمن ذا يدعي يومًا كيومي

وكان علي - رحمه الله - مشهورًا بالعلم والشجاعة تميز عن سائر الصحابة بالفقه في الدين، وقتل صناديد المشركين، وكان من أهل زمانه في الخبر الصحيح عنه - رضي الله عنه -، أنه نظر إلى المال مجموعًا في بيت (ص157) مال المسلمين فقال: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري، ثم فرَّق ذلك كله لوقته على المسلمين وصلى في مكانه، وروي عنه أنه قال: «طلقت دنياكم ثلاثًا لا رجعة لي فيها»، نظم هذا الكلام بعض الشعراء في أبيات خاطب فيها حفدته وقد أدبرت عنهم الدنيا فقال:

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى أرى عمرات همها ليس ينجلي
أكل كريم من علي نجاره حرام عليه الوفر غير محلل
فقال نعم يا ابن الوصي لأنني غضبتُ عليكم حين طلقني علي

ولبعضهم فيما يقرب من هذا المعنى:

عتبت على الدنيا لتقديم جاهل وتأخير ذي الفضل فقالت خذ العذرا
ذوو الجهل أبنائي وكل فضيلة فأبناؤها أبناء ضرتي الأخرا

(ص158) وكانت وفاة سيدنا علي - رضي الله عنه - سنة أربعين للهجرة، قتله عدو الله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي عند قيامه لصلاة الصبح في المسجد، ورثاه الناس بأشعار كثيرة فمن متخير ذلك قول بعض نسائه:

ألا قل للخوارج حيث كانوا فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرًا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وذللها ومن ركب السفينا

ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمبينا

وكل مناقب الخيرات فيه وحب رسول رب العالمينا

وما أحسن قول الفاضل يحيى بن حميد الحلبي كبير الشعراء في المائة السابعة ببلاد الشام أنشده (ص159) ابن شداد الحلبي - رحمه الله تعالى - :

حسب علي شرف لمن به يلتحق

وبغضه النفاق والكفر الذي يقترف

ميز محبيه فهم إذا الأنام انكشفوا

جواهر خالصة وما سواهم صدف

وأنشد العماد الأصفهاني في كتابه الخريدة لبعض أمراء بني مزيد - رحمهم الله تعالى - :

حب علي بن أبي طالب للناس مقياس ومعيار

يخرج ما في أصلهم مثل ما يخرج غش الذهب بالنار

وأمّا سيدتنا فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - فأمها خديجة، وكان ﷺ يحبها (ص160) حبًا كثيرًا، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورحب بها ويقول لها: «يا فاطمة أنت سيدة نساء العالمين».

وفي كتاب الأربعين النسائين، عن ابن سبع في كتابه «إيضاح البيان» أن كفار قريش لمّا سألوا عن النبي ﷺ أن يريهم انشقاق القمر فأراهم ذلك، ولَمّا رجع إلى بيته قالت له خديجة: يا رسول الله، قد رأيت القمر وقد انحط إليك وأنتَ على جبل أبي قبيس، ولقد رأيتُ يا رسول الله معجزة أعظم من انشقاق القمر، والله لقد خاطبني هذا الجنين الذي في بطني فقال لي وهو في ظلمة الأحشاء: «يا أماه

أتخشين على رسول الله ﷺ ومعه رب المشارق (ص161) والمغارب»، فتبسم النبي ﷺ من كلام خديجة، وقال لها: «إن الله ما أعطى لنبي معجزة إلا وخصني بمثلها»، وقد كان عيسى كلم من ظلمة الأحشاء فالذي يكلمه بإذن الله هي فاطمة قدسها الله، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «فاطمة سيدة نساء الجنة».

تنبيه:

إنَّما قيل لفاطمة الزهراء؛ لأنها كانت تغرب النساء لحسن إشراقها وطهارة أعراقها وطيب أخلاقها، والزاهر في كلام العربِ هو المشرق اللون من النساء والرجال، وفي الحديث عن ابن عباس قال: إذا استقر أهل الجنة في الجنة برقت بارقة من النور، فسأل أهل الجنة عن ذلك فتقول (ص162) لهم الملائكة: أن عليًا إذا فاكه فاطمة، وتبسمت سطع نور ثناياها فمنه ذلك النور.

وكانت وفاتها - رضي الله عنها - سنة إحدى عشر من الهجرة، وهي بنت ثلاثين فبينها وبين أبيها ﷺ في الوفاة ستة أشهر، وفاطمة - رضي الله عنها - قليلة الحديث لكونها ماتت في صدر الإسلام كما تقدَّم.

ومن حديثها ما أخرجه صاحب الهداية، قال: روي عن فاطمة - رضي الله عنها - أنه قال أبوها ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عراة»، قالت: يا رسول الله، وا سوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض، فقال ﷺ: «يا بنية أمَّا المؤمنون (ص163) فيُحشرونَ في ستر الله تعالى، وتجدد لهم أكفانهم، وأمَّا الكفار فتبدو عوراتهم».

قرأت في تاريخ بغداد للخطيب أبي بكر فيما أسنده عن رجاله، عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود قال: أصابَ فاطمة بنت رسول الله ﷺ صبيحة العرس رعدة، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا فاطمة إني قد زوجتك سيدًا في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين، يا

فاطمة إني لما أردت أن أزوجك من علي أمر الله سبحانه جبريل بأني قد زوجتك من علي، ثم أمر شجر (ص164) الجنان فحملت الحلي والحلل، ثم أمرها فنثرته على الملائكة، فمن أخذ منهم يومئذٍ أكثر مِمَّا أخذ صاحبه أو أحسن افتخر به إلى يوم القيامة».

حدث راوي الخبر أن أم سلمة - رضي الله عنها - أنها كانت تقول: فلقد كانت فاطمة تفتخرُ على غيرها من النساء بأن أول من خطبَ عليها جبريل - عليه السلام -.

وأمَّا سيدنا الحسن - رضي الله عنه - فكنيته أبو محمد، ولد سنة ثلاث من الهجرة، وعن علي - رضي الله عنه - لمَّا ولد الحسن جاء رسول الله ﷺ، فقال: «أروني ما سميتموه»، قلنا: حربًا، قال: بل هو حسن. وفي البخاري، ومسلم، أنه كان أشبه الناس برسول الله ﷺ.

وكان الحسن - رضي(ص165) الله عنه - من أعبد أهل زمانه كثير الصلاة، والصلام، زاهدًا محبًا للفقراء، وتواترت الأخبار الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال في الحسن: «أن هذا سيد، وعسى الله أن يبقيه حتى يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، فتأمل هذا الفضل العظيم الذي خص الله به سيدنا الحسن فإنه لا أعظم قدرًا مِمَّا سمَّاه النبي ﷺ سيدًا.

وكان من أزهد أهل زمانه وأورعهم وأفضلهم، وبيان ذلك أنه لما قتل أبوه - رحمه الله - بايعه أكثر من أربعين ألف مقاتل على الموت، وأقام خليفة بالعراق نحو نصف سنة تجيء إليه الأعواء فغلب عليه ما هو سبيله من الزهد والورع (ص166) فترك الملك والخلافة رغبة فيما عند الله، ثم قام فخطب في الناس بحضرة معاوية وقال في خطبته:

الحمد لله الذي هداكم بأولنا وحقن دمائكم بآخرنا، ألا إن أكيس الكيس

التقوى، وأعجز العجز الفجور، وأن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون هو أحق به مني، وإما أن يكون حقي فقد تركته لله، وإصلاح أمة محمد ﷺ، ثم التفت إلى معاوية وقال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: 111]. وكانت وفاته سنة تسع وأربعين مسمومًا - رحمه الله ورضي عنه - .

ومن مرويات الحسن في كتاب الترمذي، وأبي داود، عن أبي الحوراء قال: قال الحسن بن علي - عليه السلام - : (ص167) «علمني رسول الله كلمات أقولهن في القنوت: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يُقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت»».

وأمّا سيدنا الحسين - رضي الله عنه - فكنيته أبو عبد الله ولد في السنة الرابعة من الهجرة، قال أبو عمر: كان الحسين من أهل الدين والفضل كثير الصوم والصلاة، ومن عظيم عبادته أنه حج خمس وعشرين حجة ماشيًا على قدمه، وخيله تقاد معه، وكان النبي ﷺ يُحبه كثيرًا ويرفعه على عاتقه ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه».

وفي (ص168) جامع الترمذي، عن علي بن مرة قال رسول الله ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط».

وفي كتاب ابن أبي السعادات، عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: «كان على الحسن والحسين - رضي الله عنهما - تعويذتان حشوهما من زغب جناح جبريل - عليه السلام - ».

قلت: التعويذ الذي يجعل على الصبيان إذا خافوا عليهم من العين، فإذا كبروا نحيت عنهم، وكانت وفاته يوم عاشوراء، من سنة إحدى وستين بسنة، قتله أصحاب زياد بن معاوية لا (ص169) رحم الله زيادًا ولا أصحابه، ورثاه جماعة من الشعراء والعلماء، ومن أحسن ما وقفت عليه في هذا الوقت ما أنشده الأستاذ العلامة أبو القاسم بن علي بن يعيش الأندلسي في فهرسته لزاهد الأندلس أبي بكر بن قسوم - رحمه الله تعالى - :

أسفي لابن علي أسفي ... ما اعتذار الدمع إن لم يكف

لو أذنبت الجسم دمعًا كله ... وفؤادي بعد ذا لم أنصف

كم أثارت كربلاء من كرب ... لقتيل ما له من خلف

فاترك الأجفان تنهمل دمعًا ... لشهيد ثم باللطف طف

حرموه الماء ظلمًا بينا ... وسقوه بظباة المشرف

لو دماء عبد شمس كلها ... قد أريقت في حسين لم تفِ

يا غواة الدين ما غركم ... إذ بطشتم بالأنوف الأنف

(ص170) وجفوتم في ابنه خير الورى ... أرسول الله يا قوم جف

لو طباق الأرض حزت أسفا ... لم توف حق بعض الأسف

أحقيقا يا شقيًا كدته ... بسنان وحسام مرهف

إن بدا وحينا هيجا ... منك حقدًا كان في القلب خف

ثارت النفس فأمضت ثارها ... سوف تلقيك بمهوى التلف

شاه منك الوجه عن مستهلك ... لم يراع ما له من سلف

ليت شعري ما الذي تصنعه ... يوم تلقى جده في الموقف

يـــوم تلقـــاه ذلـــيلاً صـــاغرًا نـــاكس الـــرأس شـــديد الأسف

لا يغـــرنك الـــذي خولـــته مـــن نعـــيم هـــو حظ المسرف

ســـوف تـــدري يـــا يزيد في غد لمـــن الجـــاه وعـــز الـــشرف

يـــوم تلقـــى باكـــيًا في ســـفر وحـــسين ضـــاحك في العـــزف

(ص171) ومن رواية سيدنا الحسين عن جده ﷺ ما حدَّث به الزهري، عن علي بن الحسين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي، عن النبي ﷺ أنه قال: «مِنْ حُسْنِ إسْلام المرء تركه ما لا يعنيه».

ومن حديثه المسلسل بالرؤية يوم الخميس قال: رأيتُ عليًا يقلم أظافره يوم الخميس، وقال: رأيتُ رسول الله ﷺ يقلم أظافره يوم الخميس، ثم قال: «يا علي قص الظفر، ونتف الإبط، وحلق العانة يوم الخميس، والغسل، والطيب، واللباس يوم الجمعة».

ومن حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «وقت لنا في قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، أن لا نترك ذلك أكثر (ص172) من أربعين يومًا».

ومن محاسن أخبار سيدنا الحسين - رضي الله عنه - ما ذكره الصديني في رحلته بسنده المتصل إلى الأصمعي قال: «عرضت على أمير المؤمنين معاوية جارية للبيع فأعجبته فسأل عن ثمنها، فقيل له: مائة ألف درهم فابتاعها، ونظر إلى عمرو بن العاص فقال لمن تصلح هذه الجارية؟ فقال: لأمير المؤمنين، ثم استفهم غيره من أهل مجلسه، فقال له كذلك، فقال: ما أصبتم، فقيل له: فلمن يا أمير المؤمنين، قال: للحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فإنه لحق بها لماله من الشرف والفضل، ثم أمر من يقوم عليها ويحفظها إلى أن مضت أربعون يومًا فأهداها له مع أموال عظيمة وكسوة، وأسباب، وكتب إليه:

إن أمير (ص173) المؤمنين اشترى جارية وأعجبته فبعث بها إليك، وآثرك بها فلمّا دخلت على الحسين أعجبه جمالها، فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: هوى، فقال: أنت هوى كما سميت هل تُحسنين شيئًا؟ قالت: نعم، أقرأ القرآن، وأُنشد الأشعار، قال: اتل عليَّ شيئًا من القرآن، قالت: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: 59].

قال: أنشديني بعض ما معك من الشعر، قالت: علي الأمان، قال: نعم، فأنشدت تقول:

أنــتَ نعــم المتاع لو كنت تبقى غـــير أن لا بقـــاء للإنـــسان

فبكى الحسين، ثم قال: أنت حرة، ومِمَّا بعث به معاوية من المال صدقة عليك، ثم قال لها: هل قلت في معاوية شيئًا، فأنشدت تقول: (ص174)

رأيــت الفتى يمضي ويجمع جهده وجــاء الغــنا والوارثــونَ قعود

ومــا للفتى لا يصيب من الغفلى إذا فــارق الدنــيا علــيه يعود

ثم أمر لها بألف دينار من ماله وانصرفت؛ فلمّا خرجت عنه، قال: رأيتُ أمير المؤمنين كثيرًا ما يُنشد:

ومــن يطلــب الدنيا لحال تسره فــسوف لعمري من قليل يلومها

إذا أدبــرت كانت على المرء فينة وإن أقــبلت كانت قليلاً أدوامها

ثم بكى وقام إلى صلاته - رحمه الله -.

وفضائل ساداتنا أهل البيت كثيرة ومناقبهم شهيرة، وكفاهما من الفخر ما رويناه من الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الحسن والحسين هُمَا ريحانتاي من الدنيا، من أحبهما فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضهما (ص175) فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، اللهم إني

أحبهما فأحب من يُحبهما».

وأخرج المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: 23]. قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ على حبِّ آل محمد، مات شهيدًا، ألا ومن مات على حب آل محمد مغفورًا له، ألا ومَن مات على حبِّ آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ألا ومن مات على حبِّ آل محمد فتح الله له بابين في قبره إلى الجنة، ألا ومن ماتَ على حبِّ آل محمد جعل الله قبره مزارًا لملائكة الرحمة، ألا ومن ماتَ على حبِّ آل محمد مات على السنة والجماعة».

ومن فوائد أبي بكر الثمار، عن شيوخه، عن مجاهد، حديث في فضل أهل البيت يأتي إن شاء الله في ترجمتي لسيدي إبراهيم التازي، ولسيدي (ص176) أحمد بن الحسين، ورحم الله الفاضل المجيد أبا عبد الله التلمساني للبري مؤلف العمدة حيث قال من قصيد طويل في قتل سيدنا الحسين بموضع يُقال له: «ألطف» من أرض العراق، ويتوسل فيها لحب أهل البيت، ويستشفع بهم إلى الله تعالى:

يـا سادتي يا أهل بيت المصطفى ... ذكـر يـوم الطـف قد أفجعني

قـتل السبط حسين بينكم ... فـيه فاشتد علـي ذا حـزني

ومحبوكم معـي قـد حـزنوا ... فلـذا أجروا دمـوع الأعـين

ذاك يـوم نـيل فـيه منكم ... ليتني لـو كـنت فـيه ليتني

كـنت أفـني في رضاكم مهجتي ... فـاز عـبد في رضـاكم قد فني

أن يكـن لم يقـض ذاكـم ربنا ... ومِمَّـا بيـنكم لم يكـن

هـا أنـا يـا سـادتي أنصركم ... بمقـال مـا خـلا مـن لـسن

(ص177) فاشـفعوا لي يـوم حـشري تؤجروا

واجعلـــوني معكـــم في المـــأمن

لـيس لي غيركـم مـن شـافع أنـتم أهـل الـوفا والمـنن

وفي كتاب ابن العسال، عن عامر الشعبي أنه قال: صلى زيد بن ثابت على أمه لمّا ماتت، وكان من علماء الصحابة، فلمّا ذهب ليركب دابته قام إليه عبد الله بن عباس، وكان في جُملة من شهدَ دفنها، فأخذ ركاب الدابة، فقال زيد بن ثابت: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد: أرني يدك فأخرج ابن عباس يده، فأخذها زيد فقبلها، ثم قال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ.

* **حكايات بغاء الكبير:**

(ص178) ومن الحكايات المرعبة في حب أهل البيت - عليهم السلام - ما حدَّث به صاحب البيان المشرق في أخبار المشرق، وقال في أخبار سنة ثمان وأربعين ومائتين، من ترجمة أبي العباس أحمد المستعين بالله، وفي هذه السنة مات بغاء الكبير التركي، وقد نيف على التسعين سنة، وكان قد باشر من الحروب ما لم يُباشره أحد من أهل عصره، فما أصابته جراحة قط، وما لبس قط لامة حديد فقيل له في ذلك، فقال: رأيتُ النبي ﷺ، ومعه جماعة من أصحابه، فقال لي: يا بغاء أحسنت إلى رجل من أهل بيتي، فدعا لك بدعوات استجيب له فيك، قال: فقلت: يا رسول الله، ومن ذلك الرجل، فقال: الذي خلصته من السباع، قلت: يا رسول الله، (ص179) سل ربك أن يطيل عمري فرفع يده نحو السماء، وقال: اللهم أطل عمره، فقلت: يا رسول الله، خمس وتسعون سنة، قال: خمس وتسعون سنة، فقال رجل كان بين يديه، ويحفظ من الآفات، فقال ﷺ: ويحفظ من الآفات، فقلت للرجل: من أنتَ؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فكان بغاء لأجل ذلك كثير البر والإكرام لذرية فاطمة -

عليها السلام - ، قال: وكان بغاء هذا أحد كبراء دولة المعتصم بن هارون الرشيد، قاد جيوش المسلمين، وفتحت على يده البلاد وكان فيه من الدين وكمال العقل وكرم النفس وشجاعة القلب ما أوجبَ تقديمه على غيره.

ومن تمام الحكاية أنه قيل لبغاء: فما خبر ذلك الرجل الذي خلصت من السباع، قال: (ص180) كنتُ مع المعتصم ليلة، فقال لي: في السجن رجل من ذرية علي بن أبي طالب، وقد أهمني أمره فخذه وألقه إلى السباع كي نستريح منه، فاخرجت الرجل، وأتيت به إلى بيت السباع لألقيه إليها، وأنا مغتاظ عليه فسمعته يقول: اللهم إنك تعلم أني ما تكلمت إلاَّ فيك، ولا نصرت إلاَّ دينك، ولم أرد بذلك غيرك أفتسلمني.

قال: فارتعدت منه وملئ قلبي رعباً، فجاوزتُ به بين السباع، وأتيت به إلى بيتي، وأخفيته فيه، ولمّا فتحت الأبواب قلت له: يا سيدي أنت تعلم أني قد آثرتك على نفسي، فاجهد ألاَّ تظهر في أيام هذا الخليفة، وانصرف راشدًا، قال: أفعلُ إن شاء الله.

وأخبارُ هذا الولي سيدي محمد الهواري - رحمه الله - (ص181) في أقواله، وأفعاله وكراماته، ومتعلقات أحواله أكثر من أن يأخذها العد والإحصاء، أو يأتي عليها الأمد الأقصى، وما زالَ منذ أظهره الله إلى أن توفاه عاكفًا على طلب العلم حريصًا على تعلمه وتعليمه، داعيًا هذا الخلق إلى عبادة الملك الحق لا إله إلاَّ هو، مثابرًا على ذلك صابرًا على منهاج من تقدمه من أكابر الأولياء الذين أظهرهم الله دعاة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأوصاف المستحسنة، قائمًا بأثقال تحمل الدعوة إلى الله، وقد ملأ الله القلوبَ من محبته وجلاله برداء مهابته إلى أن رفع الله بين أولياء زمانه درجته وأبان فضله وكرامته.

فجعله قُدوة في الخير يُقتدى بهديه (ص182) وفعاله ويضرب المثل بكرم أحواله، إمامًا للمتقين وقرة عين لعباده الصالحين، وكان ملوك الوقت وأرباب الدنيا يعظمون قدره ويهابونه لما كانت مشيخة الوقت، وأكابر العلماء يعترفونَ له بالصديقية، فكان كبير الأولياء وشيخ الشيوخ سيدي الحسن أبركان إذا ذكر عنده سيدي محمد الهواري يطأطأ رأسه ويُبالغ في الثناء عليه.

بلغني عنه أنه زاره مرةً لوهران على قدميه حافيًا، ولَما دخل عليه في زاويته قال له: أتعبت نفسك في مشيك بالحفا، وكان سيدي محمد يُحب سيدي الحسن ويذكره بالصلاح والعلم، وقد أشار إليه في بعض منظوماته، فقال:

وإيـاك لا تحقـر الـنـاس مـن يكـون أسـر

(ص183) المـسك بالـريحا وقـد يـشبه العنبر

وكان شيخنا سيدي أحمد - رحمه الله - يطيل الثناء على سيدي محمد ويعده من مشايخه، ويقول: كان سيدي محمد الهواري ممن أعطاني الحكم والتصرف في الولاية والعز حيًا وميتًا، وسمعته يقول يومًا، وقد جرى الكلام في شأن الماء الذي أدخله سيدي إبراهيم التازي لوهران، وكان في بيت الشيخ سيدي أحمد جماعة فيهم الفقيه البركة سيدي عبد الرحمن حفيد سيدي محمد الهواري، فقال له الشيخ يخاطبه في كلام طويل: لو أراد جدك أن يأتي بالماء من تاسالا لوهران لفعل.

وما تقدم من أخباره وأحواله كله كرامات، لقد طالعت كثيرًا من مقامات الأولياء الأكابر، وتعرفت أحوالهم (ص184) ووزانتهم، بمقام سيدي محمد، وما أكرمه الله به فوجدته جامعًا لذلك كله بل يزيد عليهم، فمن طالع جملة كلامه من منظوماته حصل له العلم القطعي بأنه خاتمة الشيوخ بالبلاد المغربية كما قال الشيخ إبراهيم التازي، وأنه أول من نزل بوهران من أكابر العلماء الأعيان، وأفضل

من حلَّ بها من أولياء الله ذوي المقامات والعرفان، وما أراه إلاَّ أحد أولياء الله الذين أخفى الله أحوالهم وكراماتهم عن أهل زمانه، وذخر له ذلك ليجده غدًا في ميزانه.

وله من خوارق العادات وعظيم الكرامات وإجابة الدعوات ما لم يكن لغيره من أولياء الله في وقته، فمن كراماته المتواترة المستطابة دعوته (ص185) المستجابة في عثمان بن موسى بن المسعود العامري، وكان عثمان من طغاة العرب المفسدين وظلمتهم المسرفين، حدثوا عنه أنه أخذ مالاً لرجل من أصحاب سيدي محمد فبعث إليه محمد أحد خدامه تأكيدًا في الاعتناء بحق الرجل الذي أخذ ماله فلمّا وصل إليه الخديم أغلظ في القول، فأمر عثمان بتثقيف خديم الشيخ وتقييده فاستعظم الناس ذلك منه وحذروه من سطوة الشيخ سيدي محمد فلم يقبل منهم، ودام على طغيانه، فلما وصل الخبر سيدي محمد دعا على عثمان فأجاب الله دعاءه فيه، وعثر به فرسه في ذلك اليوم الذي دعا عليه فيه سيدي محمد فأتوه فوجدوه ميتًا، فأطلق أهله خديم الشيخ (ص186) وردوا عليه المال.

وحدثني شيخنا أبو عبد الله السنوسي بزيادة في هذه الحكاية عمَّن يثق به، عن سيدي إبراهيم أنه قال: كان الشيخ سيدي محمد جالسًا في معتاد جلوسه، فجاءه الخبر أن خديمه أخذه عثمان وكبله، فغضبَ الشيخ غضبًا شديدًا حتى اسود وجهه، ثم قام على الفور ودخل خلوته، فسمعته يقول: مفرطح، مفرطح، قال سيدي إبراهيم: فاتفق أنه كان في ذلك اليوم عرس بمحلة من الرجال والنساء رأوا شخصًا أبيض أخذ عثمان عن فرسه وضرب به الأرض، فأقبلوا إليه فوجدوه مفرطحًا، وقد دخل رأسه في جوفه، فقامت أمه في الوقت وأطلقت خديم الشيخ (ص187)، وردت عليه المال، ثم أقبلت على ولدها

تبكيه، وتقول له في كلامها: كنت أحذرك من شوكة الشيخ أن تُصيبك فلم تقبل، فتأمل سطوة سيدنا الشيخ - رحمه الله - بهذا الظالم، وكيف انتقم الله منه في الوقت أراح منه البلاد والعباد.

وبهذا جرت عادة الله تعالى فيمن يتعرض لهضم زاويته وإضافة الجناة اللائذين بحرمه، فقد شاهدنا كثيرًا من ولاة وهران وعمالها الذين سبقت لهم الشقاوة فحملتهم النفس الأمارة بالسوء على التهاون بحرم الزاوية وإخراج من استجارَ بحرمها فينتقم الله من فاعل ذلك في الوقت ويأخذه من الجانب الذي يطمئن إليه، ويظهر عليه أثر غضب الله في نفسه، (ص188) وماله، وولده حتى لا يستقيم له حال، لا في الوقت ولا في الاستقبال، نعوذ بالله من التعرض لأذية أوليائه ومعاداة أصفيائه، وكانت المصيبة بوفاته على ما قرأته بخط سيدي إبراهيم صبيحة يوم السبت الثاني من شهر ربيع الثاني من سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة[1].

وأسف الناس لفقد مكانه واسترجعوا لما أصابهم من خلاء أركانه، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «موت العالم مصيبة لا تجبر وضوء نجم طمس».

ولموت قبيلة أيسر من موت عالم، فكانت مدة عمره على ما فهمته من كلامه في منظوماته اثنين وتسعين سنة؛ لأنه ذكر أنه كان نظم لكتاب السهو (ص189) سنة ست وسبعين وسبعمائة، وأنه بلغ من السنين في ذلك الوقت خسمًا وعشرين سنة - رحمه الله ورضي عنه - ، ونفعنا بحبه وبركته، وجزى الله خيرًا مولانا أمير المسلمين في إشارته بهذا المجموع فإنه ما حركني له إلاّ نيته الصالحة وهمته الكريمة.

---

(1) الموافق (21) سبتمبر (1439م).

بارك الله للمسلمين في ولايته، وأبقى عليهم ما عهدوه من بركة خلافته، ونفعه بقصده الجميل، وبلغه من محبته في أوليائه غاية التأميل بمنه وكرمه:

هنيئًا مـا نـال مـن نـور ربه بـه يهتدى في المشكلات ويبصر

قـد أنحلـه طـور الهيام فجسمه مزكـى بـه والقلـب منه مطهر

يبيت يناجـي ربـه وهو راغب إلـيه وفي آياتـه يتفكـر

(ص190) فكن من رجال الزهد واسلك طريقه فـسالكه بالفـوز لابـد يظفر

وأنفـذ بعزم مـا تهـم بفعلـه من الخير قبل الفوت فالعمر أقصر

أوصي بذا نفسي وأهلي ومعشري وكـل ولي أو أخ لي معـشر

وفي المـوت للإنسان وعظ وعبرة لـو اتعظ الإنسان أو كان يشعر

فللـه حمـدي خالـصًا وهو أهله وأثـني علـيه ما حييت وأشكر

اللهم انفعنا ببركة أوليائك، واحشرنا في زمرة أصفيائك، وصل وسلم على محمد سيد أنبيائك...

* * * *

ثانيًا: الشيخ الحسن أبركان

ثم يتلوه ثانيهم في مقامات ذوي العرفان، وصدرهم الشهير الذكر في ذلك الزمان سيدي الحسن أبركان (ص191).

هو: الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد بن سعيد المزيلي، الراشدي سيدي الحسن أبركان - رحمه الله -. الولي العظيم الشأن كبير مشيخة الأولياء في وقته بتلمسان.

حدثني بنسبه وبالكثير من فوائد أخباره وكتب لي خطة بذلك شيخنا العالم الزاهد بركة الوقت سيدي محمد السنوسي، كان هذا الولي سيدي الحسن - رحمه الله - صدرًا من صدور العلماء الأعيان، وممن جمع الله له علم الشريعة وحقائق أهل العرفان، وهو أحد من أظهره الله لخليفته، وألبسه حلل كرامته وجلله برداء ولايته، فنفع الله به العباد، وقصده الزوار من جميع (ص192) الآفاق وعينوا له الصدقات لما عاينوه من الكرامات، وكان آباؤه وأجداده أهل صلاح وولاية، معروفين بالكرامات.

فأمّا سعد فحدثوا عنه أنه كان من أصحاب الخطوة، وممن تطوى له الأرض، وعن سيدي الحسن قال: كنت ألعب مع الصبيان فربما ألقيت الثوب عني وأبقى عريانًا، فإذا مررت وأنا عريان بقبر جدي سعد أسمع من القبر كلامه بالزجر عن التعري، وإنكار ذلك بقوة وغضب.

وأما والده مخلوف فكان من الأولياء الأخفياء، وكان سيدي الحسن يذكر له جملة كرامات، منها: أن روضة كان لا يقدر أحد أن يسرق منه شيئًا، فكان إذا دخله بعض الخونة قام له ثعبان عظيم لا تستطاع (ص193) مدافعته، فيهرب الخائن، وينجو بنفسه، ثم يخفى ذلك الثعبان فلا يظهر لأحدٍ ممن

يدخل الروض إلاَّ إن كان خائنًا.

وكان الشيخ سيدي الحسن بموضع سكنى أسلافه، وحيث قبور أجداده من الموضع المعروف بالجمعة وهي القرية الكائنة على وادي يسر، وكانت كثيرة العمران، وقد استولى عليها الخراب في هذه الأزمان، فنشأ الشيخ هنالك على طريقة سلفه الصالح إلى أن توفي والده مخلوف، فارتحلَ للبلاد المشرقية وأخذ بها على أعلام الصوفية، وأقام هنالك مدة طويلة وجاور بالحرم الشريف خمسة أعوام، ثم قدم من المشرق فسكن مع أمه تلمسان، وكانت من صالحات المؤمنين، فسيدي الحسن - رحمه الله - ممن (ص194) واجهته من الله العناية وورث عن أبويه سر الولاية وظهرت عليه في حال صباه آثار الصلاح والهداية، وأخذ بتلمسان عن أكابر علماؤها وأفاضل أوليائها كالشيخ سيدي إبراهيم المصمودي، والشيخ سيدي أبي يحيى المطغري، وكان من الفقهاء المبرزين وصدور المدرسين، انتفع الناس بتدريسه في قراءة كتب الفقه وخصوصًا رسالة ابن أبي زيد، وجامع الأمهات لابن الحاجب، وكان مشيخة الوقت من الفقهاء الأعيان، وصدور ذلك الزمان يحضرون مجالسه ويعترفونَ له بالإمامة في العلوم، والتقدم في مدارك الفهوم.

حدثني سيدي محمد السنوسي قال: حدثني أخي (ص195) سيدي علي أن شيخنا الإمام العالم العلامة المحقق سيدي محمد بن العباس، حضر يومًا مجلس الشيخ سيدي الحسن فلمَّا رأى تقديره لمسائل الفقه، وتحقيقه في ذلك قال لتلامذته: أن هذا الشيخ آية من آيات الله، وقد أسعدكم الله به لأنه قد جمع خصال الكمال، إن جاء عالم أذعن له وقبل يده لأجل علمه وفضل ولايته، وإن جاءه أهل العبادة والصلاح أقروا بفضله وشهدوا بتقديمه في العبادة ومقامات التوحيد والعرفان، وإن جاءه الملوك وأرباب الدنيا وجدوا عنده من

مهابة العلم وعز الولاية وعناية الزهد ما يحتقرونَ به أنفسهم، ويتسعظمونَ به ما لأولياء الله من تقدم العز الشامخ وكرم المجد الراسخ.

(ص196) قال: وكنتُ يومًا أقرأ على الشيخ سيدي محمد بن العباس بجامع سيدي الطيار، وإذا بجماعة من أصحاب سيدي الحسن أتوه يسألونه عن مسألة من الحوائج، فقال لهم سيدي محمد بن العباس: كيف تسألونَ عن مثل هذا وسيدي الحسن في الوجود، ونحن منه نتعلم وبه ننتفع، قال: فرحم الله الشيخ سيدي محمد بن العباس، ما أكثر إنصافه وأجمل أوصافه.

وحدثني شيخنا الإمام خاتمة الحفاظ سيدي محمد التنسي، قال: كنتُ أحضر مجالس الشيخ سيدي الحسن في تدريسه لفروع ابن الحاجب، ويأتي في أثناء تقريره بالعجائب مما لا أشاهده عند غيره من علماء الوقت، قال: وكان إذا أخذ في البحث والمعارضة بين المسائل (ص197) أجعل بالي إليه، وأكف عن الكلام لأحصل ما يجريه الله على لسانه من العلوم والفوائد، فيرد وجهه إليَّ ويقول لي: ما لك سكت عنا، أعنا أعنا، قال: ويكرر ذلك علي فنأخذ معه في الكلام ونذكر له ما وقف عليه من كلام أهل العلم في المسألة فيبتهج بذلك وينشرح له صدره ويدعو إليَّ بما أرجو بركته.

وفيما كتبه لي سيدي محمد السنوسي قال: رأيتُ لسيدي الحسن تقييدًا مقيدًا على فرائض الحوفي أوضح فيه العمل غاية الإيضاح بحيث لا يوجد ذلك في غيره من الشراح، بلغ فيه إلى مسائل الوصية بالنصيب، قال: ومن فوائد استنباطات سيدي الحسن ومآخذه اللطيفة، أن بعض شيوخ العوام (ص 198) من ذوي النيات الصالحة كان يخدم الشيخ ويتصرف له في حوائجه، فإذا لقيه أحد وسأله عن حاله قال له بخير الله يسأل عنك، وكثر هذا منه مع الفقهاء والعامة.

قال: فأنكر بعض الفقهاء قوله: الله يسأل عنك؛ لأنه قد أضافَ السؤال إلى الله تعالى، وذلك يستلزم الجهل بحال المسئول عنه، والله تعالى منزه عن ذلك، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، فبلغ كلام هذا الفقيه لسيدي الحسن، وقد كان يسمع الخديم يقول ذلك بمحضره ولا ينكره عليه، فتحدث الشيخ يومًا من إنكاره فقال لهم الشيخ: ليس فيه ما ينكر ويحمل على أنه دعاء للمخاطب (ص199)، بأن يكون أهل العبادة في أوقاتها لما ورد في حديث الملائكة الذين يتعاقبونَ فينا بالليل والنهار، وفيه: «فسألهم الله - تبارك وتعالى - وهو أعلم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقول الملائكة: يا ربنا أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». قال: فاقتضى الحديث أن العباد الذين يسأل الله تعالى عنهم الملائكة إنما هم عباده المخلصونَ المحافظونَ على الصلاة في أوقاتها؛ لأنهم قد أضافهم إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم.

قال: فكان الداعي بقوله: «الله يسأل عنك» دعاء لمخاطبه بأن يكون من أولئك العباد المسئول عنهم سؤال إظهار إنعام وإكرام، لا سؤال استفادة واستعلام.

قال: وكان سيدي الحسن - رحمه الله - (ص200) عظيم المهابة جدًا ولم أر قط هيبته على ولي شديد الكتمان لأحواله غلب عليه القبض لم ير ضاحكًا قط، وإنما غاية أمره التبسم اليسير، وكان يكتم أمر حجه مع ظهور قرائنه عليه عند إقرائه باب الحج من كتب الفقه فيصف تلك الأماكن الشريفة وصف من عاينها، وكان غلب عليه الزهد، وانقطعَ إلى عبادة الله وتخلى عن الدنيا وأهلها.

حدثني سيدي محمد السنوسي قال: وحسبك من زهده أنه بقي سنين كثيرة في تلمسان لا يقتات إلا بما يلتقطه من الطعام الذي يتساقط بالطرقات،

ويجعل في أثقاب الحيطان، قال: وكان مدمنًا على الصوم كثير الوصال، حدثني ثقات أصحابه الفضلاء الذين (ص201) كانوا يباشرونَ طعامه أنه كان في ابتداء أمره، لا يفطر إلاَّ من الجمعة إلى الجمعة، فإذا كان شهر رمضان واصله كله، وسمعت من أثق به أنه صام شهر رمضان لا يأكل في كل ليلة منه إلاَّ أنجاصة واحدة.

قال: ومن المشهور في وصاله عند جميع أصحابه أنه واصل أربعين يومًا لم يذق فيها شيئًا ليلاً ونهارًا، ولا كلم أحدًا حتى أثر ذلك فيه، قال: وحدثونا عنه أنه كان في هذه المدة مستلقيًا على ظهره، فإذا حضر وقت الصلاة نهض إلينا وصلاها على الكمال والتمام، فإذا فرغ من صلاته رجع إلى استلقائه على ظهره شبه الغائب عن الناس، ولما أكمل أربعين يومًا كلم أصحابه، ورجع إلى معتاد أحواله، قال: وأما وصاله من (ص202) الثلاثة الأيام فهذا قد شوهد منه آخر عمره كثيرًا وسنه إذ ذاك تقرب من المائة سنة.

وحدثني والدي قال: كان سيدي الحسن - رحمه الله - رفيقًا بالمؤمنين كثير الشفقة عليهم، مبالغًا في إيثارهم مبادرًا لإغاثة ملهوفهم صادعًا بالحق غيورًا على الدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، يكاتب ملك الوقت وأرباب الدولة، وشيوخ العرب في قضاء حوائج المسلمين لا يفتر عن ذلك ولا يسأم منه، آية من آيات الله في عمارة أوقاته بالعبادة وأنواع الطاعات، لا يفتقر طرفة عين عن عمل صالح، أو إقراء أو مناولة صدقة، أو إصلاح بين الناس، أو إغاثة ملهوف تارة برسوله، وتارة بكتابه.

قال (ص203): وكانت له سبحة لا تفارقه في غالب أحواله، لأنه كان لا يفتر عن ذكر الله طرفة عين، قال لي: وألقى الله عليه من المحبة والقبول والهيبة ما لا عهد به لغيره من صدور الأولياء، حتى كان أحب إلى الناس من أنفسهم

وآبائهم.

قال: وكان من أتاه منهم في أمر تداهمه مع والده أو أهله، أو صديقه فتح الله عليه ببركته وتحول له الشر خيرًا، ثم جمعهم وذكرهم وأصلح ذات بينهم، وأبان لهم الحق وإن كان مرًا، قال لي: فمن شاهد أحوال سيدي الحسن وما أقامه الله فيه من عمارة جميع أوقاته بأنواع الطاعات وتماديه على الاستقامة في الحركات والسكنات علم أن ذلك من أجل الكرامات وأوضح العلامات.

(ص204) قال: وكان الناس يقصدونه بالصدقات والنذور من بلاد السودان وغيرها، وينتهي ذلك في بعض الأوقات إلى عدة المبين من الذهب فلا يدخر من ذلك شيئًا، بل يفرقه لوقته في المساكين وطلاب العلم.

قال: وكان محبًا في طلبة العلم، مؤثرًا لهم مرفعًا لقدرهم، منبهًا على حقوقهم، وحدثني والدي، وكتب لي معناه سيدي محمد السنوسي قال: كان سيدي الحسن عظيم الهيبة محفوفًا بالوقار، والتجلة قد ألبسه الله حلل المهابة، وبسط له رداء كرامته، ونشر القبول في قلوب خليقته.

وكانت الخلفاء وأكابر الوقت من العلماء والوزراء يقصدونه في بيته ويلتمسون صالح دعوته، قال: وربما وقفوا (ص205) بباب بويته مدة ينتظرون الإذن منه ونفوسهم بذلك طيبة مبتهجة؛ لأنه كان على حالة جميلة من النية الصالحة، والأخلاق الحسنة والسياسة المستحسنة، قال: وقد أجرى الله على يده كثيرًا من رد الغصوبات وكف الظلمات وفك العناة، وفتح ببركته أمورًا من المسائل المهمات، وكان أمراء الوقت وعمالهم يقبلون شفاعته ويسارعون لقضاء حوائجه، ومن المعلوم أن من توقف منهم عن قضاء حاجته، أو أهل كريم شفاعته عاد ذلك عليه بسوء في نفسه وأهله وماله، قال: وقد جرب ذلك في أشياء عديدة وشاهدنا منه مواطن كثيرة - رحمه الله - .

قال شيخنا أبو عبد الله (ص206): وكان من عادته إحياء ما بين المغرب والعشاء بالصلاة على الدوام، ووقت إفطاره في أيام فطره بعد العشاء الآخرة، وكان محبًا في ذكر الله وفي قراءة القرآن على الخصوص، ومن محبته في قراءة القرآن أنه كان يختم القرآن في اللوح كل سنة إلى أن مات، قال: ولما ضعف عن الكتب بيده في أخريات عمره كان يبعث اللوح لوالدي في سيدي يوسف، فيكتبه له كل يوم، فتأمل هذا الاجتهاد العظيم مع كبر السن وكثرة وظائف الخلق عليه، فتبارك المولى الكريم الذي يخص بفضله من شاء سبحانه لا إله إلاَّ هو.

وقرأت بخط الفقيه الإمام الكاتب سيدي محمد (ص207) بن يوسف الجزيري، وكان من أهل الصدق والأمانة معروفًا بالصلاح والديانة، قال: كان الولي الرفيع القدر والشان، سيدي الحسن بن مخلوف المعروف بأبركان كثيرًا ما يرى في منامه سر الوجود، صاحب المقام المحمود والشفاعة في اليوم المشهود، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله أهل الكرم والجود مثبتًا في رؤياه ذاكرًا لأوصافه الكريمة وحلاه، فيجده على صورته الكريمة العلوية وأوصافه السامية العلية، وبمحبته المصطفاة النورية ويخاطبه بذاته الشريفة القدسية، ويجاويه سيدي الحسن في كثير من مرائيه السنية، فصلى الله وسلم على المحروس في نومه ويقظته (ص208) المعصوم أن يتمثل الشيطان لرأيه في صورته، وعلى جميع آله وأصحابه الأعلام صلاةً وسلامًا يتصلان الليالي والأيام.

وحدثني بكثير من أحوال سيدي الحسن ومقاماته في العلم والدين شيخنا البركة الناصح عبد الله بن المنصور؛ إلاَّ أنه لا يريد كثرة النقل تورعًا وزهدًا، جزاه الله عن نفسه خيرًا، ومما حدثني به قال: سمعتُ سيدي الحسن يقول في قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»، قال: في كونه يحب أن يكون مؤمنًا أن

يموت على ذلك، قلتُ: وهذا أحد محتملات الحديث، قال صاحب كتاب اليقين أبو الحكم عبد السلام بن أبي الرجال: معنى (ص209) قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»: أن المؤمن انعقدت نيته على أنه لو أبقاه ربه حيًا أبد الآبدين ما رجع عن هدايته، ولا كفر به، قال: ومفهومه أن الكافر شر من عمله؛ لأن الكافر انعقدت نيته أنه لو أبقاه ربه حيًا أبد الآبدين ما نزع عن غيه ولا اهتدى إلى رشده، قال: ولأجل هذا كان مصير الفريقين إلى ما انعقدت عليه نيته، فالمؤمن إلى جنة لا موت فيها، ولا انقطاعَ لنعيمها، والكافر إلى نار لا موت فيها، ولا انقطاعَ لبؤسها، نسأل الله عافية الجنان، ونستعيذ به من عذاب النيران.

وذكر صاحب الهداية: عن ثابت البناني، أنه كان يقول: «نية المؤمن (ص 210) خير من عمله في أن المؤمن ينوي أن يقوم ويصوم النهار، ويخرج من ماله صدقة، فلا تتابعه نفسه على ذلك، فنيته خيرٌ من عمله».

قال ابن العسال: «والنية هاهنا في انعقاد العزم على فعل الطاعة، وإن لم يفعلها مثل أن يبيت الصيام بالليل، ثم يقطعه عنه قاطع، قال: واعلم أن النية باطنة في القلبِ داخلةٌ في دقيق الأشياء وجليلها من الأعمال والأقوال، والله - عز وجل - مثيب على حسنها معاقبٌ على سيئها، فالواجب على العبد أن يستعمل في جميع حالاته نية يرجو بركتها وثواب الله عليها، فإن الرجل قد يعمل عملاً ليس من أعمال البر المأمون بها بنية صالحة (ص211) فيؤجر عليها.

روي عن النبي ﷺ: «مَن تطيب لله - عز وجل - جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة». قال: فالطيبُ ليس من أعمال البر المفرطة، ولا تركه من المعاصي

المنهي عنها، فمن تطيب بحسن نية اتباعًا لسُنة رسول الله ﷺ وإظهارًا لنعمة الله عنده، ومطيبًا لرائحته عند الحفظة الكرام، ومن معه من الملائكة وجلسائه لئلا تكون من رائحة تؤذيهم جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، قال: وإنما طابت رائحته لطيب نيته.

قال: ومن استعملَ الطيب على سبيل الترفه والتزيين به عند (ص212) أهل الدنيا جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة، قال: فإذا كان الثواب والعقاب هكذا لفساد النية وصلاحها في غير الأعمال المفترضة فكيف يكون في الأعمال المفترضة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، وألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، فمن الواجب على العبد أن يرغب إلى الله - عز وجل - فيْ صلاح قلبه وتسديده وثباته على الإيمان واليقين في كل وقت وحين، وقد كان السيد الكامل رسول الله ﷺ يُكثر من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما من قلب إلاّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء (ص213) أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»؛ فلذلك كان رسول الله ﷺ يدعو في ثبات قلبه ويخاف عليه، وقلبه أطهر القلوب وأنقاها وأرسخها في اليقين وأصفاها، وهو المغسول من الأدناس والمعصوم من الزيغ والالتباس فكيف ينبغي أن يكون دعاء غيره في هذا المعنى؟

قال: وإذا نظر الله - عز وجل - إلى قلبِ عبده فوجده نقيًا ارتضاه لولايته وزاده من كرم عنايته، روي عن عبد الله بن مسعودة أنه قال: «إن الله - عز وجل - نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، واختصه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، (ص214)

فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، وخلفاء دينه فكانت نياتهم حسنة، وأعمالهم خالصة».

وحدثنا شيخنا عن السيد الوالي جعفر بن محمد الصادق، عن والده محمد الباقر، عن والده زين العابدين علي بن الحسين، عن والده الشهيد أبي عبد الله الحسين بن علي، عن والده أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبلُ الله قولاً إلاَّ بعمل، ولا قولاً وعملاً إلاَّ بنية، ولا قولاً وعملاً ونية إلاَّ بإصابة السُّنة».

قالوا: وكان بعض الأكابر من السلف الصالح يقول: تعلموا النية فإنها أبلغُ من العمل. وعن سفيان الثوري: (ص215) «ما عالجت شيئًا أشدُّ من نيتي؛ لأنها تغلبُ عليَّ».

وعن يوسف بن أسباط قال: «تخليصُ النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد». قال ابن العسال: «فالنيات من أعظم أعمال الباطن وأقواها، وأخصها بالقلوب وأزكاها إذ لا يقوم شيء من العمل إلاَّ بها، ولا يصلح للعبد شيء بينه وبين ربه دونها؛ ولهذا رغَّب رسول الله ﷺ في عمل السر من أجل ما يدخل على عمل العلانية من الفساد، فقال ﷺ: «خيرُ الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي»».

قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271]. وروي (ص216) عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عمر بن الخطاب، قل اللهم اجعل سريرتي خير من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة».

وكان العلماء الأتقياء من السلف الصالح يتواصون بينهم بثلاث ويكتب بها بعضهم لبعض: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلحَ سريرته

أصلح الله علانيته، ومن أصلح بينه وما بين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس؛ فالنية الصادقة بها يكمل العمل، ويتم الأجر؛ لأن للعبد ما نوى وإن لم يفعله، فإذا عمل العبد طاعة بحسن نية كان مطيعًا، وإن عمل بسوء نية كان عاصيًا وبطلت طاعته وأثم في سوء نيته.

(ص217) وحكى صاحب «مرآة الزمان» عن ولي الله الجنيد أنه قال: «مَن فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله له سبعين بابًا من التوفيق، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة، فتح الله له سبعين بابًا من الخذلان من حيث لا يعلم».

قال علماؤنا: ومن مذاهب أهل السُّنة أن كل من مات على نية فإنه مبعوث عليها؛ لقول الله – عز وجل – : ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: 21].

قال مجاهد في تفسيره: «يموت المؤمن على إيمانه ويُبعث على قوة إيمانه، ويموت الكافر على كفره ويبعث على كفره»، ولحديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث كل عبد على مات عليه».

(ص218) ومِمَّا يدل على هذا أيضًا حديث الأعرابي، عن أنس بن مالك قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال: «ما أعددت لها؟» فقال: والذي نفسي بيده ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحبُّ الله ورسوله، قال: «فأنتَ مع من أحببت». قال أنس: فكان يعجبهم حديث الأعرابي.

قال ابن العسال: في هذا الحديث من الفقه معان كثيرة، منها: وجوب الاستعداد ليوم القيامة؛ لأن الأعرابي سأل النبي ﷺ عن وقت الساعة وهذا أمرٌ لا يعلمه إلاَّ الله فنبهه النبي ﷺ على أن يشتغل بما يعنيه وبما هو الواجب (ص 219) عليه من أخذ الزاد والتأهب ليوم المعاد، وأن ذلك يغني عن معرفة الوقت.

ومنها: أن النبي ﷺ صدقه في دعواه محبة الله ومحبة رسوله ﷺ، من أجل أن المحبة من أعال القلب فوكله إلى باطنه.

ومنها: أنه ﷺ جعل من أحب قومًا منهم، وإن كان مقصرًا عن فعلهم في النوافل فإنه معهم بما بطن من محبته، وإن لم يظهر له كثير عمل فألحق الله المحبين لله ولرسوله، ولمن لم يظهر لهم كثير عمل بأهل الله وأوليائه المجتهدين في العمل تفضلاً من الله عليهم وإحسانًا منه إليهم، فنسأله سبحانه أن يتوفانا على الإيمان.

وعلى التمسك بحب السُّنة والقرآن (ص220)، وأن يوفقنا للتوبة عند مواقعه، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وأخبرني الفقيه الخطيب العلامة سيدي يحيى بن عبد الله، عن أبي البركات فيما كتب به إليَّ قال: حدثني بعض الجلة الثقاة الملازمين لمجالس العلم قال: حدثني الفقيه الصالح سيدي يحيى بن حميد صاحب الشيخ سيدي الحسن أن شيخ الإسلام سيدي قاسم العقباني زار يومًا الشيخ سيدي الحسن فأدخله لداره، وقدم له طعامًا عليه لحم، ثم تفاوضا الكلام في مسألة وضع اللحم على الطعام وفي أيهما يبدأ به في الأكل، قال: فقال له سيدي الحسن: كنت يومًا مع أخي شقيقي سيدي منصور في بيت فأوتينا بطعام (ص221) عليه لحم، فقعد معنا صبي وتناول قطعة لحم، فإذا به قد صرع فصاح سيدي منصور بالجان، وقال له: تفعل هذا بحضرتنا فكلمه الجان وقال له: يا سيدي والله ما فعلتُ له هذا؛ إلاَّ أنه أساء الأدب في تقدمه عليكم، وكونه لم يسم الله - عز وجل - ، وكونه تناول اللحم قبل الطعام، قال: ثم أفاق الصبي ولم يبق به ألم، ثم قال له سيدي الحسن: ومما وقع لي أيضًا مع أخي سيدي منصور

أني كنت معه مرة فقدمت له امرأة طعامًا فتهيأت للأكل، فقال لي أخي: لا تأكل يا الحسن، فقلتُ له: ولم؟ فقال لي: أما رأيت الجان يختطفون هذا الطعام، فقلتُ: لا، فقال لي: رأيت اثنين وسبعين جانًا دائرين عليه؛ لأنه طعام سوء.

(ص222) ومن كرامات سيدي الحسن - رحمه الله - ، ما حدثني به سيدي محمد السنوسي قال: ومما وقع له من خوارق العادة، أنه لما قدم من المشرق ووجد قرية الجمعة قد خربت وهي كانت سكنى أسلافه فنزل تلمسان، ثم تردد خاطره في الرجوع لقرية الجمعة ليجد بها ما دثر من العمران، قال سيدي الحسن: فخرجت إليها يومًا، وجلستُ معتبرًا في آثارها كيف أخذها الخراب واستولى على أهلها الجلاء، وإذا بكلبٍ قد أقبل، وجلس بالقرب مني وحاله في انكسار الخاطر، وتغيير الظاهر كحالي، ثم قلتُ في نفسي: هل تعود هذه القرية إلى ما كانت عليه من العمارة أم لا؟ فرفع الكلبُ عند ذلك رأسه إليَّ، وقال بلسان فصيح إليَّ: يوم يبعثون؛ أي لا تعود (ص 223) العمارة فيها كما كانت، قال: فلما سمعت نطقه إليَّ بذلك رجعت تلمسان وعلمت أن ذلك إلهام من الرحيم الرحمن، وكان سيدي الحسن يتكلم على الخواطر ويكشف مخبآت السرائر.

حدثني سيدي عبد الله بن منصور، قال: كان لي ورد من الصلاة بين المغرب والعشاء في المسجد، ثم اتفق أن كان جمع بين المغرب والعشاء، فأتيتُ المنزل وأردت قضاء وردي فخيل إليَّ أنه قد قيل بمنع ذلك الصلاة إثر الجمع.

فحدثت نفسي أن أسأل سيدي الحسن عن ذلك فمن الغد قصدته في مجلس أقرانه، فوجدته يقرأ في محل بعيد عن المسألة، ثم إنه نظر إليَّ وقال:

رجل جمع بين المغرب والعشاء في المسجد مع الناس، ثم انصرف إلى منزله يجوز له أن ينتقل.

(ص224) وحدثني سيدي عبد الله قال: كان بعضُ أصحابنا من الطلبة يكثر الحضور في مجالس سيدي الحسن، وكنت لا أفعل ذلك لما أعلمه من نفسه وأستحقر قدري، بل أحضر عند غيره من علماء الوقت فأتاني هذا الطالب يومًا وأخبرني أنه بات البارحة في عرس مع المغني على العواد، ولما أصبح قصد مجلس الشيخ على عادته، ثم أخذ الطالب في نقل كلام بعض الشرائح على عادته فلم يقبل منه الشيخ، وصار الشيخ يتكلم مع غيره من الطلبة، قال: فأخذت في البحث مع الشيخ وهو لا يلتفتُ إليَّ، ثم عاودته وإذا به نظر إليَّ نظرة مغضب وقطب وجهه، وقال لي: اسكت فما هذا المجلس على العواد. قال (ص225): فسقط في يدي وعلمت أن الله قد كاشفه بحالي.

قال شيخنا أبو عبد الله: ومِمَّا وقع لي من مكاشفته أني كنت ابتداء قراءتي رسالة الشيخ أبي زيد على أخي سيدي علي بين العشائين، فقرأنا ليلة: فصل الرعاف منها فوقع البحث في صحة إسناد الرعاف إلى إرادة الله تعالى نظرًا لعموم إرادته لجميع الكائنات، أو منع ذلك نظرًا إلى ما يجب من الأدب مع جلال الحق سبحانه، فإنه تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]. فأسند النعمة إلى الله ولم يسند إليه الغضب والضلال.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: 10]. (ص226) فأسند الرشد إلى الله دون الشر، قال: وكان في المسجد معنا جماعة من العوام فلمَّا أصبحنا من الغد ذهبنا لمجلس الشيخ على العادة فابتدأ الشيخ تدريسه، وأخذ في تقرير المسألة التي كان يقرأها وفتح

باب الكلام في مسألة الرعاف التي وقع الكلام فيها، وذكر فيها ما يليقُ من الأجوبة، ثم أخذ الشيخ يُحذر وينهى عن الخوض في مثل هذه المسائل بحضرة العوام، وهو ينظر إليّ وإلى أخي سيدي علي دون غيرنا من أهل المجلس فتيقنا أنه قد كاشفنا - رحمه الله -.

ومن كرامات سيدي الحسن ما حدثني به سيدي محمود (ص227) فيما كتب به إليّ قال: حدثني العلامة سيدي سعيد بن عبد الحميد العصنوني بمنزله من وانشريس، وكان من أفاضل أصحاب الشيخ القدماء قال: دخلتُ يومًا في حار وقت الزوال على الشيخ سيدي الحسن، فوجدته في تعب عظيم، والعرق يسيل عليه، فقال لي: أتدري مما هذا التعب الذي أنا فيه؟ قلتُ: لا يا سيدي، فقال لي: كنت آنفًا جالسًا بهذا الموضع فدخل عليّ الشيطان في صورته التي هو عليها، فقمتُ إليه فهرب أمامي فتبعته وأنا أذكر كلمات الأذان، فما زال يهرب بين يدي، وله ضراط كما ذكر في الحديث، إلى أن دخل في القادوس الذي يخرج منه الماء في رأس القصارين، وغاب عني والآن رجعت من اتباعه (ص228).

قلتُ: الحديث الذي أشار إليه الشيخ الحسن - رحمه الله - هو قوله ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبرَ الشيطان، وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا انقضى النداء أقبلَ فوسوس حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل لا يدري كم صلى».

قوله ﷺ: «أدبر الشيطان وله ضراط»، قال القاضي عياض: «يمكن حمله على ظهره؛ لأنه جسم متغذ فيصح منه خروج الروايح».

وقال غيره: إنما ذلك كناية عن شدة هروبه وتباعده عن سماعه الأذان،

حتى قيل إنه يصل في تباعده إلى الروحاء، وبينها وبين المدينة (ص229) مسافة ثلاثين ميلاً، وحديث سيدي الحسن ظاهر في الحمل على الحقيقة، والله أعلم.

وهذه الكرامة دالة على فضل كلمات الأذان، وعلى فضل المؤذنين، وفي الصحاح عنه ﷺ أنه قال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلاَّ شهد له يوم القيامة». وفي الحسان عنه ﷺ: «من أذن سبع سنين محتسبًا لله - عز وجل -، كتب الله له براءة من النار».

وروينا عنه ﷺ أنه قال: «ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة عبد أدّى حق الله وحق مولاه، ورجل أمّ قومًا وهم له راضون، ورجل نادى بالصلوات الخمس كل يوم وليلة».

وقرأت في كتاب (ص230) «طبقات النساك» لأبي سعيد بن الأعرابي قال: حدثنا أبو القاسم بسنده، عن محمد بن عيسى بن حيان قال: حدثني أبو العاج شيخ كان بالبصرة يحفر القبور أكثر من ستين سنة، قال: حفرت أنا وشركائي قبر ذات يوم، وكان يوم شديد الحر والريح راكدة فقعدت في ظل القبر، وقعد أصحابي في قبة من قباب المقابر، فعبثت بحائط قبر من القبور بأصبعي، فانفتح لي حجر صغير عن كوة خرجت منها رائحة طيبة لم أر قط أطيب منها، ولا أبرد ولا ألذ، فظننتُ أن الهواء قد طابَ فقمتُ فنظرتُ فإذا أنا برجل في القبر كالنائم وأكفانه صحاح (ص231) وبدنه صحيح لم يذهب منه شيء، وعلى بطنه شيء أبيض مثل القطن المندوف، فادخلت يدي فأخذته منه، وأخرجته إلى الضوء فإذا هو ياسمين طري فخرجت به إلى أصحابي وجعلوا يشمونه ويعجبون منه، فسألنا عن صاحب القبر فوجدناه من المؤذنين، أقام على الأذان بمصر خمسين سنة.

قال المؤلف: فإن قيل ما الحكمة في كون الشيطان يهرب عند سماع الأذان والإقامة، ولا يهرب عند سماع القرآن والذكر والصلاة، فالجواب عن ذلك من وجوه، أحسنها وأولاها بالصواب: أنه إنما هرب من سماع الأذان حسدًا لابن آدم ألاَّ يشهد له بكلمات الأذان يوم القيامة، فإنه قد روي عنه ﷺ (ص232) أنه قال: «لا يسمع من أصوات المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

وقوله في الحديث: «فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه» معناه: أن المؤذن إذا فرغ من الأذان والإقامة، ثم تلبس بالصلاة فإن الشيطان يقبل عليه بالوسوسة حتى يحول بينه وبين قلبه، ويفسد عليه ما يريده من الإخلاص في صلاته؛ لأن هذا العدو إبليس لا يحسد ابن آدم على شيء كما يحسده على الصلاة، ولا يهتم بإفساد شيء من أعمال الطاعة كما يهتم بإفساد الصلاة؛ لأنها مشتملة على السجود الذي كان سببًا في طرده عن رحمة الله، ولأن الله تعالى جعل هذه الطاعة وجه الدين ورأس أعمال المؤمنين.

(ص233) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل شيء وجه، ووجه هذا الدين الصلاة». قال في الهداية: ولقد كان المتقدمون والسلف الصالح أجمعون يجتهدونَ في تخليصها بأنواع الإخلاص وهم مع ذلك لا يثقون منها بالإخلاص، بل كانت قلوبهم مملوءة من الخوف والوجل مع كثرة اجتهادهم في إخلاص العمل فتفريغ القلب من شواغل الدنيا وهمومها لمن أقبلَ على الصلاة واجبٌ متأكد.

قال أئمتنا: وهو المراد بقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: 238]. لأن الشيطان يذكر ابن آدم بشهواته الدنيوية ويقرئ له آماله الكاذبة، وقد جاء في تفسير قوله تعالى مخبرًا عن قوله اللعين: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: 16]. (ص234) إن الصراط المستقيم هو الصلاة.

قال أئمتنا: ومن حقوق الله على عبده إذا قام إلى الصلاة أن يُقبل على مولاه ولا يعرض عنه إلى غيره؛ لأنه إن أعرض عن إخلاص المناجات أعرض الله عنه، وتمكن منه عدوه إبليس، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله مقبلاً على عبده في صلاته ما لم يلتفت إلى ذكر دنياه، فإذا صرف قلبه عن مناجاة مولاه والتفت إلى شهوته ومناه صرف الله عنه وجهه».

ولقد كان ينبغي للمصلي لو عقل ما هو فيه وعلم قدر من يناجيه أن ينسى نفسه وهواه، وأن لا يذكر شيئًا من أمر دنياه (ص235) ما دام في مناجاة مولاه الذي يعلم سره ونجواه ويسمعه ويراه، فلقد كان كثير من العلماء يقولون: افتقدوا مقامكم عند الله في الصلاة، فإن وجدتم للقراءة والذكر حلاوة في أنفسكم فاعلموا ان الله قد تقبل منكم صلواتكم، وإن لم تجدوا حلاوة فاعلموا أن الله قد أغلق بابه دونكم، وسلط عدوه عليكم.

وفي حديث علي - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله ﷺ، أخبرني بأفضل الصلوات؟ فقال: «يا علي أفضل الصلوات ما حضرت فيها القلوب وذرفت فيها العيون، وخلصت فيها النيات، وفاضت فيها العبارات».

قال في الهداية: (ص236) واعلم أن التثاؤب في الصلاة من أدوات الشيطان وعلامات الغفلة من مناجاة الرحمن، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إن تثاؤب أحدكم في صلاته فيكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل يده في فيه».

وعنه ﷺ أنه قال: «البصاق والمخاض والنعاس في الصلاة من الشيطان». ولهذا كان الأئمة من السلف الصالح كالإمام مجاهد وإبراهيم النخعي وغيرهما إذا أصابهم التثاؤب في الصلاة، أمسكوا عن القراءة وعلموا أن

الشيطان قد حضر معهم وأخذوا منه حذرهم بالتذكرة عن مسه وبالتبصرة (ص 237) عند وسوسته واعتصموا منه بحول الله وقوته، وتأييده ومعونته، أعاذنا الله منه برحمته ويسر لنا أسباب عصمته.

قال: وكل من داوم على مجاهدة عدوه فإن الله - تبارك وتعالى - سيعينه عليه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

قال: واعلم أن عمل الصلاة أفضل الأعمال، وأرفعها عند ذي الجلال والكبير المتعال، فمن أتعبَ جوارحه الظاهرة وأراح قلبه وجوارحه الباطنة من عمل الإخلاص ويقين المراقبة فقد خانَ الأمانة التي تحملها وضيَّع حقوقها وأهملها، وقد أمر الله - عز وجل - بأداء (ص238) الأمانة إلى أهلها، والله - عز وجل - أحق من أديت إليه الأمانة على ما توخيه الديانة.

لا تخفى عليه خافيات الأمور يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور فأمَّا نقصان عمل الجوارح الظاهرة في الصلاة فهو سرقة.

روينا عنه ﷺ أنه قال: «أعظم الناس سرقة الرجل يسرق صلاته». قالوا: وكيف يسرق صلاته يا رسول الله؟ قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها».

وروينا عنه ﷺ أنه قال: «لاصلاة لامرئ لم يتم الركوع السجود»، قال: فمن لم يوفِّ أركان الصلاة حقها فصلاته فاسدة عند أكثر أهل العلم عالمًا (ص239) كان أو جاهلاً، وعليه إعادتها وشهادته ساقطة ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً.

وروينا عن العالم العابد عبد الرحمن بن زيد، أنه قال: أجمع علم العلماء على أنه ليس للرجل من صلاته إلاَّ ما عقل منها، وفقنا الله وإيَّاكم لمرضاته وأعاننا على القيام بحقوق صلاته.

وكان سيدي الحسن - رحمه الله - معروفًا بإجاباته الدعاء مقصودًا لتفريج الكرب والبلواء؛ له في ذلك أخبار مأثورة وحكايات مذكورة وكثيرًا ما حدثني شيخنا سيدي محمد التنسي، وقال لي: ما حلت على الأبركة الأشياخ ولا نفعني الله بدعائه الصالح (ص240)، وخصوصًا سيدي أبركان فإنه كان يخصني بالدعاء، وقد تعرفت إجابة دعوته وصدق نيته فيَّ وفي غيري، وهذا الذي أنا فيه من وراثتي مجلس الأشياخ بالمدرسة اليعقوبية واعتنائي بتفسير الكتاب العزيز كنت أؤمله وأقطع بوصولي إليه ببركة دعاء سيدي الحسن، وغيره من أهل الله.

وحدثت عن سيدي الحسن أنه كان إذا رأى شيخنا سيدي محمد السنوسي تبسم له، وفاتحه بالكلام، ثم يقول في دعائه له: جعلك الله من أئمة المتقين، فقد أجابَ الله دعوته، وحقق فيه فراسته فشيخنا أبو عبد الله اليوم من أئمة العلم والدين (ص241)، وأفاضل أوليائه المتقين نفع الله بعلومه العباد، وأبانَ ببركاته معالم الرشاد، وحسبك بما له عند الله من العناية وأظهره عليه من أسرار الولاية زهده في هذه الدار وعدم اتخاذه فيها حائطًا أو بناء جدار، ثم دعاؤه الخلق إلى طريق الملك الحق لا إله إلاَّ هو، فكم له من عقيدة كافية قربت المدارك وموعظة شافية بينت المسالك، فهما والحمد لله ببركة سيدي الحسن من رحمة الله المهدات ونعمه المصفات أبقاهما الله علمه يهتدي بمنارها ووفقنا لاتباع كريم آثارهما.

وحدثني والدي قال: كنتُ كثير الخدمة لسدي (ص242) الحسن محبًا في قضاء حوائج أصحابه والمتعلقين به، وكان يدعو لي بخير، ويقول في دعائه: الله يرفع درجتك ويبارك لك في مالك وولدك، فأنا ما وجدت إلا بركة دعائه وإني لأرجو بركته ودعوته الصالحة في الدار الآخرة بفضل الله ورحمته.

قلت: وقد رفعت لهذا الشيخ فدخلت بويته وقبلت يده، ودعا لي بما أرجو قبوله، وكان شديد السمرة وربما ظن به من لا علم له بنسبه الصريح أنه من الموالي، وقد حدثني سيدي محمد السنوسي فيما كتب به إليَّ، قال: حدثني سيدي علي، عن سيدي الحسن قال: نسبنا جد صريح لم يسبق فيه رق، وقد تلقيت (ص243) ذلك عن بعض أكابر الأولياء، وقال: أنه تلقى من اللوح المحفوظ.

*** وفاة الشيخ الحسن أبركان:**

وكانت وفاته - رحمه الله - أواخر شوال من سنة سبع وخمسين وثمانمائة[1]، وكانت جنازته من الأيام المعدودة والمحاضر المشهودة آخذة في نهاية الاحتفال حضرها الخليفة - رحمه الله -[2]، وامتلأت السكك والشوارع بمن حضرها من النساء والرجال، نفعنا الله بنياتهم وأعاد علينا من بركاتهم، شاهدت يومئذٍ على الخليفة المعتصم بالله- رحمه الله - دبليزًا رصاصيًا وقبلاً راسماويًا إظهارًا للكآبة والحزن، وتزاحم الناس على نعشه متبركين به (ص244) باكين لفقده واتبعو ثناء حسنًا وذكرًا جميلاً، ولقد شاهدت كثيرًا من الناس يرومون الوصول إلى استلام النعش فيغلبهم الزحام عنه:

لم أنـس يـوم تهادت نعشه أسفا — أيدي الورى وترامِيها على الكفن

كزهـرة تـتهاداها الأكـف فلا — تقـيم في راحـة إلا علـى طعن

فرحم الله سيدي الحسن ورضي عنه ونفعنا ببركته وأمثاله من عباده

---

(1) الموافق لشهر ماي (1454 م).

(2) يقصد بالخليفة أمير تلمسان الزياني.

الصالحين وأوليائه المتقين الزاهدين المفلحين بمنه وكرمه (ص245).

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه المصطفى، وعلى آله وأصحابه وذرياته أهل الصدق والوفاء وحسبنا الله وكفى.

* * * *

ثالثًا: الشيخ إبراهيم التازي

ثم يتلو ثالثهم المعظم وصدرهم المقدم أثير جمعهم، ومؤثر ما تقدم من شفعهم سيدي إبراهيم التازي - رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به -.

(ص246) هو: إبراهيم بن محمد بن علي التازي أبو إسحاق - رحمه الله تعالى، ورضي الله عنه - ، نزيل مدينة وهران، وسلطان أولياء ذلك الزمان، وبدرها العظيم الشأن الشهير الذكر في حياته الباقية أقواله وأفعاله بعد مماته.

كان سيدي إبراهيم - رحمه الله - من أولياء الله الزاهدين وعباده المخلصين الناصحين، إمامًا في علوم القرآن مقدمًا في علم اللسان، حافظًا للحديث مستجديًا في حفظ الفقه وأصوله، عاكفًا على خدمته معروفًا بجودة القيام على دواوينه.

(ص247) حدثني شيخنا البركة سيدي يوسف المصمودي أنه وقع بيده حين إقامته بمدينة تازا كتاب بخط سيدي إبراهيم لبعض الأكابر من أهل تازا يعرفه ببعض حاله، وفيه:

اعلم أن محبكم إبراهيم يقرئ مختصر خليل من غير مطالعة شرح، وليس هذا ببعيد في الأنوار الهوارية، وهذا يدل على أن سيدي إبراهيم كان أحد حُفاظ مذهب مالك معروفًا بجودة النظر والفهم الثاقب، وكان - رحمه الله - جامعًا لمحاسن العلماء ممتعًا بآداب الأولياء جاريًا على طريقة السلف الصالح، لا نظير له في كمال العقل، ومتانة الحلم، والتمكن في المعارف وبلوغ الدرجة العليا في محاسن الأخلاق وجميل العشرة والمعرفة بأقدار الناس.

(ص284) والقيام بحقوقهم في صحبتهم وعلاقتهم، حتى إنه كان لهم

بمنزلة الأخ الشقيق أو الطبيب الرفيق، والمعالج الصديق البصير بالدواء العارف بمحل الداء، وما عسى أن أذكر من جميل أوصاله فهو أجل قدرًا وأشهر ذكرًا، وحسبك من جلالته وسعادته أن المثل ضُرب بعقله وحلمه، واشتهر في الآفاق ذكر فضله وعلمه حتى إن المتحدث من أهل زماننا الآن إذا بالغ في وصف رجل قال: كأنه سيدي إبراهيم التازي، وإذا امتلأ أحد منهم غيظًا قال: لو كنت في منزلة سيدي إبراهيم ما صبرت، هذا مع ما كان يتحمله من إذاية الخلق والصبر على المكاره، واصطناع المعروف (ص249) للكبير والصغير، ومُداراته للجليل والحقير، ومما سمته لكافة الناس على قدر أخلاقهم وكان سيدي إبراهيم أحد من ظهره الله هاديًا لخليفته وأقامه داعيًا لبساط كرامته، مجللاً برداء المحبة والمهابة مؤزرًا النشر القبول في قلوب الخاصة والعامة فدعا الخلق إلى الله بالبصيرة الواضحة الأنوار وأرشدهم لعبوديته بعقائد التوحيد، ووظائف الأذكار، وكان من أحسن الناس صوتًا وأنداهم قراءة آية من آيات الله في فصاحة اللسان، وتجويد تلاوة القرآن، يقف سامعه لطيب نعمه وتحن القلوب لجودة قراءته.

(ص250) حدثت عنه أنه كتب البخاري، أو غيره من كتب الحديث أيام محاورته بالحرم الشريف، انحشر الناس إليه، وتوفر جمعهم عليه لحسن قراءته وجودة إتقانه، وقدمه في مشيخة الحرم الشريف لصلاة الإشفاع في رمضان، واتفقوا على أنه أحسن القراء تلاوة، وأزينهم طلاوة وحلاوة، وأمتنهم معرفة وديانة ومن إشارات سيدي محمد لذلك قوله في التنبيه - رحمه الله - : «ونقول أعلى من راد نسمع منك بعض حديث».

* **أصل الشيخ إبراهيم التازي:**

وأصل سيدي إبراهيم من بني لنت قبيلة من قبائل البربر الكائنين بوطن

تازا، وشهر بالتازي (ص251) لولادته ونشأته بها، وقراءته القرآن على أستاذها الشيخ الصالح المقرئ الزاهد الولي العارف أبي زكرياء يحيى الوازء، وكان هذا الشيخ سيدي يحيى يظهر الاعتناء بسيدي إبراهيم على صغر سنه، ويشيد بذكره، ويقول للأولاد في المسجد: هذا سيدكم وصالحكم، كانت وفاة والده بمدينة تازا.

حدثني شيخنا الأستاذ الفقيه البركة سيدي يوسف بن الحسن المصمودي عمن حدثه من أهل الخير بمدينة تازا قال: رأى بعضُ الصالحين والد سيدي إبراهيم في المنام على حالة حسنة، وقد كان من المخلصين في بيعه وشرائه أيام حياته، فقال له: من أين لك هذا الخير (ص252) يا محمد؟ فقال له: من ولدي إبراهيم، قلتُ: يشهد لهذا ما رويناه في الحديث المسند، عن النبي ﷺ، أسند الحافظ ابن الطيلسان عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليرفع للعبد الدرجة فيقول: يا رب، من أين لي هذه الدرجة؟ فيقال له: من استغفار ابنك لك».

*** رحيل الشيخ إبراهيم إلى مصر والحجاز:**

وما زال سيدي إبراهيم على الحالة الحسنة والنشأة الصالحة والهدي القويم إلى أن ارتحلَ من البلاد المغربية قاصدًا أداء فريضة الحج، فنشر الله له القبول التام في قلوب الخاص والعام، وقام له أولياء المشرق وعلماؤه على ساق وعرفت صديقيته في البلاد المصرية (ص253) والحجازية، واشتهر ذكره في الآفاق ورافقه في وجهته هذه للبلاد المشرقية نظيره في العلم والدين الولي الزاهد الناصح العابد سيدي أحمد الماجري، وشاركه في كثير مما مَنَّ الله به عليه هنالك من القراءة والمعارف والأسرار واللطائف.

حدثني ثقة من سادات أصحابه عنه أنه قال: لما وصلنا مصر وجدنا ركب

الحجاز قد فاتنا بالطلوع، وأسفنا لذلك، ثم قصدنا مزارة القرافة للتوسل بأوليائها أن يسهل الله أمرنا في تكيف سفرنا، فوجدنا بها شابًا دون لحية نحيف الجسم، وآثار الولاية عليه ظاهرة فسلمنا عليه فكان من رده علينا بطريقة المكاشفة الوقتية (ص254) قوله: وعليكم السلام ورحمة الله عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدًا. ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: 65]. ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59]. تسافرون في البحر إن شاء الله، ثم سكت عنا، قال سيدي إبراهيم: ففاتحته الكلام وسألته الدعاء فسكت عنا ولم يرد باله إلينا.

قال: ففرحنا بقوله: تسافرون، وانصرفنا عنه، قال: فبعد أيام قليلة وصل موكب لمرسى مصر المسمى ببولاق فسافرنا فيه فوصلنا جدة في أسرع وقت وعلى أفضل حال ببركة ذلك الولي لله الحمد والمنة، ثم شد سيدي إبراهيم الرجال للحرمين الشريفين، وهنالك لقي أعلام (ص255) الرجال: فأخذ بمكة المشرفة على علامة علمائها، وكبير محدثيها قاضي قضاة المالكية السيد الشريف تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسين الفاسي الأصل، المكي الدار، قرأ عليه سيدي إبراهيم كثيرًا من كتب الحديث والرقائق، واعتنى به هذا السيد الشريف وكتب له في إجازاته ما نصه:

* **إجازة الشيخ تقي الدين الفاسي للشيخ التازي:**

الحمد لله الذي جعلنا من سكان الحرم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث لجميع الأمم، ورضي الله عن أصحابه أولي الفضل والكرم، وبعد: فإن ممن أنست مجالسته وانتفعت بمذاكرته وأرغب في صالح أدعيته، الفقيه الأكمل الأفضل الخير المبارك أبو إسحاق إبراهيم بن (ص256) محمد بن علي اللنتي التازي المغربي المالكي أمده الله بجباته، ومتع بحياته لما جاور بمكة

المشرفة سنة ثلاثين وثمانمائة، وقد قرأ على أبو إسحاق بلفظه جميع كتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض، وجميع الألفية لجمال الدين أبي عبد الله بن مالك وغير ذلك قراءة حسنة زاده الله من فضله، لما سمع علي بقراءة غيره كثيرًا من كتب الحديث لموطأ مالك أبي عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وجميع السنن لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، وجميع رسالة القشيري، وكان الفراغ من قراءته للشفافي الموفى ثلاثين لذي قعدة الحرام من سنة ثلاثين وثمان (ص 257) مائة[1] بالمسجد الحرام، وقد أجزت الفقيه أبا إسحاق إبراهيم جميع رواياتي ومؤلفاتي، وأرغبُ في دعائه فلينعم به مثابًا متفضلاً، قال ذلك: محمد بن أحمد الحسني حمد الله أحواله، وبلّغه آماله، محمد سيد المرسلين وآله والصفوة الأكرمين.

* رحيل الشيخ التازي إلى المدينة المنورة:

ثم لمَّا حلَّ سيدي إبراهيم بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، أخذ بها عن جماعة من العلماء الأعلام منهم إمام الأئمة وجمال علماء الأمة سيدي أبو الفتح محمد بن أبي بكر القرشي الشافعي، قرأ عليه سيدي إبراهيم علومًا كثيرة، ولازمه مدة طويلة، وكتب له سيدي أبو الفتح بخطه عدة إجازات، وقد حدثني بذلك كله عنه (ص258) شيخاي الشامخان: جمال الحفاظ سيدي محمد بن عبد الله التنسي، والعلامة الزاهد سيدي محمد بن يوسف السنوسي، ونذكر بعض هذه المكاتب تبركًا بمن اشتملت عليه من أولياء الله الصالحين.

---

(1) الموافق (22 سبتمبر 1427م).

*** حديث الضيافة:**

منها حديث الضيافة، حدثني شيخنا أبو عبد الله السنوسي فيما كتب لي بخطه، قال: حدثني العالم الرباني أبو إسحاق التازي، وأضافني تمرًا وماءً، قال: حدثني شيخنا العالم العامل أبو الفتح نقلت:

الحمد لله وحده أضفت سيدي الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد اللتي، وسيدي محمد الماجري بالمدينة (ص259) المنورة تمرًا وماءً في يوم الخميس ثاني شهر الله المحرم سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة[1]، وقرأت عليهما، أخبرنا الحافظ نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي اليمني بقراءتي عليه جميع حديث الضيافة بسنده المعروف عن شيوخه إلى السيد جعفر بن محمد الصادق، قال جعفر: أضافنا أبي محمد بن علي الباقر على الأسودين التمر (ص260) والماء، قال: أضافنا رسول الله ﷺ، من أضاف مؤمنًا فكأنما أضاف آدم، ومن أضاف مؤمنين فكأنما أضاف آدم وحواء، ومن أضاف ثلاثة فكأنما أضاف جبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن أضاف أربعة فكأنما أضاف التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومن أضاف خمسة فكأنما صلى الصلوات الخمس في الجماعة من أول يوم القيامة، ومن أضاف ستة فإنما أعتق ستين رقبة من ولد إسماعيل، ومن أضاف سبعة أغلقت عنه سبعة أبواب جهنم، ومن أضاف ثمانية فتحت له ثمانية أبواب من الجنة، ومن أضاف تسعة كتب (ص 261) له حسنات بعدد من عصاه من أول يوم خلق الله إلى يوم القيامة، ومن أضاف عشرة كتب الله له أجر من صام وحج واعتمر إلى يوم القيامة، وكتبه أبو الفتح بن أبي بكر وفقه الله تعالى.

---

(1) الموافق (23 أكتوبر 1427م).

من أناشيد سيدي إبراهيم - رحمه الله - في ذكر الضيف عن شيوخه بالسند المتصل للحافظ أبي الحسن علي الكارم المقدسي:

إذا قــدم الضيف اغتنمت قدومه ... ولم أك عــنه يومًا بالغافل اللاهي

وذلــك أن الله يــرزقنا معًــا ... وإن دعــاء الـشيف من نعم الله

حدث أبي رشيد في رحلته عن الشيخ أبي البركات شعبان الصوفي بسنده عن الأصمعي، (ص262) قال: خرجتُ حاجًا إلى بيت الله الحرام، فسمعتُ أعرابيًا متعلقًا بأستار الكعبة يقول: اللهم إنك مضيفًا لمن ورد عليك وأنا ضيفك، اللهم وإني راجع إلى أهلي وهم سائلونَ بماذا أضفتني، اللهم وإني مخبرهم أنك قد أقربتني الجلة وأجرتني من الديار، وافعل أنت بعدد ذا ما شئت.

*** عودة الشيخ إبراهيم التازي إلى مصر وتونس:**

ولَمّا قفلَ سيدي إبراهيم من وجهته الحجازية ونزل مصرًا وغيرها من البلاد تذكر مفارقته للحرمين الشريفين، وتشوق لما كان عليه من الخير والعبادة بتلك المعاهد المعظمة (ص263) والمشاهد المكوة نظم قصيدته الجمالية التي لاح فيها برهان صدقه، وشهدت بتقدمه في درجة المعارف وسبقه ومطلعها:

مــا حــال من فارق ذاك الجمال ... وذاق طعــم المنجر بعد الوصال

وكلام سيدي إبراهيم في منظوماته على الطريقة التصوفية والإشارات العرفانية والأمداح النبوية لا يقوم بمعناه إلاَّ من تمكنت معرفته، واتسعت في علوم اللسان مادته، وعلت في درجة الولاية رتبته، وذاق من طعم الحب والشوق ما بهرت به ولايته.

قال المؤلف - وفقه الله - : وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - وقف إلى أبيات

الخطيب الزاهد أبي عبد الله بن بوطلة المرسي، وقد ضمن أوائلها اسمه أحد ﷺ أنشدها له أبو عبد (ص264) الله بن رشد في رحلته ومن خطه نقلت:

أرى العمـر يفني والرجاء طويل ... وليـس إلى قـرب الحبيب سبيل

حـباه إلـه الخلـق أحسن سيرة ... فما الصبر عن ذاك الجمال جميل

مـتى يـشتفي قلـبي بلثم ترابه ... ويـسمح دهـر لا يـزال بخيل

ولما وصل سيدي إبراهيم في قفوله مدينة تونس أخذ عن أكابر علمائها وأفاضل أوليائها، وكتبوا له خطوطهم بالشهادة، وخططوا على صغر سنه بأوصاف السيادة، فكان من جملة من كتب له شيخ الإسلام الحافظ العلامة الشهير سيدي عبد الله العبدوسي، قرأت بخطه في فهرسه (ص265) سيدي إبراهيم ما نصه: الحمد لله تعالى وحده دائمًا، يقول كاتبه عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي: صافحتُ الفقيه الأخ في الله تعالى سيدي إبراهيم بن محمد التازي، أخذ الله بيده، وكأن له بمنه وشددت بيدي على يده، وقلت له: المراد بهذا الشد الاشتداد في الله، وتأكيد الصحبة وحدثته بها عن شيخنا الأستاذ أبي عبد الله محمد بن جابر الغساني، عن الإمام الرباني أبي عبد الله محمد بن علي المصمودي المراكشي، وشهرته بابن عليوات عن أبي عبد الله الصوفي، عن الإمام العالم أحمد بن النبأ عن ولي (ص266) الله تعالى أبي عبد الله الهزميري، عن أبي العباس الخضر، عن سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وعلى صحبه، وكل من ينسب صحيح إلى يوم القيامة وسلم تسليمًا كثيرًا، وذلك في رمضان عام اثنين وثلاثين وثمانمائة[1].

---

(1) الموافق (4 جوان - 23 جويلية 1429م).

*** عودته من تونس إلى تلمسان:**

ثم قفل سيدي إبراهيم من تونس فنزلَ بتلمسان للقاء من بها من أكابر العلماء، وصدور أهل الهدى، فأخذ بها عن علامة وقته وخاتمة العلماء شيخ شيوخنا سيدي محمد بن مرزوق، وكتب له في ربيع القاني من عام اثنين وثلاثين وثمانمائة[1].

*** انتقاله من تلمسان إلى وهران:**

(ص267) ثم قصد مدينة وهران لزيارة شيخ المشايخ لسان الحق، جديد أقرانه، وحكيم زمانه، سيدي محمد الهواري ونيته أن يعاود الرجعة للحرمين الشريفين برسم الإقامة هناك، والاستيطان مع أصحابه الذين أكرمهم الله بجواره وخصهم بمشاهدة أنواره، فقد روينا في الحديث عنه ﷺ: «مَن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الآمنين يوم القيامة».

وروينا في الموطأ: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، ووفاة ببلد نبيك».

وعند اجتماعه بسيدي محمد الهواري ومجالسته معه تفرس فيه سيدي محمد مخايل النجابة، ورآه الأحق (ص268) بالوراثة والعصابة، فأكرم نزله ورفع مقامه، وقال له في حكاية طويلة: يا إبراهيم أنت مقيمًا على البر والكرامة.

حدثني شيخنا أبو عبد الله السنوسي، أن السيد إبراهيم حصل له النفع العام بصحبة سيدي محمد، وظفر منه بذخائر من الحكم الربانية، ووصل بسببه إلى الرسوخ في المقامات العرفانية والتمكن في رتبة الأولياء، ودرجة

---

(1) الموافق (8 جانفي - 5 فيفري 1429م).

أهل التصريف، قال: فمن شاهده فهم ذلك من لسان حاله واستقامة أفعاله، ومازال سيدي محمد ينوه به ويرفع من شأنه ويشير لأصحابه بملازمته ويحضهم على خدمته ويبصرهم بكمال واتساع معرفته، وعظيم فضل الله عليه.

(ص269) وإذا قدم عليه أحد من الواردين للزيارة يعرفه بمكانه ويقول له: سلم على الشيخ سيدي إبراهيم، فإذا قضى الزائر غرضه من الزيارة وأتى لوداع الشيخ سيدي محمد نبهه أيضًا على وداع سيدي إبراهيم، فأقام عنده على ذلك نحو العشرة أعوام معروف المكانة محفوفًا بالتجلة والكرامة، وهو في أثناء ذلك ينسخ كلام سيدي محمد الهواري بخطه ويجمعه في دفاتر وقفت على كثير منها.

وإلى فعله ذلك أشار سيدي محمد الهواري في اليائية الطويلة:

ويــرحم ربي قد شفا ويعطيه درجا عالية

ومن سلف يعطاه ما سلف في الأيام الخالية

*** استقلال الشيخ التازي بزاويته الخاصة:**

فبعد زمان انتقلَ سيدي إبراهيم عن زاوية سيدي محمد، وأخذ في إظهار ما أقامه الله فيه (ص270) وأرشده إليه من دعوة الخلق وهدايتهم لطريق الملك الحق، لا إله إلاَّ هو، فأقام سوق الأذكار بوهران وأبانَ بها معالم الإسلام والإيمان، ورتب المواسم الشرعية، ونبَّه على الآداب الدينية والدنيوية، ونقل أهلها عمَّا كانوا عليه من التبدي إلى الحضارة فاقتمعت فيها وعظمت العمارة، وارتحلَ إليها كثير من أهل الجزيرة، ولما اغتبطوا لبركته سكانها، واعترفوا بفضلها على من سواها، وصرف الزوار أعنة الرفاق إلى مثواها وقصده الواردون من جميع الآفاق وعلى فضله وولايته الأصفاق، وإلى ذلك أشار سيدي محمد الهواري في مقدمة التنبيه فقال:

التنبيه إذا يقرأه من هويا صبي طبقًا (ص271) والناس ليه تجي من غربًا وشرقًا، وكان سيدي إبراهيم في أثناء ذلك كله يستفتح مجالس إقرائه بقراءة كتب الشيخ سيدي محمد الهواري يقرؤها بلفظه فيفسر مجملها ويفتح مقفلها، ويشير في حال قراءته لمقامات الشيخ وعلومه ويطيب الثناء الجميل عليه، ويطيل الدعاء له ويقول ما علي إلاَّ لبركة الأشياخ وخصوصًا سيدي محمد الهواري عملاً بالأحاديث المرغبة في شكر من أسدى إليك يدًا، أو ساق إليك خيرًا.

روينا (ص272) بسنده عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لـم يشكر الـناس، لـم يشكر الله، ومـن لـم يشكر القليل لـم يشكر القليل»، والتحدث بنعم الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب.

قال الزين العراقي: ومِمَّا رويناه مسندًا، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبد من عباده كان اصطنع إليه عبد من عباده معروفًا، وهل شكرته، فيقول: أي ربي علمت أن ذلك منك فشكرتك عليه، فيقول تعالى: لم تشكرني، إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يديه».

واستند الحافظ أبو نعيم عن كعب الأحبار أنه قال: (ص273) ما أنعم الله على عبدٍ من نعمته فشكرها لله وتواضع بها لله ذلاًّ أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبده من نعمة في الدنيا فلم يشكرها، ولم يتواضع لها لله إلاَّ منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار في قبره يُعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

وبابُ الشكر لمن أنعم الله عليه من الصفات الجميلة والمقامات الجليلة، وهو من صفات أهل الجنة، قال تاج الدين أبو الفضل بن عطاء في كتابه

اللطائف: ومن بعض العارفين لو علم الشيطان أن طريقًا توصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيهما، ألا تراه قال: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 17]. تأمل كيف لم يقل: ولا تجد (ص274) أكثرهم صابرين، ولا خائفين ولا راجين، قال ابن عطاء الله: ولما اجتمعت بالسلطان قد قرن دولتكم بالرخاء فانشرحت قلوب الرعايا بكم، والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه، ولا استجلابه كما يكتسبون العدل والجود والعطاء، فقال لي: ما هو الشكر؟ قلت له: الشكر على ثلاثة أقسام:

شكر اللسان، وشكر الجوارح الظاهرة، وشكر القلب، فأما شكر اللسان فهو التحدث بنعم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضحى: 11]. وأما شكر الجوارح الظاهرة فالعمل بطاعة الله.

(ص275) قال الله تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبإ: 13].

وأمَّا شكر القلب فهو أن تعتقد وتعرف بأن كل نعمة بك أو بأحدٍ ممن العباد هي من الله تعالى، قال - جل جلاله - : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل: 53]. فقال لي الملك: وما الذي يصير به العبد شاكرًا؟

فقلتُ له: أما الملوك فبإظهار العدل في الرعية، ودفع المضرة عنهم، والأنكاد اللاحقة، فإذا عدل الملك في رعيته ونظر لها بالأصلح فقد اتصف لها بالشكر وحصل له ثواب الشاكرين، وأمَّا العلماء فبتبليغ العلم للناس وإرشادهم لطاعة الله. وأمَّا التجار وذوو الأموال فبالصدقة والإيثار والنفع لعباد الله.

(ص276) روينا في رقائق ابن المبارك، عن بعض السلف الصالح قال: إن

حقوق الله - عز وجل - أعظم من أن يقوم بها العباد، وأن نعمة الله أكثر من أن تُحصى، ولكن أصبحوا تائبين، ومن مرويات سيدي إبراهيم في كتاب المجالس للزين العراقي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرًا صابرًا، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرًا ولا صابرًا، من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى مَن هو دونه فحمد الله - عز وجل - على ما فضله به عليه، كتبه الله - عز وجل - شاكرًا صابرًا، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه، فأسف على (ص277) ما فاته منه لم يكتبه الله - عز وجل - شاكرًا ولا صابرًا».

أنشد شيخنا عبد الله التنسي، قال شيخنا أبو إسحاق التازي قال: أنشد شيخنا أبو الفتح قال: أنشدنا شيخنا أبو الفضل العراقي قال: أنشدنا الإمام قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز من جماعة لمحمود الوراق:

إذا كـــان شـكري نعمة الله نعمة ... علـــي لـــه في مثلها يجب الشكر

وكـــيف بلـــوغ الـــشكر بفضله ... وإن طالـــت الأيام واتصل العمر

إذا مـــس بالـــسراء عم سرورها ... وإن مـــس بالضراء أعقبه الأجر

ومـــا مـــنهما إلاَّ لـــه فـــيه نعمة ... تـــضيق بها الأوهام والبر والبحر

ومن أعظم الدلائل على ولايته الباهرة، وكراماته الظاهرة ما أجراه الحق سبحانه على يده (ص278) من بناء الزاوية النبيهة المتعددة الأبواب والمساجد في الفخامة والاحتفال، ومدارسها المشتملة على الميضاة الأنيقة الدارة والحمام الذي ما شوهد مثله في البلاد، والخزائن المملوءة بالكتب العلمية وآلات الجهاد، والسطح المظلل بعريش من شجر الياسمين العنبري الرائحة لا نظير لها ولا مثال.

ورحم الله سيدي محمد الهواري فقد صدقت فراسته فيه حيث قال في التنبيه مشيرًا له على عادته:

عقلـــك ربلتــه يلــيسرى   كانـــوا في الـــبحور يغــيب

تـــتعجب فـــيك أنجــيب   وأذيـــب مـــن بي وطبـــيب

وقـــد تـــشبه البـــنا   وبنـياك علـــى تـــرتيب

* قصة إدخاله الماء لوهران:

(ص279) وأما الماء الذي أدخله لوهران فهو من غرر الدهر، وحسنات الزمان، فأعظم بها صدقة جارية مثلها يعد للمعاد؛ وآية من آيات ولايته باقية بحمد الله إلى يوم التناد، وقد رامه قديمًا من نزل وهران من الملوك وأهل جباية الأموال فلم يهتدوا إليه وأعوزهم سبيله وأخَّر الله ذلك إلى زمانه لتنقل به كفة ميزانه.

الحمد لله حمدًا لا تقلله، هذا الزمان الذي كنا نؤمله وكيفية وضعه، وابتداء صنعه مما يحار فيه أهل النظر والاعتبار ويضيق عن غاية إبداعه ذووا الأيدي والأبصار، فيا هنيئًا لوهران (ص280) أن رويت ببركة هذا الشيخ جوانحها الصادية، ويا بشرى لزاويته السعيدة أن جعلها الله مشرع روي للرايحة والغادية، فمن لم يشاهد ببصره سيدي إبراهيم المعمورة بذكر الله وطاعته، وتصرفات تلك المياه المعينة على عبادته، وخروج الخطايا مع آخر قطرة منه كاف في فضيلته، وسماطة المعد لأهل الوظيفة المنصورة وصدقاته الجارية، وكل ذلك باق كما رتبه بل زائد على ما كان عليه في حياته لم تتغير أشكاله، ولا تبدلت أحواله إلى اختلال، علم أن ذلك من أعظم كراماته وأقوى الدلائل على صدق ولايته، وأن هذه المنقبة التي ذخرها الله له مما يحتج به (ص281) المفاخر ويرد به قول من قال: ما ترك الأول للأخير.

آثـاره تنبيك عـن أخـباره حـتى كأنـك بالعـيان تـراه

حدثني المشيخة من أهل وهران سرورًا ما أدركوه قط لأنهم كانوا في مشقة كبيرة من قلة الماء ومكابدة السقيا من العيون من الصباح إلى المساء، فوقاهم المشاق الصعبة، وسقاهم الماء الذي جعله حياة لكل ذي كبد رطبة.

*** صنائع المعروف:**

وقد روينا في الحديث الصحيح، عن علي - رضي الله عنه - ، عن الرسول ﷺ، عن الروح الأمين جبريل - عليه السلام - ، عن الربّ المالك الحق مولانا - عز وجل - قال: «يا محمد، (ص282) أكثر من صنائع المعروف، فإنها تقي مصارع السوء، وما عمل العبدُ بعد أداء الفرائض عملاً أحبُّ إلى الله - عز وجل - من إدخال السرور على المؤمن».

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أدخلَ على مؤمن سرورًا فقد سرني، ومن سرني فقد اتخذ عندي عهدًا، ومن اتخذ عندي عهدًا فلن تمسه النار أبدًا».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة».

وخرج الخطيب أبو بكر في تاريخه عن صالح بن بيان أحد أصحاب الإمام سفيان الثوري قال: حدثنا سفيان، عنعلي بن أبي (ص283) عبيد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سقى الناس في موضع يقدر على الماء فيه، فقه بكل شربة يشربها البر أو الفاجر عشر حسنات تكتب له، وعشر درجات ترفع له، وعشر سيئات تحط عنه، ومن سقى الماء في موضع لا يدر على الماء فيه فكأنما أحيا الناس جميعًا»، قلتُ: وما الناس جميعًا؟ قال: «أليس إذا

أحييت نفسًا فثوابك الجنة، وكذا من أحيا الناس جميعًا فثوابه الجنة».

*** إيثار الشيخ التازي للعلماء:**

وكان سيدي إبراهيم يُحب العلماء ويكرمهم ويوسع لهم في مجلسه ويقدمهم، وربما كان في متفقهة الوقت من ينكر عليه أحواله، ويزهد الناس الوصول إليه فإذا بلغ ذلك سيدي إبراهيم تبسم وقال: أمرنا وأمره إلى الله، وكان يقول: الفقيه من يفقه عن الله، ويرغب فيما عند الله ويزهد فيما (ص284) عند الناس، أما من يطلب العلم ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه، وليحظى بالمنزلة عند الأمراء فذلك ساقط عند الله، إذ ليس من أهل الخشية لجلال الله يجيب الناس بما فيه، ويرى الفضل له عليهم ويدعيه، وفيما حدث به أبو الفرج الجوزي عن أبي عبيدة الناجي قال: سمعتُ الحسن البصري يقول: يا ابن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك، ومهما أصلحت عيب من نفسك، وجدت عيبًا آخر لم تصلحه، فعليك بعيوب نفسك فإنك لست على العباد برقيب، وأفادني شيخنا أبو عبد الله التنسي أبياتًا حسنة لأبي داود سليمان بن معبد من رواة الأصمعي أنشدها له الخطيب أبو بكر قال: (ص285)

يا آمر الناس بالمعروف مجتهدًا	وإن رأى عاملاً بالمنكر انتهره
ابدأ بنفسك قبل الناس كلهم	فأوصها واتل ما في سورة البقره
أتأمرون الناس ببر تاركين له	ناسين ذلك فعل الخيب الخسره
وإن أمرت ثم كنت على	خلافه لم تكن إلاَّ من الفجره
من كان بالعرف أمَّارًا وتاركه	فليس يسبق منه سيلة مظره"

وفي كتاب الرقائق، قيل للحسن البصري في بعض المسائل: ما سمعنا أحدًا من الفقهاء يقول هذا، فقال: وهل رأيت فقيهًا قط إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة المحب في الآخرة، قال: وما رأيت فقيهًا قط لا يداري ولا يماري، إنما الفقيه من ينشر ما عنده من حكمة الله، فإن قبلت حمد الله - عز وجل - ، وإن ردت حمد الله - عز وجل - .

(ص286) ومن كلام سيدي محمد الهواري - رحمه الله تعالى - :

مــن لا يعــرف الله لا تعــرفوا واحــذر مــنه واتقــي
مــع شــيخ عــارف والعلــم مــن أهــل الــدين يــستقي

وحدث ابن المبارك، عن سفيان الثوري قال: «تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالم الجائر، فإن فتنتهما فتنة لكل فتون».

وأنشد أبو عبد الله بن رشيد بسنده، عن الحسن بن علي الدامغاني قال: سمعتُ الوالي الزاهد يحيى بن معاذ يقول مخاطبًا لبعض علماء الدين غلب عليهم التنافس والرياء وحب هذه الفانية:

عانقــت دنــياك مسرورًا بزينتها وقد منعت التقى والزاهد والورعا
فكــيف يــنفع منك العلم جامعه ولا يــراك بهــذا العلــم منتفعا

(ص287) وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - إذا حضر في مجالس الذكر أو لقن كلمة الإخلاص أحدًا من الخواص، علته هيبة الوقار، وفعلت فيه لطائف الأسرار، وكشفت له عن الفتوحات الإلهية التي اكتسبها في خلواته، واستفادها من مناجاته فيزداد في الله - عز وجل - محبة ومنه خشية.

حدثني عميد أصحابه ووصيه على زاويته بوصيته منه إليه، الشيخ سيدي محمد بن موسى بن تيف، أيّد ما قال: كان سيدي إبراهيم إذا أراد أن يلبس أحدًا الخرقة المباركة أو يلقنه الذكر الكريم يبعث إلي لأحضر ذلك، فكنتُ

أرى عليه حينئذٍ من القبض التام، وتغيُّر اللون ما لا أعهده منه (ص288) في غير ذلك الوقت، فإذا قال: لا إله إلاَّ الله، وكررها في حالة التلقين اصفر وجهه، وتغير وصار كأنه نزف منه الدم. قال: فما علمت سر ذلك وفائدته إلاَّ بعد موته وتقديمه إيّاي نادرًا على زاويته ولست أهلاً لذلك، فأنشدته حينئذٍ قول القائل:

لي سـادة مـن عـزهم   أقـدامهم فـوق الجـباه

إن لم أكـن مـنهم فلـي   في حـبهم عـز وجـاه

وكان الشيخ سيدي محمد الهواري قد أشار بتقديم سيدي إبراهيم، قال: أتيتُ مرة وأنا شاب لوداع سيدي محمد الهواري، وطلب الدعاء منه، إرادة السفر، فقال لي: ابن مَن؟ والفرص أنه (ص289) يعرفني ويعرف أمي من قبلي معرفة حقيقية، قال: فلما قال لي: أين من أنت بحضرة جماعة من الناس أدركني الخجل والحياء ما أوجب السكوت، فلما أرى ما بي من الحشمة قال لي: أأنت ابن إبراهيم، فزادني قوله ذلك خجلة إلى خجلة وانصرفت مفكرًا في قوله مغتمًا منه، فلما كان بعد زمان طويل تعلقت بخدمة سيدي إبراهيم وذكرت له يومًا قول سيدي محمد الهواري: أنت ابن إبراهيم، فقال: إنما أشار بذلك إلينا، فحمدت الله تعالى وشكرته وسألته - سبحانه وتعالى - أن ينفعني بحبه وخدمته في الأخرى كما نفعني به في الأولى، وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - محبًا في الفقراء والمساكين مؤثرًا لهم بإغاثة ملهوفهم، والقيام بشئونهم دؤوبًا على فعل الخيرات، وأنواع الطاعات حريصًا على إيصال الخير لعباد الله يُحب لكافة (ص290) الخلق ما يُحب لنفسه، ونشر الله له القبول في قلوب عباده، فكانت الخاصة والعامة على غاية من حبه وإجلاله يقدمونه على أنفسهم وآبائهم ويبتهجون بأقواله وأفعاله، وكانت الصدقات والنذور ترد عليه

من الآفاق، فلا يدخر شيئًا منها بل يصرف ذلك في وجهه، ويعود به على المحاويج.

حدثني شيخنا أبو عبد الله التنسي قال: كان شيخنا أبو إسحاق مجبولاً على الكرم والإيثار لا يدخر شيئًا، ولا يلوي على سبب، قال: ومضى أنشدناه في الجملة قول الزاهد العارف أبي العباس بن العريف:

تعاتـبني في الجود والجود شيمتي ... ومـا لي بتـبديل الطـباع زعيم

ولم أر مـثل الجـود أمـا حديثه ... فحلـــو وأمـــا حـــبه قـــديم

(ص291) ولا خـير فيمن لا يعاش بعيشه ... ولـو أنـه فـوق السماك مقيم

ذريـني فـإن الـبخل عار بأهله ... ومـا ضـر مثلي أن يقال عديم

أرى كـل طلق كان خلق حميمه ... ولـيس لمقـبوض اليدين حميم

وكيف يخاف الفقر أو يحرم الغنا ... كـريم ورب العـالمين كـريم

وكـان إذا شرع فـي بـناء شيء مـن الأمـاكن المعـدة لمـنافع المـسلمين ومرافقهم المعينة لهم على عبادة ربهم استدانَ ديونًا كثيرة، لـذلك فيتحير أرباب الأموال في كيفية خلاص ذلك الدين ويتعجبون من قوة يقين الشيخ وكريم أحواله، فما تمر عليهم أيام قليلة حتى يفتح الله في خلاصه والمخرج منه من حيث لا يحتسب أحد.

وكان من عادته إذا كمل الموضع بالبناء عجل بالشهادة عليه أنه حبس على الزاوية حتى إنه لم يترك (ص292) لوراثه من الأرض شبرًا، ولا ذخر له فضة ولا تبرًا.

وكـان رفيع الهمة عن ملك الوقت وولاة الأمر مع رغبتهم في قضاء حوائجه وتطارحهم عليه بالكتب فيتغافل عنهم ولا يجيبهم عن كتبهم؛ لأنه

كان قليل الكتب لا يكتب إلاَّ لبعض الناس، ومع ذلك فكانوا له على الحالة المرضية من الإجلال والتعظيم يقبلون شفاعته، ويعظمون وسيلته، وكان يقول لأصحابه إنما تكون السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين:

هـي القـناعة لا تبغـي بها بدلاً ... فـيها النعـيم وفيها راحة البدن

انظـر لمـن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

ورويناً في أخبار الولي الزاهد بشر الحافي أنه قال: رأيتُ (ص293) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في المنام، فقلتُ له: عظني يا أمير المؤمنين، فقال لي: «ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلبًا للثواب، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله».

قال المؤلف: قوله: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء» عكسه «ما أقبح تواضع الفقراء للأغنياء»، والأصلُ فيه قوله ﷺ: «من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه»، قال الأستاذ أبو القاسم: سمعتُ أبا علي الدقاق يقول: إنما قال - عليه السلام - : «ذهب ثلثا دينه»، ولم يقل: «ذهب دينه»؛ لأن للمرء ثلاثة أشياء: قلبه، ولسانه، وبدنه، فإذا تواضع الفقير بلسانه ودينه للغني من أجل غناه فقد ذهب ثلثا (ص294) دينه.

قال: فلو اعتقد الفقير التواضع بقلبه للغني، كما ظهر ذلك على لسانه وبدنه، فهذه حالة تعبد من المؤمن، ونعوذ بالله ممن كانت هذه صفته، وقد أنشد بعضُ العارفين:

حـرام علـى مـن وحد الله ربه ... وأفـرده أن يجـتدي أحدًا رفدا

ويا صاحبي قف لي مع الحق وقفة ... أمـوت بها وجدًا وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وفي شرح الأسماء للأستاذ أبي القاسم قال: روي أن بعض الأمراء قال لبعض الصالحين: سلني حاجة، قال: أو لي تقول هذا، وقد كان لي عبدان قهوتهما وملكتهما وهما الآن سيداك، قال: ومَن هما؟ قال: الحرصُ والهوى، فطال من غلبتهما وقد غلباك، وملكتهما وقد ملكاك.

*** إجلال الشيخ التازي للشرفاء:**

وكان سيدي إبراهيم (ص295) - رحمه الله - على حالة عظيمة ورتبة كريمة من إجلال الشرفاء المنتسبين لأهل البيت، والتنويه بقدرهم والتنبيه على رفعة مكانهم، ويقول لأصحابه: تعظيم أهل بيت النبي ﷺ من تعظيمه؛ لأن حرمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًا.

حدثني الفقيه الكاتب العلامة أبو عبد الله ابن الشيخ الصالح سيدي عيسى بن عبد السلام، أن مولانا المتوكل أمير المسلمين طيَّب الله ثراه وجدد عليه رحماه، بعثه في أمر مهم يُشاور فيه الشيخ سيدي إبراهيم فجرى بينهما من الكلام إلى أن قال له: سيدي والله إني لأحب هذا الملك وأوثره لكونه جمع خصالاً من الخير الدالة على كمال العقل، ومناقب من السؤدد لم تتوفر في غيره وكفاه (ص296) فضلاً وسؤددًا انتسابه للجناب العلي أهل بيت الرسالة ومقر السيادة والجلالة عليهم الصلاة والسلام.

قال لي الفقيه أبو عبد الله: فلمَّا سمعت هذا من سيدي إبراهيم ابتهجت به سرورًا واستردته تثبتًا، فقال لي: لمَّا قفلت من بلاد الشرق ونزلت تونس، قصدت شيخنا الإمام سيدي عبد الله العبدوسي، وذكرت له ما عزمت عليه من التوجه لتلمسان، فقال لي سيدي عبد الله: إن ملوكها من الشرفاء الحسينيين. انتهى المقصود من هذه الحكاية باختصار.

ولَمَّا بنى سيدي إبراهيم زاويته الكريمة جعل في مدرستها المعدة لطلبة

العلم غرفة مرتفعة، وعينها لولدين من أهل البيت ورتب لهم ما يجب من حق الضيافة (ص297).

وما زال هذا الرسم لهم إلى الآن، والبيت الآن يُعرف ببيت الشرفاء، ودرج على ذلك وصيه على زاويته القائم بحقوقها على ما كان عليه في بدئه، وإعادته، الشيخ مبارك الصادق اللهجة سيدي أبو عبد الله محمد موسى، حضرت يومًا بوهران وقد قدم الزاوية شاب من أولاد الشرفاء برسم التجارة فتقدم إليه سيدي محمد بن موسى لينزله بمحل كرامتهم من المدرسة، فقال له السيد الشريف: أو مثلي ينزل في المدرسة مختلطًا مع الناس، فقال له: يا سيدي الشريف، هذا المنزل هو أفضل منزل في الزاوية، وفيه كان ينزلكم سيدي إبراهيم، فرد عليه الشريف بفحش من القول وهجر من الكلام الذي لا يصدر عن سلالة (ص298) الرسالة، فتبسم سيدي محمد بن موسى وقال له قولاً لينًا، وتمادى الشريف على سبه وسب الزاوية فقام أبو عبد الله محمد بن موسى عن المجلس وتركه، ورأينا ذلك مناقب له عددنا من كرامات الشيخ - رحمه الله - .

ومن الأحاديث المروية عنه ﷺ في حب أهل البيت: أسند أبو عبد الله بن رشيد فيما قرأته بخطه، عن أبي عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغزوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي».

وأخرج الثعلبي في تفسيره بسنده، ورواه الزمخشري في كشافه، عن جابر بن عبد الله (ص299) قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح الله له في قبره بابين إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد

جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرًا، ألا من مات على بغض آل محمد مات لم يشم رائحة الجنة».

وروينا في كتاب المعجم لأبي القاسم الطبراني، عن ابن عباس، أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]. (ص300) قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما».

وحدث الخطيب ابن ثابت في ترجمة عثمان بن محمد بن أبي شيبة بسنده عن فاطمة بنت الحسين، عن فاطمة الكبرى، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كل بني أم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة، فإني أنا أبوهم وأنا عصبتهم».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة سنذكر بعضها إن شاء الله في ترجمة شيخنا أبي عبد الله التنسي، قال: أنشدني شيخنا رأس العارفين أبو إسحاق إبراهيم التازي لنفسه في فوائد حب أهل البيت والاستجارة بهم: (ص301)

أنـــا عـــبد عـــبد محـبكم ... يــــا آل بـــيت المــــصطفى

وبحـــبكم وصـــل الأولى ... مـــنحوه مـــن أهـل الـــصفا

هـــو والـــذي بـــرا الـــبرا ... إكـــسير أربـــاب النهــــى

وعلـــيه حـــض المهـــتدي ... بـــهداهم والمقـــتدي

وعـــسى بحظـــي مـــنه أن ... أحظـــى بنـــيل المـــشتهى

وأخـــص بالـــسر الـــذي ... بلـــغ الـــرجال بـــه المـــنى

يا سادتي يا عترة الهادي الشفيع المجتبى .. ..

رحمـــاكم لمتـــيم ... لعـــبت بـــه أيـــدي الهـــوى

فعساكم أن تتحفوه ... بدعوة تشفي الضنا

وتنيله من حبكم ... أقصى منال يبتغى

لا زال شامخ مجدكم ... فوق السماوات العلى

(ص302) وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - ممن شهر في زمانه بين أولياء الله بمقام المحبة، صرَّح بذلك في كثير من قصائده التي أودعها طرفًا من أسرار معرفته ولطائف حبه ومناجاته. فمن ذلك قوله:

وحب الله ممزوج بكلي ... بفضل الله وهاب الفضائل

وقوله:

جمال الله أكمل كل حسن ... فلله الكمال ولا منار

وحب الله أشرف كل أنس ... فلا تنس التخلق بالوقار

وذكر الله مرهم كل جرح ... وأنفع من زلال للأوار

ولا موجود إلاَّ الله حقًّا ... فدع عنك التعلق بالفشار

تأمل جزالة هذا الكلام ووجازته مع حلاوة اللفظ واشتماله على المعاني الكثيرة، والهيبة التي تجدها عند (ص303) ذكرك لكلامه أو سماعك إياه، فقلَّ أن تجد ذلك في كلام غيره من أهل الطريق، وعن ذي النون المصري: «حقيقة المحبة أن تحب ما أحب الله سبحانه، وتبغض ما أبغضه، وأن لا تخاف في الله لومة لائم».

وذكر الإمام أبو المعالي شيد له في كتابه المؤلف في المحبة قال: «روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما بلغ إبراهيم منزلة الخلة؛ لأنه لم يحب أحدًا مثل محبته لله، فمن أصبح وفي قلبه غير الله فليس من الله».

وفي بعض الأخبار: أن الله سبحانه أوحى إلى داود - عليه السلام - ، يا

داود إن كنت تزعم أنك تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان، في قلب واحد.

وفي تاريخ الخطيب (ص304): عن أبي شعيب صالح بن العباس الصوفي، قال: سمعتُ ذا النون يقول: من دلائل أهل المحبة لله أن يأنسوا بسوى الله، ولا يستوحشوا مع الله؛ لأن حب الله إذا سكن القلب آنس بالله لأن الله أجل في صدورهم من أن يحبوه لغيره.

ولسيدي إبراهيم - رحمه الله - كثير من الكرامات المشهورة، وخوارق العادات المذكورة المأثورة، منها ما حدثني به شيخنا أبو عبد الله السنوسي فيما كتب لي بخطه قال:

كنا مرة عند سيدي إبراهيم مع جماعة من الفقراء الذين جرت عادتهم بزيارته في الموسم النبوي على مشرفه الصلاة والسلام، قال: وكان ذلك في زمن الشتاء، وكثرة الأمطار، ولما قضينا الحق مع الزيارة، وأردنا السفر لتلمسان (ص305) استأذنه في ذلك بعض أصحابه اغتنامًا لما ظهر في تلك الأيام من الصحو، فلم يأذن لهم وكرروا عليه طلب الإذن فلم يجبهم إليه، فأقمنا منتظرين منه الإذن مفكرين في حال الطريق؛ لأنها كانت مخوفة، قال: فبينما نحن في يوم ثقل فيه السحاب وأظلم الجو وهطلت الأمطار، بحيث لا يتوهم السفر فيه، وإذا بالشيخ قد بعث لجماعة الفقراء أن اعزموا السفر، قال: فأتينا وقلوبنا غير طيبة بالسفر في ذلك اليوم؛ إلاَّ أنه لا تسعنا مخالفته لما جربناه من بركته ويمن نقيبته، فودعناه وخرجنا مكرهين في مطر وابل وغيم كثيف، فلم نجاوز الأجنة إلا والمطر ارتفع وتلاه السحاب (ص306) فانقشع وظهرت الشمس أحسن ظهور ولا ريح فيها ولا شبهة غيم، وكان ذلك اليوم الأول من أيام الربيع فانشرحت القلوب وانزاحت عنا الكروب، وسرنا في

أنعم الله تعالى، حتى أخذنا المساء فبتنا في الخلاء، وما وجدنا ألم برد في تلك الليلة ولا أصابنا روع، ولله الفضل والمنة، وأصبحنا من الغد سافرين على أفضل حال وأنعم بال، كأنا في زمن ربيع أو صيف فبينما نحن في أثناء الطريق، وإذا بجماعة من فرسان العرب المعروفين بقطع الطريق فما تعرضوا لنا ولا التفتوا إلينا، ولمّا وصلنا تلمسان تغيمت السماء وترادفت الأمطار، وكثر الثلج، واشتد البرد، ودام ذلك علينا مدة طويلة، فتذكرنا بركة الشيخ وعظيم كرامته (ص307) وما أجراه الحق من البركة على يده، ولله الحمد والشكر.

ومنها ما حدثني به والدي قال: أتيت سيدي إبراهيم في بعض قدماتي على وهران برسم وداعه وطلب الدعاء منه، فلمّا أردت الانصراف أمر من أخرج شيئًا من الدلاع وقال لي: يا أحمد ارفع هذا الدلاع للشيخ والدك.

قال: فتعجبتُ من ذلك وقلت في نفسي: وأي حاجة لوالدي بالدلاع، ثم رفعناه على بهيمة وأتينا تلمسان، فلما دخلت الدار وسلمت على والدي وجلست بين يديه، وإذا بفتى من فتيان الخليفة المعتصم مولاي أحمد - رحمه الله - قد دخل علينا فقال له: يقول لك السلطان: ابحث لنا عن شيء من الدلاع لمريض عندنا، وقد طال بحثنا عنه فما وجدناه، فقال له والدي: (ص 308) وأين أجده وليس هذا وقته؟ قال: فقلتُ لوالدي: الحاجة هنا وقد بعث بها إليك سيدي إبراهيم نفعنا الله به، وقمت لمحلها وأخرجت منه الدلاع ودفعناه للفتى وطال تعجبنا من مكاشفة الشيخ سيدي إبراهيم - رحمه الله ورضي عنه - .

ثم لما وصل الفتى للخليفة وعرّفه بالقصة فرح كثيرًا وازداد في الشيخ يقينًا، نفعنا الله ببركته.

ومنها ما حدثني به جماعة من مشيخة زاويته: أنه حين كان ساكنًا بمصرية الحلفاوين أتاه بعض الفقراء من معارفه التازيين وأقام عنده مدة، ثم أتاه يومًا لوداعه في وقت قائلة، فقال له سيدي إبراهيم: ولعلك تمكث عندنا أيامًا كي يفتح (ص309) الله لك في رزق ترفعه لأولادك، فقال له: يا سيدي إن مثل هذه الرفقة مأمونة ونخشى أن تفوتني ويعز وجودها في هذا الوقت.

فبينما هو مع الشيخ يتكلم والشيخ قد اهتم به، وإذا بحاجب الخليفة في وهران حينئذٍ السلطان المولى أبو يحيى واقف على الباب مع الخليفة أبي يحيى يستأذن على الشيخ في وقت ليس من عادته الخروج عن قصره فيه، فدخل السلطان على الشيخ ومعه قرطاس من ذهب بيد الحاجب، فقال له: يا سيدي إنه قد تحرك في خاطري الوقوف عليك في هذا الوقت فأتيتك بهذه النفقة لتستعين بها على ما أنتَ عليه من سبيل الخير، واصطناع المعروف، فتبسم سيدي إبراهيم وقال له: (ص310) ادفعها لهذا الفقير فقبضها منه الفقير، وودع الشيخ وانصرف كما أحب مع الرفقة التي تهيأ للخروج معها، وذلك من بركة الشيخ ولله الحمد والمنة.

ومنها: أنه وقع اجتماع بوهران مع تلميذه شيخ الفقراء وعميدهم وصدرهم المقدم في ملازمة الأذكار، وأثيرهم سيدي الزعيم فسألته عن صحبته لسيدي إبراهيم وأحواله، فحدثني بكثير من ذلك، ومِمَّا كتبته عنه قال:

أتيته في بعض مواسم مولد النبي ﷺ على عادتي فبينما أنا عنده، وإذا بأحد أصحابه يستأذنه في الواردين من أهل تلمسان لحضور الموسم النبوي، قال: فأذن لهم الشيخ ودخلوا، فبعد فراغهم من التسليم (ص311) قال له أحدهم: يا سيدي جاء معنا من تلمسان رجل من الفقراء اسمه أبو القاسم بن محمد القسنطيني، بقصد زيارتك وهو واقفٌ بباب الزاوية ينتظر الإذن الخاص منكم،

قال: فتبسم سيدي إبراهيم وقال: ادخل على بركة الله، فوقعت كلمته في أذن الفقير والغرض أن باب الزاوية بعيدة من غرفة الشيخ التي كنا معهم فيها، وإذا بالفقير أبي القاسم قد دخل علينا، فلما وقع بصره على الشيخ جثا على ركبتيه وتغير لونه وتقدم بين يدي الشيخ كذلك فسلم عليه سلام رجل متأدب عارف بمقامات الأشياخ، وجلس معنا قال: يا سيدي نريد أن نسمع شيئًا من كلامكم على لسان هذا القوال، قال: وأشار لمتولي ذلك بين يدي الشيخ (ص312)، وهو الشاب المرجوم قال: فأذن الشيخ للرخامي، فأنشد قول الشيخ في قصيدته الفلانية ذكرها سيدي الزعيم إلا أني نسيتها، فقال له الفقير أبو القاسم: غيرها فذكر الرخامي القصيدة الواوية وجَوَّدَهَا فعند افتتاحه بقوله:

أبت مهجتي إلا الولوع بمن تهوى فدع عنك لومي فالنفوس وما تهوى

صاح القسنطيني الفقير وتواجد ثم أشار للقوال بأن قل، فقال:

هــوان الهــوى عز وعذب أجاجه وعلقمه أحلى من المزن والسلوى

قال: فغلب عليه الوجل وأدركنا والحاضرين بعض الوجل، ثم نزع برنوسه الذي كان عليه فأعطاه (ص313) للقوال فقصد يسأل:

وتعذيــبه للــصب عــين نعيمه وسعي اللواحي في السلو من العدوى

ومن لم يجد بالنفس في حب حبه فلوعــته إفــك وصبوته دعوى

قال: فنزع إحرامه وجبة كانت عليه من ملف أخضر، ودفع ذلك للقوال وقد غلب عليه الشوق والطرب والتواجد، فقال الرخامي:

ولــيس بحــر مــن يعيده الهوى للهو الدنيا فاختر لنفسك ما تهوى

فما الحب إلا حب ذي الطول والغنا وأملاكــه الأنبياء وأولي التقوى

قال: فغشي عليه وصار ملقى بين أيدينا وطال تعجبنا منه، فبينما نحن

كذلك ولم يخرج أحد من ذلك الجمع، وإذا برجل يدق الباب ففتح له، فدخل على الشيخ أحد أعيان (ص314) العدول بوهران، ومعه جبة ملف خضراء رفيعة القدر، وإحرام وثوب فقبّل يد الشيخ وقال: هذه هدية لهذا الرجل الفقير الوارد عليكم.

قال: فاشتد تعجبنا من ذلك كثيرًا كيف حركة الخاطر والفرض أنه لم يخرج أحد من أهل المجلس فتبسم سيدي إبراهيم وأذن للفقير في قبول الهدية. قال: ثم قال الشيخ - أو بعض الحاضرين - : بقي البرنوس، فما تم الكلام إلا ورجل آخر من أعيان وهران قد دخل على الشيخ ومعه قصبة ونصف من الملف الأكحل الرفيع القدر، فقبل يد الشيخ وقال له: يا سيدي تقبل مني هذه الكابة، فقال له سيدي إبراهيم: ادفعها لهذا الفقير، قال لي سيدي الزعيم: هذا مجلس (ص315) واحد وقعت فيه جملة كرامات لسيدي إبراهيم حدث عن البحر ولا حرج.

وكان - رحمه الله - يقبل الهدية ويثيب عليها بالدعاء الصالح، فإذا أهدي له شيء قليل تلقاه بالبشاشة والقبول، وقد أبى هذا الباب كثيرون من الأولياء ممن ضيق عليهم الورع، لكن سيدي إبراهيم لما مَنَّ الله عليه باتساع باب المعرفة كشف له بالبصائر المنيرة ما غطى عن أهل الورع، فلا يمد يده للطعام إلا وقد علم حله وسلامته من الشبهة عملاً بما شاهدته بصيرته الوقادة، وجربه في ذلك واعتاده، قرأت بخطه دعاء كان يدعو به ويكثر استعماله، نصه:

الحمد لله، اللهم صلي على محمد، وعلى آل محمد، وهب لي من رزقك الحلال الطيب (ص316) الواسع المبارك ما تصون به وجهي عن التعرض إلى أحد من خلقك، واجعل اللهم لي طريقًا سهلاً من غير نصب ولا تعب ولا منة، وجنبنا اللهم الحرام حيث كان وأين كان من كان، وحل بيننا وبين

أهله واقبض عنا أيديهم واصرف عنا قلوبهم حتى لا تنقلب إلا فيما يرضيك، ولا نستعين بنعمتك إلا على ما تُحب يا أرحم الراحمين.

فالواقف على هذا الدعاء يتيقن ولا يشك أن الله تعالى قد أجاب فيه دعوته، وأعطاه أمنيته وأن ما كان على الشيخ من هدايا العمال وصلاتهم إنما هو رزق ساقه الله إليه من وجه حلال، وجعله بواسطة العماء ليكثر القول (ص 317) في الشيخ - رحمه الله - ويعظم ثوابه عند الله، ومن انسدت عليه مسالك الطرق والتأويل في هذا الباب، وقد جعل لبعضه سبيلاً إلى الطعن على أولياء الله وخاصته من خلقه فليدع الله أن يوفقه ويزيل عن قلبه حجاب الغفلة وفقنا الله لذلك ويسرنا لسلوك أحسن المسالك.

وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - حافظًا للحديث والأخبار، ذاكرًا للآداب وحكايات أولياء الله الأخيار، حدثني بالكثير من علومه وأخباره وفوائده وأشعاره شيخنا الإمام حافظ الزمان راية الإحسان، سيدي أبو عبد الله التنسي، فمن حديث سيدي إبراهيم عن شيوخه من طريق أبي الظاهر (ص 318) السلفي، عن شيوخه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«لنا يوم أيها الناس إنما أنتم خلف ماضين وبقية متقدمين كانوا أكثر منكم بسطة، وأعظم سطوة، أو عجوا عنها أسكن ما كانوا إليها، وغدوت بهم أوثق ما كانوا بها، فلم تغن عنهم قوله كثيرة، ولا قبل منهم بدل فدية، فبادروا لأنفسكم بزاد مبلغ قبل أن تؤخذوا على فجأة، وقد غفلتم عن الاستعداد ولا ينفع الندم، وقد جف القلم».

ومن حديثه عن طريق البزاز، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صباح إلا وملكان (ص319) يناديان: سبحان الملك القدوس، وملكان يناديان: اللهم اعط منفقًا خلفًا، واعط ممسكًا تلفًا، وملكان موكلان

بالصور حتى يؤمران فينفخان، وملكان يناديان: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء، وويل للنساء من الرجال».

ومن أناشيده المروية بالسند المتصل إلى محمد أبي العتاهية قال: قال الخليفة هارون الرشيد لأبي العتاهية: عظني، قال: أخافك، قال: أنت آمن. فأنشد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس إذا تسترت بالحجاب والحرس

واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منها ومحترس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على يبس

(ص320) قال: فبكى الرشيد حتى بل ثوبه.

ومن حكاياته عن شيخه سيدي أبي الفتح عن شيوخه، عن القشيري في كتابه «شرح الأسماء» قال: روي أن موسى - عليه السلام - سأل الحق سبحانه أن يريه السمك الذي عليه جميع العالم، فأوحى الله إليه أن يأتي شاطئ البحر فأتاه فبينا هو كذلك، وإذا بسمك قد أخرج رأسه من البحر كالجبل العظيم، فأخذ يصعد في الجو نحو السماء رأسه في الجو وباقيه في البحر وهو يصعد متصل الصعود مدة من ثلاثة أيام، فلما رأى موسى - عليه السلام - عظيم قدرة الله تعالى في امتداد هذا الحوت، وأنه لم يستوف الصعود في هذه المدة قال: إلهي أهو مثل (ص321) هذا السمك، فأوحى الله إليه: يا موسى إن السمك الذي عليه العالم يأكل كل يوم ألف سمك أمثال هذا السمك، فقال موسى: إلهي جلت قدرتك لا إله إلاّ أنت.

قرأت بخط سيدي إبراهيم قال: حدثني سيدي أبو الفتح شرف الدين، قال: حدثني والدي زين الدين قاضي القضاة أبو المناقب أبو بكر بسنده

العالي، عن رجاله، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت».

ومن خطه قال: حدثني سيدي أبو الفتح، عن والده، عن رجاله، عن الزاهد (ص322) يوسف بن الحسين قال: قام رجل بين يدي ذي النون المصري - رضي الله عنه - ، فقال: أخبرني عن التوحيد ما هو؟ فقال: هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاح، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه لا علة لصنعه، وليس في السماوات كل العلي، ولا في الأرضين السلفى مدبر غير الله - عز وجل - ، وكل ما تصور في وهمك فالله - عز وجل - بخلاف ذلك. ومن رواياته بالسند المتصل عن الخطيب ابن رشيد بسنده عن زهرات البساتين، عن بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد آدم الدنيا والآخرة اللحم، وسيد ريحان أهل الجنة الفاغية»، قال ابن رشيد: الفاغية هي الحنار.

* **حديث النرجس:**

(ص323) ومن مرويات سيدي إبراهيم - رحمه الله - حديث النرجس المسند عن القضاة الجلة بنوع من التسلسل، حدث به ابن الطيلسان عن القاضي عبد المنعم بن الفرس بسنده القاضوي عن القاضي محمد بن سلمة صاحب مالك، قال: حدثنا الإمام مالك بن أنس، وهو قاضي القضاة فقيه الفقهاء، قال القاضي ربيعة، قال القاضي شريح، قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، وهو أفضل القضاة، قال: قال رسول الله ﷺ: «شموا النرجس ولو في اليوم مرة، ولو في الشهر مرة ولو في السنة مرة، ولو في الدهر مرة، فإن في القلب حبة من الجنون، والجذام والبرص لا يقطعها إلا النرجس».

وفيه من مسندات سيدي إبراهيم أن (ص324) عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أصابه مرض فزاره الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان فقال له: ما تشتكي، فقال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء، قال: لا حاجة لي فيه، قال: تتركه لبناتك، قال: يا أمير المؤمنين، لا أخشى على بناتي الفقر، فإني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبدًا».

ومن مروياته في كتابه «المجالس المكية» عن الزاهد منصور بن عمار، عن بعض أشياخه قال: بينا مسلمة بن عبد الملك بن مروان في المسجد الحرام، إذ أتى بحجر مكتوب بالخط القديم، فقال لحاجبه: هل هاهنا (ص 325) ترجمان، فأتى بوهب بن منبه فقيل له: يا أبا عبد الله قرأ ما على الحجر، فإذا عليه مكتوب: يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجوه من أملك، وقصرت في حرصك وحيلك، وابتغيت الزيادة في عملك، وإنما تلقى الندم لو قد زل بك القدم وأسلمك الأهل والحشم، وانصرف عنك الحبيب وأسلمك القريب، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا في عملك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم الحسرة والندامة.

ومن مروياته في «المجالس المكية»، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من شاب شيبة في سبيل الله، كانت له نورًا يوم القيامة، ومن رمى بسهم في (ص326) سبيل الله بلغ أو لم يبلغ، فهو كعتق رقب مؤمنة، ومن أعتق رقبة مؤمنة كانت فداؤه من النار».

قال ابن حفص: روينا من حديث مالك بن دينار، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أخبرني جبريل - عليه السلام - ، عن الله - عز وجل - أنه قال: وعزتي وجلالي ووحدانيتي وكبريائي وارتفاع مكاني،

واستوائي على عرشي إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام ثم أعذبهما»، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يبكي عند ذلك، فقلتُ: يا رسول الله، ما يبكيك؟ قال: «بكيت لمن يستحي الله - عز وجل - منه، ولا يستحي هو من الله - عز وجل - ».

وأنشد أبو حفص (ص327):

نـزل المشيب فأين تذهب بعده — وقـد ارعويت وحان منك رحيل

كـان الـشباب خفـيفة أيامـه — والـشيب محمـلـه عليـك ثقيل

لـيس العطاء من الفصول سماحة — حـتى تجـود وإذا لـديك قليل

وحدث أبو حفص بسنده عن أحمد بن حواس المجيبي، وكان من خيار عباد الله، قال: رأيت يحيى بن أكثم في المنام فقلت: يا يحيى، ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه جل جلاله، فقال لي: يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار، قال: فسقطت بين يدي ربي - عز وجل - ، ونزل بي ما ينزل بالعبد بين يدي مولاه، ثم أفقت (328)، فقال لي: يا شيخ السوء، لولا شيبتك لأحرقتك بالنار، قال: فقلت: يا سيدي ويا مولاي ما هكذا أخبرت عنك، فقال: يا يحيى بماذا أخبرت عني؟ فقال: حدثني عبد الرزاق بن همام، عن معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن نبيك ﷺ، عن جبريل صلوات الله عليه، عنك تباركت وتعاليت: أنك قلت وقولك الحق، ووعدك الصدق: «لا يشيبُ لي عبدٌ في الإسلام شيبة لم أحرقه بالنار، فقال - عز وجل - : صدق عبد الرزاق، وصدق معمر، وصدق الزهري، وصدق أنس، وصدق نبيي، وصدق جبريل، انطلقوا به إلى الجنة. وعلى ذكر الشيب فقد أنشد شيخنا أبو عبد الله التنسي، قال: أنشدني شيخنا أبو إسحاق الولي قال: (ص329) أنشدني المشيخة للإمام الفاضل أبي بكر محمد بن عبد الملك ابن زهر الطبيب -

رحمه الله تعالى - :

إني نظـرت إلى المرآة إذ جليت فأنكـرت مقلـتاي كلمـا رأتا

رأيـت فـيها شيخًا لست أعرفه وكـنت أعهـده من قبل ذاك فتا

فقلت: أين الذي بالأمس كان هديا مـتى ترحل عن هذا المكان متى

فاستـضحكت ثم قالت وهي معجبة أتـى الـذي أنكـرته مقلتاك أتا

كانـت سـليمى تنادي يا أخي وقد صارت سليما تنادي اليوم يا أبتا

وينظر لهذه الأبيات ما أنشده الشيخ الإمام أبو عبد الله بن رشد لأمير المؤمنين المستنجد بالله العباسي وقد أجاد فيما أراد:

عيرتـني بالـشيب وهـو وقـار ليـتها عيـبت بمـا هـو عار

(ص330) إن أكن شابت الزوايب مني فاللـيالي تـزينها الأقمـار

وأنشد لبعض أفاضل التيجانيين من أهل تونس:

قالـوا أتذكر وقع شيب أصبحت روضـات رأسك منه ذات أزاهر

الـصبح شـيب اشترقت أنواره أيـن الظلام من الصباح الظاهر

حـسنتم قـبح المـشيب جهالة أذكـاء تخفـى عن عيان الناظر

لـو لم يكـن للـشيب إلا أنـه عـذر الملـول وحجـة للغادر

وأنشدني شيخنا أبو عبد الله بن العباس للإمام أبي الفتح بن دقيق العيد - رحمه الله تعالى - :

تمنـيت أن الـشيب عاجل لحيتي وقـرب مـني في صـباي مزاره

لآخـذ من عصر الشباب نشاطه وآخـذ من عصر المشيب وقاره

(ص331) ومما ينسب لأبي الحسن بن رشيق:

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى واعجب لإنسان عيني كيف لم يشب

البحـر للروم لا تجري السفن به إلا علـى غـرر والـبر للعرب

ومن مروياته في كتاب «الأمثال الحديثة» للقاضي أبي محمد عبد الله بن خلاد، عن عبد الله بن مسعود قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو على حصير، وقد أثر الشريط في جنبه، فقلت: لو نمت يا رسول الله على ما هو ألين من هذا؟ فقال: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا، كمثل راكب مر بأرض فلاة فرأى شجرة فاستظل تحتها، ثم راح وتركها»، قال أبو محمد: هذا مثل في سرعة انقطاع الدنيا بصاحبها، وأن الكائن واقع (ص322)، وأنشد للعدوي - رحمه الله تعالى - :

يـا أيهـا الـذي قد غره الأمل ودون مـا نأمل التنغيص والأجل

ألا تـرى إنمـا الدنـيا وزينتها كمنزل الركب دارًا ثمت ارتحل

حقـوقها رصـد وكـرها نكـر وعيـشها كـدر وملكهـا دول

ومن مروياته عن سيدي أبي الفتح كتاب «المجالس العراقية» عن مؤلفه خاتمة الحفاظ زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن العراقي، حدثني به في الجملة شيخنا أبو عبد الله التنسي، عن سيدي إبراهيم، ونرويه بأعلى من هذا السند. حدثني به شيخنا أبو عبد الله بن العباس، عن الإمام أبي عبد الله بن مرزوق، عن مؤلفه الزين العراقي، أخرج فيه بسند صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أوسع على عياله يوم عاشوراء، أوسع الله عليه سائر سنته».

قال سيدي إبراهيم: أنشدني شيخنا أبو الفتح قال: أنشدني شيخنا أبو الفضل العراقي لنفسه:

اســتفتح العــام بالــصيام لله في شـــــهرك الحـــرام

وعاشــر الــشهر صــم يكفــر عــنك ذنــوبًا مــضت لعــام

ووســع العــيش فــيه ممــا يحــسن مــن طــيب الطعــام

واغتــنم العمــر فهــو ضــيف لا تطعمــن مــنه بالمقــام

يمــر عــام مــن بعــد عــام وأنــت في اللهــو والتعامــي

فارجــع إلى الله مــن قــريب فقــد دنــت صــرعة الحمــام

وخــف بــياتًا علــى اغتــرار واحــذر صــباحًا لــذي انتقام

ولا تكــن يائــسًا قــنوطا فالعفــو مــن شــيبة الكــرام

(ص334) فاضرع إليه بصدق وقصد فإنـــه غافـــر الظـــلام

واســأله عفــوًا لمــا تقــضى وحفــظ صــون علــى الــدوام

وفيما رويناه عن شيوخنا أن الإمام عبد الله بن حبيب الفقيه كتب للخليفة بالأندلس عبد الرحمن بن الحكم في ليلة عاشوراء يذكره بهذه الأناشيد:

لا تنسى لا ينسك الرحمن عاشوراء واذكره لا زلت في الأخبار مذكورا

قــال الرســول صلاة الله تشمله قــولاً وجــدنا عليه الحق والنورا

مــن بات في ليلة عاشوراء ذا سعة يكــن بعيــشه الحــول مجبورا

فبعث إليه الخليفة خريطة من الذهب وأتخاتًا من الثياب، رحم الله جميعهم، وقد أنشد في هذا المعنى الخطيب أبو عبد الله بن رشيد، أنشد فيه (ص335) شيخنا أبو عبد الله بن العباس - رحمه الله - :

صــيام عاشــوراء أتــى ندبــه في ســـنة محكمـــة قاضـــية

قــال الــنبي المــصطفى أنــه تكفــير ذنــب لــسنة ماضــية

ومــن يوســع يــومه لم يــزل في عامــه في عيــشة راضــية

ومن مروياته حديث أنس في مخاطبة الحق سبحانه للذهب والفضة: أسند السمعاني، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أهبط الله آدم - عليه السلام - من الجنة إلى الأرض حزن عليه كل شيء جاوره إلا الذهب والفضة، فأوحى الله - عز وجل - ، جاورتكما بعبد من عبيدي، ثم أهبطته من جواركما فحزن كل شيء جاوره (ص3369 إلاً أنتما، فقالا: إلهنا وسيدنا أنت تعلم أنك جاورتنا به، وهو لك مطيع، فلما بدا لك فيه لم تحب أن نحزن عليه، فأوحى الله - عز وجل - إليهما كذا كان وقد وشى بكما في قلة حزنكما عليه، وعزتي وجلالي لأعزكما ولأرفعن من قدركما حتى لا ينال أحد من أولاده شيئًا إلا بكما».

وقرأت في كتاب «الحلية» لأبي نعيم، عن معاوية بن عبد الله الجعفري، عن كعب الأحبار، أنه قال: أول من ضرب الدينار والدرهم، آدم - عليه السلام - ، وقال: لا تصلح المعيشة إلا بهما، ورحم الله القائل:

النــار آخــر ديــنار نطقــت بــه واللـــهم آخر هذا الدرهم الجار

والمــرء بيــنهما ما لم يكن ورعًا مقلــب القلــب بين الهم والنار

(ص337) ومن شعر الإمام الأستاذ أبي عثمان بن ليون قوله:

مــا صــديق الإنسان في كل حال يــا أخــي غــير درهــم يقتنيه

لا تعــول علــى ســواه فــتغدو خــائن القــصد دون مــا تبتغيه

وحدثنا شيخنا أبو عبد الله التنسي، عن سيدي إبراهيم فيما حدث به إجازة عن شيوخه، عن القاضي أبي الفضل عياض، عن شيوخه، عن الأصمعي قال: بينا أنا في الطواف إذ رأيت جارية متعلقة بأستار الكعبة، وهي تقول: إلهي

وسيدي إن طالبتني بحفظك طالبتك بعفوك، وإن أخذتني بذنوبي أتيتك بتوحيدك، وإن أدخلتني النار مع أعدائك، أعلمتهم بمحبتي لك، قالك فقلت: أحسنت والله يا جارية، فأنشدت تقول: (ص338)

أفنيت عمرك والذنب تزيد والرب يُحصي والرقيب شهيد

حتى متى لا ترعوي عن لذة وحسابها يوم العقاب شديد

فكأنني بك قد أتيت منية لا شك أن سبيلها مورود

قال: ثم شهقت فماتت.

قصة ابن الخراز الوهراني

وحدثنا عن سيدي إبراهيم إجازة قال: حدثنا عن الخطيب أبي بكر قال: قال سهل بن عبد الله التستري: الدنيا كلها موات إلا العلم، والعلم كله حجة إلا العمل، والعمل كله هباء إلا الإخلاص، والإخلاص له خطر عظيم حتى يختم.

وقرأت فيما أسنده سيدي إبراهيم عن شيوخه إجازة عن القاضي أبي الفضل عياض، عن أبي العباس العذري قال: سمعتُ الرجل الصالح الفاضل العالم أبا القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ص339) الوهراني يقول: كنتُ مرة في بغداد وقد انصرفت من مجس سماع الحديث، فبينا أنا ذاهب في الطريق ومخبرتي معلقة في يدي، وإذا بعجوز قد استقبلني فأنكرت زيي وهيأتي، وقالت لي: بالله من أين أنت؟ فقلت لها: من المغرب، فقالت: إن هذا لعجب فما الذي أقدمك من هذه البلاد؟ قلت: أقدمني طلب العلم، فقالت: غير هذا؟ قلت: نعم، فأخرجت من كمها رداءًا لها ومدته بالأرض وقالت: سألتك بالله ألا مشيت عليه مقبلاً ومدبرًا، قال: ففعلت، وقلت لها: ما غرضك في هذا؟ قالت: ليكن هذا الرداء كفني بما فيه من غبار قدمك، إذ قد جئت من أقصى

المغرب إلى المشرق تطلب العلم، فأنت من أهل الجنة؛ لأنه قد روي عن النبي ﷺ (ص340) أنه قال: «من أغبرت قدماه في سبيل الله وجبت له علي الجنة». انتهى

قال المؤلف وفقه الله: هذا الشيخ الوهراني المذكور في هذه الحكاية عرف به أبو القاسم بن بشكوال في كتابه المؤلف في رجال الأندلس فقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمذاني الوهراني، ويعرب بابن الخراز، يكنى أبا القاسم، وكان رجلاً صالحًا منقبضًا عن الناس، حدثوا عنه أنه قال: لما رويت الجامع الصحيح بخراسان ذكر لي عن رجل من أهل الحديث اسمه علي بن محمد الترابي فقصدت إليه فوجدته يقرأ القرآن في المصحف، فقلت له: مثلك يقرأ في المصحف، فقال لي: ليس في أصحاب الحديث أحفظ مني للقرآن، وأنا إمام قومي أصلي بهم الأشفاع (ص341) في كل عام، وكثيرًا ما كنت أقرأ في المصحف فلمّا كبر سني وضعف بصري تركت القراءة في المصحف، وكان ابن أخي يقودني إلى المسجد أصلي بالناس الفريضة فنمت ذات ليلة فرأيتُ النبي ﷺ فقال لي: «يا علي لم تركت القراءة في المصحف؟» فقلت: يا رسول الله، ذهب بصري، فقال لي: «ارجع إلى القراءة في المصحف يرد الله عليك بصرك»، فلما أصبحت صليت بقومي الفريضة، ثم انصرفت إلى منزلي، فقلت لهم: اعطوني المصحف ففتحته وأخذت في القراءة من حفظتي، وأنا أفتحه ورقة، فما طلع النهار إلا وقد بدت لي حروفه أجمع فتماديت في القراءة فيه، فلم يأتِ الظهر إلا وقد عاد إليّ بصري كله كما كان والحمد لله، فأنا من يومئذٍ لا أفتر عن (ص342) القراءة في المصحف. انتهى

وروى عن أبي القاسم الوهراني هذا جماعة من أكابر العلماء منهم الحافظ أبو عمر ابن عبد الله، وأمثاله، وكانت وفاته بالمرية سنة إحدى عشرة

وأربعمائة وهو ابن تسع وثمانين سنة[1].

قلت: وكانت وهران في القديم دار علم خرج منها جماعة من العلماء ففي تاريخ ابن خلكان في المحمدين، أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب ركن الدين، قدم الديار المصرية أيام السلطان صلاح الدين بن أيوب فولي الخطابة بظاهر دمشق زمنًا طويلاً وتنقل في البلاد كثيرًا، ومات - رحمه الله - في سنة سبع وخمسين وخمسمائة[2].

قال: والوهراني بفتح الواو وسكون الهاء (ص343) وفتح الراء، وبعد الألف نون، نسبة إلى وهران مدينة كبيرة من أرض المغرب بينها وبين تلمسان مسيرة يومين وهي على البحر، خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم، انتهى كلام ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان».

وفي كتاب «عنوان الدراية المؤلف في علماء بجاية» ومنهم الشيخ الفقيه العابد الصالح المبارك المتعفف المذكر أبو تميم الواعظ من أهل وهران سكن بجاية واشتغل بها بعلم التذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى، وكان له مجلس يروق الحاضرين ويسر الناظرين - رحمه الله ورضي عنه - .

وفوائد أخبار سيدي إبراهيم - رحمه الله - كثيرة فلنقتصر على هذا الطرف ففيه جملة كافية (ص344) وغنية شافية، وكان سيدي إبراهيم قد بلغ الرتبة العليا ودرجة النهاية في مقام الحلم والتجاوز عمن تعرض لأذيته، ما بلغنا عنه قط أنه انتصر لنفسه أو تسبب في انتقام ذوي الإذاية، حدثني الثقة أن سيدي إبراهيم كان يدعو لأهل إذايته وأنه ما عني بقوله في العقيدة وأسمح وأغفر لأصحابنا إلا من كان يتعرض له أو لأصحابه بالإذاية.

---

(1) الموافق (27 أفريل 1020م - 16 أبريل 1021).

(2) الموافق (21 ديسمبر 1162 - 9 ديسمبر 1163م).

وهذا عند أرباب الحقائق من اتساع المعرفة بالله وكمال الإيمان؛ لأنه إذا رحم بك من ظلمك فقد بلغت درجة الصديقين الرحماء، وقد كان بمدينة وهران جماعة من الجهلة العظام المتشبهين في فنهم ورياستهم بسفلة العوام، ينتقدون عليه أحواله في لباسه ومأكله (ص345) ويحتجون عليه مخالفته لصفات الشيخ سيدي محمد الهواري في ذلك، وهم يعلمون أنه كان على تلك الصفة في حياة سيدي محمد وعلى نظره فسول لهم الشيطان الكبر والحسد والتنافس، وقديمًا قيل: عوام الناس عدو لخواصهم، فكانوا ينكرون كرامة الله المودعة عند سيدي إبراهيم، ويتعرضون بالقول والفعل لأصحابه، فإذا بلغه ذلك تبسم وحمل أصحابه على الحلم والتجاوز، ويعدهم بأن العاقبة لهم ويقول لهم: ليس منا من انتصر لنفسه، وإنما ينتصر الله لنا فإنه الغالب الذي لا يغلب والنهار الذي لا يعجزه شيء، فكأنه يشير لقوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 5، 6]. (ص346)

ولقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

ومما أنشده الإمام تقي الدين بن دقيق العيد - رحمه الله -:

خالق الناس بأخلاق الرضى تملك الأحرار من غير ثمن

لا تقل في الحلم ذل فلكم ساد أهل العلم في كل زمن

إن للصبر عليه مسلكًا ليس يرقى فيه إلا من ومن

وهذا الذي كان عليه سيدي إبراهيم هو من كرامات سيدي محمد الهواري وفراسته الصادقة بعد موته؛ لأنه قال في كتابه التنبيه مشيرًا لسيدي

إبراهيم:

تلمـيذي نحـب يكون يا صبيي شـــبيه أطبـيب

(ص347) وقلـبو يكـون أبيض كلبــنا يكـون أحلـيب

فلما كان سيدي إبراهيم وفق أمنية الشيخ سيدي محمد الهواري وعلى العادة المرضية من حقيقة الصدق وإخلاص المراقبة مع الله، وعلم أنه بعين مولاه وأسلم نفسه إليه، وألقاها بين يديه، وترك الانتصار لنفسه، لا جرم أن كفاه الله أمر أولئك الحسدة على ما جرت به سبيل الله وشريعته في المحاربين لأوليائه أن يتولى الحق - سبحانه وتعالى - محاربة من حاربهم ومغالبة المستهزئين بهم فكان كما قال.

ولقد شاهدنا جماعة منهم عوقبوا بأنواع العقوبات منهم من طال سجنه، ومنهم من غرب عن بلده الزمن الطويل، ومنهم من صار (ص348) عونًا للظلمة يستعملونه في سخرية الحشم، ومنهم من نكس على عقبيه وطبع الله على قلبه، فكان يرد وجهه لقبلة ويتهافت على حكامها لخدمة الفانية إلى أن بلغ أرذل العمر ومات على حالة سيئة، وجعل الله ماله نهبة للولاة، ومنهم من عاقبه الله بالعمى، ومنهم من أقامه الله في إذاية عباده وجعله كلبًا عقورًا لأحبابه وأصفيائه، ثم سلط عليه من قتله بالحديد وأذاقه العذاب الشديد، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 127]. وما أحسن قول القائل: لحوم الأولياء مسمومة، وعادة الله فيمن تنقصهم وأذاهم مقررة معلومة.

تنبيه:

عادة الله وسننه في أنبيائه (ص349) وخاصة من أوليائه أن يجعل العباد لهم على قسمين: قسم يعتقدهم ويصدق بعلومهم وأسرارهم، وذلك من

سبقت له السعادة، واصطفاه الحق سبحانه لدار الحسنى والزيادة، وقسم ينتقد عليهم ويكذبهم فيما أخبروا به حسدًا وبغيًا وكراهية أن يكون لأحد عليهم شفوف في منزلة، واختصاص بمنه، وذلك من سبقت له الشقاوة وغلب عليه الجهل واستولت عليه الغباوة.

فتجد العموم يستبعدون كرامة الأولياء، وتستغرب عقولهم نعم الله عندهم، ثم يحملهم ذلك الحسد على إذاية أوليائه والتسلط عليهم وعلى من تعلق من أحبابه وأصفيائه، فيمد الحق سبحانه ذوي الولاية العرفانية والعناية الربانية (ص350) بالصبر لترتفع أقدارهم وتزهر أنوارهم.

قال أئمتنا: وفائدة ذلك وسر حكمته أن يخلص الله قلب وليه من إحسان الخلق، ويتعلق نظره بالملك الحق لا إله إلا هو إذ لو كان الخلق كلهم مصدقين للولي لفاته ثواب الصبر على تكذيب المكذبين منهم، ولو كانوا كلهم مكذبين له لفاته الشكر على نعمة تصديق المصدقين له، فالولي قائم بحق عبودية مولاه فيمن صدقه بالشكر، وفيمن كذبه بالصبر.

تنبيه ثاني:

لما طبع الله على قلب هؤلاء الجهلة المبعدين عن رحمة الله المحجوبين عن إدراك نور الله في أوليائه، أنكروا حال سيدي إبراهيم، وقالوا: أنه لم يكن زاهدًا في لباسه ومطعمه.

وما علم (ص351) هؤلاء الجهلة أن الزهد في الدنيا هو اعتقاد حقارتها وملازمة هوانها، وعدم ركون النفس إلى لذاتها، أما فراغ اليد منها وتركها في الظاهر مع تعلق القلب بها في الباطن فليس ذلك من الزهد في شيء، وكيف يتوهم على سيدي إبراهيم أنه كان ممن يحب الدنيا وهو القائل في قصيدته:

دنياك دار غرور حبها سفه رأس الخطايا بمن يغرم بها بعدا

ومن مذاهب أئمة الصوفية أن الله تعالى جعل لأوليائه حجبًا تحجبهم عن الجهلة المبعدين عن رحمته، وعَدُّوا من جملة الحجب التزين بزي أهل الدنيا في لباسهم ومطعمهم.

كان سيدي إبراهيم - رحمه الله - إذا أتاه أحد من هؤلاء المنكرين عليه يرفق به، ويأنس إليه، ويلين في القول لهم (ص352) ويدعو بالخير لجماعتهم عملاً بالحديث الصحيح الوارد عنه ﷺ، روينا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بأعمالهم، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس، وسلامة الصدور، ورحمة المسلمين».

قال أئمتنا: قوله في الحديث: «لم يدخلوا الجنة بأعمالهم» يعني: بالحركات الظاهرة من الصلاة والصيام والصدقة، إذ قد يجوز أن يكون في عصرهم من هو أكثر عملاً منهم لكن دخلوا الجنة بسخاوة الأنفس وسلامة الصدور ورحمة المسلمين، وهذه الخصال هي من أعمال القلوب التي تفردوا بها عن غيرهم ووصلوا بها إلى محبوبهم.

وقد (ص353) قال ﷺ في أبي بكر الصديق: «أنه لم يفضلكم بكثرة صلاة وصيام، ولكنه فضلكم بشيء وقر في صدره»، قالوا: ومعنى سخاوة الأنفس هو عدم الركون إلى شيء مما يشغل عن ذكر الله وعبادته، وسلامة الصدور هو من باب الرضى بقضاء الله وقدره، وهو أعلى درجات الصديقين؛ لأن المؤمن إذا قوي يقينه في باب الرضى والتسليم وعلم أن مصدر الأمور كلها عند الله سلم صدره عن غوائل الحقد والحسد، ومعنى رحمة المسلمين الشفقة على خلق الله في تحمل أقوالهم ونصحهم والتودد لهم، ومن رحمة المسلمين أن يصرف وجوه الخلق إلى الله ويرغبهم في طاعته ويذكرهم (ص354) بجنته، وأن يردهم في طلب الحوائج إليه، وهذه كانت حالة سيدي إبراهيم - رحمه

الله - على ما خبرناه من أوصافه الجميلة، ونقل إلينا نقل تواتر، ومن قوله مشيرًا لحاله وحال حسدته الطاغين عليه ما ذكره في قصيدته ذات الوصايا والحكم، حدثنا بها شيخنا أبو عبد الله التنسي يقول فيها:

سلامة الصدر من خير الخلا فمن … أتـى بقلـب سـليم ربه سعدا

والحقـد طبع ذميم عد عنه وعذ … بالله رب العالمين من شر من قدا

وجـنب الحـسد المذموم صاحبه … مـا رأى قط حسود ساد أو مجدا

نعـوذ بـالله من شر الحسود فما … يمـسي ويصبح إلا ساخطًا كمدا

عادى مواهب ذي الفضل العظيم … فعاداه السرور فمهموم يرى أبدا

(ص355) ومن تأمل حال سيدي إبراهيم - رحمه الله - على أن الله أقامه في درجة الغني الشاكر واختلف أئمتنا أيهما أفضل: الغني الشاكر، أو الفقير الصابر، والجمهور على أن درجة الغني الشاكر أفضل من درجة الفقير الصابر.

حدثت عنه أنه كان يأتيه كل يوم من ملاذ الطعام ومختار الفواكه ما يتعجب الحاضرون منه فيقدمه للفقراء والصوفية من الواردين عليه، وتلقيت من الجم الغفير من أهل وهران أن الطعام الذي كان يأتي لزاوية سيدي إبراهيم لم يكن له وقت معلوم على ما جرت به العادة في الدور، وإنما كان يسيل على الدوام من طلوع الشمس إلى صلاة العشاء، (ص356) ثم يبعث الله له من جعل له فيه رزقًا من الزوار والمحاويج، وحدثني كثير منهم أنه من حين مات سيدي إبراهيم قلَّ أكلهم لملاذ الأطعمة في دورهم، قالوا: لما كان سيدي إبراهيم بقيد الحياة كنا على أفضل حال في رغد العيش، وكثرة الأرباح في التجارة، وكان لنا من التنافس في اتخاذ الأطعمة الفاخرة والاعتناء بما يرفعه الواحد منا لزاوية سيدي إبراهيم من ذلك لا عهد لنا به اليوم.

وكنا نأكل ما يفضل علينا منه في دورنا ونرى له من البركة في التيسير وسهولة ذلك على الخدام أهل الدار ما فقدنا مثله بعد وفاته.

وهذا (ص357) من كرامات سيدي إبراهيم المشهورة ومفاخر مناقبه المأثورة المذكورة، وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - يحب الحلو والعسل والفواكه ويستعمل ذلك أثر الطعام ويقدمه للواردين عليه كثيرًا.

روينا من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «قلب المؤمن حلو يحب الحلوة». وأسند الخطيب أبو بكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب من يحب التمر».

وحدث الرشاطي في كتابه قال: كان أبو عبد الله الحسن بن خالد الأذري مؤلف كتاب «اللامع في أحوال الفقه» من أفاضل وقته كريم الطباع مليح الدعابة، وكان مولعًا في طعامه بالحلواء، وكان أصحابه قد علموا ذلك فمتى (ص358) حضر عندهم قدموا إليه في آخر أطعمتهم الحلواء فأغفل في بعض الأحيان، فلما أخذوا في الانصراف قال الأذري: أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم نصف الملائكة، فقيل له: إنما هو صلت عليكم الملائكة، فقال: بقي النصف الثاني مع الحلو، وكانت وفاته هذا الفاضل الأذري سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة[1]، ولنقصر على هذه الجملة من أخبار سيدي إبراهيم وفوائده ومروياته، وكانت وفاة سيدي إبراهيم - رحمه الله - يوم الاثنين تاسع شعبان من سنة ست وستين وثمانمائة[2].

قال المؤلف وفقه الله: وإن فاتني بركة لقائه، فلم يفتني صالح دعائه بفضل الله، كان يكتب لوالدي ويسلم علي ويدعو (ص359) لي بما أرجو قبوله

(1) الموافق (19 ديسمبر 1031 - 6 ديسمبر 1032م).

(2) الموافق (9 ماي 1462م).

بفضل الله ورحمته، وكان في صدر مكتوبه لوالدي:

الحمد لله، اللهم صلي صلاة كاملة وسلم سلامًا تامًا على نبي تنحل به العقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب، ويستسقى الغمام بوجهه، وعلى آله وصحبه، رحم الله سيدي إبراهيم ونفعنا ببركة أسراره، وأفاض علينا من فضائل أنواره، وعظيم مقداره بفضل الله ورحمته.

رابعًا: الشيخ أحمد الغماري

ثم يتلوه رابع القوم حليف القيام والصيام، جمال هذه العصابة وختام أوصافها المستطابة: أحمد (ص360) بن الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى الرياحي، شيخنا وسيدنا ومولانا وبركتنا.

أبو العباس سيدي أحمد بن الغماري، نزيل بلدنا تلمسان، قال لي لما أملى علي نسبه: نحن من عرب رياح وإنما قيل له: الغماري؛ لأنه كان سكن بطيوة وبلاد غمارة في صحبته لخاتمة أولياء الله بالبلاد المغربية سيدي الحاج موسى البطيوي مدة طويلة، فصارت لغته كلغتهم.

(ص361) وأهل بلادنا ينسبون صاحب تلك اللغة لغمارة، وأمه من الشرفاء الحسنيين، حدثني بذلك عنه عميد أصحابه ووارث مقامه شيخنا البركة الولي العابد سيدي عبد الله بن منصور، كان سيدي أحمد - رحمه الله ورضي عنه - رأس الزهاد في زمانه، وبرنامج المحاسن بين أقرانه، إمامًا في علوم القرآن مقدمًا في المقامات والعرفان، حافظًا للحديث وسير النبي ﷺ، بصيرًا بالفقه، ذاكرًا (ص362) لكثير من التفاسير، وكان وصافًا للخير موصفًا به، سالم الصدر عظيم القدر، أخذ عن جماعة من أعلام الأولياء وأكابر مشايخ الوقت بالبلاد المغربية أودعوه مكنون أسرارهم، فلاحت عليه بركات أنوارهم كالشيخ الإمام الولي الشهير سيدي الحاج موسى بن يعقوب البطيوي، والشيخ العلامة العظيم الشأن سيدي أحمد الماواسي، وعليه كان اعتماده في علوم القرآن وحقائق أهل العرفان (ص363)، والشيخ الصالح الولي الناصح سيدي محمد بن يخلف، والشيخ الإمام حكيم زمانه وجنيد أقرانه، سيدي محمد بن عمر الهواري، وكان سيدي أحمد أحد أولياء الله الذين أظهرهم الله للعباد،

داعيًا إلى طريق التوفيق والسداد، مؤيدًا بما ألبسه الله من حلل كرامته، مؤزرًا بما وضع له من القبول في قلوب خليفته.

وأمّا درجة الزهد ورتبة الورع، فقد بلغ فيهما الغاية وجاوز النهاية (ص364) وكان ناصحًا للمسلمين، مشفقًا عليهم يسره ما يسرهم ويسوؤه ما ساءهم، قائمًا بحقوقهم مخلصًا بأعماله كلها لله - عز وجل - ، يُحب لكافة المسلمين ما يحب لنفسه، وكان مسارعًا إلى الصلح بين ذوي القربى سباقًا إلى أعمال البر والتقوى، طويل الصمت لين الجانب، سريرته أفضل من علانيته، متحملاً لأذى الخلق على كثرة طلباتهم، وعلى الجملة فقد كانت الولاية عليه ظاهرة، وشواهدها (ص365) عليه باهرة، وحالاته كلها في لباسه الخشن، وكلامه اللين وخوفه البين، مما يذكر بالدار الآخرة، ويهدي للأنس بالله.

وكان من أرباب المجاهرات، وأهل الأحوال والمقامات ملازمًا للأوراد من قراءة، وأذكار، وصلاة ليل، وصوم نهار، لا يفتر عن ذلك ولا يسأم منه، حتى أنهكته العبادة وأضعفت قواه وانحلت جسمه، وغيرت وجهه، وملأت بالقذا عينه - رحمه الله - ، وكان آية من آيات الله في إخلاص (ص366) الإيثار، وعدم الادخار وتكفل الله بإجراء حاله فكانت تجيء إليه ثمرات كل شيء، ويقصده الناس بالصدقات والنذور، وربما جاءه من الذهب المائة والمائتان فلا يدخر ذلك ولا ينتفع في خاصة نفسه بشيء منه، وإنما يفرقه في الفقراء، والمحاويج من أهل الستر والعفاف، يتولى ذلك بنفسه وكثيرًا ما كان يتولى خدمة المرضى من الفقراء بنفسه، ويستقي لهم الماء بنفسه ويحمل لهم الماء في يد والطعام في يد إلى منازلهم ويفتقد (ص367) أحوالهم ويؤنس غربتهم، شاهدنا منه ذلك كثيرًا نفعه الله بجميل قصده، وإنما كان - رحمه الله

- أبًا للفقراء وآمالهم، ما رأينا أشد حبًا للمساكين منه رغبةً في الثواب، روينا من حديث عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخدري قال: «أحبوا المساكين فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين». وكان أكله ولباسه (ص368) من عمل يده يفتل الدوم اليابس، ويجعل منه جزمًا يسارع الناس لشرائه فيعود ببعض ذلك على نفسه ويتصدق بأكثره؛ لأنه كان على غاية من الزهد والورع والتقشف في لباسه وطعامه وفراشه، وكان ذلك كله من عمل يده، عملاً بقوله ﷺ: «أحل ما أكل العبد من كسب يده».

له في ذلك كله أخبار مأثورة مذكورة، وكان يجلس بعد طلوع الشمس لمن يقصده من قراءة القرآن وأهل الخير (ص369) والصلاح، وذوي الحاجات من أصناف الناس عمومًا على اختلاف طبقاتهم فيسمع من قارئهم قراءته، ويجيب من سأله من الصلحاء وطلاب العلم، ثم ينصرف بكليته لذوي الحاجات فيصبرهم ويؤنسهم ويغيث ملهوفهم، ويكاتب ملك الوقت وأرباب الدولة فيقضي الله على يده كثيرًا من رد الظلمات، وفك العنات.

هذا كان حاله الذي أدركناه عليه، وما زال كذلك مهتمًا بقضاء حوائج (ص370) المسلمين حريصًا على إيصال الخير لهم، راعيًا لما في ذلك من ثواب، روينا من حديث أهل البيت الكريم عليهم من الله أفضل الصلاة وأكمل التسليم، عن سيدنا الحسن بن علي عن أبيه، عن جده ﷺ أنه قال: «من أجرى الله على يده فرجًا لمسلم فرَّج الله عنه كرب الدنيا والآخرة». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عبادًا يرغب الناس إليهم لحوائجهم، وإدخال السرور عليهم، أولئك الآمنون من عذاب الله يوم القيامة».

(ص371) وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له

وسيلة إلى سلطان فدفع بها مغرمًا، أو جَرّ بها مغنمًا، ثبت الله قدميه يوم تدحض الأقدام».

وعن زين العابدين علي بن الحسين، عن أبيه الحسين، عن جده علي - كرم الله وجهه - أنه قال: «إن الله - عز وجل - خلق خلقًا من خلقه فجعلهم للناس وجوهًا وللمعروف أهلاً، يفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون يوم القيامة».

وخرج الخطيب أبو بكر عن علي أنه قال: «إن الجنة لتشتاق إلى من سعى لأخيه (ص372) المؤمن في قضاء حوائجه ليصلح شأنه على يديه، فاستبقوا النعم بذلك فإن الله الكريم يسأل الرجل عن جاهه فيما بذله، كما يسأله عن ماله فيما أنفقه».

ومن مرويات القاضي الإمام أبي صالح نصر بن الشيخ الإمام أبي محمد عبد الرزاق بن شيخ الشيوخ سيدي عبد القادر الجيلي في كتاب «قضاء حوائج الإخوان»، بسنده المتصل إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال سالم: حدثني أبي عبد الله بن عمر قال: لقيني علي بن أبي طالب - عليه السلام - ، وهو منصرف من مسجد القبلتين فقال لي: يا ابن عمر ألا أحدثك حديثًا (ص373) حدثني به رسول الله ﷺ، عن جبريل - عليه السلام - ، عن ربه - عز وجل - أنه قال: «ما من قوم يكونون في عبرة إلا ستتبعها عبرة وكل نعيم زائل، إلا نعيم أهل الجنة، وكل هم منقطع إلا هم أهل النار، فإذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحها محوًا سريعًا، وأكثر صنائع المعروف فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وما من عمل بعد أداء الفرائض أحب إلى الله - عز وجل - من إدخال السرور على المؤمن». ثم قال: دونكهن يا ابن عمر، قال سالم: فشرح الله بهن (ص374) صدري. وروينا أن الخليفة المأمون قال

في زمن صباه لمؤدبه يحيى بن خالد: يا يحيى اغتنم قضاء حوائج الناس فإن الفلك أدور، والدهر أجور من أن يترك لأحد حالاً أو يبقي لأحدٍ نعمة، وفيما قرأته بخط أحد فضلاء العارفين، أنشد وكيع قال: أنشدني محمد بن الجهم قال: أنشدني الفراء - رحمه الله تعالى -:

اقض الحوائج ما استطعت ... وكن بهم أخيك فارج

فلخير أيام الفتى ... يوم قضى فيه الحوائج

وأنشد أيضًا:

إذا لم يكن للمرء فضل ولم يكن (ص375)

يجلي على إخوانه لم يسود

وكيف يسود القوم من هو مثلهم

بلا مِنَّة منه عليهم ولا يَد

وعلى الجملة فقد كان شيخنا سيدي أحمد - رحمه الله - إمام الدنيا في وقته، ومن أجمع الناس لخصال الكمال، وممن اتفقت الأمة على ولايته، وكان المسلمون كلهم عنده كرجل واحد، وكان لهم كالأب الشفيق على أولاده. وكان - رحمه الله - شديد الرغبة في بذل الصدقات وفك الأسارى، وعتق الرقاب، وبناء ما خرب من المساجد محبًا في الضعفاء والمساكين، مؤثرًا (ص376) لهم بالسؤال عن حالهم والصدقة سرًا عليهم ينسلون إليه من كل حدب فلا يرد أحدًا منهم خائبًا، ويعطيهم حتى كساءه التي تكون عليه وبرنسه الذي يغطيه، وكان على حالة عظيمة من التواضع وكرم الأخلاق يقبل على جلسائه بالأخلاق الحسنة، والمواعظ المستحسنة ويذكرهم بالدار الآخرة.

قــد صاغه الله من مسك ومن ذهب

وصــاغ راحــته مــن عارض هطل

وكان مشايخ الوقت يعظمونه ويقصدون منزله ويتذاكرون فيما بينهم أن مجلسه من كنوز (ص377) الرحمة ومعادن البركة، وكانت الخاصة والعامة تحت طاعته لا بالتزام أمر، ولا لمخالفة شر، وإنما كان أهل زمانه كلهم يحبونه كحبهم لآبائهم وأمهاتهم، ويطلعونه على خفي أسرارهم فيجدون بركة في ذلك، وكثيرًا ما وصل الله بسببه أرحامًا كانت مقطوعة، وأصلح على يده أحوالاً عظيمة لا يأتي صلاحها إلاّ على يد أوليائه، وخاصة أصفيائه.

وكان إذا كتب لأحد من ولاة الأمر أو بعث إليه رسولاً في شيءٍ من حوائج الناس وتعذر قضاء تلك الحاجة ربما تكلم أهل مجلسه في ذلك ولاموا (ص378) المكتوب إليه فيقول لهم الشيخ - رحمه الله - : كان بعض من مضى إذا تكلم في حاجة يقول من قضى لنا حاجة حمدنا الله وشكرناه، وإلا حمدنا الله وعذرناه، قلت: كأنه - رحمه الله - يشير لمسألة الإمام المحدث القاضي العدل الشهير أبي عبد الله سوار بن عبد الله قاضي بغداد سنة اثنين وأربعين ومائتين[1].

حدث القاضي إسماعيل قال: دخل سوار بن عبد الله القاضي على الوزير محمد بن عبد الله بن طاهر فقال: أيها الأمير إني جئتك في حاجة رفعتها إلى الله قبل رفعها إليك، فإن قضيتها حمدنا الله وشكرناك، وإن (ص379) لم تقضها حمدنا الله وعذرناك، قال: فقضى جميع حوائجه، وكان ربما مشى بنفسه في دفع مظلمة أو رفع وظيف، فكان بعض أصحابه يقول له: يا سيدي

(1) الموافق (10 ماي 856 - 29 أبريل 857م).

تتكلف المشي على قدميك فهلا بعثت بكتابك أو برسولك فيبتسم - رحمه الله - ويقول: لعل هذا أنفع لنا ولهم، وكأنه والله أعلم يشير لحديث ابن عباس.

روينا في كتاب «قضاء حوائج الإخوان» عن ميمون بن ضهران، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك قال: «أنفعهم للناس، وأن من أحب الأعمال إلى الله - عز وجل - سرور (ص380) تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تسد عنه جوعًا، وأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف شهرين في المسجد الحرام».

وروينا عن الحسن بن علي أنه كان يطوف بالكعبة فقام إليه رجل، فقال: يا أبا محمد، نريد أن تذهب معي إلى فلان لحاجة لي عنده، فترك الحسن الطواف وذهب معه، فقضيت حاجة الرجل، فلما رجع الحسن قام إليه رجل فقال: يا أبا محمد تركت الطواف، وذهبت في حاجة رجل، فقال له الحسن: وكيف لا أفعل ورسول الله ﷺ يقول: «من ذهب في (ص381) حاجة أخيه المسلم فقضيت كتب الله له حجة وعمرة».

فقد اكتسب حجة وعمرة ورجعت إلى طوافي، وقد كان سيدي أبو الحسن الشاذلي على جلالة قدره يقول لأصحابه: قوموا بنا نشفع في هذا المسكين فيصل أبواب الأمراء ويقف عندها لقضاء حوائج عباد الله.

حدث المعتنون بأخبار هذا الولي السيد الشريف أبي الحسن، أنه إذا أراد المشي للولاة لبعض الشفاعات، وكان الغالب عليه أنه لا يأتيهم بنفسه إلاَّ في مصالح المسلمين العامة، فعند تهيئته للمشي يقول: «اللهم اجعل (ص382) مشيي إليه تواضعًا لوجهك وابتغاء لفضلك ورضوانك، ونصرة لك ولرسولك، وزينيي بزينة الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً

من الله ورضوانًا، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم».

وحدث التاج في كتابه: أن سيدي أبا الحسن أتاه بعض الطلبة يستشفع به لبعض ولاة الأحباس في أن يزاد له في مرتبه شيء، قال: فذهب سيدي أبو الحسن معه لناظر (ص383) الحبس وكلمه في أن يزيد للطالب في مرتبه عشرة دراهم، فقال له الناظر: يا سيدي إن هذا الطالب صاحب مرتبات عديدة له في المكان الفلاني كذا، وفي المكان الفلاني كذا، وصار يعدد له الوظائف التي بيده، فقال له سيدي أبو الحسن: يا هذا لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها، فإن الله تعالى لم يقنع بالجنة جزاء للمؤمن حتى زاده فيها النظر إلى وجهه الكريم.

وكان لباس سيدي أحمد - رحمه الله - قباء من صوف، وهو المسمى في الزمان بالتشامير، وكساء وبرنسًا وعمامة كتان خشنة لا يملك سوى (ص384) ما عليه من ذلك ليكون من السابقين المخفين، ذكر الشيخ أبو طالب قال: حدثت عن بعض العارفين قال: رأيت في النوم كأن القيامة قامت، وكان الناس يأتون زمرة زمرة إلى الجنة على طبقات، قال: فنظرت إلى طبقة أحسن الناس هيئة وأعلاهم مرتقى، وأسرعهم سبقًا، فقلت: هذه أفضلهم أكون فيهم فذهبت لأخطوا إليهم وأدخل معهم في طريقهم، وإذا بملائكة حولهم قد منعوني منهم، وقالوا لي: قف مكانك حتى يجيء أصحابك فتدخل معهم، فإن هؤلاء السابقين لهم طريق لا يسلكه إلا من لم يكن له إلا قميص واحد، ومن كل شيء واحد (ص385) وأنت لك قميصان، ومن كل شيء اثنان، فانتبهت باكيًا حزينًا، وجعلت على نفسي ألا أملك من كل شيء إلاَّ واحدًا، قلت: ولباس الصوف هو من شعار الصالحين وأكابر الصحابة والسلف الصالح من التابعين،

حض عليه النبي ﷺ، ووعد بالمثوبة عليه.

قرأت في كتاب «المجالس المكية» عن أبي بكر الخطيب بن ثابت، عن رجاله، عن إمامه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم، وعليكم بلباس الصوف (ص386) تجدون قلة الأكل، وعليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة، وعليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل، فإنه يورث في القلب التفكر، والتفكر يورث الحكمة، والحكمة تجري في الجوف مجرى الدم، فمن كثر تفكره قل طعمه وكل لسانه، ومن كثر طعمه عظم بدنه وقسا قلبه، والقلب القاسي بعيد من الله - عز وجل - بعيد من الجنة قريب من النار».

*** سفره إلى الشرق:**

وكان طلوع سيدي أحمد - رحمه الله - للبلاد المشرقية بنية أداء فريضة الحج أوائل العشرة الرابعة من هذه المائة[1]، سألته عن ذلك فقال لي: لما طلعنا في ركب الحجاز جزنا بتلمسان فوجدناها محصورة (ص387) من قبل ملك الموحدين[2]، قال لي: وحضرت بتونس مجلس الشيخ الإمام علامة الزمان وأعجوبة وقته في الحفظ والإتقان سيدي أبي القاسم العبدوسي، فسألته عن الولي الشهير الكرامات أحمد بن عروس، فقال لي: لقيته يومًا ببعض أزقة تونس ومعه قفة من عزف مجلدة وهي مملوءة بالأحجار يرفعها على ظهره ويشق بها أزقة تونس ذاهبًا أو راجعًا فإذا غلبته طرحها بالأرض طلبًا للراحة، فإذا أراد أحد من أهل تونس معونته في حملها أبى من ذلك، قال: فلما لقيته وجدته قد طرح القفة عنه (ص388) وجلس بالأرض مستريحًا، فوقفت أنظر

(1) يقصد المائة الثامنة من الهجرة.

(2) يبدو أن خطأ لأن الذي دأب على حصار تلمسان هم ملوك بني مرين.

إليه وأردت أن أسأله في حملها عنه فخشيت أن يمتنع من ذلك جريًا على عادته، قال: ثم إنه صوب النظر إليَّ وعلمت أنه قد كاشفني فيما حدثت به نفسي، فقلت له: يا سيدي أتأذن لي في حمل هذه القفة في ذلك فحملتها عنه مسافة قليلة ثم أخذها وانصرف عني.

قال: ثم توجهنا للحرمين الشريفين في ركب عظيم ومعنا فيه الولي الزاهد العابد سيدي سعيد نزيل وادي زير، قال: وكانت لسيدي سعيد في هذا الركب حسنات كثيرة، ومقامات شهيرة.

*** عودته إلى عنابة ثم عودته إلى الحجاز:**

(ص389) ولما قضينا فريضة الحج قفلنا مع الركب إلى أن وصلنا بونة وهي بلد العناب، فلقيت بعض أصحابنا القادمين من المغرب فسألته عن أهلي وإخواني فذكر لي أن أحد إخواني قد توجه لتونس قاصدًا أداء الفريضة والاجتماع بي، قال: فرجعت من بونة لتونس ومعي هذا الرجل الذي أخبرني عن أخي فمررنا بحانوت شواء يبيع شواء، فقلت في نفسي: لو كان عندي درهم لأخذت به شواء لهذا الرجل الذي معي، قال: فما أتمت الخاطر الذي خطر لي إلا وسيدي أحمد (ص390) بن عروس قد التصق بي وأخرج لي رغائف وشواء ورمى به إليَّ فدفعته للرجل، وتبعته فما وجدت له أثرًا، قال: فبحثت عن أخي في تونس فلم أجد، وقيل: إنه قد سافر مع ركب الحجاز فتتبعته وما زلت أجد خبره في كل بلد إلى أن وصلت الحرم الشريف فاجتمعت به هناك.

وحدثني شيخنا البركة سيدي عبد الله بن منصور، قال: حدثني سيدي أحمد أنه كان معهم في ركب الحجاز امرأة فقيرة لا تعلم شيئًا سوى مقلات لها تجعلها على ظهرها، ثم تلتقط الحطب في أثناء مشيها على رجليها، فإذا نزل الركب أوقدت النار وطبخت في تلك المقلات خبز جيرانها من أهل

الركب ويعطونها كسرة من كل خبزة (ص391) تتقوت بها، قال: وما زالت على هذه الحالة بمقلاتها على ظهرها إلى أن قضت حاجتها وأدت فريضة الحج، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

*** عودته إلى تلمسان:**

ولما قفل سيدي أحمد من وجهته الحجازية نزل تلمسان فكان لها الفضل به على غيرها من البلدان، وأخذ نفسه بطلب الحلال فكان يخرج للجبال والأراضي التي لا ملك لأحد عليها، ويجعل حزمة من الحطب على ظهره ويأتي بها لسوق الحطب ويبيعها هنالك، فكان يحدثنا - رحمه الله - ويقول: هنا رجل أعرفه كان يشترط علي إذا بعته حزمة الحطب أن أوصلها لداره فأفعل ذلك.

وطلب الحلال هو أصل هذه الطريقة وعليه مدارها (ص392) عند علماء الشريعة والحقيقة، به استقامت أحوالهم وصلحت قلوبهم وأفعالهم، وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «أجل ما أكل العبد من كسب يده، وكل بيع مبرور». وروينا عنه ﷺ أنه قال: «العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في طلب الحلال».

وذكر صاحب الهداية قال: روي أن جماعة من أولياء الله الزهاد تذاكروا أي الأعمال أشد، فقال بعضهم: الجهاد؛ لأن فيه إتلاف النفس، والمال، وقال بعضهم: صلاة الليل؛ لأنها لا تصفو إلا لمن وجد حلاوة المناجاة، وقال بعضهم: الصيام (ص393)؛ لأنه من أعمال القلب وأسرار الرب، ثم وقع إجماعهم على أن أفضل الأعمال هو طلب الحلال.

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله - عز وجل - إلى داود - عليه السلام - : «قل لبني إسرائيل: إني لا أنظر إلى صلاتكم ولا إلى صيامكم، ولكني أنظر إلى من طلب الحلال، فإذا شك في شيء تركه من أجلي، ذلك

الذي أؤيده بنصري وأباهي به ملائكتي».

وكان سيدي أحمد في ابتداء أمره ليس له منزل يأوي إليه، ولا مكان يعول عليه، وكان كثير الحضور بمجلس الإمام ختام العلماء الأعلام سيدي محمد بن مرزوق حين تدريسه بمسجده القريب (ص394) من داره، فكان الشيخ سيدي محمد ممن عرف مقام سيدي أحمد في الولاية، وكوشف له ما له عند الله من حفيل العناية فسأل فصح عنه من أين يكتسب؟ فقيل له: من بيع الحطب، فكلمه في أن يكون طعامه من داره فامتنعَ من ذلك، وكان أكثر مبيته إذ ذاك بالجامع الأعظم وفيه كان يقوم الليل.

وحدثني - رحمه الله - غير ما مرة قال: لما دخلت هذه البلد أدركت بها جماعة من أهل الخير يقومون الليلَ بالجامع الأعظم، ويعين منهم الفقيه الإمام فخر الكتاب وزين أهل الآداب سيدي محمد بن يوسف الجزيري، وكان هذا الفاضل الجزيري من (ص395) أعيان العلماء وأفاضل الكبراء تولى خطة الكتابة والعلامة بالحضرة العلية في دول متعددة تزيد على الأربعين سنة فما زاده ذلك إلا تواضعًا، فكان يأتي القصر على قدمه ما علم قط أنه أتاه راكبًا - رحمه الله ورضي عنه - ، وكانت وفاته في عشرة الستين وثمانمائة[1].

وفي قيام الليل أنشد الخطيب بن رشيد في رحلته، قال: وجدت بخط شيخنا عبد الله بن صالح البجائي:

يـا رجـال الليـل جـدوا ... رب صـوت لا يـرد

لا يراعـي الليـل إلا ... مَـن لـه عـزم وجِـد

لـيس شـيء كالصـلاة ... الليـل للقـبر يُعـد

(1) ما بين (1456 - 1466).

(ص396) وفي الحقائق سمعت أبا محمد عبد الواحد المجاصي يقول: رويت بالسند الصحيح أن عابدًا رابط ببعض الثغور مدة فكان كلما طلع الفجر يسمع صوتًا دون أن يرى شخصًا يقول:

لولا رجال لهم ورد يقومونا وآخرون لهم صرد يصومونا

لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا لأنكم قوم سوء لا تبالونا

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - آية من آيات الله في الأخلاق الحسنة والمعاشرة المستحسنة.

وإذا أتاه أحد قلقًا ضجرًا من أمر نزل به يرفق به (ص397) ثم يحضه على الصبر والتخلق بالأخلاق الجميلة، ويقول في كثير من كلامه: «حسن الخلق أنفع من المال»، أو كلام هذا معناه. وكأنه والله أعلم يشير لما روي في بعض الأخبار عن الأصمعي قال: بلغني أن إبراهيم بن أدهم كان يقول: إن الرجل ليدرك بخلقه ما لا يدرك بماله؛ لأن المال عليه فيه حقوق من زكاة وصلة أرحام، والخلق ليس عليه فيه شيء من ذلك.

قلت: كلام إبراهيم بن أدهم أصله في حديث أبي هريرة، روي عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم». وفي رواية: «فسعوهم ببسط (ص398) الوجه وحسن الخلق».

وكان بعض أئمتنا من السلف الصالح يقول: «لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ هذه بأحسن كلام الناس لرجحت على ذلك» قال: لأننا نجد في بعض الرجال أوصافًا حسنة من كرم العهد، وكثرة البذل والمسارعة إلى أفعال الخير لم يطمس ذلك كله سوء خلقه، فمتى ترى لخيره شاكرًا ولا لكثرة معروفه ذاكرًا. قال: وفي الحديث المسند عن أهل البيت ما يدل على ذلك، روينا من طريق جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه علي زين العابدين، عن أبيه

الحسين السبط الشهيد، عن أبيه علي أمير المؤمنين، أن رسول الله ﷺ (ص 399) قال: «إن الخلق السيئ يُفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

قال بعض أهل العلم: معنى فساد العمل هنا هو إحباط الأجر؛ لأن الرجل إذا فعل الخير، ثم قرنه بسوء الخلق فكأنه أفسد عمله وأحبط أجره، كالمتصدق إذا أتبع صدقته بالمن والأذى، وكالصائم إذا ساءت خلقه مع أهله، وكالمجاهد إذا لم يحسن صحبة رفقائه وأساء إليهم، فإن إساءة خلق هؤلاء تحبط أعمالهم، نسأل الله أن يحسن أخلاقنا، وأن يتقبل أعمالنا، فإن تحسين الخلق مما لا يستطيع العبد تكسبه إلا بفضل الله ورحمته.

وفي حديث عائشة (ص400) - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الأخلاق منايح من الله - عز وجل - ، فإذا أحب عبدًا منحه خلقًا حسنًا، وإذا أبغض عبدًا منحه خلقًا سيئًا». وعنه ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يُحب ومن لا يُحب، ولا يعطي الدين إلاّ من يحب».

وقد حصر النبي ﷺ الشؤم في الأخلاق السيئة، روينا من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «الشؤم سوء الخلق»، وأنشد بعضهم: (ص401)

وما هذه الأخلاق إلا طبائع ... فمنهن محمود ومنها مذمم
فلن يستطيع الدهر تغيير خلقه ... لئيم ولن يستطيعه متكرم

وقرأت في رحلة التجيبي قال: روينا عن سفيان الثوري أنه قال: حدثني مالك بن أنس، وأطعمني وسقاني، قال: حدثني نافع وأطعمني وسقاني، قال: حدثني عبد الله بن عمرو وأطعمني وسقاني، قال: كنتُ عند النبي ﷺ في دار عائشة - رضي الله عنها - ، فأتاه رجل من الأنصار بتميرات أكلتها معه فأقبل

علينا النبي ﷺ (ص402)، فقال: «يا عبد الله عليك بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، واترك الكذب فإنه يهدي إلى الفجور، وعليك بحسن الخلق، فإن حسن الخلق من أخلاق أهل الجنة، أو إن سوء الخلق من أخلاق أهل النار».

ومن حديث أهل البيت عليهم من الله أفضل الصلاة وأكمل التسليم. أسند أبو أحمد العسكري في كتابه «الأمثال المروية عن رسول الله ﷺ»، عن جعفر الصادق، عن أبيه، عن جده علي - رضي الله عنهم -، أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من لسن فيه فليس (403) مني ولا من الله - عز وجل -، حلم يرد به جهل جاهل، وحسن خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معاصي الله - عز وجل -».

وفي كتاب «شرح الأسماء» قال: روي عن بعض الملوك أنه تفاوض مع أهل مجلسه في أشر الأمور ما هو؟ فقال بعضهم: المرأة السوء.

وقال آخر: الجار السوء. وقال آخر: الخلق السوء. ثم أرجع رأيهم أن يذهبوا لخارج البلد فأول رجل لقيهم تحاكموا إليه فانصرفوا لذلك فاستقبلهم رجل فخار معه حمار عليه جرار يبيعها بالبلد، فاختبروه عن رجاحة عقله، وقالوا له: لم لا تسلم علينا؟ فقال لهم: (ص404) من السنة أن يسلم الراكب على الجالس، فاعترفوا بفضله، ثم قال أحدهم: إنَّا قد اختلفنا في أمر، وأردنا أن نتحاكم إليك فيه، فقال لهم: انزلوا عن دوابكم واحفظوا حماري لئلا يشتغل قلبي معه فذكروا له المسألة فقال لهم: شر الثلاثة الخلق السوء؛ لأن المرأة السيئة يُمكن أن يتخلص منها بالطلاق، والجار السيئ كذلك يُرجى منه الخلاص بالغيبة عنه، وأما الخلق السوء، فلا يمكن الاحتراز منه؛ لأنه يكون مع صاحبه أين ما كان. قال: فاستحسن الملك قوله، وأمضى حكمه، ثم قال له: سل حاجتك، فقال له: إني أسألك حاجة إن قضيتها نفعتني ولم تضرك،

فقال: وما (ص405) هي؟ فقال: إن زمن النيروز والمهرجان قريب منا، والناس يبعثون فيه هداياهم إليك ويتقربون منك بالتحف، فلو ناديت في البلد أني لا أقبلُ من أحد هدية إلا مع جرة من عمل فلان لبيع ذلك كثمن لحكمي، قال: فأجابه الملك لبغيته، وأمر أن ينادي في البلد بما قال، وتسامع الناس بالنداء، وأقبلوا عليه يشترون منه الجرر فكان يبيع كل جرة بدينار، وكان للملك وزير من أبناء فارس سيئ الخلق فبحث على أجرة يوجهها مع هديته للسلطان، فقيل له: إن هذا الرجل لا يبيع الجرة إلا بدينار، فقال: ادفعوا له درهمين، فقال له: لا أفعل، ثم أعاد عليه الرسول في اليوم الثاني (ص406) وأمره بدفع الدينارفي الجرة، فقال له: لا أبيعها إلاّ بمائة دينار، فاغتاظَ الوزير لذلك، فلما كان اليوم الثالث وحان وقت تعيين الهدية بعث إليه بالمائة دينار في الجرة فامتنعَ من قبضها، وقال: لا أبيعها إلا بألف دينار، فزاد غيظ الوزير وامتنعَ من شراء الجرة بألف، ولما كان الغد وهو يوم المهرجان وفيه تبعث الهدايا تشوق الناس لهدية الوزير؛ لأن العادة جرت أن هديته تسبق سائر الهدايا، والناس تبع له في ذلك، فأخذ ألف دينار وبعث بها إلى الرجل الفخار في الجرة فامتنع من بيعها له، وقال: لا أعطيك الجرة إلا بشرط أن تحملني على ظهرك والجرة بيدي (ص407)، وتذهب بي إلى مجلس الخليفة، فإن فعلت ذلك قبلت منك هديتك، وإلا ردت عليك ووقعت في مخالفة أمر الخليفة فأجابه الوزير لذلك وحمله على كتفه لبساط الخليفة، ولما رآه الخليفة أنكر حالته تلك فلما أخبره الفخار بالمسألة قال له: أحسنت في عقوبته وعزل الوزير وولى الرجل مكانه وتحدث الناس بخبرهما مدة طويلة.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - ملازمًا لتجويد القرآن يزدحم عليه القراء لعظم بركته وإتقان معرفته بطريقتي الرسم الأداء، مرشدًا للطريق الخير

ينبه في مجالسه على التمسك بسنة النبي ﷺ عملاً بحديث (ص408) أبي هريرة، أخرج أبو الطاهر السلفي في الأربعين حديثًا التي أخرجها عن أربعين شيخًا بأربعين مدينة مسندًا من حديثه، أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا هريرة علم الناس القرآن وتعلمه، فإنك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما يزار البيت العتيق، وعلم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت ألا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين الله حدثًا برأيك». قلت: فقد جمع الله ذلك كله في شيخنا سيدي أحمد - رحمه الله -، فكان يقرئ كتابه العزيز، ويعلم سنة رسوله ﷺ، ويأمر بالمعروف (ص409)، وينهى عن المنكر، ويذكر بأخبار السلف الصالح، أحب الناس أم كرهوا، وعصمه الله من حدث الرأي الصادر عن الهوى، فكان لا يتناول شيئًا من هذه الفاتية، ويتبع السلف الصالح في أقواله وأفعاله وأخلاقه.

ورحم الله زاهد الأندلس أبا الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي حيث قال:

فما أحدث الناس أمورًا فلا ... تعول بها إني امرؤ ناصح

فما جماع الخير إلا الذي ... كان عليه السلف الصالح

وكان يعمر أكثر أوقاته في المقابر وخصوصًا (ص410) روضة سيدي أبي سعيد خارج باب القرمديين، فإنه كان كثير الملازمة لها منفردًا لعبادة ربه مفكرًا في أمر آخرته، وفي حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بزيارة القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتُذكر بالآخرة».

وأجمع المتصوفة وأرباب القلوب أنه ليس شيء أنفع لقلب ابن آدم من زيارته للقبور وذكر هادم اللذات المفرق للجماعات، فإن الزائر للمقابر إذا دخلها بنية التفكر والاعتبار والتذكر لأحوال من مات قبله من الملوك والأخيار

الذين سبقوه لجمع الأموال وتنافسوا في بلوغ الآمال (ص411) كيف انقطعت بهم آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم قادته نيته وتفكره إلى الزهد في دنياه والإقبال على طاعة مولاه؛ ولأن قلبه قنع وذهب عنه الحرص والطمع ورحم الله القائل:

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً   فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها   هل راح منها بغير القطن والكفن

أسند الخطيب أبو بكر بن ثابت في بعض كتبه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «ذهبت لزيارة قبر أمي (ص412) آمنة، فسألت الله أن يحييها فأحياها، فآمنت بي ثم ردها الله - عز وجل - إلى قبرها».

قال الإمام أبو حفص عمر بن شاهين: وهذا الحديث ناسخ لغيره من الأحاديث الدالة على عدم إيمان والديه ﷺ، فإنها أخبار متقدمة وهذا الخبر كان في حجة الوداع على ما روت عائشة - رضي الله عنها - ، فهذا الحديث مما يجب الإيمان به في صحة إيمان والديه ﷺ.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - قليل الكلام جدًا لا يتكلم مع جلسائه إلا بما ينفعهم من طريق الآخرة، أو يرشدهم للعمل الصالح حتى ولو قال: أن صاحب الشمال ما (ص413) كان يكتب عليه شيئًا ما أبعد، وما أراه إلاَّ أحد أولياء الله الذين كانوا يحاسبون أنفسهم، فقد روينا عن الحسن البصري أنه كان يقول: «إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله - عز وجل - ».

وروينا من طريق ابن المبارك، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، فإنه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

[الحاقة: 18]». وعن وهب بن منبه قال في حكم آل داود: «حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يُحاسب فيها نفسه (ص414)، وساعة يجتمع فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوب نفسه، ويذكرونه بالدار الآخرة، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمل، وحق على العاقل أن يعرف أهل زمانه ويملك فضول لسانه، ويقبل على شأنه».

وكان سيدي أحمد يحض كثيرًا على الصمت، والكف عن لغو الحديث وكثرة الكلام، ويقول: لا أضر على هذا الخلق في دينهم ودنياهم من فضول الكلام، وهذا الذي كان الشيخ - رحمه الله - يوصي به هو من فرائض الدين ومعتقدات أهل السنة وأعمال السلف الصالح.

فإن الرجل إذا كان مجتهدًا في عبادته راضيًا بفقره (ص415) قانعًا بعطاء ربه، فإن صلاته وصيامه وعمله كله لا ينتفع بشيء منه، وإن اجتهد في إتقانه وأحكامه إذا كان لا يحفظ قلبه ولسانه؛ لأن في القلب خصلتين عظيمتين يجتمع فيهما الشر كله وهو الغل والحسد، كما أن في اللسان خصلتين عظيمتين من الشر يجتمع فيهما خصال الشر كله وهما: الغيبة والكذب.

تحفظ من لسانك ليس شيء ... أحق بطول السجن من لسان

وكن للصمت ملتزمًا إذا ما ... أردت سلامة في ذا الزمان

وقد روينا عن جماعة من الصحابة والتابعين (ص416) كأبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعطاء أن الغيبة تنقض الوضوء وتفطر الصائم، قال مجاهد: وتُحبط العمل.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «نظرت في النار ليلة أسري بي، فإذا قومٌ يأكلون الجيف، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلونَ لحوم الناس».

وعن أبي هريرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، إن أحببت أن يفشي الله لك الثناء الحسن في الناس، فكف لسانك عن غيبة المسلمين».

وسأل رجلٌ النبي ﷺ عن الغيبة فقال: «أنك تذكر (ص417) من المرء ما يكره أن يسمع».

قال: يا رسول الله، وإن كان حقًّا؟ فقال له ﷺ: «إذا قلت باطلاً فذلك البهتان». فسمى رسول الله ﷺ الكذب بهتانًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: 58].

وحدث الخطيب في تاريخه عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قلَّ ماله وكثر عياله، وحسنت صلاته، ولم يغتب المسلمين جاء يوم القيامة وهو معي كهاتين».

وعن ابن عباس أنه قال: «اذكر أخاك إذا توارى عنك بمثل الذي تحب أن يذكرك به إذا (ص418) تواريت عنه».

وعن وهب بن منبه قال: قال رجلٌ في بني إسرائيل: اللهم ليس لي مال فأتصدق به، فأيما مسلم أخذ من عرضي فهو عليه صدقة، فأوحى الله – عز وجل – إلى نبي زمانه أنه قد غفر له.

وعن الفضيل بن عياض قال: ثلاث يهز من العمل ويفطرن الصائم، وينقضن الوضوء: الغيبة، والنميمة، والكذب.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «شراركم أيها الناس المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة».

قال صاحب الهداية: والفرق بين الغيبة والنميمة: أن الغيبة هي أن تقول في المغتاب ما فيه على سبيل التنقص له (ص419)، والحامل عليها الكبر

والاستهزاء بعباد الله، والنظر إليهم بعين الاستخفاف، قال: والنميمة هي السعاية بأخيك إلى من يقدر عمل الأضرار به، وربما أدى ضررها إلى القتل، أنك إذا سعيت بأخيك؛ أي نقلت عنه حديثًا حقًّا أو باطلاً في سر فقد قصدت إذايته وإفساد ذات بينه، وكل حديث منقول في خفاء على جهة الإفساد فهو نميمة وهي أعظم بلاء من الغيبة، ورحم الله محمود الوراق حيث قال:

تجنب من الطرق أوساطها وعد عن الموضع المشتبه

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند استماع الخنا شريك لقائله فانتبه

(ص420) وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن كفَّ عن أعراض المسلمين لسانه أقال الله عثرته يوم القيامة».

وعنه ﷺ: «مَن ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة فيه».

قال أئمتنا: أراد ﷺ أن من صرح عن نفسه ثوب الحياء ولم يستح من الله - عز وجل - ولا من الناس في إظهار مساويه، والقبائح التي يرتكبها من معاصيه، فلا غيبة فيه لأنها لا تؤذيه ولا تؤلمه، وإنما حرمت الغيبة من أجل الإذاية اللاحقة للمرء الذي يكره أن يطلع الناس على عيوبه الخفية (ص421) وأسراره الباطنية، فمن أظهر مساويه وأعلن بالعيب الكائن فيه فلا حرمة ولا ذنب على من اغتابه على وجه التعريف به والتحذير منه، وقيل لمجاهد: الرجل يكون وقاعًا في الناس فأقع عليه، ألهُ علينا تباعة في اغتيابه؟ قال: لا. قلت: فمن ذا الذي تحرم غيبته؟ قال: رجلٌ خفيف الظهر من دماء المسلمين، خفيف البطن من أموالهم، أخرس اللسان عن أعراضهم فهذا هو الذي تحرم غيبته، ومن كان سوى ذلك فلا حرمة له ولا غيبة فيه.

وحدثوا عن سفيان الثوري أنه مر بجماعة قد وقعوا في شخص فقال لهم:

لو كان معهم من (ص422) يرفع حديثكم للسلطان أكنتم تتكلمون بشيء، قالوا: لا.

قال: فإن معكم من يرفع حديثكم هذا إلى سلطان السماوات والأرض، أراد سفيان - والله أعلم - قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 16 - 18].

فقد أخبر الله تعالى أنه قد وكل بكل إنسان ملكين يحفظان عليه كل شيء ينطق به، ويرفعانه إلى سلطان الدنيا والآخرة، والله - عز وجل - الذي لا يحول بينه وبين مطلوبه شيء (ص423)، ولا يفوته شيء ولا يعجزه شيء، وأما سلطان الدنيا فقد يريد أمرًا ثم لا يكون ولا يقدر عليه، وقد يكون ما لا يريد أن يكون، والله - تبارك وتعالى - لا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يفوته شيء مما يريد، سبحانه لا إله إلا هو الملك وإليه ترجعون. والحفظان اللذان أشار إليهما في الآية، حدث عن عبد الله بن المبارك عن ابن جريج قال: الملكان أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن يساره يكتب السيئات، وصاحب الحسنات يكتب بغير شهادة من صاحبه وصاحب السيئات لا يكتب إلا بشهادة من صاحبه أن فعل المكلف.

فأحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وأن من مشى فأحدهما أمامه والآخر (ص424) خلفه. وأن قدر فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، وفي جامع العتيبة عن عيسى بن دينار، عن أبي وهب أن رجلاً كان يسوق حمارًا، فعثر فقال له: تعست، فقال صاحب اليمين: ما هي الحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بالسيئة فأكتبها، فنودي صاحب الشمال أن اكتب كل ما ترك صاحب اليمين. قال ابن رشد: يظهر من هذا أن صاحب اليمين هو

القاضي على صاحب الشمال فيما يقول أنه سيئة، ولأجله نودي أن يكتب ما تركه صاحب اليمين؛ لأنه لا يكتب إلا الحسنات والدعاء على الحمار بالتعس وهو السقوط سيئة، والله أعلم.

ورأيت في (ص425) كتاب الهداية، عن ابن المبارك، أن ابن آدم وكل الله به خمسة أملاك، ملكان بالنهار وملكان بالليل يجيئان ويذهبان، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهارًا.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - على غاية عظيمة ورتبة كريمة من رفع الهم عن أبناء الدنيا معرضًا عن الالتفات إليهم سالكًا سبيل أهل الإرادة متأدبًا بآداب أهل الحقائق في صدق الثقة بمولاهم وصيانة النفس عن تدنيس شعار أهل الإيمان بالميل إلى الأكوان، والنظر لغير الملك الحق المنان الذي لا إله إلا هو، وفي مسند حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة (ص426)، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها».

وكان قد تخلق بأخلاق السلف الصالح في عبادته للملك الحق، ومعاملته بالمعروف لكافة الخلق، قد بذل نفسه وأذلها في مرضاة ربه وعلم وسع - رحمه الله - لعباده فعامل بالرحمة جميع الخلق ممتثلاً في ذلك قول رسول الله ﷺ على ما حدثنا به شيخنا الإمام سيدي محمد بن العباس فيما قرأته عليه وأجازنيه، قال: حدثنا شيخنا الإمام سيدي محمد بن مرزوق، وقال: حدثني شيخنا أبو الفضل العراقي بحديث الرحمة المسلسل بالأولوية بسنده المتصل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص (ص427)، أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن - تبارك وتعالى - ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وأنشد أبو عبد الله بن عباس قال: أنشدني أبو عبد الله بن مرزوق، قال: أنشدني أبو الفضل العراقي لنفسه:

إن كنت لا ترحم المسكين أن عدما ... ولا الفقير إذا يشكو لك العدما

فكيف ترجو من الرحمن رحمته ... وإنما يرحم الرحمن من رحما

وقد سبقه إلى هذا محدث الشام أبو القاسم بن عساكر أنشده له ابن يعيش في فهرسته قوله: (ص428)

بادر إلى الخير يا ذا اللبِ مغتنمًا ... ولا تكن من قليل العرف محتشما

واشكر لمولاك ما أولاك من نعم ... فالشكر يستجلب الإفضال والنعما

وارحم بقلبك خلق الله وارعهم ... فإنما يرحم الرحمن من رحما

وكان سيدي أحمد كثير الشفقة على المسلمين يتودد إليهم، ويتحمل أثقالهم ويصرف وجوههم لطاعة الله عملاً بالحديث الذي رواه أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس»، (ص429) قال علماؤنا: معنى التودد إلى الناس هو الإتيان بالأفعال الحميدة والأقوال السديدة التي يودك الناس عليها ويحبونك من أجلها كما قال - عليه الصلاة والسلام - لأبي هريرة: «يا أبا هريرة، ازهد فيما في أيدي الناس يحببك الناس».

فشيخنا سيدي أحمد - رحمه الله - قد زهد فيما في أيدي الناس، وبذل لهم ما عنده وتحمل أثقالهم، ولم يكلفهم أثقال نفسه وتحبب إليهم بإغاثة ملهوفهم وقضاء حوائجهم ودفع المكاره عنهم.

ولما تخلق بهذه الأوصاف الجميلة وكانت أفعاله لوجه الله تعالى أودع الله حبه قلوب عباده المؤمنين، وأوضع له القبول التام (ص430) بحبه تعالى

له، قال الله - عز وجل - : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: 96]. جاء في التفسير: في قلوب أوليائه وخاصة عباده.

وأسند أبو عبد الله بن رشيد في رحلته عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمة إلاَّ كثرت مؤونة الناس عليه، فإن لم يتحمل مؤونتهم فقد عرض تلك النعمة لزوالها»، وأنشد لأبي العباس المبرد:

إذا شئت أن تبقي من الله نعمة عليك فسارع في حوائج خلقه

ولا تعصين الله ما نلت ثروة فيحضر عنك الله واسع رزقه

(ص431) وقرأتُ فيما حدثني به شيخنا أبو عبد الله بن العباس، عن شيخه الإمام أبي عبد الله بن مرزوق، عن شيوخه عن قاضي الجماعة أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، فيما كتب به لأحد أولاده قال: لتعلم يا ولدي أن الناس كلهم بنو رجل واحد، وامرأة واحدة، أنت واحد منهم فلتحب لهم من الخير، وإن اختلفت مذاهبهم، ومللهم، مثل ما ينبغي أن تحب لإخوتك أشقائك، فمن اعتقدت فيه منهم أنه على هدى فرحت له بذلك وأبهجك حاله وغبطته فيه، ومن اعتقدت فيهم أنه على ضلالة رحمته ودعوت الله له ونصحته إن أمكنك نصحه، ومن اطلعت له على (ص432) سيئة سترتها عليه ولا تتعرض لأحدٍ منهم بمكروه إلا حيث أوجب عليك الشرع ذلك، ولا تتكبر على كبير منهم، ولا صغير لزيادة زدتها عليه في دين أو علم أو جاه أو مال؛ لأن تلك الزيادة لا تخلو من أن تكون نعمة أنعم الله بها عليك أو بلية ابتلاك بها، فإن كانت نعمة فالنعم يجب شكر الله عليها، والتكبر ليس من شكر الله في شيء، وإن كانت بلية فما للمبتلى والتكبر، فبان إذن أن الكبرياء لا ينبغي إلا لله

وحده، ولذلك ورد في الحديث عنه تعالى أنه قال: «فمن نازعني واحدًا منهما قصمته». يعني: العظمة والكبرياء، وأزيدك يا ولدي: أن المتكبر لا يجد بتكبره إلا بغض الناس ومقتهم لا غير، فلتتودد يا ولدي (ص433) إليه بكل ما يمكنك التودد به مما ليس بمحظور ولا مكروه في الشرع فإنك تستجلب بذلك محبتهم ولا تجني بذلك سرًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «التودد نصف العقل»، ولا تستعمل يا ولدي عدوًا واحدًا ولا تستكثر ألف صديق، ولا تمازح أشرارهم وكن من خيارهم على حذر.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - يُحب الفقراء وينبسط لهم ويؤنسهم ويسأل عن حالهم، ويقول لهم: إذا صبرتم فأبشروا فإنكم بعين الله، وكانه يشير في ذلك للأثر المروي عن عبد الله بن مسعود، فقد روينا عنه أنه قال: «الأيادي عند الفقراء قبل أن تأتي دولتهم فإنه إذا كان يوم القيامة قيل: (ص434) أين الفقراء الراضون بالفقر في الدنيا فيعتذر الله - عز وجل - إليهم فيقول: عبادي لم أزو الدنيا عنكم لهوانكم عليَّ، فانظروا في الصفوف فمن أطعمكم في يوم أو كساكم في يوم، أو أعطاكم درهمًا فخذوا بيده واشفعوا له أشفعكم فيه، وكان يحض الناس كثيرًا على عمل الفلاحة من زراعة وغراسة، ويقول: أهل المغرب أقوى وأحرص على عمل الفلاحة من أهل تلمسان، فإذا اعتذر له الحاضرون يقول لهم: لو علمتم ما في ذلك من الفضل والثواب ما وسعكم هذا العذر.

وإشارته في ذلك للأثر المروي عن عبد الله بن مسعود (ص435) - رحمه الله - لتلك الأحاديث الواردة بفضل الغراسة والزراعة منها:

حديث أنس روينا عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زرع زرعًا أو غرس غرسًا، فأكل منه إنسان أو بهيمة فهو له صدقة».

وروينا في كتاب التوكل، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، أنه

قال لقوم: «إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله، قالوا: ولأن الغالب على صاحب هذا العمل انه يبعد عن خلطة الناس التي هي محل كل آفة من غيبة وحسد، ونميمة، وغير ذلك من المفاسد التي يبعد وجودها في أهل الفلاحة المنفردين (ص436) بأعمالهم، وفي أمثالهم ورد حديث الزبير بن العوام، عن النبي ﷺ أنه قال: «من استطاعَ منكم أن يكون له جزء من عمل صالح فليفعل».

وقرأتُ في كتاب الرشاطي حديثًا أسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من غرس غرسًا يوم الأربعاء، فقال: سبحان الله الباعث الوارث، أطعمه الله من ثمره».

ومن جميل أخلاق سيدي أحمد ومحاسن آثاره أنه كان إذا أتاه أحد من التجار وسأله الاستخارة في سفر معين أو تكسب بقراض ونحوه سأله عن فائدة ذلك وكيف حال والوقت فيه وأنسه وأوصاه بحسن المعاملة، (ص437) ولا يحمل الناس على الجلوس وترك التكسب والأخذ في طريق الزهد بل كان ينبه على فضل التكسب ويحض على عمل الفلاحة، ويقول: كان كثير من السلف الصالح يحترفون بالتجارة ويتعلقونَ بالأسباب المعينة لهم على التفرغ لعبادة الله، وهذا الذي أشار إليه الشيخ - رحمه الله - في الحديث عن النبي ﷺ: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه ويستغني به عن الناس».

وروينا عن سعيد بن المسيب، وكان سيد أهل زمانه وفاضل أقرانه أنه قال: «لا خير فيمن لا يجمع المال فيقضي به دينه، ويصل به رحمه، (ص438)، ويكف به وجهه عن الناس، فقيل له: ويترك دنانير، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجمع هذا المال إلا لأصون به حسبي وديني».

وروينا عن أبي الزناد عن عبد الله بن ذكوان، وكان أفضل أهل المدينة بعد

سعيد بن المسيب، أنه قيل له: يا أبا الزناد، أتحب الدراهم وهي تدينك من الدنيا، فقال: هي وإن أدنتني من الدنيا فقد صانتني عنها، وعن الزاهد العابد حذيفة المرعشي قال: سمعتُ إمامنا ومعلمنا سفيان بن سعيد الثوري يقول: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها، أحب إليَّ من أن أحتاج إلى الناس، حدثوا عنه أنه مات وله بضاعة يتجر بها مائة وخمسون دينارًا قالوا: (ص439) وكان سفيان يقول: المال في هذا الزمان سلاح المؤمنين، وعز المؤمن.

وروينا عن سفيان بن عيينة أنه كان يقول: من كان له مال فليصلحه، وأبكم من زمان من احتاج فيه إلى الناس كأنما يبيع دينه، وحدث سفيان الثوري عن الأعمش، عن يزيد الرقاشي، عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «أعظم المؤمنين أجرًا الذي يهتم بأمر دنياه وآخرته».

وعن الزاهد الفاضل الربيع بن ختيم قال: «ما أعلم أحدًا أشد حربًا في الدنيا من المؤمن شارك أهل الدنيا في أهل المعاش، وتفرد عنهم بآخرته».

ولشيخنا سيدي أحمد من باهر الكرامات وظاهر العلامات الخارقة لحجاب العادات ما لا يقوم (ص440) به ديوان ولا يجمعه إنسان، ولنذكر طرفًا من ذلك لتستدل به على ما هنالك، ولما شرعت في تنفيذ هذا المجموع سألتُ شيخنا البركة سيدي عبد الله بن منصور أن يقيد لي شيئًا من أخبار سيدي أحمد، وكريم أحواله؛ لأنه كان كثير الملازمة له، وكان سيدي أحمد ينبسط معه في الحديث ويدنيه ويُجالسه في خلواته كثيرًا، ويسطفيه فامتنع سيدي عبد الله من ذلك وقال لي: لا أرى نفسي أهلاً لأن ينقل عني، وهذا من عادة أهل الفضل جزاه الله عن نفسه خيرًا.

ثم حدثني سيدي عبد الله قال: حدثني سيدي أحمد قال: كنتُ مرة (ص

441) ببعض سواحل المغرب جالسًا، وإذا برجلين من المصادمة جلسا إليَّ مقدمهما من المشرق، ومع أحدهما مزيود من عقيق، ومع الآخر شكيرة لا أدري ما فيها، فبينما نحن جلوس وإذا بجماعة من القطاع ظهروا هنالك فناولني صاحب الشكيرة شكيرته، جعلتها معي، وبقي الآخر بمزوده، وانصرفنا فتلاحق بنا القطاع وأخذوا لصاحب المزود مزوده، وسلبوا ثياب الرجلين، وما تعرض لي أحد منهم، ولا سألني عن شيء، قال: ثم إن صاحب المزود قال: بقلب مخاطبًا للفارس الذي أخذ منه المزود: اللهم لا تبقي لي فيه حقًا، قال: فعدا بفرسه في الوقت فوقع عنه، وتشبث رجله بالركاب، والفرس تعدو به والأحجار (ص442) تضرب رأسه إلى أن خرجت روحه في الوقت، وحقق الله إجابة دعوة ذلك الرجل ونحن ننظر إليه.

وحدثني شيخنا سيدي محمد السنوسي فيما كتب به إليَّ قال: حدثني جماعة من الصالحين أن سيدي أحمد كان يتردد في ابتداء أمره لبلد ندرومة وسواحلها كثيرًا، فإذا كان يوم الخميس وهو يوم اجتماع القبائل لسوق ندرومة بخارجها أخذ إبريقًا له وجعل يدور به على أهل السوق يسقيهم الماء منه، وذلك في زمن الحر ولا يزال كذلك يتعرض لهم بإبريقه من أول السوق إلى آخره، وهم في الكثرة بحيث لا يحصيهم إلا خالقهم، من غير أن يجدد ماء غير الذي فيه، قال: ولما كثر ذلك منه في أسواق عديدة انتبه لذلك (ص443) أهل السوق، فاختبر بعضهم الإبريق حين يتناوله للشرب منه فرأوا الماء ينبع في قعر الإبريق كالعين فتحدثوا بذلك وشاع خبره إلى أن وصل للولي الصالح البركة سيدي الحسن الصدراتي فتشوف لذلك وأراد الوقوف على هذه الكرامة على ما لصاحبها عند الله من عظيم العناية، فأتى سوق ندرومة وجلس بين الناس مختفيًا، فلما مر به سيدي أحمد وهو يدور على الناس بإبريقه يسقيهم

الماء على عادته أخذ الإبريق من يده وجعل يضرب منه، وينظر لقعهر فرأى عينًا من الماء تنبع هنالك، فتيقن لوقته ولاية سيدي أحمد، وأنه من رجال الكمال ذوي المقامات والأحوال. قال شيخنا أبو عبد الله: حدثني بهذه القصة (ص444) من التقى به من الفقهاء والصالحين، وقال: سمعتها بأذني من سيدي الحسن الصدراوي.

ومما شهدت من كرامات سيدي أحمد أنني كنت عنده ذات الظهر في أوائل شهر ربيع الثاني من سنة ست وستين وثمانمائة[1]، وإذا بشخص قد أخذ بحلقة باب دويرته وهزها واستغاث به ففتحت الباب ووجدت الحرس قد حملوه فسألته عن الرجل، فقيل لي: إنه من بني ورنيد طولب بما عليه من الغرامة، فهرب من أنياب الظلمة، وجاء لحرم الشيخ ليستجير به على ما جرت عادة المظلومين، ومن تعدى عليه أو اكتسب خطيئة من أهل الجرائم والجناة اللائذين بحرمه، فبعث إليه ولد قائد الجبل إذ ذاك الناصر بن ربيب الخلافة المعتصمية (ص445) من أخرجه من حرم الشيخ كرهًا واستعظم الناس ذلك فدخلت إليه وعرفته القضية، فقال لي: هذا حرم الله ولابد لهم أن يحتاجوا إليه، وتعلق خاطره بالرجل فجاء في الوقت من رد عليه أنه لا بأس عليه، وأنه تمشي حاله بخير فسُرَّ بذلك، وما زال يكرر كلامه ويقول هذا الحرم حرم الله، فمن ضيعه لابد له من الالتجاء إليه. فما تم الشهر حتى نزل البلد الخليفة بحق محيي رسم المملكة بعد عفائه أمير المؤمنين مولانا المتوكل على الله أبو عبد الله محمد، وكان نزوله يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر، فحاصرها بقية يومه ويوم الأحد، وفي يوم الاثنين الموفى ثلاثين كان دخوله البلد

(1) الموافق شهر جانفي (1426م).

واستولى على ملكها من (ص446) غير مضرة أحد، ولما دخلَ مولانا - رحمه الله - البلد واستقر ملكه عليها هرب الربيب وأولاده، وجميع عمال الخليفة المخلوع وأكابر دولته لدويرة الشيخ سيدي أحمد وأراهم الله قدرته في الالتجاء إليه والاستجارة بحرمه، فما كان عند أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين حين دخوله البلد أهم من زيارة الشيخ سيدي أحمد والابتداء بالسلام عليه، فلما وصل إليه وجلس عنده هنأ سيدي أحمد بالخليفة ودعا له بخير، ثم قال سيدي أحمد: إن الله قد أحسن إليك فأحسن لعبيده، واعف عن هؤلاء الولاة فعفا عن أجمعهم مولانا المتوكل - رحمه الله -، وتحققنا حينئذٍ كرامته عند الله في قوله هذا الحرم (ص447) حرم الله فمن ضيعه لابد من الالتجاء إليه.

وحدثني سيدي عبد الله بن منصور قال: لما مَنَّ الله عليَّ بمعرفة سيدي أحمد بن الحسين نازعتني نفسي مرة أن أذهب إلى موضع خال بعيد من العمران، وأقيم فيه أيامًا، ثم تردد عندي الحال في القوت هل أحمل معي الكفاية من الخبز، فنمت فرأيت إنسانًا ناولني رقعة مكتوبة وفي آخرها: اقتد بأبي الحسن الشاذلي، فأتيتُ الشيخ سيدي أحمد، وقلت له: رأيت إنسانًا أعطاني رقعة مكتوبة وفي آخرها: اقتد بأبي الحسن الشاذلي، ولم أذكر له ما كان تقدم هذه الرؤية فتبسم - رحمه الله - وقال لي: كان سيدي أبو الحسن إذا ارتحلَ لبعض المواضع سافر إليه على قدم التوكل (ص448)، والتجريد لا يحمل معه زادًا، قال: فقلتُ له: يا سيدي، ومن أين يأكل؟ قال: كان إذا احتاج إلى القوت وجده في وقت الحاجة إليه.

وحدثني سيدي محمد السنوسي ومن خطه نقلت قال: ذكر لي بعض من التقى به أنه كان بتلمسان غلاء شديد ومجاعة كبيرة، تعطلت الصلاة بسبب

ذلك في كثير من المساجد، وربطت أبوابها بالحزم، قال: فدخلتُ جامع الحلفاويين فوجدت فيه سيدي أحمد بن الحسن، فقال لي أخي: إذا خرجت فأغلق عليّ تلك الباب فإني أريد أن أنام هنا شيئًا، قال: فخرجت وغلقت عليه الباب كما أراد، قال: ثم إن الناس أهملوا تلك المساجد لاشتغالهم بأمر المجاعة التي غلبت عليهم، قال (ص449) صاحب الحكاية: فلمَّا كان بعد مدة طويلة، وقد فرج الله على الناس مما كانوا عليه من الجوع، مررت بجامع الحلفاويين فانتبهت إليه فوجدته مغلوقًا كما تركته، ففتحته ودخلت فوجدت الشيخ سيدي أحمد نائمًا على ما كنت تركته فيه، فاستفاقَ عند دخولي عليه وظن أنه قد نام ساعة واحدة، فقام وخرج قال: فتذكرت الزمان الذي كنت فيه، وأمرني بغلق الباب عليه، فعلمت أنه ما زال في نومته تلك إلى أن أيقظته، وأن الله تعالى غيبه عن فتنة الجوع لطفًا وكرامة كما فعل سبحانه بأهل الكهف، قال شيخنا أبو عبد الله: وهذا من الخوارق العظام.

قال المؤلف: حدثني والدي أن هذه المجاعة (ص450) أتت سنة اثنين وأربعين وثمانمائة[1]، وأن سوم القمح انتهى إلى صاع ونصف بدينار.

ومن كراماته المأثورة أني كنت عنده يومًا فأتاه متظلم يستغيث به في فكاك ولده من أنياب بعض العمال فبعث سيد أحمد رسوله إلى ذلك العامل، فلم يستطع الوصول إليه وغاب ساعة، ثم رجع وقال له: يا سيدي أحمد هذا العامل قد أمر بغلق بابه عن الناس كلهم خشية أن يشفع له أحد في هذا الولد، فقال سيدي أحمد: هذا من ضعف إيماننا فلو كان الناس يقصدون بحوائجهم مولاهم ما أغلق أبوابه دونهم، فبينما نحن جلوس عنده وإذا برجل يدق الباب

(1) الموافق (1438 - 1439 م).

ففتح له، فدخل ابن الرجل فسر به أبوه وقال له بعض الحاضرين (ص451): ما سبب إطلاقك، فقال له: خرجت في جملة من أهل السجن أمر بإطلاقهم فما تعرض لي أحد، فعلمنا أن ذلك بهمة الشيخ واعتنائه وصدق نيته في قوله: ولو كان الناس يقصدون بحوائجهم مولاهم، رحمة الله على تاج الدين ابن عطاء الله حيث قال:

شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله — عجز أقام بحامليه على الشفا

فاسترزق الله الذي إحسانه — عم البرية منه وتعطفا

والجأ إليه تجده فيما ترتجي — لا تعد عن أبوابه متحرفا

(ص452) قلت: وهذا ينظر لقول الزاهد أبي بكر بن قسوم:

طلب الرزق من مليك كريم" — يسمع الصوت إن شكوت إليه

لا وزير له يصدك عنه — لا ولا حاجب فيوشي عليه

نزه النفس عن سواه وصنها — إنما الأمر كله بيديه

وحدث السمعاني في ترجمة سعد الله بن محمد البزاز، عن عطاء قال لي طاوس: يا عطاء، لا تنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه، وجعل عليها حجابه، ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تدعوه وضمن لك الإجابة.

ومن مرويات القاضي أبي نصر حفيد سيدي عبد القادر عن شيوخه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من ولاه الله من أمر (ص453) المسلمين شيئًا، فاحتجب عنه حاجتهم وخلتهم وفاقتهم، احتجبَ الله - عز وجل - دون حاجته وخلته وفاقته».

تنبيه:

قول الشيخ - رحمه الله - : «لو كان الناس يقصدون بحوائجهم مولاهم ما أغلق أبوابه دونهم» ينظر إليه قول بعض الأكابر في شرح قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، قال: يعني - والله أعلم - اصرفوا وجوه الناس إلى الله - عز وجل - في الرغبة إليه، وردوهم في طلب الحوائج منه ودلوهم في كل أحوالهم عليه، فإن اليُسر كله عند الله، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

قال: ومعنى قوله - عليه السلام - : «ولا تعسروا»، أي: لا تردوهم إلى الناس في طلب ما يحتاجون إليه، فإنهم في الحاجة كأنتم (ص454) فإنهم يتجاوزون شيئًا بينهم كان يريده لنفسه، ومن كراماته أن الزوار كانوا يأتونه من الأفاق حتى من بلد العجم، شاهدنا رجالاً من العجم أتوه وكانوا لا يخرجون من الجامع الأعظم ولا يأتون الشيخ نهارًا، وإنما كانوا يجتمعونَ معه - والله أعلم - في الليل حين دخول الشيخ لقيام الليل بالجامع الأعظم، فإنه كان من عاداته إذا هدأت العيون خرج من بويته ودخل، أتاه من الجامع فلا يزال قائمًا به إلى طلوع الفجر، وكان بعض من أتاه من هؤلاء الأعاجم يكثر من ذكر لا إله إلا الله بصوت مرتفع، وكان ذا صوت جهير، فكان بعض المتفقة ينكر ذلك عليه، ويأمر من يعدله (ص455) فيه فلا يلتفت إليهم الرجل العجمي، فكنت مرة عند الشيخ بين المغرب والعشاء، وكثيرًا ما كنت أقصده في ذلك الوقت فسمعنا ضجة في الجامع الأعظم فخرجت لأختبر علم ذلك فوجدت جماعة من العوام قد وقفوا على الرجل العجمي يكلمونه في أن يخفض صوته بذكره، ولا يرفعه وهو على حاله غير مكترث بهم، ولا رافع رأسه إليهم، وقد دخل قلبي بعد الإنكار عليه إلا أني لم أجسر على ما جسر عليه أولئك، فرجعت إلى الشيخ

وأخبرته الخبر وظني أنه يصوب فعلهم به، وإذا به قال لي بقوة: غضب الماء إذا كان فيه العلق لا يشب منه، فحينئذٍ علمت أن ذلك الرجل من أهل الله، وإنما بان لنا هذا كله بعد (ص456) وفاة الشيخ وانقطاع الواردين من العجم وغيرهم.

ترجمة الشيخ العبدوسي

وكان سيدي أحمد يذكر كثيرًا من محاسن أشياخه ويطيل الثناء عليهم والدعاء لهم، وكان يقول: ما رأيتُ أحفظ من الشيخ سيدي أبي القاسم العبدوسي، ولا أعظم هيبة من مجلسه، ولا أنفع من وعظه.

قال: وسمعتُ جماعة من الأعلام الذين لقيتهم بتونس وبغيرها من البلاد الشرقية يقولون: ما رأينا أحفظ من سيدي أبي القاسم العبدوسي.

قلت: وهذا السيد العبدوسي كان من أكابر الأولياء وأعيان الزهاد في وقته، ممن جمع الله له العلم والعمل، وضرب بكمال سؤدده المثل، ولم أقف له في هذا (ص457) الوقت على ما تكمل به ترجمته، فأفرده بالذكر، وإنما وقع إليّ طرفٌ من أخباره التي يتشرف هذا المجموع بذكرها، وتهتز أنفس الأفاضل إليها.

قرأت بخط من أثق به أنه كان يدعى بخادم سنة رسول الله ﷺ، قال: وكان حافظًا لسيرته ﷺ ومغازيه وأيامه، يذكر ذلك في كثير من مجالسه، ثم يتبعه بذكره وزرائه وأزواجه، وأولاده، وسراريه، ومؤذنيه، وأمرائه، ومواليه وحراسه. ثم يستطرد الكلام إلى ذكر خيله وإبله، وسلاحه وبغاله، وحماره وثيابه وفراشه، وراياته (ص458) وأوانيه، وجميع أحواله ﷺ. قال: ولا يترك شيئًا من صفته وكريم أخلاقه وخصائصه ويسرد ذلك في مجلسه كأنه يمليه من كتاب، ثم يختم ذلك بدعاء يقول في بعضه: اللهم لا تجمع علينا حرمان النظر إلى وجهه ﷺ في الدنيا والآخرة، يا أرحم الراحمين.

ورأيتُ النقل عن الشيخ سيدي محمد بن مرزوق أنه كان يقول سيدي أبو القاسم حافظ المغرب في وقته، وإمام الدنيا؛ لأن الله تعالى قد أجرى عادته في علماء الإسلام أن يُبارك لأحدهم في قراءته ولآخر في إلقائه وتفهيمه، ولآخر في نسخه وجمعه وعبادته.

(ص459) وحدثوا عن سيدي عمر الرجراجي وكان من أساتيذ وقته وحافظ زمانه أنه قيل له: كيف تحضر مجلس العبدوسي، وهو ولد صغير وأنت أنت. فقال لهم: إن الله تعالى قد جعل معه بركة فما أنظر أنا في شهر، أسمعه من العبدوسي في مجلس واحد.

وحدث بعض من قيد عنه قال: سمعت عنه، قال: سمعت أبا القاسم يقول: قرأت البخاري في حصار فاس الجديد في يوم واحد ابتدأته بعد آذان الفجر، وختمته بعد العتمة بقليل، قلت: كان سيدي أبو القاسم ممن فتح عليه في حفظ البخاري والقيام عليه نسخًا وفهمًا وقراءةً.

رأيت في بعض التقاليد أنه نسخ منه ثمان نسخ (ص460) وربما جعل أكثرها في سفر واحد، ونسخ أيضًا من مسلم سبع نسخ، وأما غيرهما من كتب الحديث والفقه فنسخ من ذلك ما لا يأتي عليه العد والإحصاء، وخصوصًا شمائل النبي ﷺ، وكتاب الشفا لعياض، فإنه نسخ منها كثيرًا، وهذا من أعظم الكرامات.

ومن كراماته: ما حدثني والدي عن بعض الشيوخ، قال: لما ارتحل سيدي أبو القاسم العبدوسي من مدينة فاس، ونزل مدينة تونس وأقام في سوق الوعظ والتذكير وأظهر معالم التفسير وشرح الحديث، أقبل الله بوجوه عباده إليه فكانت الصدقات والنذور ترد عليه، ويفرق ذلك على المحاويج وأهل العلم، فكثر القول فيه وتحدث الناس بغرائب أحواله.

وكان ملك الوقت أمير المؤمنين مولاي أبو فاس يعتني به ويفضله على (ص461) علماء حضرته ويسارع لقضاء حاجته، وقبول شفاعته، ثم إن بعض الحسدة المارقين من الدين الطاعنين على أولياء الله الزاهدين دس للخليفة أن سيدي أبا القاسم يستعمل الكيمياء وحقق عنده ذلك واستدل عليه بكثرة ما يخرج مزيده من الصدقات، والصلاة لطلاب العلم وغيرهم، فبينما سيدي أبو القاسم يومًا في داره إذا بحاجب الخليفة يدق عليه أن قم لأمير المؤمنين فقام إليه وأدخله وليس معه سوى حاجبيه، فقال له سيدي أبي القاسم: ما جاء بك في هذا الوقت؟ فقال له: بلغني أنك وصلت لحقيقة علم الكيمياء وأنك تستعملها فنريد معرفتها، فقال له: نعم.

ثم قام فتوضأ (ص462) ولبس أحسن ثيابه وتطيب وأخذ كتاب البخاري وجعل يقرأه بسكينة ووقار، فبينما هم كذلك وإذا برجل يدق الباب فأذن له فدخل فأعطى للشيخ صرة من الذهب وانصرف، ثم رجع الشيخ لقراءته وإذا برجل كذلك معه صرة من الذهب أو فضة، وثالث ورابع إلى أن اجتمع من ذلك عدة صرر، ثم ختم الشيخ القراءة وصلى على النبي ﷺ، ودعا ثم أقبل على الخليفة، فقال له: هذه الكيمياء التي عند محبكم، فبكى السلطان، فقال له: بارك الله فيك، فيما أتاك وأطال عمرك وأبقاك وجزاك عن الإسلام خيرًا وانصرف عنه على حالة عظيمة من الاغتباط والتعظيم له رحم الله جميعهم.

(ص463) قالوا: كان سيدي أبو القاسم يحض كثيرًا على الصدقة، ويحرص عليها، ويذكر بفوائدها قبول التوبة، قال: روي أنه كان رجل فيمن كان قبلنا قتل تسع وتسعين نفسًا، ثم أراد أن يتوب، فقال لأعلم أهل زمانه: هل لي من توبة؟ فقال: لا توبة لك، وقنطه من رحمة الله، فقتله، ثم ندم وقصد عالمًا آخر، فقال له: هل يقبل الله التوبة مني؟ فقال له: لا أدري، ولكن العلامة

على قبول توبتك هذه العصا، وكان له دهر طويل من حين قطعت ويبست، فإن اخضرت هذه العصاة، وأورقت في يدك فقد قبل الله توبتك، وكان هذا استبعاد من العالم في قبول توبته، فأخذ الرجل العكاز في يده وانصرف، فلما كان (ص464) في وقت عيد الأضحى خرج الرجل ليشتري أضحيته فاشترى كبشًا، وأتى به فلمّا كان ببعض أزقة المدينة انفلت الكبش من يده، ودخل دار امرأة لا زوج لها ولها أولاد أيتام فقراء، وكان الأولاد يقولون لأمهم: أين كبشنا، فإن جيراننا قد أدخلوا كبشًا، فتصبرهم وتقول لهم: الساعة يجيء، فبينما هم كذلك، وإذا بالكبش قد دخل عليهم، فقاموا إليه وفرحوا به، وداروا عليه، ثم قام الرجل صاحب الكبش يضرب على الباب، فوقفت إليه المرأة، فقال لها: كبشي هنا، قالت: نعم، ولكن هنا أولاد أيتام وقد أحدقوا به، وقالوا: هذا كبشنا، فانصرف في هذا الوقت حتى ينام الصبية، وأمكنك منه.

فقال لها: (ص465) لا أفعل، فقالت له: وأنا لا أكسر قلوبهم، فادخل واحمل مالك، قال: فدخل وترك العكاز على باب الدار فوجد الأولاد دائرين بالكبش فرحمهم، ثم قال للمرأة: احلفي لي أن أباهم ما ترك لهم شيئًا، فحلفت له، قال: فأخذ دراهم كانت معه أعطاها لهم، وترك الكبش صدقة لوجه الله وخرج فوجد عكازه قد اخضر، فعلم أن الله تعالى قد قبل توبته، وأناله رحمته.

قال صاحب التفسير: فإذا وصل سيدي أبو القاسم لآخر هذه الحكاية بكى وسأل الله التوبة، فيقع في أهل مجلسه من البكاء والتضرع والانكسار والتواجد ما يعلمه الله، قال: وكان سيدي أبو القاسم يسند في مجلسه عن شيوخه بالسند المتصل عن النبي ﷺ (ص466) أنه قال: «أنا مدينة اليقين، وأبو بكر بابها، وأنا مدينة الشجاعة وعمر بابها، وأنا مدينة الحياء وعثمان بابها، وأنا مدينة العلوم

وعلي بابها».

قال: وكان يقول أرجا آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6 - 8].

وكان سيدي أبو القاسم معروفًا بكثرة الصلاة على النبي ﷺ في مجالس إقرائه مواظبًا عليها متحققًا بفوائدها، فلما توفي في ذي الحجة عام سبعة وثلاثين وثمانمائة[1]، رثيت له مراثي حسنة تدل على فضل الصلاة على النبي ﷺ.

حدثوا (ص467) عن الفاضل سيدي الشرف المشامري قال: حدثتني الخيرة العابدة عائشة الصوفية، قالت: رأيتُ الشيخ العبدوسي في المنام بعد وفاته، فكان مما قال لي: يا عائشة، قل لهم يُكثرون من الصلاة على سيدنا مولانا محمد ﷺ.

أنا مشيت، قال المعقيد: حدثني بعض الصالحين، قال: رأيتُ سيدي أبا القاسم بعد وفاته فقلت له: كيف أنت يا سيدي، وما لقيت؟ قال: خيرًا لما وضعتموني في قبري وسويتم علي لحدي وانصرفتم عني، جاءني رسول الله وعانقني، وقال لي: مرحبًا بمن (ص468) كان يُصلي علي صلاة لم يصلها علي غيره.

---

(1) الموافق لـ(9 جويلية - 6 أوت 1434).

ترجمة الحاج موسى

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - يفخر بخدمته لسيدي موسى البطيوي وأخذه عنه. ويحدثنا عنه بعجائب الكرامات ويقول: كان سيدي موسى مجاب الدعوة، وإذا غضب انتقم الله له في الوقت، وإذا أحب أمرًا يسره الله له كما يُحب، وقال لنا: كان سيدي الحاج موسى يواصل ويبلغ في وصاله إلى أربعين يومًا، ثم رجع عن ذلك إلى عادة أهل منزله، فقال له بعض أصحابنا: يا سيدي موسى هلا دمت على الوصال فإنها حالة شريفة. قال: فقال له سيدي موسى: هذا المقام رسول الله ﷺ أولى به.

قلت: يشرح لك هذا ما حدث (ص469) به الأستاذ أبو القاسم في كتابه الرسالة، عن أبي يزيد البسطامي، قال: لقد هممت أن أسأل الله أن يكفيني مؤونة الأكل، ومؤونة النساء، ثم بدا لي فقلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ فتركتُ سؤال ذلك، ثم أن الله سبحانه كفاني مؤونة النساء، حتى لا أبالي أن استقبلتني امرأة أو جدار.

ومِمّا حدث به سيدي أحمد من كرامات سيدي الحاج موسى - رحمه الله - قال: أن بطيوة وطنه كان يتولى عمالتها رجال من بني مرين، وكان مسرفًا على نفسه متهاونًا بمظالم الخلق، فسجن يومًا رجلاً من أصحاب سيدي الحاج موسى أو من ذوي رحمه، فلما وصل خبر سجنه لسيدي الحاج موسى أمر أصحابه (ص470) أن يذهبوا إلى السجن ويخرجوا جميع من كان فيه فأنى الخبر للمريني العامل فركب في جماعة من أصحابه وأتى لمنزل الشيخ وهو بحال غضب شديد، فلمّا وقعت عينه على الشيخ قال له: إنما أنت قائم من القيام، وكان بينه وبين الشيخ أصل شجرة من اللوز، فقال له الشيخ: يا إبليس بن إبليس تلك اللوزة بيني وبينك، فلما قرب منها عدا به فرسه فعارضه

أصل اللوزة فاندق الفرس وسقط المريني إلى الأرض، وصار الفرس يتخبط به إلى أن ماتا معًا، وفرج الله عن أهل بطيوة مما كانوا فيه ببركته.

* * *

ترجمة الشيخ الماواسي

وسألتُ سيدي أحمد عن شيخه أحمد الماواسي، فقال لي ما معناه: كان سيدي أحمد الماواسي من أكابر أولياء الله المنقطعين (ص471) لخدمته الصادقين في عبادته، قال: حضرت درسه للعربية وعلوم القرآن، والفقه، والحديث وغير ذلك من العلوم.

قال: وجالسته في خلواته كثيرًا، واستفدت منه ونفعني الله بصحبته، وما رأيتُ منذ عقلت أورع منه ولا أزهد.

قال: ولما توفي والده الفقيه القاضي الصدر الكبير خرج ولده سيدي أحمد فارًا بنفسه مفارقًا لوطنه وأهل مسلمًا إخوته في جميع ما تركه والده، وحدثني عنه بكثير من الكرامات منها: أن الطعام المشتبه إذا أكله لا يقر بمعدته، بل يرده لوقته، ويخرج لفوره غير متغير.

ومنها: أنه نزل بساحل موضعًا مخوفًا طالما نزله العدو، وأسر فيه المسلمين وصار من الثغور (ص472) مخوفة، فلما نزل به سيدي أحمد الماواسي واستقر به سكناه بنية حراسة المسلمين حفظ الله ذلك الموضع من العدو، وقطعهم عنه ببركته وصار الموضع مقصودًا وبالأمان والبركة مذكورًا.

وقد كان قبل ذلك مخوفًا مهجورًا، قال لي: ومن كراماته أني كنت عنده في بعض المجاعات فاحتاج أهل داره للقوت، واشتد بهم ألم الجوع والطعام قليل لا يوجد. فسأل الله تعالى قائلاً: «يا رب أنا أرضى بفعلك مستطيع لما قدرت به وأردته بفضلك وجودك، وهؤلاء الأطفال لا يطيقون ذلك، فقد

مسهم الضر وأنت أرحم الراحمين».

قال: فلم تمض ساعة حتى أتاه رجل من معارفه يحمل من القمح وحملين (ص473) من الحطب. قال: وكنت عنده وقد اشتدت المجاعة وفرغت مخازن الطعام من كل الجهات وطار النوم عن الأولاد من شدة الجوع، فلما كان قرب نصف الليل سمعت وقع حافر دابة وحركة عند باب الدار، فقال لي: قم وأدخل هذا الرزق الذي ساقه الله لنا ببركة هؤلاء الأولاد، قال: ففتحت الباب فوجدت تليس قمح فنظرتُ يمينًا وشمالاً للدابة وصاحبها فما رأيتُ أحدًا، وليس بقرب مكان يظن فيه القمح، فأدخلت التليس وأنا أتعجب من ذلك، ولم يكن عند شيخنا - رحمه الله - كتاب علم ينظر فيه ولا يطالعه، وكان إذا توقف في شيء من الآيات القرآنية بعث إليّ (ص474) أو لغيري فيأتيه بتفسير ابن عطية، ويقرأ عليه المحل منه، فإن وجد شفاء في المسألة اقتصر عليه، وإلا أشار لتفسير الزمخشري، وما كان عندك كان عنده سوى مصحف كامل من القرآن لا أدري هل كان ينظر فيه في خلواته أم لا، وحدثنا مشايخنا أن النظر في المصحف مما يقوي البصر، أنشد الخطيب أبو عبد الله بن رشيد في رحلته للأستاذ أبي بكر سحنون:

أربعة تزيد في نور البصر ... إذ أرنا فيها وتابع النظر

المصحف المتلو بالآي الكبر ... والماء والوجه الجميل والخضر

ورأيت في بعض كتب التعريف: أن مما جرب في تقوية البصر، قال: حدثني أحد الفضلاء ممن أخذت عنه قال: ممن (ص475) سمع المؤذن لنداء الجمعة، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وجر يده على عينه اليمنى وتشهد، وقال: حبيبي نور عيني محمد بن عبد الله، فإذا قال المؤذن أشهد أن محمد رسول الله، قال كقوله، وجر يده على عينه اليسرى، وقال: حبيبي نور عيني

محمد بن عبد الله قوي بصره، وبورك له فيه، قال: ولقد كنت أرى الشيخ يستعمل هذه الحالة في الجماعات فمتع ببصره لوفاته.

ومن جميل مناقب سيدي أحمد - رحمه الله - ، وكريم أثره، أنه كان ينزل الناس منازلهم، ويميز بين أقدارهم فإذا أتاه بعض أهل العلم والصلاح وأحد من أولاد الخلفاء أقبل عليه وتبسم له وفاتحه بالكلام (ص476)، وأبان قدره وقدم له محضرًا من الطعام عملاً بما في الحديث عنه ﷺ أنه لما وفد على رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي أكرمه وبسط له رداءه، وعممه بيده، وقال: «إذا أتاكم عزيز قوم فأكرموه».

وعن عائشة - رضي الله عنها - ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم».

وكان إذا أتاه مولانا السلطان أيده الله وأعلى يده ينبسط معه في القول، ويبتهج به سرورًا ويظهر الاعتناء به، والتحفي بشأنه، فإذا قضى حاجته من الزيارة وخرج من الزيارة يقول سيدي أحمد لمن حضر مثل هذا العقل الذي خص الله به هذا الشاب المبارك يصلح (ص477) للخلافة وكلام هذا معناه، سمعته منه وبلغني عنه مرات عديدة، وكأنه كوشف بولايته خلافة الأمة وإقامته قسطًا من العدل في الرعية أدام الله للإسلام دولته وأيد نصره وأعلى كلمته.

وأما الشرفاء من أهل البيت الكريم على مشرفهم وعليهم أفضل الصلاة وأكمل التسليم، فقد كان معروفًا بمحبتهم مظهرًا لتعظيمهم، مبالغًا في إجلالهم وتكريمهم، منبهًا على ما لهم من مزية تقديم، وإذا أتاه أحد من الشرفاء أقبل عليه، وهش له وأبان منزلته، وقدم على سائر حاجته، وأرشد الحاضرين عنده من أصناف الناس لما لأهل بيت الرسالة من الحق الواجب

(ص478) المتأكد على كافة المسلمين، ويضرب لذلك أمثالاً على قدر العقول ويقول من تعظيمه - عليه السلام - وتوقيره تعظيم أهل بيته؛ لأن حرمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًا، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

حضرت عنده يومًا وأتاه رجل يشتكي بأحد الشرفاء جاف له على مرتبه في الحبس، فقال له الشيخ: اجعله في حل فامتنعَ الرجل عن ذلك وقال له: يا سيدي كيف أترك مرتبي، وأنا بحاجة إليه والله لا أتركه له ولا أجعله في حل منه أبدًا. فقال له: أنا ما قلت لك إلا ما ينفعك، كيف لا تجعله في حل ونحن غدًا إذا وقفنا بين يدي الله ما نرجو وسيلة عند الله سوى شفاعة جده (ص479) - عليه السلام - .

فإذا كنتم ممن يرجو شفاعة جده فكيف يسوغ لك أن تطالب من ينتسب إليه، أما إن كنت فأنت أعرف أي إن كنت ممن لا يرجون شفاعة، وسكت الشيخ عنه وظهر في وجهه الغضب وانصرف الرجل غير راض بكلام الشيخ، ثم أداه التنافس وعدم الانقياد للحق إلى أن صار له بعض الطعن على الشيخ وأصحابه نعوذ بالله من ذلك، وقد ابتلي به في دينه، ثم في جسده بالبلايا ظاهرة وخفية، نسأل الله العافية.

ورحم الله شيخنا سيدي أحمد ما كان أقواه بالحق وأنصحه للأمة. روينا في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة، لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم».

(ص480) قال أئمتنا: النصيحة لعامة المسلمين هي إرادة الخير لهم، ومن إرادة الخير لهم إرشادهم إلى معرفة ما يجب عليهم من تعظيم النبي ﷺ وتوقيره. فإجلال أهل بيته وإكرامهم إجلال له ﷺ؛ لأن حرمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًا.

قال القاضي أبو الفضل في كتابه الشفاء: ومن توقيره ﷺ وبره وبر آله وذريته وأزواجه أمهات المؤمنين.

وأسند عن زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله في أهل بيتي.. ثلاثًا». قال راوي الحديث: قلنا لزيد: من أهل بيته ﷺ؟ قال: آل علي وآل جعفر، وآل العباس رضي الله عليهم جميعهم.

(ص481) كنت عند الشيخ - رحمه الله - يومًا وقد أتاه جماعة من الشرفاء الكائنين بوطن مغراوة من بلاد الشلف يشكون جور عامل وطنهم، وأنه تنقصهم وأهاليهم وسواهم على غيرهم من الرعية فاشتد غضب الشيخ لذلك، ثم بعث للخليفة مولانا أمير المؤمنين المرحوم بفضل رب العالمين قدس الله تربته، وأسمى في الدار الآخرة رتبته، وطلب منه في أن يكتب للعامل بتأكيده عن الشرفاء، فلما وصله رسول الشيخ سمع مقالته، قال له: قل لسيدي أحمد إني قد عزلت هذا العامل عقوبة له على إهانته للشرفاء، وسأتقدم لمن يلي هذا العامل بتأكيد الوصية عليهم في تعظيمهم واحترامهم فسر الشيخ بذلك كثيرًا ودعا لمولانا بالرحمة لما ينفعه الله به.

ثم (ص482) إن الشيخ - رحمه الله - أمر من أتاه بسفر من الزمخشري في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وبعد الفراغ من القراءة أمر بجعل الشأن في ذلك المحل، وبعث بسفر لمولانا - رحمه الله - ليقف على ما أعد الله من ثواب لمن أكرم آل النبي ﷺ، فإن مولانا - رحمه الله - كان من ذوي البصائر في محبة النبي ﷺ، وحب الصلاة عليه والاعتناء بأهل بيته الكريم، له في ذلك أخبار مأثورة ومقامات مشهورة أورثت له الذكر الجميل بنيته الصالحة، وستكون في ميزانه بفضل الله من الحسنات الراجحة، وما أحسن قول القائل: (ص483)

يـا أهـل رسـول الله حـبكم فـرض مـن الله في القرآن أنزله
يكفـيكم مـن عظيم الفخر أنكم مـن لم يصل عليكم لا صلاة له

ولنذكر طرفًا من تلك الأحاديث رغبة في الثواب وتتميمًا لفوائد الكتاب؛ لأنه في أخبار الصالحين الذين تنزل عند ذكرهم البركات، وآل البيت الكريم من أصل طينتهم ابتدئ الصلاح، وبهديهم القويم عرف طريق الفلاح، قال الزمخشري: روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قيل: يا رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا محبتهم؟ قال: «علي، وفاطمة، وابناهما».

هذا الحديث رواه أبو القاسم الطبراني في معجمه بسند صحيح (ص484)، وأخرجه الواقدي في تفسيره، قال: ويدل عليه ما روي عن علي - رضي الله عنه - قال: «شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي، فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسين والحسن، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا»».

وعن النبي ﷺ: «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وأذاني في عترتي، ومن اصطنع صنيعة إلى أحدٍ من ولد عبد المطلب، ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها إذا لقيني يوم القيامة».

ومن الحديث المروي في فضائل أهل البيت ما أخرجه صاحب فوائد الأخبار عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ (ص485): «معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب». وفي كتاب الأمثال المروية عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح، من دخلها نجا، ومن تخلف عنها غرق».

وأسند أبو نعيم عن رجاله في ترجمة كل الأخبار قال: أخذ كعب بيد العباس بن عبد المطلب وقال له: يا عباس ادَّخر لي شفاعة عندك تشفع لي بها يوم القيامة، فقال له العباس: وهل لي من شفاعة يا كعب؟ قال: نعم يا أبا الفضل، فإنه ليس أحد من أهل بيت نبي إلا كانت له شفاعة يوم القيامة.

وأنشد القاضي العلامة سيدي أبو عبد (ص486) الله المقري فيما قرأته بخطه، للولي الزاهد أبي الحسن الحراني:

مثل لآل المصطفى مشتظرف ... بير معطلة وقصر مشرف

فالقصر مجدهم الذي لا يرتقي ... والبير علمهم الذي لا ينزف

تنبيه:

وعلى الأفاضل الشرفاء لسائر الناس حقوق يجب عليهم الوفاء بها، والتخلق بآدابها منها: أن يعاشروا الناس بالمعروف ويتحملوا إذاية الخلق، ويجودوا عليهم بفضل أموالهم، ويتواضعوا لهم، ولا يحملهم نسبهم الشريف على العجب والكبرياء والاستطالة. وفي الحديث عنه ﷺ: (ص487)«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

قال أئمتنا: معناه أن من لم يتصف بالعمل الصالح والأخلاق الحسنة فنسبه لا يرفعه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. أنشدني شيخنا أبو عبد الله بن العباس، وقرأته في طبقات[1]:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على الحسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب

---

(1) كلمة غير مقروءة في الهامش.

*** ذكر وفاة سيدي أحمد – رحمه الله – :**

كانت وفاته بعد رمضان في ثالث عشر شوال من سنة أربع وسبعين وثمانمائة[1]، حدث أبو نعيم بسنده عن (ص488) أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن وافق موته عند انقضاء رمضان دخل الجنة، ومن وافق موته عند انقضاء صدقة دخل الجنة».

ومن كراماته على الحق – سبحانه وتعالى – أن جمع له أجر شهيدين من الشهداء الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة؛ لأنه مات غريبًا عن أهله ووطنه، وفي الحديث عنه ﷺ: «موت الغريب شهادة». خرجه الدارقطني عن طريق ابن عباس، وروى أبو بكر الخرائطي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات غريبًا مات شهيدًا».

وكان مرضه (ص489) الذي لازمه إلى أن مات الزرب وهو الإسهال، أقام به مدة أيام. وفي كتاب السنن لأبي عبد الله النسائي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهادة سبعة سوى القتيل في سبيل الله، المطعون وهو الذي يموت في زمن الطاعون، والمبطون وهو الذي يموت من علة البطن، إما بالإسهال كمرض الشيخ – رحمه الله – ، وإما بالاستسقاء المتولد عن داء البطن، والحرق وهو الذي أصابته نار فاحترق فمات من ذلك، والغريق يعني في بحر أو غيره، وصاحب ذات الجنب والذي يموت تحت الهدم والمرأة تموت من النفاس سواء ألقت ولدها وماتت، أو ماتت وهو في بطنها»

وكان يوم وفاته من الأيام المشهورة (ص490) ومفاخر الفقراء المعهودة حضرها مولانا السلطان في أكابر دولته، وأسف لفقده وأثنى عليه خيرًا وقال:

---

(1) الموافق (15 أبريل 1470م).

ما رأيتُ مثل سيدي أحمد، وأما أهل البلد فما تخلف منهم أحد كأنه مات أبوهم الشفيق عليهم الرفيق بهم - رحمه الله - ورضي عنه ونفعنا بحبه وصالح دعاءه.

وكان مع ما به من ضعف وشدة المرض يجدد التوبة ويكثر الاستغفار ويدعو لنا ولأصحابنا الحاضرية بما أرجو قبوله، وفي الحديث: «من لزم باب التوبة قبلت منه، ومن أكثر من الاستغفار غفر له».

وحدث الخولاني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «من رزق ستًا لم يحرم:

من رزق الشكر، لم يحرم الزيادة، قال (ص491) الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾.

ومن رزق الصبر لم يحرم الثواب. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

ومن رزق التوبة لم يحرم القبول، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى: 25].

ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: 10].

ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: 60].

ومن رزق النفقة لم يحرم الخلف، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبإ: 39]».

ولو رأيت يوم دفنه تزاحم الناس على نعشه يمسحونه بأثوابهم ويلمسونه بأكفهم لغبطت حال أولياء (ص492) الله، وعلمت ما لهم من المكانة عند الله.

وفي مثله أنشد بعض الفضلاء - رحمهم الله تعالى - :

إن بـــان منزلـــه وشـــط مـــزاره	قامـــت مقـــام عـــيانه أخـــباره
هـــذا عميد المسلمين ومن جرى	مـــثلاً شـــرودًا زهـــده ووقاره
قـــصدته عاديـــة الزمان فأنضدت	نـــبذًا لأبـــت من أن تقال عثاره
يـــا كافـــل الأيـــتام يدفع عنهم	بـــنداه جـــور الدهر أم أضراره
يا مجزل الصدقات في جنح الدجى	واللـــيل قـــد سـولت له أستاره
يـــا مـــن يوحـــى إليه في خلواته	ضـــاء الدجى وتأرجت أسحاره
تبكـــي عليك معاهد الدين الذي	بكا صاح حي على الفلاح مناره

وأمَّا محل دفن سيدي أحمد - رحمه الله - فقد جرب الناس فيه إجابة الدعاء وتعرفوا بركة زياراته في الشدة والرخاء فروضته (ص493) قل أن تخلو من زائر يتلو القرآن ويهدي له الثواب، أو يذكر ويدعو وينتظر منه بلسان الحال الجواب كأنه شاهد لنجواه، أو من يسمع شكواه ثم لا ينصرف عنه إلا قوي الرجاء في إجابة دعائه، وكشف بلائه.

وفي الحديث أن ملائكة السماء تبكي على العبد المؤمن إذا مات، أسند ابن المبارك، عن أبي عبيد صاحب سليمان قال: إن العبد المؤمن إذا مات تنادت بقاع الأرض: عبد الله المؤمن مات، قال: فتبكي عليه السماء والأرض، فيقول الرحمن - عز وجل - : «ما يبكيكما على عبدي، فيقولان: يا ربنا، إنه لم يمش على ناحية من الأرض قط إلا وهو يذكرك جل جلالك، وتعالى ملكك وشأنك».

(ص494) وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إذا فنيت أيام الدنيا عن هذا العبد المؤمن بعث الله - عز وجل - إلى نفسه من يتوفاها من ملائكته، قال: فيقول صاحباه الكاتبان اللذان كانا يحفظان عليه عمله: إن هذا العبد كان لنا أخًا وصاحبًا، وقد حان منه اليوم فراق فدعونا نثني على أخينا، فيقولان: جزاك الله عنا خيرًا ورضي عنك وغفر لك، وأدخلك الجنة، فنعم الأخ كنت، ولقد كنت يسير المؤونة جميل (ص495) المعونة، وما كانت خطاياك تمنعنا أن نصعد إلى ربنا تعالى فنسبح بحمده، ونقدس له ونسجد لعظمته، قال: ثم يقول الملك الذي يتولى قبض روحه: اخرج أيها الروح الطيب إلى خير يوم مر عليك نعم ما قدمت لنفسك، اخرج إلى الروح والريحان، وجنات النعيم وربي عليك غير غضبان». ولبعضهم:

لو أمكن الأموات أن ينطقوا فيسمعوكم عظة الناصح

(ص496) لقال كل منهم معلنًا تزودوا من عمل صالح

وفقنا الله وإياكم لطاعته، وجعلنا في الدارين من أهل ولايته، وأنفعنا اللهم بحب هؤلاء الأولياء الذين اصطفيتهم بالمعرفة وخصصتهم بالكرامة، واجعلنا من المتبعين لآثارهم المقتبسين من أنوارهم.

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة، وعلى آله وأصحابه صلاة وسلامًا ندخرهما شفاعة ليوم الحسرة والندامة ووسيلة (ص 497)[1].

* * * *

(1) هنا ينتهي النص، وقد بترت منه بعض الجمل، أو الأسطر لا ندري.

بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع

1) أبهلول (أبو علي بن الحسين بن علي المجاجي): العقد النفيس في بيان علماء وشرفاء غريس (مخطوط في بداية القرن 11هـ ، وأواخر القرن 16م).

2) الأفراني أو اليفريني (محمد الصغير):

أ - صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر م.خ.ع. الرباط د 671.

ب - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ترجمة هوادس إلى الفرنسية عام 1888م، (منشورات أرنست لورركس).

3) الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريد العصر، تحقيق محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى، 3 أجزاء، (تونس 1971 - 1972 - 1973م).

4) ابن أبي أصيبعة (أحمد الخزرجي): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، (بيروت، دار الحياة 1965م).

5) بدوي (عبد الرحمن): مؤلفات ابن خلدون (القاهرة 1962م).

6) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها، 2. أ ج (مدريد 1882 - 1883م) (القاهرة 1962م).

7) بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة فارس (نبيه أمية)، والبعلبكي (منير) ط 2 (بيروت 1974م).

8) بوعزيز (يحيى):

أ - ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوربا ويقظتها، مجلة الأصالة، أعداد: 75، 76، 77، 78، (الجزائر، نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي، فيفري 1980) ص113 - 144).

ب - جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، الأصالة، عدد 19 (الجزائر 7 مارس، أفريل 1974م) ص287 - 301.

ج - أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة (بيروت - دار الغرب الإسلامي 1995م) 2. أج.

د - مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر د.م.ج 1991م) ط 2 (1999).

هـ - مركز بجاية الحضاري، ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوربا، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول (وهران 1414هـ - 1993م) ص1 - 19.

9) التميمي (محمد بن أحمد): كتاب طبقات علماء إفريقيا (الجزائر 1332هـ - 1914م).

10) التنبكتي (أحمد بابا): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة 1315 - 1923م).

11) التنسي (محمد بن عبد الجليل): نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان، ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان (مخطوط).

12) التيجاني (أبو زيد عبد الرحمن): عقد الجمان، النفيس في ذكر العيان من أشراف غريس (مخطوط)، وهو رجز شرحه تلميذه محمد الجوزي بعنوان: فتح الرحمن في شرح عقد الجمان.

13) الجيلاني (عبد الرحمن): تاريخ الجزائر العام (الجزائر 1998) ط4، أ.ج.

14) ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ط1 (حيدر أباد 1448هـ)، ط2 تحقيق محمد عبد الحق (القاهرة - 1996م).

15) حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (اسطنبول 1951 - 1943م) 2 أ. ج (طهران 1967م - 1387هجري).

16) ابن حواء (الشيخ محمد): سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان (مخطوط).
17) الحميري (أبو عبد الله محمد): الروض المعطار، (القاهرة 1938م).
18) ابن خلكان (شمس الدين): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة 1938م) 6 أ. ج، ط2 تحقيق إحسان عباس (بيروت 1971م).
19) الخشني (أبو عبد الله محمد): قضاة قرطبة وعلماء أفريقيا (القاهرة 1372 - الجزائر 1914م).
20) ابن خلدون (عبد الرحمن):
أ - كتاب العبر، ج 7 (بيروت 1971م).
ب - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، تحقيق وتعليق ابن تاويت (محمد الطنجي) (القاهرة 1951م).
21) ابن خلدون (يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بين بني عبد الواد، نشر ألفريد بل. 2 أج. (الجزائر، ج 1، 1904، ج2 1913م)، ط2 ج1، تعريب وتحقيق عبد الحميد حاجيات (الجزائر 1890م).
22) ابن أبي دينار (محمد القيرواني): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شماخ (تونس 1967م).
23) الزركشي (محمد بن إبراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط2، تحقيق محمد ماضور (تونس 1966م).
24) الزركلي (خير الدين): الأعلام (القاهرة 1954 - 1955م) 10 أجزاء.
25) ابن الزيات (يوسف التادلي): التشوف إلى معرفة رجال تصوف، نشر أدولف فور (الرباط 1985م).
26) الزياني (محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البو عبدلي (الجزائر 1978م).
27) السخاوي (محمد): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة 1354 - 1355هـ) 12 أج، ط 2 (بيروت بدون تاريخ) 12 ج.
28) سعد الله (د. أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، 2 أج (الجزائر 1982م).
29) ابن صعد (التلمساني): روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين (مخطوط) عندنا حققنا وقدمناه للطبع، بدار الغرب الإسلامي.
30) أبو العرب (محمد القيرواني): طبقات علماء إفريقيا وتونس، تحقيق علي الشابي، وزميله (تونس 1968م).
31) عنان (محمد عبد الله): ابن خلدون حياته وتراثه الفكري (القاهرة 1938م).
32) الغبريني (أبو العباس أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر 1971م).
33) ابن عسكر (محمد): دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (الرباط 1397 هـ - 1977م).
34) ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (القاهرة 1954م) 2 أج. ط 2 (1966م).
35) فيشل (ولتر): لقاء ابن خلدون لتيمور لنك، ترجمة توفيق (محمد)، (بيروت بدون تاريخ).
36) القادري (محمد بن الطيب):
أ - نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، (فاس 1310هـ - 1862م).
ب - مستودع المواعظ والعبر في أخبار أعيان أهل المائة الحادية والثانية عشر (مخطوط).
37) ابن القاضي(أحمد الفاسي): جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس(فاس 1309هـ).

38) ابن قنفذ (أحمد الخطيب القسنطيني):

أ - الوفيات: تحقيق هنري بيريز، الجزائر (بدون تاريخ) ط2، تحقيق عادل نويهض(بيروت 1971م).

ب - أنس الفقير وعز الحقير: تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور، (الرباط 1965م).

39) محمد (الأمير): تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، (الإسكندرية 1903م) 2 أج.

40) المحبي (محمد): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (القاهرة 1284هـ - 1867م).

41) ابن مريم (محمد المليتي): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق ابن أبي شنب (الجزائر 1908م).

42) ابن مرزوق (محمد الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق فبغيرا (د. ماريا خيسوس)، (الجزائر 1981م).

43) المزاري (بن عودة إسماعيل): طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، تحقيق بوعزيز (د. يحيى)، 2 أج. (بيروت، 1990م).

44) ابن محرز الوهراني (محمد): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان، ومحمد نغش (القاهرة 1968م).

45) المقري (أحمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق وتعليق إحسان عباس (بيروت 1968م) 8 أج.

46) المغيلي (محمد بن عبد الكريم): أسئلة الأسقياء وأجوبة المغيلي، تحقيق وتقديم. د: عبد القادر زبادية (الجزائر 1974م).

47) الهواري (محمد بن عمر): السهو والتنبيه للفقراء أهل الفضل النبيه، (مخطوط).

48) الورتلاني (الحسين): نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار، المعروفة بالرحلة الورتلانية، تحقيق محمد بن أبي شنب، (الجزائر 1920م).

*** المجلات:**

- **مجلة الأصالة:** (1971 - 1981م).
- **مجلة الثقافة:** (1971 - 1996م).
- **المجلة التاريخية المغربية:** (1974 - 1991م).
- **مجلة المقتبس:** (1906 - 1908م).

*** دوائر المعارف:**

- **دائرة المعارف الإسلامية:** الترجمة الفرنسية (3 مجلدات).
- **دائرة معارف القرن العشرين،** (10 أجزاء).

*** دور المحفوظات:**

- الأرشيف الوطني التونسي، الوزارة الأولى (ملفات المشبوه فيهم).
- المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، حي الحامة.
- الخزانة العامة بالرباط، المملكة المغربية.

سيرة الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز في سطور

ولد الأستاذ يحيى بوعزيز يوم (27 ماي 1929م) بقرية ودائرة الجعافرة، من ولاية برج بوعريريج، وحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ اللغة العربية، والفروض الدينية على والده الشيخ الحاج عبد الرحمن بوعزيز، وشارك تعليم وتحفيظ أبناء القرية للقرآن الكريم، وفي عام (1947) التحق بزاوية الشيخ الحاج حسن الطرابلسي بعنابة، ودرس مختلف العلوم العربية، الفقهية، واللغوية، والأدبية، وفي عام (1949) التحق بالجامعة الزيتونية في تونس، وحصل على شهادة التحصيل (البكالوريا) عام (1956).

وفي خريف (1957) التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وحصل على شهادة الليسانس في التاريخ عام (1962)، وعندما عاد إلى الوطن عام (1962) حصل على الدكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة الجزائر عام (1976). واشتغل خلال إقامته بتونس في ميدان الصحافة في إطار جبهة التحرير الوطني، ونشر عشرات المقالات في الصحف والمجلات التونسية والعربية، ونشر كتابًا عن جهاد الأمير عبد القادر عام (1957م)، وكان عضوًا في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، ورئيس اللجنة الثقافية في تونس والقاهرة.

وفي مصر اشترك في إذاعة حصص من إذاعة صوت العرب، عن كفاح شعب الجزائر، وترأس اللجنة الثقافية، وتحرير مجلة الطالب الجزائري التي كان يصدرها الاتحاد في القاهرة، وعندما عاد إلى الوطن عام (1962م) اشتغل في التدريس، وعين عضوًا في لجنة التأليف المدرسي الوزارية عام (1963) بالعاصمة، وكلف عام (1969) بتأليف كتاب مدرسي في التاريخ الحديث والمعاصر للسنة الأولى ثانوي، وأنجزه مع زميلين آخرين.

وألف كتاب الموجز في تاريخ الجزائر الذي صدر عام (1965م)، ونشر بعد ذلك مائة مقال موثق، وثمانية وعشرين كتابًا عن تاريخ وكفاح وحضارة الجزائر، وله عشرة كتب مخطوطة. واشتغل أستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصر في جامعة السانية بوهران، حتى تقاعد آخر عام (1996م)، وهو عضو مؤسس لاتحاد الكتاب الجزائريين، واتحاد المؤرخين الجزائريين، وشارك في معظم ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر، وفي ملتقيات أخرى خارج الجزائر من ضمنها وليس كلها:

1) ملتقى المستشرقين الألمان الواحد والعشرين في برلين الغربية أواخر شهر أبريل (1980م).

2) الملتقى الدولي الثاني لتاريخ المغرب وحضارته في تونس أواخر نوفمبر (1980م).

3) ملتقى رد فعل تونس من الاحتلال الفرنسي لها عام (1881م) أواخر شهر ماي (1981م) بتونس.

4) ملتقى تاريخ التجارة عبر الصحراء بمدينة طرابلس الليبية ما بين (1 و4 أكتوبر 1979م).

5) ملتقى صيانة جزيرة جربة، ما بين (7، 11 أبريل 1982) بجربة.

6) ملتقى تاريخ العلاقات العربية التركية بطرابلس الغرب ما بين (13، 18 ديسمبر 1982م).

7) الملتقى الدولي الرابع لتاريخ المغرب وحضارته بتونس في فيفري (1992م).

8) ملتقى دور المرأة العربية في حركة الإصلاح النسوية العربية، بمدينة مدنين في ماي (1992م) بتونس.

9) ملتقى التراث والمعاصرة بالجزائر في جويلية (1984م).

10) ملتقى الحركة الوطنية وحروب التحرير بالجزائر (1850 - 1950) في ديسمبر (1984م).

11) الملتقى الدولي عن صدى الثورة الجزائرية في الخارج أواخر نوفمبر (1984م) بالجزائر.

هذا إلى جانب عشرات الملتقيات والندوات التي تعقد على مستوى كل ولايات الجزائر لغاية اليوم آخر عام (2002م) ومئات المقالات والبحوث التي نشرها في الجرائد والمجلات الجزائرية باستمرار وما يزال ينشرها حتى هذه الساعة آخر عام (2002م).

* * *

من كتب المؤلف الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز

أ) الكتب المطبوعة:

1 - الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ط3 (تونس 1983) (366ص)، ط4 (2002م).

2 - الموجز في تاريخ الجزائر، (الجزائر المطبوعات الوطنية 1965) (220ص) ط2، (الجزائر د. م. ج 1999) 2 أجزاء.

3 - تاريخ العالم الحديث من فجر الصناعة إلى الحرب العالمية الثانية، بالاشتراك مع الزميلين أحمد بن الطاهر، وبلعديس بلحاج (الجزائر 1969) (245ص).

4 - ثورة (1871) (دور عائلتي المقراني والحداد)، (الجزائر 1978) (471ص).

5 - ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (الجزائر - قسنطينة 1980)، (550ص)، ط2 (1996م) 2 أجزاء.

6 - مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلة (الجزائر - قسنطينة 1982) (120ص)، ط2 (د.م.ج 1986م).

7 - علاقات الجزائر الخارجية (1500 - 1830)، (الجزائر د.م.ج 1985) (159ص).

8 - التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1954، (الجزائر 1985م) (149ص).

9 - وهران عبر التاريخ (الجزائر 1985) (189ص)، ط2، (دار الغرب، وهران 2002م).

10 - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط (الجزائر 1985) (92ص).

11 - الأيديولوجيات السياسية الحركة الوطنية الجزائرية (1920 - 1954) (178ص).

12 - كفاح الجزائر من خلال الوثائق (الجزائر م.و.ك 1986) (388ص).

13 - الاستعمار الحديث في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات (الجزائر د. م.ج 1986) (135ص).

14 - مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر د.م. ج 1991) (422ص)، ط2، (د.م.ج 1999م).

15) فريدة منسية أو تاريخ قسنطينة (الجزائر د.م.ج 1991)، (186ص).

16) وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز (الجزائر، م.و.ك 1989)

(198ص).

17 - طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، (بيروت دار الغرب الإسلامي 1990) 2 أجزاء، للمزاري (تحقيق).

18 - الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية (الجزائر، د.م.ج، 1991) (142ص).

19 - المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780 - 1798)، (الجزائر د.م.ج 1993) (162ص).

20 - مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشاغا محمد المقراني وثورته (1871)، (الجزائر م.و.ك 1993) (162ص).

21 - أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة (بيروت - دار الغرب الإسلامي - 1995) 2 أجزاء.

22 - سيرة الأمير عبد القادر وجهاده لمصطفى بن التهامي (تحقيق)، (بيروت، دار الغرب الإسلامي 1995) (408ص).

23 - السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، (الجزائر د.م.ج 1995) (326ص).

24 - الاتهامات المتبادلة بين مصالي حاج واللجنة الجزائرية وجبهة التحرير الوطني، (الجزائر - دار هومة 2001م) (205ص).

25 - تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 11 إلى مطلع القرن 20م، (الجزائر - دار هومة 2001م) (427ص).

26 - المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، (الجزائر - عين مليلة 2001م) (146ص).

27 - دائرة الجعافرة تاريخ وحضارة وجهاد، (الجزائر - دار هومة 200م) (455ص).

28 - موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، (الجزائر - دار هومة - عين مليلة 2002م) 3 أجزاء.

* * * *

فهرس الموضوعات

